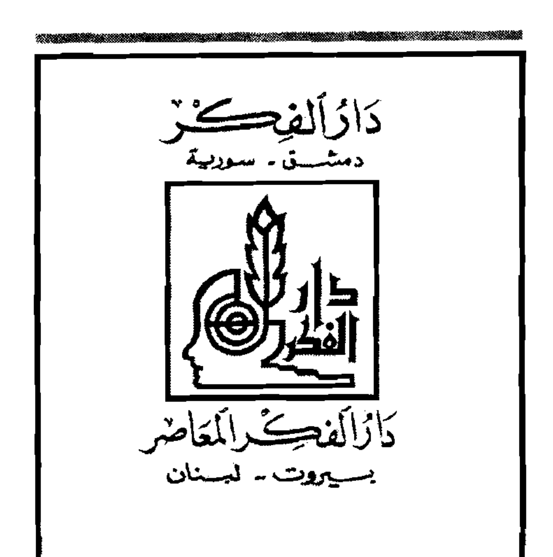
((البِرُّ : حسن الخلق،
والإثْمُ : ماحاك في الصدر،
وكرهت أن يطّلع عليه الناس))
حديث شريف

أ.د. وهبة الزحيلي
رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه
جامعة دمشق - كلية الشريعة

أخلاق المسلم

علاقته بالخالق


دار الفكر
دمشق - سورية
دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

أخلاق المسلم

علاقته بالخالق

أخـلاق المسـلم: علاقتـه بالخـالق / وهبـة الزحيلـي .-
دمشق: دار الفكر،٢٠٠٢.-٦٨٤ص؛ ٢٤سم.

١- ٢١٨,١ ز ح ي أ ٢- العنـوان
٣- الزحيلي
مكتبة الأسد

ع- ٢٠٠٢/٢/٣٣٣

إعادة
١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م

الرقم الاصطلاحي : ١٥١٢,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-975-3
الرقم الموضوعي: ١٧٠
الموضوع: علم الأخلاق
العنوان: أخلاق المسلم- علاقته بالخالق
التأليف: أ. د. وهبة الزحيلي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٦٨٤ صفحة
قياس الصفحة: ١٧ × ٢٥سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com



المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

تقديم

الحمد لله منزل الكتاب هازم الأحزاب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي العربي الهاشمي، الذي أدى الرسالة، وبلّغ الأمانة، ونصح الأُمة، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان، وبعد:

فلقد نظم الإسلام علاقات الإنسان الثلاث: علاقته بنفسه، وعلاقته بربه، وعلاقته بمجتمعه، ولكل علاقة هدفها، والهدف من علاقة الإنسان بنفسه ترويضها وتقويمها حتى أوج الكمال النفسي والخلقي، والهدف من علاقة الإنسان بربه تنمية هذه العلاقة، وتقوية غرسة الإيمان، وحسن التوكل على الله، والاستعانة به، واستمداد كل أنواع الخير منه، والاعتماد عليه وحده في توقي أنواع الشرور، والتخلص من الآفات والملمّات. وتكون التقوى (وهي إطاعة الله في كل ما أمر به أو نهى عنه) سبيلاً لإصلاح هذه العلاقة وبقائها طيبة مباركة، ودافعة لكل عمل صالح دنيوي وأخروي. والهدف من تنظيم علاقة الإنسان بمجتمعه: إيجاد المجتمع الفاضل والفرد الصالح، وإسعاد الجميع، وإصلاح أنماط العلاقة الاجتماعية على أساس من العدل والتوازن، والرحمة والتعاون، والقوة والصلابة لمقاومة الأعداء، وحماية الأمة من ألوان التدخل الأجنبي.

ولا بد لكلٍّ في نوعي العلاقة الأولى والثالثة من الاعتماد على الله تعالى سواء بطلب المدد والعون الإلهي، أو رقابة الله في السر والعلن، ليظل الإنسان متنبّهاً

للمخاطر، مقبلاً على الحسنات، متردداً بين الخوف والرجاء، الخوف من عذاب الله فينزجر، والرجاء والطمع في سعة فضل الله ورحمته، فيقبل من ذاته على الطاعة والعمل الصالح، لأن كل ما فيه نفع خاص أو عام فيه حق لله تعالى، والواجب تحقيق العبودية التامة لله سبحانه في كل شيء.

ومظلة كل نوع من أنواع العلاقات الثلاث تتمثل بالخلق الكريم والأدب الرصين. ولقد قسمت الكلام في (خلق المسلم) جزأين:

الأول – في علاقة الإنسان بربه، **والثاني** – علاقة الإنسان بمجتمعه. وقد ذكرت في الجزء الأول (١٨٨ موضوعاً) تصلح عُدَّة صلبة لتحسين موضوعات الجزء الثاني، وبناء الفرد والجماعة على نحو شامل ومتوازن، ثابت ومتطور، روحيّ ومادي، واقعي ومثالي، يواكب الفطرة النقية، ويحفظ بهاء الإيمان ونضرة النعيم.

إن موضوعات الجزأين كلها نفحات ربانية قدسية، وتوجيهات كريمة، مصدرها آي القرآن الكريم التربوية، وأحاديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، لتكوين المواطن الصالح، والمجتمع الفاضل، وإقامة الدولة الرشيدة، والله يتولى الصالحين.

ومضمون هذا الكتاب: أحاديث إذاعية في مدة ثلاث سنوات من (١٩٩٧-٢٠٠٠م) في إذاعة صوت الشعب السورية، لمدة عشر دقائق، أيام السبت والإثنين والأربعاء، الساعة ٦,١٥ صباحاً، وللأحاديث الإذاعية أهميتها وسحرها ومميزاتها، فهي تمتاز بالتبسيط والوضوح ويُسْر الفهم، وبُعْدها عن التقعر أو التشدد، وملاحظة عموم الخطاب فيها لكل من يسمعها من ملايين الرجال والنساء، المسلمين وغير المسلمين، المحبين لمسائل دينهم أو الكارهين لها، مما يوجب جعلها منطقية عقلية جذابة، متلائمة مع مختلف الطبائع والأمزجة، ومتمشية مع الواقع بقصد إصلاح ما انحرف أو فسد، والترغيب فيما صلح

واستقام، مع تنمية الدوافع والبواعث للامتزاج مع شرعة الله، والحرص على بيان كون الدين لا مصلحة من وجوده إلا إسعاد المجتمع كله، وإصلاح الفرد والجماعة، وتذكير الجميع بالواجبات الإنسانية والحقوق الاجتماعية، سواء في نطاق الأسرة، أو السوق والمعاملات، أو العمل والتجمعات الصغيرة والكبيرة، ولا سيما في المزرعة والمصنع والمتجر والوظيفة وغيرها.

وكل موضوع من مواضيع هذا الكتاب يصلح درساً خاصاً أو عاماً، وخطبة جمعة، في مناسبات عامة أو خاصة، وفي مجتمع الرجال أو النساء. وفيه أيضاً فوائد لغوية كثيرة، وثروة ثقافية وتربوية قويمة.

والموضوعات في الأصل مستقاة من الكتاب النفيس للإمام النووي رحمه الله وهو (رياض الصالحين) الذي اشتمل على قرابة ألفي حديث (١٨٩٨ حديثاً) وهي كلها أحاديث صحيحة أو حسنة، فلا موضوع ولا ضعيف فيها. وكل كتب أو مصنفات النووي، رحمه الله، فيها خير وبركة عظيمة، وتمتاز بحسن الاختيار، وتهدف إلى أغراض نافعة، ومنسجمة مع مختلف الرغبات والأحوال.

ويضاف إليها ما يفتح الله به من إدراكات وملامح، ومقارنة مع الآيات المناسبة لكل مجموعة من الأحاديث ذات الموضوع الواحد، والمتعدد فيه الروايات أو الأحاديث غالباً.

وإني لعلى ثقة بأن من يستوعب مضمون هذا الكتاب، يكاد لا ينقصه شيء من أصول المعلومات والمعارف المباشرة المحققة للخير الكثير.

وخطة الموضوعات تشتمل على مقدمة ممهدة لكل موضوع، مع إيراد الآيات المناسبة له، وجمع الأحاديث الواردة في الموضوع ذاته، ثم تبيان أهم النتائج المستفادة من كل موضوع على حدة، والله مع المحسنين.



- ١ -

الإِخلاص في النِّيّة

تتوقف جميع الأعمال الدينية، والأقوال، والأحوال الظاهرة والخفية على النّية الخالصة لله عز وجل، دون أن يشوبها نفاق أو رياء أو حرص على سمعة أو مباهاة، أو حبُّ ظهور، فإن هذه المقاصد السيئة والمآرب الخبيثة تحبط الأجر والثواب، وتمنع قبول العمل أو القول عند الله عز وجل، وهذا يستدعي أن يحسن المسلم نيته في عمله لله عز وجل وأن يراقب الله تعالى وحده في السر والعلن، فإن صوارف النّية لغير الله تعالى في العمل لا تجدي شيئاً، ولا تحقق نفعاً؛ لأن أمور الخلائق كلها بيد الله القاهر المسيطر، لا بيد أحد من عباد الله العاجزين عن تحقيق أي شيء من غير مراد الله تعالى وتقديره، أو تيسيره وتوفيقه، قال الله تعالى في بيان وجوب إخلاص النّية لله تعالى:

﴿وَما أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البيِّنة ٩٨/٥].

وقال سبحانه في بيان تمحض النّية لله عند ذبح الذبائح وتقديم القربات: ﴿لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلَكِنْ يَنالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج ٢٢/٣٧].

وقال جل جلاله في بيان اطلاعه على جميع خفايا الصدور وظواهر الأمور: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران ٣/٢٩].

تدل الآيات الكريمة على أن الإخلاص لله تعالى في العمل والقول شرط في قبوله؛ لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له، وقد اتفق العلماء على أن النّية شرط في ممارسة الأعمال الدينية، ليترتب الثواب على فعلها، واتفقوا أيضاً على أن محل النّية: القلب، والنّية لغة: القصد، ولا يشترط التلفظ بها. وأما توقف صحة الأعمال على النّية ففيه تفصيل واختلاف لدى العلماء، فيرى فريق كالشافعية أن النّية شرط في الوسائل كالوضوء وفي المقاصد كالصلاة، وتتوقف صحة الأعمال على النّية، ويرى فريق آخر كالحنفية أن النية شرط فقط في المقاصد لا في الوسائل، ولا تتوقف صحة الأعمال في رأيهم على النّية، وإنما المراد توقف كمال الأعمال على النّية.

وعلى كل حال. فإن الشرع الشريف حثّ على نيَّة الخير مطلقاً، في كل عمل وقول وحال، وأن الله تعالى يثيب على النّية، ويجعلها ميزان التفاضل في الأعمال والدرجات الأُخروية، روى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى ا لله ورسوله فهجرته إلى ا لله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**)).

قال الإمام النووي رحمه الله: أراد بها أعمال الطاعات، دون أعمال المباحات، وقال الحارث المحاسبي رحمه الله: الإخلاص لا يدخل في مباح؛ لأنه لا يشتمل على قربة، ولا يؤدي إلى قربة، كرفع البنيان لا لغرض بل لغرض الرعونة، أما إذا كان لغرض كالمساجد والقناطر والأربطة (الثغور)[1] فيكون

(١) والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، أي: أقرب بلاد الإسلام إلى بلاد الأعداء.

مستحبّاً. ثم قال أي النووي: ولا إخلاص في محرم ولا مكروه، كمن ينظر إلى مالا يحل له النظر إليه، ويزعم أنه ينظر إليه ليتفكر في صنع الله تعالى، كالنظر إلى الأمرد، وهذا لا إخلاص فيه، بل ولا قربة البتة. والإخلاص: هو جوهر العبادة، أخرج رَزين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أخلص لله أربعين صباحاً، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)).

وأما الأعمال التي هي من قبيل التروك، أي ترك الشيء، كإزالة النجاسة وردِّ المغصوب والعواري (الأشياء المستعارة) وإيصال الهدية وغير ذلك، فلا تتوقف صحتها على النِّية المصحِّحة، لكن يتوقف الثواب فيها على نيَّة التقرب لله عز وجل. ومن ذلك ما إذا أطعم دابته: إن قصد بإطعامها امتثال أمر الله تعالى، فإنه يثاب، وإن قصد بإطعامها حفظ المالية، فلا ثواب، كما ذكر القرافي.

يتبين من إيراد الآيات وحديث النِّية: أن الله تعالى شدد على ضرورة تمحض النية لله تعالى، وعلى أن الإخلاص في النية أساس قبول الأعمال عند الله سبحانه، فإذا لم يتوافر حسن القصد من العمل، ولم يوجهه الإنسان نحو مرضاة الله ربه، فلا يحقق العمل غايته وهي القبول عند الله تعالى.

ودلَّ حديث: ((إنما الأعمال بالنيات)) على أن صحة الأعمال أو تصحيح الأعمال أو قبول الأعمال أو كمال الأعمال، إنما يكون بالنية. والمراد من قوله ﷺ: ((وإنما لكل امرئ ما نوى)) هو أن تعيين العمل يكون بالنية، كما قال الخطابي، وقال النووي: فائدة هذا: أن تعيين المنوي شرط، كأن ينوي كون صلاة الفائتة ظهراً أو عصراً أو غيرهما.

- ٢ -

تلازم النِّية مع العمل الصالح

إن غاية العباد من عباداتهم وأعمالهم الدينية والحياتية هي مرضـاة الله تعالى، وتحقيق الظفر بثـواب الله، ودخـول جنـان الخلـد في عـالم الآخـرة، وهـذا دليـل واضح على أن النية الطيبة تلازم العمل الطيب الصالح، وأن خلـود الآثـار ودوام السمعة لكل عالم وعامل إنما يتوقف على حسن النية أو القصد، وعلى مصداقيـة الإنسان مع ربِّه ونفسه، وهذا ينعكس في ميدان التدريب والحيـاة المعيشـية علـى كل أعمال الإنسان الدنيوية أيضاً، فـإذا قصـد العـامل في عملـه الدنيـوي تحقيـق مصالح أمته العليا، وأخلص في مسعاه وتوجهه، كتب له القبول في قلوب العباد، وأحيوا ذكره وأشادوا في سمعته على مدى التاريخ والزمان. وبهذا تكون ممارسة العبادات في ظل الإخلاص لله تعالى نبراسـاً ودليـلاً مرشـداً إلى ضـرورة ملازمـة الإخلاص في جميع الأعمال الدنيوية أيضـاً، وهـذا مـا نجـده واضحـاً في السـاحة القرآنية والنبوية عند الحث على الجهاد في سبيل الله، وتحريض المقاتلين على بذل أقصى الجهود، والتحلي بالجرأة والشجاعة الفائقة عند لقاء الأعداء.

قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرام كَمَـنْ آمَـنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ لا يَسْـتَوُونَ عِنْـدَ اللَّـهِ وَاللَّـهُ لا يَهْـدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ﴾ [التوبة ٩/١٩].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة ٩/٢٤].

إن التفاوت بين مرتبة المجاهدين المخلصين، وبين الأعمال الأخرى غير الجهادية عظيم جداً، فبالجهاد تعزّ الأمة، وتعلو كلمتها، وتتعزز قوتها ومنعتها، وتصان حقوقها وهيبتها، ويتحقق الأمن والسلام والاستقرار في المجالين الداخلي والخارجي، وإذا قورن الجهاد بأعمال المعيشة الدنيوية الأخرى، ظهر التمايز والفرق كما بين السماء والأرض.

وأكّدت السُّنة النبوية على ضرورة توافر الإخلاص في الجهاد؛ لأنه ذروة سنام الإسلام، أي أعلاه وأرفعه، فقال رسول الله ﷺ فيما يرويه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: ((**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**)). وأخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)).

وأخرج الشيخان أيضاً عن أبي بكرة نُفَيع بن الحارث الثقفي رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار، قلت: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه)).

دلَّ الحديث الأول: ((إن الله لا ينظر إلى أجسامكم)) على أن الإثابة على الأعمال إنما تكون بما تجسد في القلب من إخلاص وصدق نية؛ لأن جوهر

القبول عند الله يعتمد على حسن النوايا، وطهارة المقاصد، وصدق التوجه نحو الله عز وجل. وتأكد هذا المعنى في الحديث الثاني: ((من قاتل لتكون كلمة الله..)) حيث نصَّ على أن الاعتداد بالأعمال عند الله عز وجل إنما يكون بحسب النّيات الصالحة، وأن فضل المجاهد عند الله سبحانه يظهر حين المقاتلة لإعلاء كلمة الله، كلمة التوحيد والحق والعدل.

ودلَّ حديث: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما)) على استحقاق العقاب وتوقيعه على كل من عزم على المعصية بقلبه، وباشر تنفيذ مأربه، وتعاطى الأسباب التي تؤدي به إلى هدفه الخبيث، سواء تحقق مراده أو لم يتحقق. وهذا تحذير من كل اقتتال داخلي بين المسلمين أنفسهم؛ لأن هذا الاقتتال عدوان محض، يهدر طاقات الأمة، ويزرع بين أبنائها الضغائن والأحقاد، ويعيدهم إلى ثارات الجاهلية وفِتَنِها العمياء، وضلالاتها السوداء.

وفي مجال الموازنة بين القرآن والحديث في موضوع النّية الطيبة يتجلى للناظر حرص القرآن الكريم على تفضيل مرتبة الجهاد وعلو درجة المجاهدين، وأن الجهاد لا يعادله شيء في الدنيا من حب القرابة القريبة، أو العشيرة، وإيثار مفاتن الدنيا من حب الأموال والتجارات والقصور والمساكن المترفة. وتركّز الأحاديث النبوية المذكورة على إيثار صفاء النوايا والمقاصد، والترفع عن أوضار الدنيا ومظاهرها السطحية، كما أنها تحذر من الاقتتال والخصام بين المسلمين أنفسهم، حتى تحفظ قوتهم، وتوجَّه طاقاتهم نحو عدوهم الخارجي الشرس والماكر.

-٣-

النِّيّة والعزم والتنفيذ

من أفضال الله تبارك وتعالى العديدة أنه سبحانه يثيب على النّية الصالحة ولـو لم يعقبها العمل، ولا يعاقب على الهم أو النّيــة الفاسـدة إذا لم تقـترن بـالعمل أو السعي، وذلك حضّ وتحريض علـى فعـل الحسنات وصـلاح الأعمـال، وإبعـادٌ ونأي عن اقتراف السيئات وفساد الأفعال.

ومن الأفضال الإلهية أيضاً أنـه تعـالى لا يجـزي بالحسـنة حسـنة، وإنمـا يجـزي بعشر حسنات إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وأما السيئة فيجزي بهـا سيئة واحدة، وتكون النية التي هي سـر في القلـب لا يطلـع عليهـا إلا الله تعـالى دليلاً على الإخلاص لله سبحانه، والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً. قال الله عـز وجــل مبيناً درجات الحسنات وجزاء السيئات: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَـهُ عَشْـرُ أَمْثالِها[1] وَمَنْ جـاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَـلا يُجْـزَى إِلاّ مِثْلَها وَهُـمْ لا يُظْلَمُـونَ﴾ [الأنعام ٦/١٦٠]، وفي آية أخرى: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِـذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل ٢٧/٨٩].

وفي مـجال تقدير ثـواب الإنفـاق في سبيل الله، قال سبحانه: ﴿مَثَـلُ الَّذِيـنَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُـلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَـةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢/٢٦١].

---

(١) أراد عشر حسنات أمثالها.

هذه نماذج من أفضال ا لله تعالى على عباده، وفضل ا لله كبير جداً، ويوضح الحديث النبوي هذا الفضل الإلهي فيما يرويه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي ا لله عنهما، عن رسول ا لله ﷺ، فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى قال: ((**إن ا لله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها ا لله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها، كتبها ا لله عنده عشر حسنات، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها ا لله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها ا لله سيئة واحدة**)) لأن الهمّ بالحسنة سبب إلى عملها، وسبب الخير خير، ومن عَدَل عن الهمّ بالسيئة كتبت له حسنة؛ لأن رجوعه عن العزم عليها خير، فجوزي في مقابلته بحسنة.

ويؤكده حديث آخر أخرجه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة، وابنُ المنذر ونصه: ((إن ا لله تجاوز لأمتي عما حدَّثت به أنفسها، ما لم تَكَلَّم به أو تعمل)) فبالكلام أو العمل ينتقل الهم أو النِّية الفاسدة إلى مرحلة التنفيذ، وهذا يدل على أن الهامّ بالمعصية إذا تكلَّم بما همَّ به بلسانه، فإنه يعاقب على الهمّ حينئذ؛ لأنه قد عمل بجوارحه (أعضائه) معصية، وهو التكلم باللسان، أو تنفيذ العمل السيِّئ. أما اقتصار الحاصل على مجرد الهمّ أو حديث النفس بما هو ممنوع يغضب ا لله تعالى، فلا مؤاخذة فيه، ولا عقاب، لما خرَّجه مسلم في حديث أبي هريرة: ((إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة)).

وقد يشترك اثنان في الثواب أو العقاب بسبب النِّية، فمن نوى الحسنة ولم يعملها، ومن نوى الحسنة وعملها، كان لهما ثواب لحديث: ((وهما في الأجر سواء)) لكن مضاعفة الثواب يختص بها من عمل العمل، دون من نواه ولم يعمله، فإنهما لو استويا من كل وجه، لكُتب لمن همَّ بحسنة ولم يعملها عشرُ حسنات، وهو خلاف النصوص كلها. ومن نوى السيئة وعزم عليها، اشترك في الإثم مع من عملها لما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي كَبشة: ((.. عبد

لم يرزقه الله مالاً ولا علماً وهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء)) يعني الذي يعصي الله في ماله، ويصمم على العصيان، يكون وزرهما سواء.

وقد أوضح النبي ﷺ فيما يرويه البزار في مسنده أقسام الأعمال الموجبة للثواب والعقاب، فقال: ((الأعمال سبعة: عملان موجبان، وعملان واحد بواحد، وعمل الحسنة فيه بعشرة، وعمل الحسنة فيه بسبع مئة ضعف، وعمل لا يحصي ثوابه إلا الله تعالى)).

فأما العملان الموجبان: فالكفر والإيمان، فالإيمان يوجب الجنة، والكفر يوجب النار. وأما العملان اللذان هما واحد بواحد، فمن همَّ بحسنة و لم يعملها كتبها الله له حسنة، ومن عمل سيئة كتب الله عليه سيئة واحدة. وأما العمل الذي بعشر حسنات فعمل الحسنة، لقوله تعالى: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ [الأنعام ٦/١٦٠]، وأما العمل الذي بسبع مئة ضعف فدرهم الجهاد في سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة ٢/٢٦١]، ثم ذكر الله سبحانه وتعالى أنه يضاعف لمن يشاء، زيادة على ذلك، فقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء ٤/٤٠].

قال النووي: دلت الآية والحديث وهو قوله ﷺ: ((إلى أضعاف كثيرة)): أن العشر والسبع مئة كله ليست للتحديد، وأنه يضاعف لمن يشاء، ويعطي من لدنه مالا يعد ولا يحصى.

- ٤ -

الحضُّ على التَّوبة

امتاز الإسلام الحنيف بيسره وسماحته، وبُعْده عن الوسائط والتعقيدات، فما من إنسان إلا وهو مرتكب خطأ في حق نفسه أو غيره أو في حق الله تعالى، وطريق التخلص من الأخطاء والذنوب سهل يسير، باللجوء إلى الله تعالى مباشرة، وطلب العفو منه، مع الندم على الخطأ، والعزم على عدم التورط بالذنب في المستقبل، والله عفوٌّ كريم سمح يحب عباده، ويحب منهم أن يتصفوا بالطهر، والنقاء، والصفاء من أدران المعاصي والذنوب، حتى لا يلحق بهم ضرر أو أذى، أو تعكير المزاج، وقلق الوجدان والضمير، لذا حثَّ الله تعالى على التوبة بقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور ٣١/٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود ٣/١١]، ونادى الله المؤمنين بقوله: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ [التحريم ٨/٦٦].

وشروط التوبة في حقوق الله تعالى ثلاثة:

١ - أن يقلع عن المعصية.

٢ - أن يندم على فعلها.

٣ - أن يعزم ألا يعود إليها أبداً. فإن فقد أحد هذه الثلاثة لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية متعلقة بآدمي: فشروطها تصبح أربعة، هذه الثلاثة وأن يبرأ من حقِّ صاحبها، فإن كان حقّ الغير مالاً أو نحوه رَدَّه إليه، وإن كان غيبة أو طعناً أو قذفاً ونحوه، استحلّه منها، وطلب مسامحته عما قاله فيه، وإن كان فعله مستوجباً حدَّ قذف ونحوه، مكّنه منه أو طلب عفوه عنه.

وعلى المؤمن أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي.

وصيغة التوبة أو أسلوبها: الاستغفار، والتوبة مع الاستغفار. روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**وا لله إني لأستغفر ا لله، وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**)).

والاستغفار: معناه طلب المغفرة: وهي الصفح عن الذنب، واستغفار النبي ﷺ مع أنه معصوم من الذنوب تعليم لنا، وشكر لله على عظيم أفضاله عليه، وسمو في النفس عن التقصير في جانب الله تعالى.

ويؤكد النبي ﷺ مدلول الآيات القرآنية بالحض على التوبة، فعن الأغر المزني رضي الله عنه – فيما أخرجه مسلم – قال: قال رسول الله ﷺ: ((يا أيها الناس، توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب في اليوم مئة مرة)). والتحديد العددي في هذا الحديث وما قبله لا يقصد به التحديد، وإنما المقصود به الكثرة.

ويرحم الله عباده بقبول توبتهم، وحبِّه إياهم، فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة ٢/٢٢٢] أي يرضى عنهم، ويقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى ٤٢/٢٥]. ويعلّم الله عباده سعة رحمته والبعد عن اليأس والقنوط، فيقول سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر ٣٩/٥٣].

ولا قيود ولا حدود على المغفرة، فإنها تشمل جميع المعاصي الصغائر والكبائر ما عدا الإشراك با لله، قال ا لله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء ١١٦/٤]. وأما الأعمال فمنها ما يكفِّر الصغائر كالوضوء والصلاة، ومنها ما يكفِّر الكبائر وهو التوبة الخالصة النصوح.

وا لله تعالى يرضى عن عباده التائبين النادمين، ويحب منهم التوبة ليتخلصوا من خطاياهم، ويستقيموا على درب الطاعة، والعودة القريبة إلى ا لله سبحانه، من غير بقاء على الذنب أو إصرار وإدمان. أخرج البخاري ومسلم عن أبي حمزة أنس بن مالك الأنصاري رضي ا لله عنه خادم رسول ا لله ﷺ، قال: قال رسول ا لله ﷺ: «للهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة».

هذا التكامل بين القرآن الكريم والسُّنة النبوية، والموازنة بين النصوص الواردة فيهما، يتبين منه أن ا لله تعالى فتح باب التوبة للعصاة، مرغِّباً إياهم، وحاضّاً لهم على المبادرة إلى التوبة. والرسول ﷺ يعلِّم أمته بقوله وفعله، وممارساته المتكررة أسلوب التوبة، وضرورة اللجوء إليها، والمحافظة على مقتضى التوبة دون حيدة عنها، أو نقض لها، وإلا كان العائد إلى الذنب بعد التوبة كالمستهزئ بربِّه.

- ٥ -

وقت التوبة

التوبة المقبولة المرضية: هي التي تكون عقب ارتكاب الذنب مباشرة أو عن قرب، وجهلاً لا عمداً وإصراراً، من غير تأخير ولا تسويف، ومع ذلك فباب التوبة مفتوح أمام الإنسان، ما لم يصل إلى حدِّ الغَرْغَرة (بلوغ الروح الحلقوم) فحينئذ لا تقبل التوبة، لعدم جدواها، وانقطاع الحياة التي هي مسرح للخير والشر، والنفع والضرر، والاستقامة والعصيان، وفي هذا المسرح مجال واسع لإصلاح الخطأ، وتجاوز العثرات، وجهاد النفس الذي به يصير الإنسان قويماً صالحاً، وشريفاً كريماً غير ذليل، فإن المعصية تُذِل الإنسان، وتجعله دائماً خائفاً مضطرباً قلقاً من آثار عصيانه، واعوجاج طريقه.

قال الله تعالى مبيناً وقت التوبة: ﴿إِنَّما التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً، وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ [النساء ٤/١٧ - ١٨].

وما على الإنسان حين مبادرته إلى التوبة إلا أن يكون صادقاً في توبته، مخلصاً في توجهه، محباً لتطهير نفسه من الآثام والأوزار، وقضت رحمة الله تعالى أن

يجعل باب التوبة مفتوحاً في كل زمان ومكان، وإن امتاز بعضها من بعض، ولا فرق بين أن تكون المعصية واقعة في الليل أو في النهار، سرّاً أو علناً، روى مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((**إن ا لله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**)). وفي رواية أخرى لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، تاب الله عليه)). فلا مانع من قبول التوبة حتى قبل وقوع القيامة، وظهور أماراتها الكبرى، ومنها: طلوع الشمس من المغرب لا من المشرق. جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً﴾ [الأنعام ٦/١٥٨].

هذا مجال عام لجميع الخلائق، لهم التوبة في الحياة الدنيا، قبل الإنذار بنهايتها، وإلا كانت عن إكراه وخوف، وعن تهمة، أخرج الترمذي وهو حديث حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)) أي ما لم يصل إلى حد يتعذر عليه ابتلاع الشراب من طريق الفم، وهو وقت الاحتضار وبلوغ الروح الحلقوم (أسفل الحلق) لأنه في هذه الفترة الزمنية لا تمكن الحياة بعدها، ولا معنى للتوبة حينئذ، لذا لم يقبل الله توبة فرعون الجبار المتألّه حين أطبق عليه الماء وتيقن من الغرق، ووصف الله تعالى تلك التوبة والجواب الإلهي عنها، فقال سبحانه: ﴿وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائِيلَ وَأَنا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ﴾ [يونس ١٠/٩٠ - ٩٢].

إن هـذا التوافـق والانسـجام الدقيـق، والرائـع، بـين آي القـرآن الكريـم، وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام: دليل قاطع على أن مصدرهما واحد، وهو الوحي الإلهـي. وأن تنـوع الأسـاليب والبيـان يربـط الإنسـان بـالهدف والغايـة، ويحمله على أن يكون قدوة حسنة عاليـة لامتثـال أوامـر الله عـز وجـل، والـتزام طاعته، وتكون التوبة المفتوحة الباب نـافذة مضيئـة أمـام المقصريـن والمخطئـين، ليعودوا إلى جادة الاستقامة، ويستعينوا بالله ربّهم على الـتزام التكـاليف الإلهيـة، وإشراق النفس بالنور الإلهي المبين - نور القرآن والسنة النبوية.

- ٦ -

صدق التوبة

المهم في التوبة كونها صادرة عن قلب خاشع خاضع لله تعالى، نادم ندماً شديداً على ما ارتكب صاحبه من بعض الآثام، فإذا صدق الإنسان التوبة مع ربِّه، تاب عليه ورضي عنه، وتقبل منه عذره وغفر ذنبه. غير أن الإنسان قد يضعف أمام المغريات، فيعود إلى الذنب بعد أن أقسم، وعاهد الله على ألا يرتكب الذنب الذي وقع منه، ثم يدرك خطأه، ويحاول أن يصلح شأنه، ويلتمس الخلاص مما تورط فيه، وحينئذ يتوب توبة خالصة، فلا يرده المولى خائباً، ويستر ذنبه، ويكفِّر عنه خطيئته إن شاء، ويظل الصدق هو أساس قبول التوبة.

قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾ [التحريم ٨/٦٦]. وجعل الله تعالى التوبة الصحيحة من صفات أهل الإيمان، فقال سبحانه: ﴿التّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السّائِحُونَ الرّاكِعُونَ السّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة ١١٢/٩].

وما أوسع رحمة الله وفضله بتعميم توبته على جميع الصحابة الكرام مع نبيهم بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة، فقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة ٩/١١٧]. وأعقب الله ذلك بإعلان توبته عن الثلاثة المتخلفين عن جيش تبوك من دون عذر وهم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع العَمْري، وهلال بن أمية الواقفي، بعد توبة صادقة منهم، فقال الله سبحانه: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة ٩/١١٨].

ولكن قبول التوبة منوط أو معلَّق على مشيئة الله تعالى، من غير إلزام ولا إجبار، ولكن تفضلاً ونعمة، وكرماً وحلماً، بدليل ما أخرجه الشيخان (البخاري ومسلم) عن ابن عباس وأنس بن مالك رضي الله عنهم: أن رسول الله ﷺ قال: ((**لو أن لابن آدم وادياً من ذهب، أحَبَّ أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب ا لله على من تاب**))، أي إن الله تعالى بمطلق مشيئته يتوب، أي يقبل توبة من تاب بصدق، من الصفات الذميمة وأخطائه السابقة.

ولا يأس من رحمة الله، فالإسلام يمحو ما كان قبله من الكفر، والتوبة تمحو ما كان قبلها من الآثام، والتوبة واجبة من الذنب مهما كبر أو عظم. وما أروع هذه القصة القصيرة، أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين، يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيُقْتَل، ثم يتوب الله على القاتل، فيُسلم فيستشهد)) ونفرض تفسير معنى الضحك بما يليق بالله تعالى، وقيل: المراد بالضحك بالنسبة لله تعالى هنا: محبته لفعلهما والرضا عنه، والثواب عليه.

ومما يدل على قبول التوبة من الكبائر حديث الصحيحين عن القاتل مئة نفس، فإنه جاء تائباً، ومات تائباً، فتقبَّل الله توبته، وغفر سيئاته، وعفا عنه، وهذا من غرائب القصص النبوي. روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن نبي الله ﷺ قال: ((كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمَّل به مئة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مئة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصَّف الطريق، أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مُقْبلاً بقلبه إلى الله تعالى. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم مَلَك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، أي حَكَماً، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضَته ملائكة الرحمة))، وفي رواية الصحيح: ((فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر، فجعل من أهلها)). حيث طوى الله له الأرض أمام الملائكة.

هذا فيض من النصوص القرآنية والنَّبوية المتوازية في الدلالة على قبول توبة العبد من أي جُرْم ارتكبه، مهما كبُر وعظم، إذا كان بصدق وإخلاص.

-٧-

فضيلة الصبر

لا تستقيم الحياة على وتيرة واحدة، وإنما يتعرض الإنسان في عمره المديد إلى كثير من الطوارئ على خلاف المعتاد، سواء في مجال تعاطي العمل، أو عند الأسفار، أو لدى التعرض لكوارث الجو من برد شديد أو حر شديد أو زلزال أو بركان أو حريق أو غرق ونحو ذلك. وقد لا يجد الإنسان طعاماً أو شراباً في بعض الأزمات والأسفار، وقد يطرأ عليه المرض والوهن، والضعف والهرم، وقد يكون عزيزاً في منصب، فيصبح طريداً شريداً في البلاد، أو يزجّ به في غياهب السجن، وقد يعتدي عليه آخرون بغير حق، سواء بالكلام واللسان والشتم، أم بالضرب والأذى، أم بالمؤامرة والمكر عليه، ليتخلص منه زبانية السوء، أو اللصوص، أو الجناة، حتى لا يفشي سرهم، أو يذيع سراً لهم. ولا سبيل إلى تخطي هذه الصعاب أو المشكلات وأمثالها مما لا حصر له إلا بالصبر، والتفويض إلى الله تعالى، والتوكل عليه.

قال الله تعالى آمراً بالتدرع بالصبر: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران ٣/٢٠٠]. والمصابرة: مغالبة الكفار فلا يكونوا أشد صبراً منكم، والمرابطة: ملازمة ثغر العدو. وقال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة ٢/١٥٥] وقال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد ٤٧/٣١].

قال الراغب الأصفهاني: الصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل أو الشرع، أو على البعد عما يقتضيان حبسها عنه. وله نوعان: صبر على المكاره والمصائب، وصبر على أداء الطاعات والفرائض.

وفضيلة الصبر: تكون سبيلاً لتحقيق الغايات، وإثبات الذات، وقهر الأعداء، وتفويت شماتة الأعداء الشامتين، والتغلب على حسد الحاسدين، وتحقيق النجاح في نهاية الأمر.

ومما لا شك فيه أن الله تعالى يعين الصابرين، ويساعدهم على تحمل متاعبهم، وقسوة أحوالهم، قال الله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة ٢/١٥٣].

ويأتي الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، ولا تستمر حال الكرب على الدوام، وإنما تزول بعون الله تعالى، بدليل ما رواه مسلم عن أبي مالك الحارث ابن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **((الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن – أو تملأ – ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها)) أي إما أن يُخلّص نفسه من النار أو العذاب، أو يهلكها ويدمرها بارتكابها المعاصي.**

ويوضح النبي ﷺ ما يتميز به المؤمن من الصبر في جميع الأحوال، روى مسلم عن أبي يحيى صهيب بن سِنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كلَّه له خير – وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن – إن أصابته سَرّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرّاء صبر، فكان خيراً له)).

وكان الأنبياء والرسل ومنهم نبيّنا صلوات الله وسلامه عليهم، في القمة العليا من الصبر، حتى ضرب المثل بصبر أيوب عليه السلام، على مرضه مدة طويلة من الزمان، وتعرَّض كل رسول لأذى قومه حينما بلَّغهم دعوته إلى توحيد الله، والاستقامة على أمر الله، وهذا لون من ألوان الأذى لرسولنا، أخرج البخاري ومسلم عن أبي عبد الرحمن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيّاً من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)).

إن التسلح بالصبر دليل على قوة الإيمان والإرادة، وصلابة العقيدة وتماسك الشخصية، وسبب الصبر أمر واقع لا مفر منه، فأيهما أولى: الصبر الذي هو مفتاح الفرج، أم الجزع والسخط، وهو عديم الجدوى، وموجب العذاب؟ الجواب الشافي في هذا هو التعزي بالصبر، والرضا بالواقع، وبالقضاء والقدر، وكان هذا هو شرع الله في كتابه وسنّة نبيِّه، حيث أمر الله بالصبر، وأبان عاقبته وفضيلته، ومعونته للصابرين.

ومن وازن بين أوامر القرآن الكريم في آيات كثيرة، وبين الأحاديث النبوية الثابتة الدالة على مزية الصبر، يجد الخير في الأمر بالصبر، والسلامة في التزام فضيلة الصبر.

-٨-

ثواب الصبر

الصبر والصوم عظيمان، وثوابهما مفتوح غير مقيد بحدود؛ لأنهما يربيان قوة الإرادة، ويدلان على صحة الإيمان، وسلامة التفويض إلى الله عز وجل فيما قضى وأراد، أما الصوم: فيقول النبي ﷺ عنه - فيما يرويه ابن خزيمة في صحيحه، والبيهقي، وأبو الشيخ ابن حبان في الثواب عن سلمان: ((وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة))، وما يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: ((كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي، وأنا أجزي به، والصيام جُنّة)) أي وقاية وحصن من الوقوع في المعاصي. وأما الصبر الذي هو كالصوم مفتوح الثواب، فيقول الله عز وجل عنه:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصّابِرِينَ﴾ [البقرة ٢/١٥٥]. ويقول سبحانه: ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [الزمر ٣٩/١٠]. ويقول تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى ٤٢/٤٣]. ويقول أيضاً: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصّابِرِينَ﴾ [البقرة ٢/١٥٣]. ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾ [المعارج ٧٠/٥]. والصبر الجميل: هو الذي لا جزع ولا تبرم ولا

تسخط فيه، وإنما يكون مع تمام الرضا والقبول بما أراد الله تعالى. ومحل الصبر عند المصيبة: حين وقوعها، لما رواه مسلم عن أنس: ((إنما الصبر عند الصدمة الأولى)).

ومن أخص حالات الصبر: الصبر عند المصيبة بفقدان الأحبة، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه[1]، من أهل الدنيا، ثم احتسبه[2]، إلا الجنة)). وروى البخاري عن أنس: ((إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه (أي عينيه) فصبر، عوضته منهما الجنة)).

وكذلك الصبر عند المرض أو حالة الكرب، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرها أنه كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع في الطاعون[3]، فيمكث في بلده صابراً محتسباً، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتَب الله له، إلا كان له مثلُ أجر الشهيد)).

ومن فضل الله تعالى: أن الصبر على متاعب الدنيا وهمومها وأحزانها، وغمومها، وأذاها، وأمراضها: سبب لتكفير الخطايا، روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((**ما يصيب المسلم من نَصَب (تَعَب) ولا وَصَب (مرض) ولا هَمّ، ولا حَزَن ولا أذىً ولا غمّ، حتى الشوكة يشاكها، إلاّ كفّر الله بها من خطاياه**)). وفي رواية للبخاري عن أبي هريرة: ((من يرد الله به خيراً يُصِبْ منه)) أي يوجه إليه مصيبة.

وإذا ضاقت الدنيا بإنسان، أو أحدق به الخطر، أو تعرض لضرّ أصابه، فلا يجوز له تمنّي الموت، وإنما عليه بالصبر الذي يكون طريقاً للفرج في الدنيا، وزيادة

---

(١) أي: حبيبه.
(٢) أي: ادَّخر ثوابه عند الله تعالى.
(٣) هو مرض خطير مميت.

الثواب في الآخرة، روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يتمنينَّ أحدُكم الموتَ لضرٍّ أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي)).

ولا بأس بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى في تفريج الكرب مع الصبر، فذلك لا ينقص الثواب، روى الترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا أراد الله بعبده الخير، عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشَّر، أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة)). وقال النبي ﷺ: ((إن عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط)).

وأسلوب الصبر: كظم الغيظ، وترك الاسترسال في الغضب، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)) والصُّرعة: أصله عند العرب: من يصرع الناس كثيراً. وروى الترمذي وحسنه وأبو داود عن معاذ بن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((من كظم غيظاً، وهو قادر على أن يُنفذه، دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، حتى يخيِّره من الحور العين ما شاء)).

دلَّت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على فضل الله العظيم بإثابة الصابرين والصابرات، وإعداد جنان الخلد لهم.

- ٩ -

الصبر في القضايا العامة

إن القضايا الكبرى، وشؤون الولاية العامة، والعلاقات الاجتماعية تتطلب صبراً شديداً، سواء فيما بين الحاكم والرعية، أو ما بين الرعية والإمام الحاكم، أو في مجال التولية في الولايات أو الوظائف العامة، أو في علاقة المسلمين بغيرهم في الداخل والخارج، في السلم والحرب، وكل إنسان يتعرض للمحن والبلايا في رزقه، وصحته أو عافيته، وعمله، فعليه أن يصبر، ويعالج الأمور بحكمة وأناة وروّية، قال الله تعالى مبيِّناً قانون الصبر العام:

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة ٢/٢٤٩]، وقال سبحانه: ﴿.. وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة ٢/١٧٧]. والصبر مطلوب أيضاً في التزام التكاليف الشرعية، ومنها العبادات، فقال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها﴾ [طه ٢٠/١٣٢].

ونجد الكثير من الوصايا النبوية بالحلم والصبر، روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله تعالى، وما عليه خطيئة)).

والبلاء: الاختبار، سواء كان ذلك بالخير أو بالشر، وبالنعمة والنقمة، وفي الرفاه والحرمان، وكل مؤمن معرض للاختبار بألوان البلاء، ولكن هناك بشارة للمؤمن المبتَلَى، في قول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصّابِرِينَ﴾ [البقرة ٢/١٥٥].

ومن أمثلة صبر الخلفاء: ما تعرَّض له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال له عُيينة بن حصن - فيما يرويه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: ((هِيْ يا[1] ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجَزْل[2]، ولا تحكم فينا بالعدل! فغضب عمر رضي الله عنه حتى همَّ أن يوقع به، فقال له ابن أخيه: الحُرّ بن قيس: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها، وكان وقَّافاً عند كتاب الله تعالى)).

ويوجه النبي ﷺ أُمته إلى التزام الصبر على المقدور أو المقضي به حلوه ومرّه، وعلى ظلم أحد الأمراء، ويحث على السمع والطاعة، وإن كان المتولّي ظالماً متعسِّفاً، فقال - فيما رواه البخاري ومسلم - عن ابن مسعود رضي الله عنه: ((**إنها ستكون بعدي أَثَرة**[3] **وأمور تنكرونها!**)) **قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال:** ((**تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم**)).

ويؤيده في المعنى ما رواه البخاري عن أبي يحيى أُسيد بن حُضَير رضي الله عنه: أن رجلاً من الأنصار قال: يا رسول الله، ألا تستعملني كما استعملت فلاناً؟ فقال: ((إنكم ستلقون بعدي أثرةً، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)).

وألزم مواقف الصبر: الثبات عند لقاء الأعداء في المعارك الحربية، حيث يكون الموقف حاسماً، وعلى مفترق الطرق وخطيراً، ويتطلب الوضع الثبات أمام

---

(١) أي: هي داهية.

(٢) أي: العطاء الكثير.

(٣) الأَثَرة: الانفراد بالشيء عمن له فيه حق.

العدو، وهذا ما نبَّه إليه الله تعالى وأمر به، فقال: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال ٨/٤٥]. وأخرج البخاري ومسلم عن أبي إبراهيم عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، انتظر حتى مالت الشمس قام فيهم فقال: ((يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)). ثم قال النبي ﷺ: ((اللهم منزلَ الكتاب، ومجريَ السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم)).

هذا التوافق بين القرآن الكريم والأحاديث النبوية للعناية بتربية الفرد المسلم والأمة المسلمة.

- ١٠ -

مراقبة الله تعالى

كثيراً ما يهمُّ الإنسان بالشَّر في أوقات السِّر والخفاء، حيث لا يراه ولا يطَّلع عليه أحد، فيكون الإنسان رقيب نفسه، ولا تتغلب نزعة الخير على نزعة الشَّر إلا بأحد أمرين:

إما رقابة الله تعالى والخوف من حسابه وعذابه، وغضبه وسخطه.

وإما من الآخرين، بسبب الخوف من سلطة الحكومة، أو بسبب الحياء من الناس.

ولا بد من تقوية جانب الرقيب الأعلى، وهو الله عز وجل، وقد يسميه العلْمانيون رقابة الضمير والوجدان، وتقوية هذا الرقيب ذي السلطان القاهر في السِّر والعلن، ينبع من قوة الإيمان بالله عز وجل، ويعود بالخير على الإنسان نفسه، دون تعرُّض لضرر أو أذى أو لوم أو عتاب، أو قهر من أحد، وهذه المراقبة هي التي أحياها القرآن الكريم في النفوس، ونمّاها، وأشعرنا بخطورتها وأهميتها.

قال الله تعالى مخاطباً نبيّه محمداً ﷺ: ﴿الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السّاجِدِينَ﴾ [الشُّعراء ٢٦/٢١٨ - ٢١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ

وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد ٤/٥٧]. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ [آل عمران ٣/٥]، ﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر ١٩/٤٠].

فمن أدرك أن الله معه، يراه في كل حركة وسكنة، وأن الله عليم بكل ما يفعل، ويعلم بكل شيء، حتى بحديث النفس، وخيانة العين، من أدرك ذلك، استحيا من الله حق الحياء، وخاف من غضبه، وأحجم عن كل شرّ، وهاب الحساب والعذاب في الدار الآخرة.

وتؤكد الأحاديث النبوية الثابتة هذا المفهوم، منها ما أخرجه الترمذي عن أبي ذر جُندَب بن جُنادة، وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: ((**اتقِّ ا لله حيث كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلُق حسن**)).

أي اجعل بينك وبين عقاب الله وقاية، وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، في أي مكان كنت، رآك الناس أو لم يروك، وأتبع سيئة الأعمال بالخصلة الحسنة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ [هود ١١٤/١١]، وقوله سبحانه: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ ﴾ [الفرقان ٧٠/٢٥] وذلك كالصدقة على الفقير، أو الاستغفار والتوبة، والحديث أو الآية ليس على حسب ظاهره، بل الحسنة الواحدة تمحو عشر سيئات، بدليل قوله ﷺ: ((تكبِّرون دبر كل صلاة عشراً، وتَحْمَدون عشراً، وتُسبِّحون عشراً، فذلك مئة وخمسون باللسان، وألف وخمس مئة في الميزان. أيكم يفعل في اليوم الواحد ألفاً وخمس مئة سيئة؟)). ومحو السيئة بالحسنة محمول على السيئة المتعلقة بحق الله تعالى. أما السيئة المتعلقة بحق العباد من الغصب والغيبة والنميمة، فلا يمحوها إلا الاستحلال من العباد، أي طلب الحل والإباحة والسماحة، ولا بدَّ من أن يعين له جهة الظلامة، فيقول له: قلت عليك: كيت وكيت.

والخلاصة: دلَّ الحديث على أن محاسبة النفس واجبة.

ويؤكده حديث آخر في معناه أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((**كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: يا غلام، إني أُعلّمك كلمات: احفظ ا لله يحفظك، احفظ ا لله تجده تُجاهك. إذا سألت فاسأل ا لله، وإذا استعنت فاستعن با لله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه ا لله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء، لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه ا لله عليك، رُفعت الأقلام وجَفّت الصحف**)).

وفي رواية غير الترمذي: ((احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة. واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً)).

هذا التأكيد النبوي لنصوص القرآن الكريم، مع اختلاف الأسلوب وتنويعه، يفيد في حمل النفس على مراد الله تعالى، وزجرها عن الموبقات، وإلجامها بلجام التقوى، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف ٧/٢٠١].

-١١-

ثمرة مراقبة الله تعالى

إن التحصُّن بحصن الله، والتزام حدوده، والبعد عن الموبقات والمنكرات، والإخلاص والصبر في أداء العبادة، يعود على المرء بأفضل النتائج والغايات، ويَسْلم الإنسان من آثار العواقب الوخيمة، وكل ذلك يعود على هذا الإنسان نفسه بالخير والمصلحة، إن عاجلاً في الدنيا أو آجلاً في الآخرة. والله تعالى الذي يخشاه عبده لا ينساه من فضله، ولا يحجبه عن رحمته، ويعوِّضه عن كل ما ترك من الحرام بأفضل وأولى منه وأصلح له، فإن لم يراقب الإنسان ربَّه، تعرَّض للنقمة والهلاك.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ﴾ [الفجر ١٤/٨٩] أي إن الله تعالى يراقب عباده، ويرصد أعمال كل واحد منهم، لا يفوته أحد منهم. وقال سبحانه مبيِّناً ضرورة خشية الله: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء ٢١/٤٩]، ﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال ٨/٢] و﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ [الأحزاب

وتأتي الأحاديث النبوية الصحيحة مؤكدة دلالات هذه الآيات الشريفة، منها ما رواه البخاري عن أنس رضي ا لله عنه، قال: ((إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشَّعَر، كنا نعُدُّها على عهد رسول ا لله ﷺ من الموبقات)) أي المهلكات. وهذا إشعار واضح بأن الاستخفاف بالذنب (أو اللا مبالاة بارتكابه) يدل على قلة الخشية من ا لله تعالى. وقد كان الحسُّ بعظم الذنب في أعلى مراتبه لدى الصحابة الكرام، فإنهم كانوا يرون الأمور التي استهوت غيرهم مهلكات، لعظم مراقبتهم جلال ا لله، وكمالِ معرفتهم له.

وفي هذا المعنى يروي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((إن ا لله تعالى يغار، وغَيْرة ا لله تعالى أن يأتي المرء ما حَرَّم ا لله عليه)) ومعنى غَيْرة ا لله: منع الناس من الفواحش وسائر المنكرات، وأنه سبحانه لا يرضى بارتكابها، ويغضب على مقترفها.

أمام هذه الإنذارات والتحذيرات من انتقام ا لله، نجد الناس مع هذا صنفين:

صنف عاقل واعٍ، يقدر المخاطر وآثام الفواحش.

وصنف متورط، سائر مع أهواء نفسه، يعيش مع الأوهام الخادعة، والأماني الكاذبة، وهذا هو البيان النبوي المحذّر.

روى الترمذي عن أبي يعلى شداد بن أوس رضي ا لله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((**الكيِّس: من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز: من أتبع نفسه هواها، وتمنى على ا لله الأماني**)).

الكيِّس: العاقل. والعاجز: الضعيف، المقصر فيما يجب فعله، التارك لما أُمر به. وهذا الحديث دليل على وجوب الاتصاف بالحزم مع تمنيات النفس، فلا ينساق المرء مع أهوائها، ولا يركن إلى الأماني الكاذبة المعسولة.

ومقتضى المراقبة الإلهية: أن يبتعد الإنسان عن اللغو وعن كل مالا يفيد، كما أوصى الحق تعالى بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣/١ - ٣].

وتقتضي المراقبة الإلهية أيضاً: الاشتغال بما فيه النفع والصلاح في الدنيا والآخرة، وترك المرء التعرض لكل مالا يعنيه، ولا يحتاجه ولا ينفعه، بل قد يضرّه ويسيء إليه، روى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من حسن إسلام المرء تركه مالا يَعْنيه))، أي علامة الكمال والاستقامة: ترك التطفل والنظر في شؤون غيره.

يبدو من مجموع هذه الآيات والأحاديث السابقة: أنها تتجه اتجاهاً واحداً، لتحقيق غاية معينة، وهي تحقيق النفع للإنسان ذاته، ورعاية مصلحته وحاجته، والابتعاد عن كل ما يضرّه ويسيء إليه، والعبرة بالعواقب والنتائج، وبما يحصل في المستقبل.

-١٢-

الحاجة إلى التقوى وثمرتها

لسنا في هذا العالم متروكين من دون تكليف أو قانون؛ لأن القانون أو النظام إنما شرع لخيرنا ومصلحتنا، والقانون الإلهي أولى بالاتباع، وأجدى وأنفع لكل إنسان. ومضمون هذا القانون العظيم: ضرورة التزام جانب التقوى لله تعالى: وهي العمل بالمأمورات، وترك المنهيات أو المحرَّمات. ولا خير فيمن يتنكر لهذا القانون؛ لأن تركه هلاك ودمار، وتضييع للمصالح، وإعانة على المفاسد.

وإذا شاعت المفاسد في المجتمع، أصابهم الذُّل والانكسار، والضعف والحرمان، والضرر وطروء المحن المستعصية، وحينئذ يبادر العقلاء إلى تلمس العلاج، والتخلص من الداء، لتحقيق موجبات الحياة العزيزة الكريمة، والتوصل إلى النجاة من المهالك، والتعرض لنعم الله وأرزاقه وأفضاله. لذا أمر الله تعالى بتقواه من أجل هذه الغايات النبيلة الأصيلة، فقال سبحانه: ﴿يا أَيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ..﴾ [النساء ١/٤].

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران ١٠٢/٣].

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر ٥٩/١٨].

تكرر الأمر بالتقوى في هذه الآية الأخيرة مرتين، لإحكام الأمر، وتوجيه الإنسان نحو الاتصاف بهذه الصفة، سواء عند اتخاذ الوسائل، أو عند النظر في تحقيق النتائج. و لم يشدد الله على عباده حين أمرهم بالتقوى، وإنما تركهم إلى استطاعتهم، ومقدار طاقاتهم وإمكاناتهم، فقال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ ما اسْتَطَعْتُمْ..﴾ [التغابن ٦٤/١٦].

والتقوى: قول وفعل. أما القول: فهو الكلام الصائب السديد، وأما الفعل: فهو الأمر المفروض ممارسته، وتنفيذه واتباعه إن كان خيراً، واجتنابه إن كان شرّاً أو منكراً.

وركَّزت السُّنة النبوية على اتباع موجبات التقوى، من أوامر ونواهٍ، فقال ﷺ - فيما رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فقال: ((**اتقوا ا لله، وصلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدّوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم، تدخلوا جنّة ربكم**)). هذه نماذج من أوامر الله والأعمال التي هي من تقوى الله عز وجل، والتقوى: طريق دخول الجنة، والاستقامة في الدنيا أساس النجاة في الآخرة، ومن التقوى: إطاعة الحكام العدول الذين يأمرون بالمعروف، ولا يأمرون بما فيه معصية الله تعالى.

ومن أجل تحقيق مدلول التقوى، علَّمنا النبي ﷺ طلب العون عليها، ودعاء الله لتيسير موجباتها، روى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يقول: ((اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى)) أي غنى النفس. وأما العفاف: فهو التنزُّه عما لا يحلُّ شرعاً.

وينجم عن التقوى ثمرات متعددة:

أولها: إرضاء الله تعالى، وتكفير الخطايا، والعفو ومغفرة الذنوب، والظفر بجنان عدن التي تجري من تحتها الأنهار، لقول الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال ٨/٢٩].

ثانيها: الثمرة الثانية للتقوى: تنوير القلب والعقل بنور الله تعالى، فيتمكن التقي من معرفة الحق واتباعه، وتمييز الباطل واجتنابه، وهذا معنى الفرقان في الآية السالفة الذكر: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً﴾.

ثالثها: الثمرة الثالثة للتقوى: تحقيق النجاة من المكاره والأزمات والشدائد في الدنيا والآخرة، وجلب الرزق الحلال المبارك فيه، الذي لا عناء فيه، والدليل القاطع لهذا قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٦٥/٢ - ٣].

يتبين من الموازنة بين آي القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ: أن التقوى قاعدة الإسلام، وجُمّاع الخير، والعاصم من كل شرّ، والباعث على كل فضيلة وخلقٍ كريم، وهي أساس النجاة في الدنيا والآخرة، وسبيل السعادة، وطريق التوصل إلى الطمأنينة والاستقرار، والشعور بالرضا والارتياح، بل وسبب تيسير الرزق الحلال.

-١٣-

عقيدة التوكُّل على الله

التوكُّل على الله تعالى بعد اتّخاذ الأسباب والوسائل المعتادة: من أصول العقيدة الإسلامية، ومن مقتضيات الإيمان بالله تعالى خالق كل شيء، ومقدِّره، ومدبِّره، وبيده مقاليد السماوات والأرض ومفاتيح الرزق والخير، والقائم على كل نفس بما كسبت. وما على الإنسان إلا الأخذ بقانون السببية، فإن ارتباط المسببات والنتائج بالأسباب والمقدمات أمر لا بد منه، يمارسه الإنسان بحسب طاقته وجهده، ثم يدع تحقيق النتائج والغايات إلى الله جل جلاله، والاعتماد عليه في جلب النفع ودفع الضُّر، لذا أمر الله سبحانه بالتوكُّل عليه في آيات كثيرة، منها:

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران ٣/١٦٠].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذا عَزَمْتَ[1] فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران ٣/١٥٩].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان ٢٥/٥٨].

أي اعتمد على الله سبحانه، بعد تعاطي الأسباب الممكنة. ووصف الله المؤمنين بأنهم المتوكلون على ربِّهم في قوله عز وجل: ﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا

---

(١) صممت على تنفيذ ما تريد.

ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال ٨/٣].

إن هذه الآيات الكريمة تبين كون التوكُّل على الله تعالى من مظاهر الإيمان بالله، خلافاً لمن يزعم أنه إذا استعدَّ لشيء، تحققت النتيجة حتماً بحسب قدرته وتصوره وإمكاناته، ونسي أن الله تعالى هو المعطي والمانع، والمانح والحاجب، وأنه لا يتم شيء في هذا الكون إلا بمراد الله تعالى. لكن العمل مطلوب، والاستعداد ضروري، والنتائج منوطة بإرادة الله وتوفيقه.

ويؤكد هذا ما ورد من الأحاديث النبوية القولية والفعلية التي تحث على التوكُّل، ورقَّة القلب، وصفاء النفس، وتفويض الأمر كله في النتيجة لله عز وجل. روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير)) أي في صفائها وفراغها وحسن اعتمادها على ربِّها، فإن التوكُّل يكون حينئذ من أسباب دخول الجنة والفوز بنعيمها.

وروى الشيخان (البخاري ومسلم) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: ((**كنا مع رسول ا لله ﷺ بذات الرقاع**[1] ، **فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول ا لله ﷺ، فجاء رجل من المشركين**[2] ، **وسيف رسول ا لله ﷺ معلّق بالشجرة، فاخترطه**[3] **فقال: تخافني؟ قال: لا، فقال: فمن يمنعك مني؟ قال: ا لله، فسقط السيف، فأخذ رسول ا لله ﷺ السيف، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: كن خير آخذ، فقال: تشهد أن لا إله إلا ا لله، وأني رسول ا لله؟ قال: لا، ولكني أعاهدك ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلّى سبيله، فأتى أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس**)).

---

(١) هي غزوة، وذات الرقاع: اسم جبل قريب من المدينة، فيه بقع حمراء وسواد وبياض، كأنها رقاع، فسمي بذلك، وكانت الغزوة عنده. والمشهور أن الصحابة الكرام شدّوا في هذه الغزوة على أرجلهم الخرق من شدة الحرّ، وفقد النعال لديهم.

(٢) أعرابي، اسمه غورث بن الحارث.

(٣) أي: سلَّ السيف وهو في يده.

إن التمايز أو الفرق الواضح بين موقف هذا الأعرابي المشرك، وموقف النبي ﷺ أشد ظهوراً ووضوحاً من الشمس، المشرك اعتمد على قوة السيف، والنبي ﷺ اتَّكل على ربِّه، فسقط السيف من يد الأعرابي المصلت فوق رأس النبي ﷺ؛ لأن التقادير بيد الله تعالى، وإيمان المؤمن بربِّه ينقذه من المخاوف كلها.

ويوضح النبي ﷺ موقف المتوكلين بكل بساطة بعد اتخاذ الأسباب، فيقول فيما رواه الترمذي وحسنه عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً)) معناه: تذهب أول النهار خِماصاً، أي ضامرة البطون من الجوع، وتسعى باحثة عن رزقها، وترجع آخر النهار بِطاناً، أي ممتلئة البطون ببركة توكلها، ومعنى: ((حق التوكُّل)) أي تصدقون في اعتمادكم على الله تعالى في سائر أحوالكم.

ومثال آخر، روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: كان أخوان على عهد النبي ﷺ، وكان أحدهما يأتي النبي ﷺ، والآخر يحترف[1]، فشكا المحترف أخاه للنبي ﷺ فقال: ((لعلك تُرزق به))، أي يكون أخوك سبباً لرزقك، وهذا دليل على أن الإنسان يرزَق بسبب من يعيلهم.

(١) أي يكتسب ويتسبب.

- ١٤ -

فضيلة التوكُّل

التوكُّل على الله يلقي في النفس المؤمنة ظلال الثقة بالله والطمأنينة، ومحبة الله، وإراحة الإنسان، وطرد الهموم والقلاقل والوساوس، وإيداع الغاية عند ربِّ الأرباب الذي بيده وحده تحقيق المآرب والآمال، وتلك هي السعادة المسيطرة على النفس المؤمنة. ثم إن التوكُّل على الله تعالى لا يعني التواكل وإهمال القيام بالواجب، وممارسةِ الأسباب المطلوبة من الإنسان بحسب المعتاد، وإذا صَدَق الإنسان مع ربِّه بتوكُّله عليه، وأحسن الاعتماد عليه والتفويض إليه، تيسَّر له الرزق والنعمة، والعزة والسمو والتفوق، وغلبة الأقران، وغيظ الحسّاد، وتخلَّص من مكائد الأعداء، وانتصر عليهم نصراً مؤزّراً، وألان له قلوب العباد، وأطاعه كل شيء في الدنيا، ونجا من العذاب في الآخرة، وظفر بجنان الخلد، وكل هذا وغيره عبَّر عنه القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها:

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق ٦٥/٢ - ٣]، ومنها في موقعة الخندق: ﴿وَلَمّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزابَ[1] قالُوا هَذا ما وَعَدَنا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَما زادَهُمْ إِلاّ إِيماناً

(١) هم قريش وقيس وغطفان الذين تجمعوا في السنة الخامسة الهجرية في وقعة الخندق (الأحزاب) لمهاجمة المؤمنين في المدينة المنورة.

وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب ٣٣/٢٢]، ومنها في موقعة بدر الكبرى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ[١] قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَقَالُوا حَسْبُنا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران ٣/١٧٣ - ١٧٤].

إن هذا الموقف الثابت في موقعة الخندق لأهل الإيمان في أحرج مواقف الخوف والقلق والحصار المحكم حول المدينة من جموع العرب ويهود بني قريظة، نابع من صدق الإيمان، وحسن الاعتمادِ والتوكُّلِ الراسخ على الله سبحانه، فحقّق الله تعالى بذلك انتصار المسلمين على المشركين، وظفروا بالسلامة والنجاة من كيد الأعداء، وردَّ اللهُ الذين كفروا بغيظهم، وألقى الله الرعب في قلوبهم بالرياح العاتية التي دمرت مواقعهم، وطيَّرت حوائجهم وأمتعتهم، وخابت مساعي جموع القبائل الذين جاؤوا لاستئصال المسلمين في موطنهم بالمدينة، وكذلك الشأن في بدر، سلم المسلمون من أي أذى أو جرح، وربح تجار الصحابة.. من تجارتهم - أي في بدر - التي كانت معهم، وعادوا إلى المدينة منتصرين غانمين.

وفي غار ثور في أثناء الهجرة مثل رفيع للاعتصام بالله والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته فيما رواه الشيخان عن أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه حين قال: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال النبي ﷺ: **((ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما))، وهذا دليل على تمام الثقة بالله وشجاعة النبي ﷺ.**

وبما أن لفضيلة التوكل على الله تعالى هذه المزايا، وأنها سبيل لتحقيق الانتصارات وعظائم الأمور، فقد علّمنا النبي ﷺ كيفية ملازمة جانب التوكل، والإكثار من الدعاء في الليل والنهار، بتفويض الأمر إلى الله تعالى، وحسن

(١) الناس الأولى يراد بها مفرداً وهو نُعيم بن مسعود الأشجعي، والثانية يراد بها جمعاً وهم أبو سفيان وجماعته في معركة بدر الكبرى.

الاعتماد عليه، والاتكال عليه وحده، بعد اتخاذ الأسباب المقدورة للإنسان بحسب المعتاد في نظام الحياة، فإن العمل مع التوكل مطلوب، والسعي لإحراز الرزق واجب، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك ٦٧/١٥].

ومن أدعية التوكل: ما روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((حسبنا الله ونعم الوكيل)) قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل)). وفي رواية للبخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان آخر قول إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل)). هذا قول الأنبياء.

وأما قول المؤمنين: فقد جاء في الصحيحين عن أبي عُمارة البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((يا فلان، إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجَّهت وجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإنك إن مِتَّ من ليلتك، متَّ على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيراً)).

وإذا خرج الإنسان من منزله، قال كما جاء فيما رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بأسانيد صحيحة عن أم المؤمنين أمِّ سلمة، واسمها هند بنت أبي أمية حذيفة المخزومية رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: ((بسم الله، توكَّلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أظلِم أو أُظلَم، أو أجهَل أو يُجهَل علي)).

كل هذه التعليمات النبوية بملازمة التوكُّل مع بيان فضيلة التوكُّل على الله في الأوامر القرآنية، لتربية فضيلة التوكُّل وغرسها في أصول قلوب الناس وأعمالهم.

-١٥-

الاستقامة وفضيلتها

لا يعرف الإسلام أنصاف الحلول في مجال إطاعة الله تعالى، والتزام أوامره، والعمل الخالص النقي المحقق لمرضاة الله سبحانه، والاستقامة على منهاج الله تعالى، فإذا كان الإنسان مؤمناً بربه، سعيداً بهذا الإيمان والارتياح لمبدئه، فما عليه إلا أن يثبت صدق الإيمان بإعلان طاعة الله: وهي أداء الفرائض الإلهية، واجتناب المحظورات والمعاصي أو النواهي والمنكرات، وهذه الاستقامة ليست سهلة في مدى الحياة، وإنما هي خطيرة، ودقيقة وحساسة، لذا قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢/١١] ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية، ولذلك قال ﷺ لأصحابه حين قالوا: قد أسرع إليك الشيب، فقال: ((شيبتني هود وأخواتها)) أي لأن فيها الأمر بالاستقامة.

وهذا الأمر هو قول الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ﴾ [هود ١١٢/١١] ثم أبان الله تعالى ثمرة الاستقامة وفضيلتها في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاّ تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ، نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت ٣٠/٤١ - ٣٢] أي

إن هناك اقتراناً واضحاً وضرورياً لا انفصال ولا انفكاك فيه بين أمرين أساسيين في شرعة القرآن، أولهما: الإيمان با لله وحده لا شريك له، والاستقامة على العمل الصالح في الأمور كلها. والتزام هذا الاقتران دليل على الصدق في الإيمان، والوفاء بالعهد مع ا لله تعالى خالق الإنسان، والمنعم المتفضل عليه على الدوام. ويؤيد ذلك قول ا لله تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن ١٦/٧٢ - ١٧].

ويؤكد هذا الاقتران نظرياً وواقعياً: ما رواه مسلم عن أبي عمرو سفيان بن عبد ا لله رضي ا لله عنه قال: قلت: يا رسول ا لله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: ((**قل: آمنت با لله ثم استقم**)).

وهذا من جوامع الكلم الذي أوتيه نبينا عليه الصلاة والسلام حيث ربط ربطاً موثقاً خالداً بين التصديق بوجود ا لله وتوحيده، وبين الاستقامة: وهي التزام منهج الإسلام، بأداء الفرائض، وإحلال الحلال، وتحريم الحرام، وبناء الحياة الشخصية على أساس من الحق، وإطاعة ا لله في كل ما أمر، واجتناب كل ما نهى ا لله عنه. ويخطئ بعض الناس حين يؤدون بعض الفرائض الإلهية أو كلها، ثم يهملون الامتناع عن بعض أو كل معاصي ا لله، والانحراف عن كل ما حظره أو منع منه الشرع.

وكما أن الجمع بين الإيمان با لله والاستقامة دليل الصدق مع ا لله، هو أيضاً دليل المحبة لله، لأن المحب لمن يحب مطيع، وهذا ما وصف ا لله تعالى به أهل الإيمان بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ[1] وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات ٧/٤٩].

(١) أي: لوقعتم في الجهد والمشقة، والهلاك والعناء.

ومنهاج الاستقامة: لا يثبت بالعقل والهوى، وإنما بحسب ما شرع الله سبحانه وتعالى، فهو أعلم بما يرضيه، وبما يصلح الإنسان والحياة الإنسانية كلها، ويحقق الوئام والاستقرار، والسعادة والأمن والسلامة، وما على الإنسان إلا أن يحرص بكل ما أوتي من قوة على الاستقامة، وبقدر الاستطاعة أو الطاقة، لأن الإنسان يعتريه أحوال متفاوتة من القوة والضعف، والشدة والمرض، والمقاومة والتراخي، لذا علَّمنا النبي ﷺ طريق الاتباع والطاعة بنحو متوازن ومعتدل، فليس في استطاعة بشر أن يوفي حقَّ الله عليه، لكثرة نعم الله عليه، وعجزه عن شكرها. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((قاربوا وسدِّدوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل)) ومعنى المقاربة في ((قاربوا)): الاقتراب والتوسط أو القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير. ومعنى السداد في ((سدِّدوا)): الاستقامة والإصابة. ومعنى: يتغمدني الله: يُلْبسني ويسترني. وقال العلماء: معنى الاستقامة: لزوم طاعة الله تعالى، وهي كما ذكرت من جوامع الكلم الذي اتصف به النبي ﷺ، وبها تنتظم الأمور، وتكون أساس الفوز بجنة الله ورحمته، والظفر برضوانه في الدنيا والآخرة.

-١٦-

التفكر في المخلوقات

إعمال العقل في الكون، والتفكر في عظيم مخلوقات الله تعالى، والتأمل في عظمة الخالق، وإبداع السماوات والأرض: من صفات أهل الإيمان، وهو يعدُّ فريضة إسلامية، تعني ضرورة التفكير في كل شيء، للاستفادة من خيرات الدنيا وذخائر الأرض، واستنباط الثروات وتفجير الطاقات، وهذا سبيل تحقيق السعادة الدائمة، ونشر الرخاء والرفاه بين جميع الناس، لأن كل ابتكار مفيد ينفع صاحبه، وينفع الناس جميعاً. والتفكير أيضاً يؤدي إلى زيادة الإيمان بالله عز وجل، وتكميل الاعتقاد وتصويبه، وبناء العقيدة على أساس من البرهان العقلي والدليل القاطع، وطرد الأوهام والشكوك، والإقبال على الله تعالى في الدار الآخرة بيقين صادق لا يهتز، وقلب صامد لا يتردد. وما أكثر الآيات الدالة على إعمال الفكر والعقل في كل شيء، سواء في الآيات المستقلة، أو في نهايات أو فواصل الآيات اللافتة للنظر وتوجيهه وجهة صحيحة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ ٣٤/٤٦] أي أذكركم بخصلة واحدة، ونظرة منفردة، وتأمل صحيح، أن تنظروا منفردين واحداً واحداً، أو اثنين اثنين، ثم تتفكروا في

مخلوقات الله، لتدركوا وحدانيته، أو تتفكروا في نبوة النبي ﷺ وخصاله، وشمائله، لتعلموا صدقه، وأهمية رسالته.

ويصف الله المؤمنين بأنهم أهل الفكر والنظر في الكون كله، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هَـذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّارِ﴾ [آل عمران ٣/١٩٠ - ١٩١] أي إن في عظمة خلق السماوات والأرض لأدلة واضحة قاطعة، دالة على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته، لقوم عقلاء، أصحاب فكر نيِّر، وعقل حصيف متفتح، ثم إن إعمال العقل السديد على وجه صحيح يهدي إلى إدراك أن هذه المخلوقات ليست مخلوقة عبثاً من غير حكمة ولا نظام، فتنزيهاً لك يا رب عما لا يليق بك من العبث والباطل.

ويستحث القرآن الكريم أولي النظر والفكر أن يتفكروا في المحسوسات والمشاهدات الكونية: الأرضية المجاورة، والسماء المظللة، والموجودات المتحركة والجامدة، لتؤدي كل منها وظيفتها على الوجه الأكمل، فقال الله تعالى: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ، فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية ٨٨/١٧ - ٢١] أي ذكّر أيها النبي أهل البصيرة والعقل، فإن رسالتك تذكير لهؤلاء العقلاء، لتنقلهم من عماية الجهالة والضلالة والتخلف إلى نور العلم والمعرفة، والحق والمدنية، والتقدم والحضارة التي تتطور بها الحياة وأهلها.

والتفكر إنما يكون فيما هو مفيد نافع، وله مردود عملي على الإنسان، أما التأمل أو البحث في ذات الله مثلاً فغير ممكن ولا مفيد ولا مقدور لأحد، وكذلك التفكر في الغوامض المجهولة، والمستحيلات: عبث لا جدوى فيه. ومن التفكر المفيد: التخطيط لإيجاد فرص للآخرة كالعمل للدنيا، وترك الأهواء

والشهوات، وعدم الاستغراق في الأخيلة والأساطير والأماني الكاذبة والأوهام الخادعة، فإن التاريخ يخلّد ذكرى المجددين الذين يقدِّمون خيراً للإنسانية، ويعملون عملاً مجدياً يطور الواقع، وينفع، إما في ساحة العلم والعمل أو في مجال الزراعة أو الصناعة أو التجارة مثلاً، قال رسول الله ﷺ، فيما يرويه الترمذي عن أبي يعلى شدّاد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((**الكيِّس: من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على ا لله الأماني**)) أي إن العاقل المدرك لأهمية وجوده وحياته: هو من حاسب نفسه على تقصيرها، وعمل لآخرته بعد موته، وأما الضعيف الخامل والتارك لواجباته ولما يلزمه فعله فهو من سار في فلك الأهواء والشهوات، وعاش فريسة الأوهام والتمنيات من غير أن يقدِّم عملاً ينفع نفسه أو غيره. وهذا الحديث يحمل الإنسان على أن يكون حازماً فاعلاً، نشيطاً متحركاً، غير خامل ولا كسول، يعمل ويشيد، ويبني ويفيد، ولا يتكل على الآخرين، أو العيش على ذمة التاريخ وهامش الحياة.

-١٧-

التسابق في الخيرات

ميدان الخير واسع فسيح، وأعمال الخير كثيرة متنوعة، سواء في حال السلم أو في حال الحرب، والتسابق في الخيرات والمبادرة إليها من خصال الأنبياء والصالحين، وأهل الجنة والمتقين، وبما أن العمر قصير، والزمن سريع التغير والانتقال من حال إلى حال، فإن السعيد الموفق هو من سارع إلى فعل الخير من أداء الفرائض والنوافل ومساعدة المحتاجين، ونشر العلم والفضيلة، وتقديم كل ما ينفع الأمة والبلاد، ومجاهدة الأعداء، والاستشهاد في سبيل الله: سبيل الدفاع عن توحيد الله والحق والعدل والقيم الإنسانية العليا، ونشر دعوة الله للحياة الصحيحة، والحياة الرغيدة في آفاق الدنيا، وهذا كله حَضَّ عليه القرآن الكريم، فبعد أن قصَّ الله علينا في سورة الأنبياء سيرة مجموعة من الرسل، قال الله عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ﴾ [الأنبياء ٢١/٩٠]، وفي آية أخرى: ﴿أُولَئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣/٦١]. هذه هي سيرة الصالحين، وعلى النقيض منها أخبر القرآن الكريم أيضاً عن سيرة الأشقياء والضّالين، فقال الله تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة ٥/٦٢]. وتكريماً من الله سبحانه لأهل طاعته والمؤمنين به، أمرهم بقوله:

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة ٢/١٤٨]، وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَسارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّماواتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران ٣/١٣٣] و﴿سابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد ٥٧/٢١].

إن من يتأمل في هذه الآيات الشريفات، يجد أن الحق جل جلاله، يحب عباده وأولياءه وأهل طاعته، فيفتح لهم باب الخير ليدخلوا فيه من أوسع مداخله، ويغلق أمامهم أبواب الشر، ليحميهم من عقابيله وسيئاته، ويبشر الفريق الأول وهم الطائعون بالمغفرة السابغة وجنان الخلد، ويحذر الفريق الثاني وهم العصاة والمقصرون، وينذرهم بالعذاب الأليم، والعقاب الشديد إن استمروا في عصيانهم، وأفرطوا واستمروا في تقصيرهم.

وجاءت السُّنة النبوية بالاتجاهين السابقين: اتجاه الترغيب بالعمل الصالح، واتجاه الترهيب من عمل السوء، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((بادروا بالأعمال الصالحة، فستكون فتن كقِطَع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعَرَض من الدنيا)). وهذا توجيه وإيجاب للتمسك بدين الله وشرعه، والمبادرة إلى العمل الصالح قبل فوات الأوان. وهذا أيضاً إنذارٌ من تعاقب الفتن وتكاثر الشرور. روى البخاري عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك رضي الله عنه، فشكونا إليه ما نلقى من الحَجّاج، فقال: ((اصبروا، فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه، حتى تَلْقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ)).

وألوان الفتن والـمُنْسيات والموانع كثيرة، روى الترمذي في حديث حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً**

مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعةَ، فالساعةُ أدهى وأمرّ» أي أسرعوا أيها المؤمنون لفعل الخير والعمل المرضي لله ربكم، قبل أن تفاجئكم الموانع أو الشواغل السبعة: وهي الفقر المنسي للواجبات، أو الغنى المطغي: وهو الذي يجرِّئ صاحبه على ارتكاب المعاصي، أو المرض المفسد للصحة والمؤدي لعلة الجسد والعجز، أو الهرم المفند: وهو المؤدي للانحراف عن سلامة الكلام، أو الموت المجهز: وهو المميت بسرعة، كموت الفجأة، أو مجيء الدجال: وهو الداعية إلى الكفر والفجور قبيل القيامة، وظهور الدجال: من أمارات الساعة، وهذا ينطبق على دعاة الإلحاد والعصيان في كل عصر، أو حدوث الساعة: أي القيامة ذات الأهوال الجسام، والدواهي العظام أي البلايا والمصائب التي هي أمرّ من كل الأحداث، وأشدّ مرارة من ألوان العذاب الدنيوي.

إن هذا التطابق أو التقارب بين آي القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ دليل واضح على وحدة المصدر أو المشرع وهو الله عز وجل، وأن الغاية واحدة من الكتاب والسنة، والهدف منهما: إنما هو الإصلاح للبشرية، والبعد عن الشر والفساد.

-١٨-

خصال الخير

البرّ: اسم جامع لكل خصال الخير، وخصال الخير تشمل أصول الإيمان والإسلام وأركانهما، وإيتاءَ المال لذوي القرابة، والأيتامِ والمساكينِ وأبناءِ السبيل والسائلين المحتاجين، والوفاءَ بالعهد، والصبرَ في الشدة والضّر، وصلةَ الأرحام، وبرَّ الوالدين في حياتهما وبعد مماتهما، وطلاقةَ الوجه أو البشاشة، ولِينَ الكلام، وعفةَ اللسان، والصدقَ مع الله والناس، وجهادَ الأعداء، والتضحية والبذل والفداء، والإحسانَ إلى النفس والآخرين، بقضاء الحوائج وإعانة ذوي الحاجة، وهذا كله تجمعه آية البرّ، وهي قول الله تبارك وتعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ[1] وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة ٢/١٧٧].

هذه خصال جميلة لأهل البرّ والخير والاستقامة، الموفق: من استوفاها ورعاها، والشقي: من أهملها أو أنكرها ونأى عنها، فمن فعل الخير، أفاد نفسه

(١) إعتاق الأنفس وفكاك الأسارى وإطلاق سراح المسجونين في سجون الأعداء.

في دنياه وآخرته، وأفاد غيره ومجتمعه، فانتزع من قلوب الآخرين الحقد والحسد والكراهية، وأحبَّه الناس وأثنوا عليه، وأثابه الله، وغفر له، وكفَّر عنه سيئاته، وحماه من كل سوء، ونجّاه من العذاب والكروب والهموم، وعاش سعيداً مطمئناً معافىً في جسده، وماله، وأهله، وصان أسرته وذويه حيّاً وميتاً.

والمبادرة إلى الصدقة في الحياة: مفضَّلة على الوصية في سبل الخير بعد الوفاة، كما وجه إليه النبي ﷺ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((**جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيُّ الصدقة أعظم أجراً؟ قال: أن تَصَدَّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم**(١) **قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان**)) أي إن الإنسان إذا تصرف في ماله في حياته يتصرف بماله، أما بعد موته، فإن المال يصير للموصى له، أو للوارث فيما زاد عن الثلث، ويكون للوارث الحق في إجازة تصرف مورثه أو إبطاله. وفرق كبير بين من يتصرف بحرية، ودون مِنَّة في ماله، وبين من يتصرف في مال غيره، والوارث قد ينفِّذ الوصية وقد لا ينفِّذها، وإذا نفَّذها كان متثاقلاً وممتناً، وقد يَنْقُص منها شيئاً، أو يعطي الخبيث غير الطيب.

وكان رسول الله ﷺ يبادر إلى إنفاق ما لديه في اليوم نفسه، روى البخاري عن أبي سِرْوَعَة عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ذكرتُ شيئاً من تِبْر(٢) عندنا فكرهت أن يحبسني(٣)، فأمرت بقسمته)) وفي رواية أخرى للبخاري: ((كنت خَلَّفت في البيت تِبْراً من الصدقة، فكرهت أن أبيِّته)).

(١) الحلقوم: مجرى النَّفَس، والمري: مجرى الطعام والشراب.
(٢) التِّبر: قطع من ذهب أو فضة.
(٣) يحبسني: أي: يشغلني التفكير فيه عن الإقبال على الله.

ومن أعظم خصال الخير: التضحية بالنفس في مواجهة الأعداء، روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال: ((قال رجل للنبي ﷺ يوم أُحد: أرأيتَ إن قُتِلت، فأين أنا؟ قال: في الجنة، فألقى تَمَرات كُنَّ في يده، ثم قاتل حتى قُتل)).

وفي وقعة أُحد أيضاً: أخذ النبي ﷺ سيفاً، فقال فيما رواه مسلم: ((من يأخذ هذا مني؟ فقال أبو دُجانة سِماك بن خَرْشة رضي الله عنه: أنا آخذه بحقه، فأخذه، ففَلَق به هام المشركين)) أي شقَّ به رؤوس المشركين.

وفي يوم خيبر: قال النبي ﷺ فيما رواه مسلم: ((لأُعطِينَّ هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله[1] ، يفتح الله على يديه))، فأعطاها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال: ((امشِ ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك)) فسار عليٌّ شيئاً، ثم وقف، ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ قال: ((قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله)).

---

(١) محبة الله ورسوله: تكون بالإيمان بهما واتباع ما أمرا به.

- ١٩ -

مجاهدة النفس من أجل الخير

النفس الإنسانية ميَّالة غالباً للاسترخاء والكسل، والإهمال وعدم المبادرة إلى الخير، وإيثار الشُّح والبخل، وترك القربات التي يتقرب بها العبد إلى ربِّه، من الإحجام عن المعاصي إذا وسوس الشيطان بها، وترك التطوعات أو النوافل من الصلوات، وعدم الإقبال على الله تعالى بقلب خاشع وفارغ من شواغل الدنيا، وعدم استغلال وقت الصحة والفراغ، وترك انتهاز الفرص المواتية أو المخصصة لإجابة الدعاء والنشاط في العبادة، مثل أيام رمضان، ووقت السَّحَر قبيل طلوع الفجر، وما بين الأذان والإقامة، ويوم الجمعة من صعود الإمام على المنبر إلى أن يفرغ من الصلاة، وأثناء السفر، ووقت الشدة والظلم، وعند الاشتغال في العلم وغير ذلك من الأوقات المباركة. قال الله تعالى مرغِّباً في مجاهدة النفس على الدوام:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت ٦٩/٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر ٩٩/١٥] أي الموت، وقال عز وجل: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمّل ٨/٧٣] والتَّبتُّل: الانقطاع عن الدنيا إلى الله تعالى أثناء العبادة.

إن جهاد النفس وتخليصها من أهوائها، وحملها على الطاعة والعبادة، وكثرة ذكر الله ذكراً خالصاً له من غير انشغال أثناء الذكر بشواغل الدنيا وهمومها، هو من أهم الأعمال التي تقرِّبنا إلى الله زلفى، وتمنع الشَّطط النفسي، والاسترسال في الشهوات التي تضر ولا تنفع. وجهاد النفس يعدُّ ترويضاً لها، وتعديلاً للغرائز وتوجيهاً نحو الخير والنفع، وما من عمل خالص لله تعالى كالعبادة والأذكار إلا ويحتاج إلى مجاهدة وصفاء نفسٍ، وإخلاص، وتفرُّغ وعزيمة صادقة.

وما أروع هذا الحديث القدسي المحبِّب لعبادة الله تعالى، وما أعظمه في تحقيق فوائد الطاعة لله عز وجل. روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إن ا لله تعالى قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب**[1]**، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجْله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأُعيذنه**)). في هذا الحديث دلالة واضحة على خطورة معاداة أولياء الله بكراهيتهم أو إيذائهم، وأن أداء الفرائض مقدم على النوافل، وملازمة النوافل كالسنن وقيام الليل وقراءة القرآن ونحو ذلك من الطاعات الزائدة عن الفرائض، تؤدي إلى محبة الله لعبده والتقرب منه، وكون الله تعالى يصبح سمع الإنسان وبصره ويده ورجله: مجاز أو كناية عن نصرة الله لعبده المتقرِّب إليه، وتأييده وإعانته له، وحفظه من الوقوع في المعاصي التي تغضب الله تعالى.

ويؤكد ذلك حديث قدسي آخر، رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ.. فيما يرويه عن ربِّه عز وجل – قال: ((إذا تقرَّب العبد إليَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً، وإذا تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّبت منه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيته

(١) أي: أعلمته بأني محارب له.

هرولة)) وهذا أيضاً مجاز، يدل على أن من أتى شيئاً من الطاعات، ولو قليلاً قابله الله تعالى بأضعاف فعله من الرِّضا والإكرام والثواب، وذلك دليل على سعة كرم الله وفضله على عباده.

وما أسعد الإنسان الذي يستغل أوقات شبابه وقوته، وصحته، وفراغه، ومقدرته المالية والجسدية، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)) أي إن الحرص على الاستفادة من حال الصحة والفراغ، لكثرة الطاعة، ومزيد العبادة، وفعل الخيرات، يعدُّ رأس مال مدَّخر للإنسان عند ربِّه، والله لا يضيع أجر المحسنين، وهذا يدل على قيمة الوقت في نظر الإسلام. أما أولئك اللاهون المعرضون عن طاعة الله، المضيعون لأوقاتهم، فهم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

هذه التوجيهات القرآنية والنَّبوية في جهاد النفس والإقبال على طاعة الله تعالى تعود بالخير العميم على الإنسان، وهو الرابح في الحقيقة.

- ٢٠ -

ثواب فعل الخيرات والمجاهدة

مجاهدة النفس ومحاربة الأهواء طريق لمرضاة الله تعالى، والمجاهدة تتطلب العزيمة، والتشمير للعبادة، وكثرةَ الشكر على نعم الله تعالى، ووفاء حق النعمة، وكلما كان الإنسان مجاهداً نفسه، محباً للخير وفعله، كان قوي الإرادة، عالي الهمة، بعيد النظر، حريصاً على تحقيق النفع والأثر الخالد في المستقبل، راضياً بقدر الله، متجاوزاً محنته إلى مراد الله ومحبته، والتزام الأدب مع الله سبحانه.

وتكون النتيجة الخيِّرة خيراً للإنسان نفسه، سواء كان عبادة، أو جهاداً في سبيل الله، أو نفقة في مرضاة الله، أو غير ذلك من أنواع العمل الصالح، بدليل قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ [الزلزلة ٩٩/٧] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ [المزمل ٧٣/٢٠]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢/٢٧٣]، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد ٥٧/١١].

وإذا قيست أعمال الشعوب والأفراد، وقورنت ببعضها، لم نجد كأهل الإيمان أشد رغبة في الخير منهم، لأنهم يدخرون ثواب أعمالهم الصالحة عند الله عز وجل، ويؤثرون الآخرة على الدنيا، ويترفعون عن الشهوات والماديات

الفانية. وهذا دليل اليقظة والصحوة، وبشير خير وعمل على صنع مستقبل زاهر كريم.

ولا شك بأن للنصوص الشرعية أثراً كبيراً في توجيه النفوس نحو فعل الخير، والعمل الصالح، والاعتقاد السديد المنجي عند الله تعالى، سواء في القرآن الكريم أو في السُّنة النبوية الشريفة؟

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: ((**المؤمن القوي خير وأحب إلى ا لله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن با لله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر ا لله، وما شاء فعل، فإن** (لو) **تفتح عمل الشيطان**)). أي إن قوي العزيمة والهمة، الذي يؤدي الفرائض من الصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، هو أحب وأرضى لله، من المؤمن الضعيف، وفي الاثنين خير، لاشتراكهما بأصل الإيمان، فإياك أن تقع في العجز، أي التفريط في طلب ما ينفعك، وإياك أن تعترض على ما قضى الله وقدر، أو تتفكر في الماضي بطريق الاستدراك، فإن كلمة (لو) تفتح الباب لوساوس الشيطان المؤدية للخسران.

والنبي ﷺ هو المثل الأعلى لأمته في الإكثار من الطاعة وقوة العزيمة، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطَّر قدماه[1]، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: ((أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً)). والشكر: الإقرار بالنعمة، ومقابلتها بالطاعة، وترك المعصية. ومغفرة الله لنبيِّه: من قبيل مغفرة ما هو الأدنى أو ترك الأولى في مقابلة الأسمى، أو ما يسمى من باب:

(١) أي: تتشقّق.

حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين، فهذا يعدُّ ذنباً بحق ذوي المراتب العليا، وهو في الواقع لا يستحق المؤاخذة عليه.

وفي حديث آخر متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ((كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر (أي الأخير من رمضان) أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجدّ، وشدّ المئزر)) أي الإزار، وهو كناية عن اعتزال النساء، والتشمير للعبادة.

ومن المعلوم أن مجاهدة النفس لها سبب: وهو ميل النفس للمعصية، جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((حُجبت النار بالشهوات، وحُجبت الجنة بالمكاره)). وفي رواية لمسلم: ((حُفَّت)) بدل ((حُجبت)) والمعنى واحد، وهو تمثيل المكاره بالحجاب، وفائدة هذا التمثيل: أن الجنة لا تنال إلا بتخطي المكاره وتجاوزها والصبر عليها، وأن النار لا نجاة منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها.

روى الترمذي في حديث حسن عن أبي صفوان عبد الله بن بُسْر الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((خير الناس: من طال عمره، وحسن عمله)).

-٢١-

الحياة المعتدلة في ميزان الشرع

التشريع الإلهي كله خير وحكمة، وعدل ورحمة، ومصلحة للعباد، وميزان عدل للأعمال، وذلك كله من أجل إقامة توازن مستقر، وحياة رشيدة، ليصلح الإنسان والمجتمع، وطريق هذا التوازن: كثرة العبادة التي تذكّر بالله تعالى، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وتقمع الظلم، وتوجّه الناس لطلب الهداية الإلهية، والاستعانة بالله والدعاء له، وتفويض الأمر لسلطان الله وهيمنته على الوجود كله، فإن الله لا تنفعه طاعة، ولا تضرّه معصية. ويجد الإنسان في الحساب الأخروي دقة الميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفَى بِنا حاسِبِينَ﴾ [الأنبياء ٢١/٤٧]. وقال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهَذا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف ١٨/٤٩].

والذي يجده الإنسان بعد موته: هو عمله الصالح أو الطالح، جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: ((يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله، ويبقى عمله)).

ومن فضائل العبادة: ما رواه مسلم عن أبي عبد الله، ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ. يقول: ((عليك بكثرة السجود، فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحطَّ عنك بها خطيئة)).

ويتوِّج هذا الحديث القدسي الآتي جميعَ الأحاديث في بيان نظام الحياة الدينية - التشريعية في الإسلام. روى مسلم عن أبي ذر جُندُب بن جُنادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

- **((يا عبادي، إني حرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلته بينكم محرَّماً، فلا تظالموا.**

- **يا عبادي، كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم.**

- **يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم.**

- **يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أَكْسِكم.**

- **يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم.**

- **يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.**
- **يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنّكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.**

- **يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنّكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.**

- **يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيط إذا أُدخل البحر!**

- **يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفِّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه)).**

تضمن هذا الحديث الشريف عدة مبادئ وأحكام، أهمها: تحريم الظلم بين الناس، ومشروعية الدعاء بطلب الهداية وطلب الرزق، لأن الرزق بيد الله بعد اتخاذ الأسباب. ومشروعية الاستغفار وطلب التوبة، فالله يغفر جميع الذنوب إذا صدقت النّية، وإن الله تعالى لا تنفعه الطاعة، كما لا تضرّه المعصية. وإن الباقي في ميزان الحساب ورصيد الإنسان: هو العمل، فإن كان خيراً، كانت النجاة، وإن كان شرّاً، كان الهلاك والدمار والعذاب.

ولا يصح لأحد أن يغترّ بحلم الله عليه، فإن الله يؤخر الإنسان ليوم الحساب، كما أنه لا يجوز استبعاد القيامة وأهوالها، فهي قريبة تماماً. روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله[1]، والنار مثل ذلك». وهذا دليل واضح على أن الطاعة مؤدية إلى الجنة، وأن المعصية مؤدية حتماً إلى النار والعذاب، ويستحق الإنسان الجنة أو النار بحسب فعله الذي قام به في الدنيا، وذلك بميزان عادل قويم.

(١) أحد سيور النعل في وجهه.

-٢٢-

اغتنام فرص الخير أواخر العمر

الحياة الإنسانية طويلة وقصيرة، طويلة نسبياً إذا عددنا الأيام والشهور والساعات والسنوات التي يعيش فيها الإنسان، وقصيرة جداً، لأن العمر كالبرق يمرُّ بسرعة مرَّ السحاب، والوقت سريع الانقضاء والزوال، إذا لم يغتنمه الإنسان، ولا سيما أواخر العمر، لأن الإنذار بالموت والرحيل عن الدنيا يصبح قريباً، فيكون من مقتضى العقل والحكمة استغلال أواخر الأجل، ليتحقق حسن الختام، ويتدارك الإنسان ما فاته من تقصير في سالفات أيامه، ومن هنا ذكَّر القرآن الكريم باستدراك أيام أو سنوات العمر الأخيرة، ليكون العبد من عداد المقبولين، فاللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر ٣٥/٣٧]. قال ابن عباس والمحققون: معناه: أوَ لم نعمِّركم ستين سنة؟ وقوله تعالى: ﴿وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ قال ابن عباس والجمهور: هو النبي ﷺ، وقيل: الشيب، قال عكرمة وسفيان بن عيينة وغيرهما. والشيب يأتي بعد سنِّ الكهولة، وهو علامة مفارقة سنِّ الشباب.

ألا يستدعي هذا التنبيه بتدارك الوقت أو الأجل شكر الله تعالى، ومزيد محبته، وحرصه على جلب الخير للإنسان، وتحقيق النفع، والإعداد للمغفرة والجنان؟!

إن الإنسان العاقل إذا نصحه آخر نصيحة حققت له خيراً، أو دفعت عنه شرّاً، بقي طوال العمر مديناً له بالفضل والمعروف، ويحرص على تقديم مقابل معروفه بشتى الوسائل، أفلا يجدر بنا أن نتعظ بالقرآن وهديه، ونشكر الله على ما أولانا من عناية ورعاية؟!

أكدت الأحاديث النبوية هذا المعنى في أحاديث، منها ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((**أعذر ا لله إلى امرئ أخّر أجله، حتى بلغ ستين سنة**)) قال العلماء: معناه: لم يترك له عذراً إذا أمهله هذه المدة. يقال: أعذر الرجل: إذا بلغ الغاية في العذر. وقال ابن حجر: الإعذار: إزالة العذر، والمعنى أنه لم يَبْقَ له اعتذار أن يقول: لو مُدَّ لي في الأجل، لفعلت ما أُمرت به، ونسبة الإعذار إلى الله تعالى مجازية، والمعنى: أن الله تعالى لم يترك للعبد سبباً للاعتذار يتمسك به. والحديث يدل على أن الله تعالى لا يعاقبه إلا بعد إقامة الحجة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء ١٥/١٧]. وفي الحديث إشارة إلى أن استكمال الستين مظنة أو أمارة قوية لانقضاء الأجل.

وقد أمر الله تعالى نبيَّه في سورة النصر بالاستغفار تنبيهاً على دنوِّ الأجل؛ لأنه يكون في خواتم الأمور، وتعليماً وإرشاداً لنا، فقال سبحانه: ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوّاباً﴾ [النصر ١/١١٠ - ٣]. جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول فيها: ((سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)).

وسبحانك: أي تنزيهاً لك عما لا يليق بك من كل نقص، وإذا دلَّ هذا الحديث على مزيد استغفار الرسول ﷺ وإقباله على ربِّه، فنحن أولى وألزم

باللجوء إلى كثرة الاستغفار والتوبة، واستحباب ذلك وندب الدعاء، اقتداء بهذا النبي عليه الصلاة والسلام.

وليس آخر العمر معفيّاً من المسؤوليات والواجبات، كما يظن بعض الناس، بدليل الحديث المتفق عليه في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: ((إن الله عز وجل تابع الوحيّ على رسول الله ﷺ قبل وفاته، حتى توفي، أكثر ما كان الوحي عليه)) أي توفي النبي ﷺ وقت نزول الوحي عليه بكثرة، وهو إشارة إلى دنوِّ الأجل وانتهاء العمر.

وإن اللحظات الأخيرة من العمر أشدُّ الأوقات حساسية، وتقريراً لمصير الإنسان؛ لأن بها تقرير الخاتمة، روى مسلم عن جابر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: ((يبعث كل عبد على ما مات عليه)) أي يحشر على الحالة التي مات عليها، فإن كان متلبساً بالطاعة حشر وهو مطيع، وإن كان متلبساً بالمعصية، حشر وهو عاصٍ. وفي هذا حثّ على حسن العمل، وعلى الازدياد من الطاعات في سائر الأوقات، لاحتمال قرب الموت ومفارقة الحياة.

-٢٣-

الاعتدال في التَّديُّن

- ١ -

لقد امتاز الإسلام بيسر تكاليفه، وسماحة أحكامه، ودفع الحرج أو المشقة عن الناس في أمورهم كلها، وقد راعى الإسلام في هذا أحوال الضعف في الإنسان، وتعرُّضه للعجز أو المرض أو السفر في فترات العمر، فشرع له مالا يشق على النفس، وكان بهذا تشريعاً وسطاً معتدلاً، لا إفراط فيه ولا تفريط، ولا إعنات ولا إحراج، وبذلك جنَّب المسلمين أحكام الشدة والعسر التي كانت مشروعة على من قبلنا، وتفضل الله تعالى برفعها عنا، مثل قتل النفس حال التوبة، وقَرْض الثوب إذا تنجس، ومنع الصلاة في غير المعبد المخصص للعبادة، وإيجاب ربع المال في الزكاة.

قال الله تعالى مبيناً أصول شرعه الحكيم في القرآن، وضرورة الاقتصاد في الطاعة: ﴿رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً[1] كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا﴾ [البقرة ٢/٢٨٦]. وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة ٢/١٨٥]. وقال عز وجل: ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج ٢٢/٧٨]. وقال جل جلاله: ﴿طه : ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه ٢٠/١ - ٢].

---

(١) الإصر: الثقل.

هذه كلها بيانات تشريعية أصلية في ديننا الحنيف، تقرر مبدأ اليسر والسهولة والسعة، ودفع الحرج والمشقة، والاعتدال في الطاعة، بل وفي جميع أحكام الشريعة في العبادات والمعاملات المبنيَّة على الرحمة والحكمة، والمصلحة، والعدل واليسر، وقصد الاستمرار أو الدوام.

ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ دخل عليها، وعندها امرأة، قال: ((مَن هذه؟)) قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها، قال: ((مَهْ[1]، **عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملُّ اللهُ حتى تملّوا. وكان أحبُّ الدين إليه ما داوم صاحبه عليه**)).

أي لا يقطع الله ثوابه عنكم وجزاءَ أعمالكم، ويعاملكم معاملة المالِّ، حتى تملُّوا فتتْرُكوا، فينبغي لكم أن تأخذوا ما تطيقون الدوام عليه، ليدوم ثوابه لكم وفضله عليكم.

دلَّ الحديث على أمور ثلاثة وهي: الاعتدال في أداء العبادة، وكراهة كثرة العبادة منعاً من الملل والفتور، وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ.

وإمامُنا في التوسط والاعتدال في التدين: هو رسول الله ﷺ؛ لأن للحياة الإنسانية مطالب أخرى، وفيها مشاغل وتعقيدات تشغل الإنسان، لكسب رزقه، ولا سيما في عصرنا الحاضر، والدليل: هو السيرة النبوية، أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط[2] إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ. فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها[3]. وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، وقد غُفِر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر! قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أُفطر، وقال الآخر: وأنا

(١) هي كلمة زجر ونهي.

(٢) أي: ثلاثة رجال.

(٣) أي: عدّوها قليلة.

أعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً، فجاء رسـول الله ﷺ إليهـم فقـال: ((أنتـم الذيـن قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم لـه، لكـني أصوم وأُفطر، وأُصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنَّتي فليس مني)).

أرشد هذا الحديث إلى ضرورة التأسي برسـول الله ﷺ في التوسـط بالعبـادة، وكراهية الانقطاع لها، بقيام الليل كله، أو صيام الدهر كله، أو الرهبانيـة وتـرك الـزواج. ويؤيـد ذلـك مـا أخرجـه مسـلم: ((هلـك المتنطِّعـون)) قالهـا ثلاثـاً، أي المتعمقون المتشدِّدون في غير موضع التشديد.

وأعلن النبي ﷺ مبدأ اليسر في الدين في حياته الشريفة، أخرج البخـاري عـن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((**إن الدين يُسْرٌ، ولن يشادَّ هذا الدِّيـنَ أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا، وقاربوا، وأبشـروا، واسـتعينوا بـالغَدْوة والرَّوْحـة وشـيء مـن الدُّلْجة**)).

أي من حاول مشادّة الدين، غلبه الديـن، وعجـز ذلـك المشـادّ عـن مقاومـة الدين لكثرة طرقه. والغَدْوة: السير أولَ النهـار، والرَّوْحـة: السير آخـر النهـار. والدُّلجة: آخر الليل. وهذا استعارة وتمثيل، ومعناه: استعينوا علـى طاعـة الله عـز وجل بالأعمال في وقت نشاطكم، وفراغ قلوبكم، بحيث تستلذون العبـادة، ولا تسأمون، وتبلغون مقصودكم، كما أن المسافر الحاذق يسـير في وقـتِ النشـاط، في هذه الأوقات، ويستريح هو ودابته في غيرهـا مـن الأوقـات، فيصـل المقصـود بغير عناء وتعب.

-٢٤-

الاعتدال في التَّديُّن

-٢-

أُحيطت العبادات الإسلامية كلها باليسر والسماحة، ودفع الحرج والمشقة، لتيسير أدائها على الناس، ومن أجل المداومة عليها، والإقبال عليها بنشاط وراحة نفس، وبُعْد عن السَّأم والملل، أو التعب والإرهاق، وهذا مظهر من مظاهر الترغيب في الإسلام، والحماس له، والدفاع عنه، والاستمرار عليه.

والمشقة التي تشتمل عليها بعض العبادات من حبس النفس في أثناء الصلاة مثلاً، والصبر على أدائها، أو السَّعي إلى أماكن ممارستها، هي مشقة معتادة مألوفة، لا تُفسد على النفوس تصرفاتها ولا توقعها في الضيق والعناء. أما المشقّة غير المعتادة: وهي التي تُفسد على النفوس تصرفاتها، فهي مرفوعة في التكاليف الشرعية، تفضلاً من الله ورحمة.

ونلاحظ حين تشريع الشرائع في الإسلام: أن الله تعالى يذكر حكمة التشريع، ولاسيما التنويه برفع الحرج، وبيان اليسر والتسهيل، مثال ذلك: ما عقَّب به المولى جل جلاله على آية مشروعية الوضوء، ثم التيمم عند وجود العذر من مرض أو سفر، فقال الله تعالى: ﴿ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة ٦/٥].

وكذلك الشأن في إرشاد النبي ﷺ، ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي: أخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال:

((إذا نَعَس أحدكم وهو يصلي، فليرقُدْ حتى يَذْهب عنه النوم، فإنه إذا صلّى، وهو ناعس، لا يدري لعله يذهب يستغفر، فيسبُّ نفسه)). وهذا يدلُّ على كراهة إجهاد النفس في العبادة، وترك التشدُّد والغلوّ فيها، والاقتصاد والاعتدال في أدائها.

وأخرج مسلم عن أبي عبد الله جابر بن سمُرة رضي الله عنهما قال: ((كنت أُصلّي مع النبي ﷺ الصلوات، فكانت صلاته قصداً، وخطبته قصداً)) أي متوسطة بين الطول والقِصَر.

ووجَّه النبي ﷺ أمَّته إلى إعطاء كل ذي حق حقه، أخرج البخاري عن أبي جحيفة وَهْب بن عبد الله رضي الله عنه قال: ((آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمانُ أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مبتذلة[1]، فقال: ما شأنكِ؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً، فقال له: كُلْ فإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل، ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال له: نَمْ، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال له: نَمْ، فلما كان آخرُ الليل، قال سلمان: قمِ الآن، فصلَّيا جميعاً، فقال له سلمان: ((**إنَّ لربك عليك حقّاً، وإن لنفسك عليك حقّاً، ولأهلك عليك حقّاً، فأعطِ كل ذي حق حقه**)).

فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: ((صدق سلمان)).

دلَّت هذه القصة العظيمة على أن الإسلام دين الوسطية والاعتدال، وأن المستحبات أو المندوبات والتطوعات تترك أو تؤجل إذا ترتب عليها إضاعة الحقوق المطلوبة في الحياة، سواء فيما يخصُّ النفس أو الآخرين، ومن أخص الحقوق: مراعاة حقوق المرأة على زوجها، من الإيناس، وحسن المعاشرة، والكلام الطيب، والتعاون المفيد أو الضروري في المنزل.

(١) أي: لابسة ثياب البذلة وهي المهنة، أي غير معتنية بمظهرها وزينتها.

ويؤكد ذلك ما رواه مسلم عن أبي رِبْعي حنظلة بن الربيع الأُسيدي أحد كتّاب رسول الله ﷺ حيث قال له النبي ﷺ: ((والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذِّكْر، لصافحتكم الملائكة على فُرُشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعةً وساعةً)) ثلاث مرات، أي ساعة لأداء العبادة، وساعة للقيام بما يحتاجه الإنسان من طعام وشراب، ولهو مباح، لأن الإسلام دين الفطرة والواقع، والتوسط والاعتدال، والجمع بين مطالب الروح والجسد، وبين مصالح الدنيا والآخرة.

وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجلٍ قائمٍ، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس، ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبي ﷺ: ((مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه)).

-٢٥-

المحافظة على الأعمال

إن الله تعالى يحب من عباده مداومتهم على أداء الأعمال الصالحة، ليدوم ثوابه وفضله عليهم، ويجدوا ثمرة العمل وافرة كريمة غير منقوصة في الآخرة، ويكره الله سبحانه الانقطاع عن الأعمال، والتخلي عن الواجبات، ويحب الالتزام بالمشروعات، لأن أداء الطاعة حيناً وتركها حيناً آخر، نوع من العبث والإخلال بما يجب على العبد نحو ربِّه من شكر للفضل، ووفاء بالمعروف ومقابلة الرزق بالحمد، وصنع الجميل، لذا عاتب الله تعالى المقصرين، ووبَّخ المهملين بقوله:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ [الحديد ٥٧/١٦].

أي ألم يحن لأهل الإيمان أن تستكين قلوبهم لذكر الله، وما أنزل من الحق: وهو القرآن، ولا يكونوا كأهل الكتاب الذين بعُد الزمن بينهم وبين أنبيائهم، فصلبت قلوبهم، وأكثرهم عصاة منحرفون عن هدي الله تعالى. قال الله تعالى أيضاً: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنا عَلَى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الإِنْجِيلَ

وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها..﴾ [الحديد ٥٧/٢٧].

والرهبانية: الانقطاع للعبادة عن الناس، وهي لم يفرضها الله عليهم، وإنما استحدثوها، بقصد التوصل إلى مرضاة الله، فلم يحافظوا عليها.

ونهى الله المؤمنين من التشبه بالمرأة الحمقاء: التي تغزل غزلها طوال النهار، ثم تنقض ما غزلته، فقال: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً﴾ [النحل ١٦/٩٢]. أي تجعله بعد إحكام له نقضاً.

وأمر الله تعالى نبيه ﷺ بمداومة العبادة حتى الموت بقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر ١٥/٩٩].

هذه الآيات الكريمات ترغب في المحافظة على الأعمال الصالحة، ورعاية حقوق الله وعبادته حتى الموت.

ويؤكد ذلك أحاديث كثيرة، منها الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها: ((**وكان أحبُّ الدين إليه ما داوم صاحبه عليه**)).

وروى مسلم عن عائشة أيضاً، قالت: ((كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة)). وهو دليل على جواز قضاء النوافل، وعلى تدارك ما فات لعذر.

ويحذّر النبي عليه الصلاة والسلام من ترك التهجد، فيقول في الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((يا عبد الله، لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل، فترك قيام الليل)). وهذا يدل على استحباب المداومة على عمل الخير، وأخصه التهجد في أواخر الليل قبل الفجر.

ويرشد لهذا المعنى أيضاً: ما رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ((من نام عن حِزْبه[1] من الليل، أو عن شيء منه، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كُتب له كأنما قرأه من الليل))، والمراد بكلمة ((حزبه)) أي ما اعتاده الإنسان من صلاة وتلاوة وأذكار وغيرها، وهو دليل على ندب المحافظة على الأعمال، وأن من فاته وِرْد، أي ذِكْر معتاد، فقضاه في صبيحة يومه، كان كمن أداه في وقته.

هذه توجيهات نبوية كريمة تدل على أن الإسلام والإيمان والعبادة منهج متكامل، يرفد بعضه بعضاً، وأن من اتصف بصفة أو تخلق بخلق كريم، أو اعتاد أداء عبادة أو تلاوة قرآن أو ترداد أذكار من التسابيح والتهاليل والتكبيرات والمحامد وشكر الله عز وجل، فعليه أدباً أن يظل مواظباً عليها، حتى ترسخ العبادة في النفس، وتستضيء بنور الله، وتشيع في أصائل القلب أحوال استذكار عظمة الله وخشيته والخضوع له، والعبودية له.

وهذا المنهج النبوي مردّه إلى التوجيه القرآني في الآيات السابق ذكرها، فإن من أرضى ربّه حيناً، يقبح منه أن يهجر هذا الإرضاء، ويقطع هذا الأصل، والاقتراب من ربِّه، فإن أناساً من الكتابيين وغيرهم شغلتهم الأهواء والشهوات الدنيوية، فانقطعوا عما بدؤوه، وهذا إخلال بالعهد، وهجر للوصل، مما يؤدي إلى الحرمان من أفضال الله تعالى، واستمرار رحمته، ورعاية الأدب معه، والتخلي عن رعاية حقوق الله تعالى.

وما من إنسان بسبب عجزه وضعفه، أو انشغاله، أو نسيانه وغلبة النعاس أو الإهمال عليه، إلا وهو معرَّض للتقصير، وفوات ما يمارسه من أعمال صالحة، فكان من فضل الله فتح باب آخر، ووقت آخر، لتدارك ما فات، وجبر ما حدث من نقص.

---

(١) أي ورْده من الأذكار وغيرها.

-٢٦-

المحافظة على السُّنة النبوية

إن كل شيء يحتاج إلى تنفيذ، وإن الأوامر والنواهي تتطلب البيان القولي والعملي، وإن الوحي الإلهي بأحكام الشرائع والآداب، لا يقتصر على الوحي المباشر المتكامل باللفظ والمعنى، وهو القرآن الكريم، وإنما يصحبه وحي آخر بالمعنى للنبي الرسول المكلَّف بتبليغ ما أُنزل إليه من ربه، والوحي إلى الرسل الكرام وحي بالمعنى، متمم ومكمل للوحي الكامل المتجسد في القرآن، وتكون السنة النبوية بياناً ضرورياً، وقد تكون إضافيةً لما جاء في القرآن، ويصبح مصدرُ التشريع بنحو طبيعي هو القرآن والسنة، ومرد الأمرين إلى الله تعالى بدليل قول الله سبحانه: ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم ٥٣/٣ - ٤].

وهذا ما أعلنه الله تعالى في كتابه في آيات كثيرة، توجب العمل بما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه، قال الله تعالى:

﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ [الحشر ٥٩/٧].

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران ٣/٣١]. وقال عز وجل: ﴿ لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب ٢١/٣٣]. وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء ٥٩/٤].

قال العلماء: معناه الرد إلى الكتاب (أو القرآن) والسنة.

تدل هذه الآيات الكريمة على وجوب العمل بالسنة النبوية، مثل العمل بالقرآن العظيم، لأن المصدر واحد، والتكامل بينهما ضروري، والغاية واحدة. وهذا شيء طبيعي في كل دستور أو قانون، لا بد لتنفيذ مقتضاهما من وجود ما يسمى بالمذكرة الإيضاحية، التي تبين للناس المراد من القانون الذي قد لا يفهمه كثير من الناس، وقد لا يدركون الحكمة أو الغاية منه، فيكون الإيضاح شيئاً لازماً، حتى يتحقق المطلوب، ويصبح النظام واضح المعالم.

ومن هنا، كانت السنة النبوية مكملة للقرآن الكريم، تبين مجمله، وتوضح غوامضه، وتفصِّل مراده، وتخصص عامه، وتقيد مطلقه، وقد تضيف شيئاً آخر بأمر الله إلى ما جاء فيه بصفة عمومية، والأمثلة على ذلك كثيرة في السنة، مثل تحريم لحوم الحمر الأهلية، وتحريم أكل كل ذي ناب من السباع، وكلِّ ذي مخلب من الطير، وتحريم زواج المرأة على عمتها أو على خالتها، وتحريم بيع الشيء قبل القبض، وتحريم بيع الغرَر (بيع الأشياء الاحتمالية، المترددة بين الوجود والعدم) ونحو ذلك، كل هذا ثابت بالسُّنة النبوية.

والمبدأ العام في هذا: هو ما أعلنه النبي ﷺ - فيما يرويه الترمذي عن المقدام ابن معديكرب رضي الله عنه - حيث يقول: «ألا إني أُتيت هذا الكتاب ومثله معه». أي أوتيت من الوحي الباطن غيرِ المتلو مثل ما أعطيت من الوحي الظاهر المتلو، وأوتيت الكتاب وحياً، وأوتيت من البيان مثله، أي إذا لم يُتبين ما في

الكتاب، فيعمُّ ويخصُّ، ويزيدُ عليه، ويشرع النبي ما ليس في الكتاب، فيكون وجوب العمل به ولزوم قبوله، كالظاهر المتلو من القرآن.

يوضح هذا المبدأ العام أحاديث كثيرة صحيحة، منها الحديث المتفق عليه بين الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((**دعوني ما تركتكم: إنما أهلك من كان قبلكم كثرةُ سؤالهم، واختلافُهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**)).

وهو يدل على وجوب ترك كل منهي عنه من النبي إذا كان النهي جازماً، أو ندب تركه إذا كان النهي غير جازم، وفعل المأمور به على قدر الاستطاعة.

وفي حديث آخر رواه أبو داود والترمذي عن أبي نُجيح العِرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغة، وَجِلت منها القلوب، وذرَفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودِّع، فأوصنا، قال: ((أوصيكم بتقوى الله، والسمعِ والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبد حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)).

والبدعة: ما أحدث على خلاف أمر الشرع، والضلالة: البعد عن الحق والهدى.

وهو صريح في وجوب اتباع السنة على أنها تشريع مثل القرآن الكريم، والعمل بسنة الخلفاء الراشدين: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، على أنها تنفيذ وتطبيق، لا تشريع مبتدأ، لأن التشريع المبتدأ ليس لأحد غير الله عز وجل بالوحي بقسميه: المتلو وهو القرآن، وغير المتلو وهو السنة.

وأمر النبي ونهيه من أجل ضمان استقامة أمته، لذا كان حريصاً كل الحرص على هذا، روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَثَلي ومَثلكم كمثَل رجل أوقد ناراً، فجعل الجَنَادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبُّهن عنها، وأنا آخذ بحُجَزكم عن النار، وأنتم تُفْلتون من يدي)). والجنادب نحو الجراد، والفَراش: هو الذي يطير وهو المعروف الذي يقع في النار كالبعوض، ويذبُّهن: أي يمنعهن ويدفعهن، والحُجَز جمع حُجْزة: وهي معقِد الإزار والسراويل.

-٢٧-

إطاعة النبي ﷺ

النبي الرسول صلوات الله وسلامه عليه مكلَّف بتبليغ شرع ربِّه، وما أنزل عليه، من حلال وحرام، وفروض وتكاليف، وآداب وأخلاق، وتشريعات وأنظمة، فتجب طاعته في كل ما أمر به وما نهى عنه، وإلا أدى الأمر إلى تفريغ الرسالة النبوية من محتواها، وإلغاء منصب الرسول. ومن يتهاون في شأن السنة النبوية الثابتة القولية أو العملية أو التقريرية، كان مضيعاً للإسلام، معطّلاً للقرآن، جاحداً بالرسالة الإلهية، وكافراً بما أنزل الله تعالى في قرآنه، مثل قوله سبحانه:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ﴾ [النساء ٤/٨٠].

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران ٣/٣٢].

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران ٣/١٣٢].

وما أكثر الآيات الواردة بصيغة الأمر هذه، والأمر يقتضي الوجوب، بل نفى الله الإيمان عمن أعرض عن تحكيم الرسول في آية: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء ٤/٦٥]. وحذّر الله تعالى من مخالفة أمر الرسول في آية ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور ٢٤/٦٣]. وأوجب الله تعالى ردّ الأمر المتنازع فيه إلى الكتاب والسنة،

فقال: ﴿فَإِنْ تَنازَعْتُمْ[1] فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء ٤/٥٩]. ووصف الله مسعى الرسول بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِراطِ اللَّهِ﴾ [الشورى ٤٢/٥٢ - ٥٣].

وحثَّ الله زوجات النبي على اتباع الكتاب والسنة فقال: ﴿وَاذْكُرْنَ ما يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب ٣٣/٣٤].

هذه توجيهات قرآنية قاطعة الدلالة على حجية السنة النبوية الصحيحة، بجميع أنواعها القولية والفعلية والتقريرية، كحجية القرآن الكريم. وجاءت الوصايا النبوية الكثيرة مؤيدة لذلك، أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**كل أمتي يدخلون الجنة، إلا من أبى، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**)). ومن وقائع مخالفة الأمر النبوي ما أخرجه مسلم عن أبي مسلم (أو أبي إياس) سَلَمة بنِ عمرو بن الأكوع رضي الله عنه: أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشِماله، فقال: ((كُلْ بيمينك))، قال: لا أستطيع قال: ((لا استطعت)) ما منعه إلا الكِبْر، فما رفعها إلى فيه. وقوله: ((لا استطعت)): دعاء عليه، لاستكباره عن العمل بالسنة. وفي الحديث دليل واضح على استحباب الأكل باليمين، وكراهية الأكل بالشمال، حيث لا عذر يمنع من الأكل كمرض أو قطع، وكل أمر شريف مستحسن هو مثل الأكل يستحب مباشرته باليمين. وعكسه: وهو الأمر الخسيس تستحب مباشرته بالشمال.

ومن وقائع المخالفة الجماعية: ما رواه البخاري ومسلم عن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لتسوُّن صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم))، فمن رفض تسوية الصفوف،

---

(١) أي: اختلفتم.

لهذا الوعيد، وهو إما على الحقيقة، أي تحويل خلقه عن موضعه، بجعله موضع القفا، وإما على المجاز، وهو الأولى، أي يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف الآراء والقلوب.

وما أجمل هذا التصنيف الآتي بيانه لأحوال الناس من الحرص على الأخذ بالسنة أو إهمالها، ورد في الصحيحين عن النعمان بن بشير أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب[1] أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفةً منها أخرى إنما هي قيعان[2]، لا تمسك ماء ولا تُنبت كلأ، فذلك مثل من فَقُه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)).

هؤلاء أصناف ثلاثة: الصنف الأول الذي يتعلم العلم ويعلّمه وينتفع بعلمه، وهو كالأرض الطيبة الخصبة ينتفع وينفع نفسه. والصنف الثاني الذي يتعلم العلم ويعلّمه ولم ينتفع به، وهو كالأرض الصلبة الممسكة للماء، ينتفع بها الناس. والصنف الثالث الذي لم يتعلم ولم يعمل، هو كالأرض المستوية التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، وهذا شر الناس، لا ينفع ولا ينتفع بهدي رسول الله ﷺ. وهذا دليل على بيان فضل من استفاد وأفاد، فعَلِم وعلَّم وانتفع بالهدي النبوي، كانتفاعه بالقرآن الكريم تماماً. ومن أمثلة إطاعة الرسول: ما ورد في الصحيحين من قول عمر رضي الله عنه عن الحجر الأسود: ((أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتك)).

---

(١) أجادب: جمع أجدب، وهي الأرض التي لا تنبت.

(٢) قيعان جمع قاع: وهي الأرض المستوية أي: المسطحة التي لا عمق فيها، أو التي لا نبات فيها.

-٢٨-

اتباع حكم الله تعالى

إن إنزال الشريعة الإسلامية الخاتمة للشرائع يتطلب الامتثال والانقياد لحكم الله تعالى على مدار الزمان، وهذا هو الهدف من التشريع الإلهي، الذي أنزله الله حكماً عدلاً، ونظاماً متقناً، وقانوناً إلهياً ملزماً، فيجب على المؤمنين والمؤمنات به اتباع جميع ما جاء فيه، والعمل بكل ما ورد فيه من الفرائض والأحكام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن أعرض عن اتباع حكم الله، استحق العذاب، و لم يكن من أهل الإيمان، وإنما ينحاز إلى فئة الكفار المعرضين عن الهدي الإلهي.

قال الله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء ٤/٦٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور ٢٤/٥١]. وقد بشرنا الله تعالى بجنان الخلد عند الطاعة، فقال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ [النساء ٤/٦٩].

وهذه قصة واردة في السنة النبوية الشريفة عن الطاعة والعصيان، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركَب، فقالوا: أي رسول الله، كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والجهاد والصيام والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها.

قال رسول الله ﷺ: **أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم، سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير**. فلما اقترأها القوم، وذلّت بها ألسنتهم، أنزل الله تعالى في إثْرها[1]: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا﴾.

قال: نعم.

﴿رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا﴾

قال: نعم.

﴿رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ﴾

قال: نعم.

﴿وَاعْفُ عَنّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾

---

(١) إثرها: عقب نزولها من غير فاصل.

قال: نعم.

هذه الآيات تخفيف من الله ورحمة، وتدرج في التشريع أو انتقال من حكم أشد إلى حكم أخف، يسمى نسخاً في اصطلاح العلماء، فإن الصحابة الكرام تخوفوا من الآية الأولى: ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ﴾ وفهموا أن الله سيؤاخذهم بما لا قدرة لهم على دفعه، من الخواطر التي لا تكتسب، وأحاديث النفس العارضة التي تطرأ، ثم تزول بسبب وسواس الشيطان، ورأوا ذلك من فئة التكليف بمالا يطاق.

فلما قرؤوا الآية، وأعلنوا انقيادهم لحكم الله، وقالوا: سمعنا وأطعنا لربّنا، من غير اعتراض عليه، أخبرهم الله سبحانه: أنه خفف عنهم، ورفع عنهم المشقة، وأبان أنه لا يؤاخذهم على الخواطر والنّيات المحضة، من غير عزم ولا تنفيذ، وعلى أحاديث النفس الطارئة، وعلّمهم الله كيف يدعونه ويسألونه، ويتجهون إليه. وكان جواب الحق تعالى على هذا الدعاء: ((نعم قد فعلت)).

والآية نص واضح على سماحة الإسلام ويُسْر أحكامه، وتخفيف شرائعه، وترك الشاق من التكاليف والأحكام الشديدة التي كانت مقرَّرة على من كان قبلنا، وهذا لطف من الله تعالى وكرم منه، وبيان أن هذه الشريعة شريعة سمحة سهلة، لا تضييق فيها، ولا إعنات ولا إحراج، ولا عسر ولا تكليف بما لا يطاق.

فاللهم لك الحمد على ما تفضلت به ورحمت، وأعطيت ومنحت، وشرعت فخففت ويسَّرت، فإنا قوم ضعاف، لا غنى لنا عن فضلك ورحمتك وإحسانك.

- ٢٩ -

البدع المستحدثة

صان الله تعالى هذا الدين، وحفظه للأجيال المتتابعة بحفظ القرآن الكريم من أي تغيير أو تحريف أو تبديل أو زيادة أو نقص، ولم يسمح الشرع بإدخال شيء من الدين مهما كان إذا كان منافياً له، لأن المشرع الوحيد: هو الله تعالى، ولم يُجز الشرع أيضاً ما يسمى بالبدع: وهي الأمور المخالفة لأمر الشرع، والمصادمة لأصل من أصوله، سواء في العبادات أو المعاملات، كاستحداث شيء في العبادة المقررة شرعاً، أو ابتكار شيء في المعاملة تصادم ما نهى الشرع عنه، ويعدُّ ذلك الاستحداث ضلالاً وباطلاً في مواجهة الحق الذي شرعه الله تعالى فقال: ﴿فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاّ الضَّلالُ﴾ [يونس ١٠/٣٢].

وقال سبحانه: ﴿ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام ٦/٣٨].

والكتاب: هو اللوح المحفوظ، المشتمل على أحوال المخلوقات، أو هو القرآن الكريم المشتمل على أصول الأحكام الشرعية في الدين والدنيا.

وقال الله عز وجل: ﴿فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء ٤/٥٩] أي إلى الكتاب والسنة.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام ١٥٣/٦]. وقوله: صراطي: أي طريقي، والمراد به الدين. وتفرق: معناه تتفرق أي تختلف. وقال جل جلاله: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران ٣١/٣].

كل هذه الآيات وأمثالها الكثيرة توجب اتباع ما شرع الله تعالى، وتحذّر من مخالفة الشرع، وتنهى عن اتباع ما ليس موجوداً في الشرع الإلهي. ويدخل في النهي المانع: كل البدع المنكرة ومستحدثات الأمور التي لم يأذن الله بها، ولا وجود لها في القرآن والسنة.

ووردت أحاديث كثيرة جداً، ومشهورة، تؤكد الالتزام بما شرع الله، وتحذّر من مخالفة الشرع، منها الحديث المتفق عليه في الصحيحين: ((**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ**)) أي من استحدث أو ابتدع في ديننا ما لم يكن مقرراً فيه، فهو مردود على صاحبه، لا يلتفت إليه ولا يعمل به، كالصلاة والسلام على أبوي النبي ﷺ، وتزيين المساجد، ومنكرات الأعراس والمآتم والجنائز، من الاختلاط والمآكل في الأحزان، والقسم بغير الله تعالى. قال النووي رحمه الله: هذا الحديث ينبغي حفظه وإشهاده في إبطال **المنكرات**. وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: هذا الحديث معدود من أصول الدين، وقاعدة من قواعده، ويفيد ردّ كل بدعة تصادم الدين، وتخالف قواعده العامة، أو نصوصه الخاصة، أما إذا كان الأمر مما لا يصادم الدين، بل يندرج تحت أصل من أصوله، أو يقع تحت حكم من أحكامه، فليس هو بردّ، بل ربما يكون واجباً أو مندوباً، كتطور أدوات السلاح، وإعداد القوة واجب، وكبناء المعاهد العلمية، وطباعة الكتب، لنشر العلم وتعليم الناس: أمر مندوب وهكذا، مما هو داخل في إطار تبليغ الدعوة الإلهية وبيان محاسنها وإقناع الناس ونشرها بين الناس، فلا يقال: إن هذا بدعة.

وروى أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه: ((.. **وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**)). وهذا نص واضح في التحذير من الأمور المستحدثة المبتدعة، المنافية لما أمر الشرع، لأن كل بدعة: انحراف وضلالة عن الهدى.

ويؤيده ما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذاخطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبَّحكم ومسَّاكم، ويقول: ((بعثت أنا والساعة كهاتين))، ويقرن بين أصبعيه: السبابة والوسطى، ويقول: ((أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة))، ثم يقول: ((أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً، فإلي وعلي)). ومحدثات الأمور: كل ما جَدَّ منها مما لم يكن منها معروفاً في كتاب أو سنة أو إجماع، ولا أصل له فيها. أي إن البدعة: كل ما صادم الشيء المصرح به شرعاً، واعتقده الناس قربة إلى الله تعالى، أما ما لم يعتقد كونه قربة، وإنما هو توجيه وتثقيف وتذكير، وموافق توجيهات الإسلام، فليس من البدعة،إن لم ينص عليه صراحة في الشرع.

-٣٠-

من سنَّ سنَّة حسنة أو سيئة

الدلالة أو الإرشاد كما قد يكون في الخير يكون في الشر، وكل من الفاعل والمرشد إما أن يناله الثواب المستمر إذا أرشد إلى الخير، وإما أن يناله العذاب والعقاب الدائم إذا دلَّ على الشر أو المنكر، فيكون من قاد غيره له حكم الأتباع، إما قيادة خير فأحسن الوسيلة والغاية، وإما قيادة شر، فيسيء الوسيلة ويحصد الحصاد المشؤوم، ويحمد الإنسان ربَّه إن وُفِّق إلى الخير، ويستغفر الله ويتوب إليه إن انزلق أو أزاغ غيره، أو دلَّ على معصية مستترة أو علنية. والمؤمن حريص على أن يكون رائد خير، وفاتح فضيلة، ومرشداً غيره إلى ما يسعده في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى مبيناً صفات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ: رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً﴾ [الفرقان ٧٤/٢٥].

وقال سبحانه عن زمرة من صفوة الأنبياء والمرسلين: ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ﴾ [الأنبياء ٢١/٧٣].

وما أسعد أهل الحي أو العشيرة أو القبيلة أو القرية أو المدينة الذين يتعاونون فيما بينهم على الخير، ويتقاسمون معايشهم في السَّراء والضراء، كأهل البلدان في عصرنا في فلسطين وغيرها من البلاد العربية أو الإسلامية المنكوبة، أخرج مسلم في صحيحه قصة مجتابي النمار (أي لابسي أثواباً من الصوف المخطط، قد خرقوها في رؤوسهم، والجوب: القطع) وهي:

روى مسلم عن أبي عمرو جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: كنا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ، فجاءه قوم عراة مجتابي النمار - أو العَبَاء - متقلدي السيوف، عامتهم بل كلهم من مُضَر[(١)]، فتمعَّر[(٢)] وجه رسول الله ﷺ، لِمَا رأى بهم من الفاقة[(٣)]، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذَّن وأقام، ثم صلَّى، ثم خطب، فقال: ﴿يا أَيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ والآية الأخرى التي في آخر الحشر: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.

تصدَّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره، حتى قال: ((ولو بشقِّ تمرة)).

فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت كفُّه تعجز عنها، بل قد عجزت. ثم تتابع الناس حتى رأيت كَوْمين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ

(١) قبيلة عربية.
(٢) تغيَّر.
(٣) أي: الفقر.

يتهلل كأنه مُذْهَبة[1]، فقال رسول الله ﷺ: ((**من سنَّ في الإسلام سنّة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنّة سيئة، كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**)).

فيه دلالة على الحثّ على الصدقة والإنفاق، ولو كان بشيء يسير، ويفهم منه سرعة استجابة المسلمين لهدي الرسول ﷺ، وتسابقهم إلى فعل الخيرات. ودلَّ الحديث أيضاً على حض المسلم على أن يكون قدوة صالحة في الخير والبر والإحسان، وتحذيره من أن يكون قدوة سيئة في الباطل والمنكر. ومن سعى إلى خير، كان له مثل أجر فاعله، ومن سعى إلى شر، كان عليه مثل إثم مرتكبه. وما كان مستحدثاً مما فيه مصلحة ونفع، فهو عمل حسن، وما كان فيه شر وضلال، فهو بدعة سيئة.

وأنواع الخير والوسائل أو الذرائع الدالة عليه كثيرة متنوعة، والشأن في المسلم أن يبادر إلى ما فيه خير فيعمله، أو يدلُّ عليه، لأن ((الدّال على الخير كفاعله))، وما كان فيه شر أو ضلالة أو انحراف، اجتنبه، وحذَّر الناس منه، وعلى المجتمع الإسلامي أن يكون متعاوناً على البر والتقوى، ممتنعاً عن التعاون على الإثم والعدوان.

ومن آثار الدلالة على الشر والمنكر: تحمُّل الدَّال أو المرشد مثل آثام وذنوب فاعليه، ورد في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((ليس من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل[2] من دمها، لأنه أول من سنَّ القتل)). وهذا نص صريح على أن المتسبب في الفعل والمشجع عليه، يكون متساوياً في الأجر أو العقاب مع المباشر له، وربما كان عقابه مضاعفاً.

---

(١) المراد به الصفاء والاستنارة، والمُذْهَب: المموه بالذهب.

(٢) أي: حظ ونصيب من سفك دمها، والمقصود بذلك قابيل الذي قتل أخاه هابيل.

-٣١-

الدلالة على الخير

رسالة المسلم في الأرض: هي الصلاح والإصلاح، وفعل الخير والترغيب فيه، وذلك يعدُّ من تبليغ الرسالة الإلهية إلى الناس، تنفيذاً لأمر النبي ﷺ: ((بلّغوا عني ولو آية)). ولا بأس في التخصص بتبليغ شرع الله ودينه، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة: الدعوة إلى عقيدة الإسلام والإيمان بوجود الله وتوحيده، وعلى الأمة أن تتعاون في إبلاغ القرآن والإسلام إلى جميع شعوب الأرض، بتخصيص فئة أو طائفة للقيام بهذا الواجب الكفائي، وإحراز فضيلة نشر دين الله في أصقاع الأرض، من غير تردد ولا تباطؤ. وتلك مهمة سامية بل من أحسن المهام التي يقوم بها المسلم أو المؤمن، قال الله تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [القصص ٢٨/٨٧].

وقال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل ١٦/١٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة ٥/٢].

وقال عز وجل: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران ٣/١٠٤].

ويرشد المصطفى إلى ضرورة الدلالة على الخير والدعوة إلى الهدى، فيقول – فيما يرويه مسلم عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: ((من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله)) وهو واضح في الحث على السعي في الخير والدلالة عليه، لأن المتسبب بالعمل الصالح، له مثل أجر الفاعل. وهذا من مزايا وفرائد الإسلام الدالة على مزيد فضل الله وإحسانه.

ويؤكّده حديث آخر، أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**)) أي إن المتسبب بفعل الخير له مثل ثواب كل من عمل به، والمتسبب بفعل الشر، له من الإثم مثل آثام كل من عمل به.

وعلى المسلم أن يحذر من دعوات الشر، ويبتعد عن قرناء السوء. والمتسبب في الخير يضاعف ثوابه، والمتسبب في الشر يضاعف عقابه.

ومن أمثلة الدلالة المهمة جداً على الخير: بعث الدعاة إلى الإسلام في كل مكان، لينشروا دين الله بالقول والفعل والحكمة وما يناسب ظروف كل عصر، وتبصير غير المسلمين بأحقية اتباع الإسلام والانتماء إليه، لأنه دين الحق والعدل والتوحيد الإلهي، والمساواة، والحرية، والشورى، وإنصاف المظلوم، ورحمة الضعفاء، ومواساة المعذَّبين في الأرض بالمال والدواء وغير ذلك من وسائل العطاء، وإصلاح النفوس، وتهذيب المشاعر، والدعوة إلى التحضر والمدنية، والعلم والنور. والأنموذج العالي لهذا: ما رواه البخاري ومسلم في بيان فضائل

الإمام علي رضي الله عنه، حين أرسله النبي ﷺ يوم خيبر لفتحها، فقال له النبي ﷺ: ((انفُذْ على رِسلك[١]، حتى تنزل بساحتهم[٢]، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النَّعَم)) أي الإبل الحمراء، التي كانت أنفس أموال العرب. وهذا دليل واضح على سمو الإسلام في دعوته، وإيثاره السلم والأمان، وحرصه على نشر دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، وتجنب الخوض في المعارك والحروب، وإنقاذ الناس من الضلال والضياع، وأن اهتداء إنسان إلى الإسلام أفضل وأحب إلى الله ورسوله من أنفس أموال العرب في الماضي، وهي الإبل الحمراء، أي المائلة للاحمرار، ففي نشر الدعوة إلى الله تعالى، والدلالة على الخير والتوحيد والحق والعدل: ثواب عظيم وفضل كبير.

وإذا عجز الإنسان عن الإسهام بواجب الدعوة بنفسه، فأمامه سبيل المؤازرة بالمال والسلاح والقلم واللسان، روى مسلم عن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً منح عُدّته الحربية بسبب مرضه لفتى من قبيلة أسْلم، قائلاً لزوجته: ((يا فلانة، أعطيه الذي تجهزت به، ولا تحبسي منه شيئاً، فوالله لا تحبسين منه شيئاً، فيُبَارَك لنا فيه))، أي من بخل ببذل شيء من ماله أو سلاحه أو غير ذلك في سبيل الله ووجوه الخير، ذهبت البركة من ماله.

---

(١) أي: على مَهْلِك وتأنيك، وأصل الرِّسل: السكون والثبات.

(٢) بساحتهم: أي ناحيتهم، والفضاء بين دورهم.

-٣٢-

التعاون على البر والتقوى

يمتاز المسلمون بأنهم أمة متراحمة، متعاونة في السراء والضراء على البر (أي الخير) والتقوى (طاعة الله تعالى) ليحققوا لأنفسهم خيري الدنيا والآخرة، ويقيموا أمة المجتمع الفاضل الذي يسعى إلى أعمال الخير سعيه لتحقيق مصلحة نفسه الخاصة، ويكونون مطيعين لربهم الذي يتعهدهم بالعناية والرعاية، والحفظ والتأييد، وينقلهم من وهدة التخلف والعصيان إلى ذروة التقدم، وعرفان واجب الوفاء والإخلاص لمن خلقهم، وأنعم عليهم بنعم كثيرة لا تعدّ ولا تحصى.

قال الله تعالى: ﴿وَتَعاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة ٥/٢].

وقال عز وجل: ﴿وَالْعَصْرِ ، إِنَّ الإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر ١٠٣/١ - ٣].

أي والدهر الذي خلقته، إن جنس الإنسان لفي خسران ونقصان، إلا فئة تواصوا بما يرضي الله، فأوصى بعضهم بعضاً بالحق، أي الإيمان بالله والتوحيد، والعمل بشرع الله، وأوصى بعضهم بعضاً أيضاً بالصبر على طاعة الله، أي دوام الطاعة، والامتناع عن معصية الله. قال الإمام الشافعي رحمه الله عن سورة العصر: إن الناس، أو أكثرَهم، في غفلة عن تدبر هذه السورة. فهي جامعة لأصول الخير والعقيدة والإيمان، والبعد عن مواطن الشر والعصيان.

ومظاهر التعاون على البر (الخير) وتقوى الله كثيرة في المجتمع، وفي كل زمان ومكان، لأن الكوارث والأحداث متلاحقة، وظروف العدوان من الآخرين متواصلة، فلا تكاد هذه الأمة تتخلص من محنة أو كارثة إلا دبَّر لها الأعداء مكيدة جديدة، وحبكوا لها مؤامرة أخرى، فيهتز الاقتصاد، ويحصل الضنك والشدة، والجوع والفقر، أو المرض والاضطرابات، فيكون التعاون لتجاوز هذه الأزمات أمراً ضرورياً، ومنهجاً صحيحاً، وإنقاذاً للأوضاع المحيطة بهم.

ومن ألزم حالات التعاون على الخير: رعاية أسر الشهداء وأسر المقاتلين في أثناء غيبتهم ومشاركتهم في قتال الأعداء. جاء في حديث الصحيحين عن أبي عبد الرحمن زيد بن خالد الجُهَني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**من جهَّز غازياً في سبيل الله، فقد غزا، ومن خَلَف غازياً في أهله، فقد غزا**))، والمراد بالغزو: الجهاد العادل بحق، وليس المراد به النهب والسلب بالباطل، فمن أعان مسلماً على الجهاد بأن هيأ له السلاح وحوائج السفر، أو ساعد عيال المجاهد في سبيل الله، حال غيابه، بأمانة وشرف وترفع عن الدناءات، كان له مثل أجر هذا المجاهد. وهذه الحالة وهي الإعانة على الجهاد تنطبق على كل حالات العون على الخير والفضيلة، وتقوية الأمة والمجتمع من الداخل.

ومن مظاهر التعاون أيضاً: أن يرحم الكبير الصغير، ومنها إحجاج الأب أو الأم صغيرهما، روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: ((أن رسول الله ﷺ لقي رَكْباً (جمع راكب) بالروحاء (مكان قرب المدينة) فقال: من القوم؟ قالوا: المسلمون. فقالوا: من أنت؟ قال: رسول الله، فرفعت إليه امرأة صبياً، فقالت: ألهذا حج؟ قال: نعم ولكِ أجر)). يدلُّ هذا على أن من تسبب في الطاعة أو أعان عليها، له أجر فاعلها، وأن حج الصبي جائز وصحيح وله ثواب، ولكن لا يُسقط حجة الفريضة بعد البلوغ، لأن التكاليف الشرعية لا تكون إلا بعد البلوغ عاقلاً.

ومن حالات التعاون الطريفة: ما يقدمه الموظفون من خدمات لغيرهم، ولا سيما المحاسبون مأمورو الصرف للرواتب والتعويضات، فلهم أجر أو ثواب الصدقة تماماً، لحفاظهم على الأمانة وأداء الوكالة بحق، دون تقصير ولا إخلال، جاء في حديث الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: ((الخازن المسلم الأمين الذي يُنَفِّذ ما أُمر به، فيُعطيه كاملاً، مُوَفَّراً، طيبة به نفسُه، فيدفعُه إلى الذي أُمر له به: أحد المتصدِّقين))، أي إن الخازن: وهو الذي يخزِن مال غيره بإذن ويؤتمن عليه كالمحاسب اليوم، الذي يقوم بأداء واجبه، ويعطي الحق تماماً كاملاً لصاحبه، من غير نقص ولا حسد، ولا إيذاء بقول أو فعل، له ثواب المتصدقين فعلاً، وهكذا كل من ساهم أو شارك في تحقيق نفع، أو دفع ضرر، ولو لم يقدم شيئاً من ماله، له مثل أجر الفاعل القائم بالصدقة فعلاً. وهذا من باب التعاون الذي يلتقي به القرآن والسنة النبوية لتحقيق غاية واحدة.

-٣٣-

النصيحة

ليس الناس كلهم على مستوى واحد من العلم والمعرفة والاستقامة، فبعضهم إما جاهل، وإما معاند، وإما طيب النفس يحتاج لمعونة وتسديد من الآخرين، فكان لا بد من إرشاد أو تذكير الغافل، أو تنبيه المتهاون والمفرِّط، أو صرف المخطئ وتحويله عن خطئه.

وكان رسل الله الكرام هم الذين يتحملون جنوح المجتمعات والأقوام، وتورطَهم في الضلالة والانحراف، أو الخطأ والتقصير، فقاموا بالنصح العام، والدلالة على الخير، وتصحيح العقيدة، وتقويم الأخلاق، وتربية الشعوب والأفراد، وتهذيب الطبائع، وكانوا يقومون بهذه المهمة العسيرة عن طريق النصح والمناقشة، ولفت النظر إلى ضرورة إعمال العقل والفكر، والتحذير من عواقب الضلال والكفر، والابتعاد عن التورط في سيل الأهواء والشهوات، وجمع الناس على كلمة الحق والتوحيد والخير.

قال الله تعالى إخباراً عن نوح أب البشر الثاني عليه السلام حين قال لقومه: ﴿قالَ:يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ٧/٦١ - ٦٢].

وقال الله عز وجل عن هود عليه السلام: ﴿قَالَ:يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف ٧/٦٧ - ٦٨].

والسبب في حرص الرسل والمصلحين على نصح أقوامهم: أن نسيج الإيمان ومقتضياته من الطاعة والبعد عن المعصية: هو الرباط الذي يربط بين المؤمنين، وأنهم إخوة في الدين كإخوة النسب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات ٤٩/١٠].

وبما أن مصدر القرآن والسنة واحد وهو الله تعالى، وأن ما فيهما من مواعظ وإرشادات يخرج من منبع واحد، ويصدر من مشكاة واحدة، جاءت الأحاديث النبوية تجعل النصيحة فضيلة المجتمع المؤمن، وأن معيار صدق إيمان المؤمن: إنما هو في محبة الأخ لأخيه كما يحب نفسه، جاء في الحديث المتفق عليه عن أنس ابن مالك رضي الله عنه: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه، ما يحب لنفسه)) أي لا يكتمل إيمان المؤمن حتى يحب تحقيق الخير ومصلحة المسلمين، مثلما يحب تحقيق مصلحة نفسه وتوفير الخير والنفع والطاعة لها، وذلك عن طريق التوجيه والإرشاد، وبذل النصح للآخرين، كما ينصح نفسه، وكما يرغب في جلب الخير والنفع لذاته تماماً.

وكان من أصول بيعة المسلمين لرسولهم النبي محمد ﷺ على الإيمان: هو توجيه النصيحة لكل مسلم، فيصحح له عقيدته إن أخطأ، وعبادته إن أساء فيها، ومعاملاته وعقوده إن خرج عن نظامها وشروطها، ورد في الصحيحين عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: ((بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم)).

وهذا يدل على إصلاح نظام العبادة البدني وهو الصلاة، والعبادة الاجتماعية وهي فريضة الزكاة، وعلى التناصح العام والشامل بين المسلمين، والوفاء بهذا الالتزام والقيام بهذا الواجب.

وقياماً بحملة الإصلاح الكبرى بين جميع أبناء الأسرة الإسلامية الواحدة، جعل النبي ﷺ منهاج النصيحة عاماً وشاملاً، من غير استثناء، وجعل ذلك واجباً كليّاً، لأن النصيحة عماد الدين وقوامه، ولتحقيق مبدأ المساواة والعدل الأخلاقي أو الاجتماعي، روى مسلم عن أبي رُقيّة تميمِ بن أوس الداري: أن النبي ﷺ قال: ((**الدِّين النصيحة**))، **قلنا: لمن؟ قال:** ((**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**)).

أما النصيحة لله تعالى فمعناها: صحة الإيمان به، ونفي الشريك عنه، وترك الإلحاد في صفاته، والإخلاص في عبادته، ووصفُه بصفات الكمال والجلال كلها، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن جميع أنواع النقائص، والقيام بطاعته، واجتناب معصيته، والحب فيه والبغض فيه، ومعاداة من عصاه، والاعتراف بنعمته وشكره عليها.

والنصيحة لكتاب الله تعالى: التصديق به، واتباع تعاليمه، والعمل بشرائعه وأحكامه، والحفاظ عليه من غير تحريف، وملازمة تلاوته وتحسينها والخشوع عندها. والنصيحة لرسول الله ﷺ: التصديق برسالته، والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره ونهيه، ومناصرته حياً وميتاً، والتمسك بسنته.

والنصيحة لحكام المسلمين: إعانتهم على الحق وطاعتهم فيه في غير معصية، وتذكيرهم بالمعروف، وترك الخروج عليهم إلا لكفر بَوَاح، وهذا نادر. والنصيحة لأفراد المسلمين وجماعتهم: إرشادهم لما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة. والنصيحة تسمى ديناً إسلامياً، والدين قول وعمل، وهي واجبة على قدر الطاقة، وفرض على الكفاية، إذا قام به بعضهم سقط الإثم عن الباقين.

-٣٤-

الدعوة إلى الفضيلة

- ١ -

الفضيلة: هي معيار تقدم الأمم والجماعات، وأساس الحكم على رقي الشعوب وتهذيبها، فإذا ما سادت الفضيلة، وهي محبة الخير، وإيثار الأخلاق الكريمة، وتعويد النفس على المشاعر والعواطف الطيبة الخيِّرة، استطاعت الأمة بناء ذاتها، وتقدم حضارتها، وارتقاء مدنيتها. أما الرذيلة: فهي الأخلاق السيئة والآداب القبيحة، والأعمال الشريرة، وإشاعة القبائح والشرور، وإعلان المفاسد والجهر بها، ومحاولة إفساد الآخرين، وتخريب الوجدانات والضمائر، وهذا يؤدي لتدمير بنية الأمة، وضعفها أو زوالها عما قريب. وهذا ما أكده التاريخ وعرفته البشرية من حصاد أفعالها الحسنة أو السيئة.

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة ٧١/٩].

ووصف الله تعالى الأمة الإسلامية بوصف رائع أهّلها في صدر الإسلام لقيادة العالَم، فقال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران ١١٠/٣].

وأمر الله تعالى نبيه بقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩/٧].

ومن توجيهات القرآن الكريم تخصيص فئة أو جماعة للإرشاد إلى الفضيلة، ومقاومة الرذيلة والفساد، فقال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران ٣/١٠٤].

هذه التوجيهات الإلهية للحفاظ على تماسك الأمة وبقائها قوية عزيزة، وقوتُها بأخلاقها وآدابها وتمسكها بالفضائل، وضعفُها بانحلالها وفوضويتها وتلوثها بالمفاسد والرذائل. وتكون الدعوة إلى الفضيلة، وتركِ ضدّها فرضاً واجباً كفائياً في كل أمة. والفضيلة أو المعروف: كل خير، أو كل فعل حسَّنه الشرع، والمنكر: ضدّ المعروف. فمن لازم المعروف وحافظ عليه وطالب به، كان من المفلحين، أي الفائزين، الذين نجوا من النار، وفازوا بالجنة.

ودلّت السُّنة والسيرة النبوية على التزام الفضيلة والأمر بها في صدر الإسلام، ومن بنود العهد على معرفة أصول الإيمان، واتباع شرائع الرحمن، والبعد عن عوامل الضعف والانهيار، ما عرفناه في بيعة العقبة الأولى.

جاء في الصحيحين عن أبي الوليد عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: ((**بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمَكْره، وعلى أَثَرة علينا وعلى ألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بَوَاحاً، عندكم من الله تعالى فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم**)). والمراد بالمنشط والمكره: السهل والصعب، والأثرة: الاستبداد بالشيء أو الاختصاص بالشيء المشترك، والمراد بالبيعة في ذلك: ترك الأنانية أو حبّ الذات، والتعود على الإيثار. والبَوَاح: الظاهر الذي لا يحتمل تأويلاً. وهذا الحديث حضٌّ على السمع والطاعة لولاة الأمر المسلمين من غير معصية، وعلى وحدة الصف، واجتماع الكلمة، ونبذ الخلاف، وحرمة الخروج على ولاة الأمور وإن فسقوا، حفاظاً على الوحدة وترك المفسدة.

ومراتب إزالة المنكر: ثلاث تتناسب مع القدرة والاستطاعة حال العلم به، روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**)) هذا الحديث ثلث الإسلام، أو الإسلام كله، لأن أعمال الشريعة: إما معروف يجب الأمر به، أو منكر يجب النهي عنه والتحذير منه. وتلك مسؤولية مشتركة على الأمة الإسلامية، لأنه فرض كفاية، لكن يكون كل ذلك بالمعروف والأسلوب الحسن والكلمة الطيبة، لا بالإيذاء والإزعاج، وبشرط أن يعلم الإنسان أنه لن يناله أذىً من التغيير الفعلي.

ويؤكد هذا المعنى الاجتماعي: ما رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة ١٠٥/٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)) نفى مطلع الحديث المفهوم المغلوط بأن المؤمن الفرد غير مكلف بالدعوة إلى الفضيلة وترك الرذيلة، إذا اهتدى بذاته، وأن الأمة الإسلامية غير مكلفة ببيان دعوة الله في الأرض، إذا هي اهتدت، وضلَّ الناس من حولها، لا، ليس الأمر كذلك، بل على الأمة أن تتضامن فيما بينها في محاربة الرذيلة، وأن تتناصح وتتواصى، وأن اهتداءها بنفسها لا يعفيها من دعوة الناس كلهم إلى الهدى، وأن عقاب الله بالتقصير يشمل الظالم وغيره لإقراره عليه.

-٣٥-

الدعوة إلى الفضيلة

- ٢ -

إن الدين والفضيلة صنوان متلازمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، لأن الهدف من الدين هو الإصلاح والإرشاد، وترقية الأفراد والجماعات. وإذا عودي الدين عوديت الفضيلة. والناس في عصرنا الحاضر في أزمة واضحة من الفضائل، فتراهم يتسترون بأقنعة أخرى تدل على بواطنهم السيئة، ومكائدهم الخبيثة، لأنهم إذا جاهروا بعداوة الفضيلة أحسّوا بانهزام أمام المجتمع. ومع كل هذا لا يأس ولا قنوط - في تقديرهم - من تحكم الكبراء، وأصحاب المال والنفوذ، بالضعفاء والأتباع، فإن الفجر يأتي عادة بعد الظلمة، والفرج يأتي بعد الكرب والشدة، ولا تحجب شمس الفضيلة في الدنيا نهائياً، ويبقى هناك أتباع مخلصون ومتحمسون لها، وهم الذين تعقد الآمال بهم، ثم يتعرض أعداء الفضيلة للهزيمة والخسران.

قال الله تعالى عن فئة من أهل الكتاب، رضوا بالرذيلة والمنكر، وأقرّوا قومهم على ذلك: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلَى لِسانِ داوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ ، كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة ٥/٧٨ - ٧٩].

لا يتناهون: أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر.

وقال الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف ٢٩/١٨].

وهذا تهديد وتوبيخ، لا تخيير كما فهم بعض المشركين. وقال سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحِجْر ٩٤/١٥].

وقال عز وجل: ﴿فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف ١٦٥/٧] وكلمة بئيس أي بعذاب شديد، بسبب فسقهم، والفسق: هو الخروج عن طاعة الله تعالى.

وأوضحت السنة النبوية معنى عظيماً من معاني التكافل الاجتماعي في الإصلاح والإرشاد، وتضامن الأمة في مقاومة الانحراف، وذلك بحديث السفينة، روى البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: **((مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا[1] على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء، مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خَرَقنا في نصيبنا خَرْقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً))**.

والقائم في حدود الله: معناه المنكر لها، القائم في دفعها وإزالتها، والمراد بالحدود: ما نهى الله عنه. والواقع فيها، أي مرتكبها. وخرقنا: فتحنا ثقباً لأخذ الماء منه. وأخذوا على أيديهم: منعوهم عما أرادوا من الخرق. دلَّ الحديث على أن ترك المنكر يستشري، يكون كالنار التي تلتهم المجتمع بأسره. وعلى أن حرية الناس ليست مطلقة، بل هي مقيدة بضمان حقوق الآخرين والحفاظ على مصالحهم.

---

(١) أي: اقترعوا.

ومن أمثلة هذا المعنى الاجتماعي السامي، والأدب الإنساني الرفيع: ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إياكم والجلوس في الطرقات))، فقالوا: يا رسول الله، مالنا من مجالسنا بُدّ نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: ((فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه))، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: ((غضُّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)).

أرشد الحديث إلى حرمة الطريق وأنه من الحق العام، وأن للطريق حقوقاً أخرى، أوضحتها أحاديث أخرى، وهي: إحسان الكلام، والتعاون على الحمولة، وإعانة المظلوم، وإغاثة الملهوف، وإرشاد الضّال، وتشميت العاطس. وهذه آداب اجتماعية إنسانية تدل على معانٍ كريمة، وصفات جليلة، لا يعرفها إلا أهل الخير والفضل والإحسان.

ومن أمثلة ممارسة النهي عن المخالفات الشرعية: ما رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب، في يد رجل، فنزعه فطرحه، وقال: ((يعمد[1] أحدكم إلى جمرة من نار، فيجعلها في يده[2]))، فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ: خُذ خاتَمك انتفع به، قال: لا والله لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله ﷺ.

أرشد هذا الحديث إلى وجوب إزالة المنكر لمن قدر عليه، وعلى تحريم التختم بالذهب للرجال، وأنه من الكبائر، لعظم الوعيد فيه، وعلى أن هذا الصحابي الكريم في غاية الأدب مع الرسول ﷺ في امتثال أمره، واجتناب نهيه.

---

(١) أي: يقصد.

(٢) هذا مجاز مرسل، من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

-٣٦-

مخالفة القول الفعل

هناك أناس تركوا المصداقية في أقوالهم وأفعالهم، فأخلُّوا بشرف الكلمة، وكانت أفعالهم مناقضة لأقوالهم، وهؤلاء فئة أغبياء جهلاء، محكوم عليهم سلفاً بالهزيمة والخيبة، وسرعان ما يلفظهم الناس ويحتقرونهم لهذا التظاهر بالشيء، والتلبس بخلافه. أما الشرفاء الصادقون: فهم الذين يقدّرون ما يقولون، ويؤمنون بما يقولون، ويفعلون أولاً ما ينصحون به غيرهم، ويدركون أنهم فعلاً أسوة الناس وقادتهم. أما إن لم يكن هناك تطابق بين القول والعمل، فلا تحترم كلمتهم، ويتعرضون للطعن والسخرية. ومن هنا وبَّخ الله قوماً مؤمنين على تناقضهم، فقال تعالى:

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً[1] عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف ٦١/٢ - ٣]. وقال سبحانه إخباراً عن شعيب عليه السلام أثناء مناقشته قومه، وقيامه بدعوته الإصلاحية الاجتماعية: ﴿وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلَى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود ١١/٨٨] أي ما أريد أن أفعل ما أنهاكم عنه.

ولامَ الله تعالى اليهود فقال لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة ٢/٤٤].

---

(١) المقت: أشد البغض.

وكلمة: ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ استفهام توبيخ وتقريع.

و ﴿تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ تقرؤون وتعلمون ما اشتمل عليه.

إن هذه الآيات واضحة الدلالة على استهجان فعل الذين يجترّون الأقوال، ويفعلون خلافها، فتكون لهم صورتان أو وجهان. وهم الطفيليون من الناس، الذين يعيشون على هامش الحياة. وفعلهم دليل على كذبهم في إيمانهم، وتناقضهم مع أنفسهم، والتناقض سمة الجبناء والضعفاء والمنافقين.

وقد جاءت السنة النبوية تحذّر - بحسب المنهج القرآني نفسه - من صنيع هؤلاء، فقال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي زيد أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق[1] أقتابه[2] فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى[3] ، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، مالك، ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه)).

إن هذا الحديث يدل على تشديد عقوبة من يخالف قولُه عملَه، لأنه امرؤ عاص، مع علمه بالحق واطلاعه على ما يقتضي الخشية والخوف من الله تعالى. وواضح أن هذا الوصف موجب لدخول النار، وهذا من المغيبات التي أخبر عنها النبي ﷺ من وصف النار، ووصف أحوال المعذبين فيها.

وهناك مثال واقعي تطبيقي آخر، روى الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ((لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب

(١) تخرج.
(٢) أي: أمعاؤه، واحدها قِتْب.
(٣) أي: الطاحونة.

الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، فجلس رسول الله ﷺ، وكان متكئاً، فقال: لا والذي نفسي بيده، حتى تأطِروهم على الحق أطراً[1]، ولتقصُرنه›› أي: لتحبسُنَّه. وهذا دليل واضح على أنه لا يكفي مجرد النهي عن الرذيلة أو المنكر، باللسان، مع القدرة على التغيير والمنع باليد، فهم قوم غير جادّين في دعوتهم أو مهمتهم. قال ابن عباس عن أولئك اليهود الساكتين عن الرذيلة: لعنوا بكل لسان على عهد موسى في التوراة، وعلى عهد داود في الزبور، وعلى عهد عيسى في الإنجيل.

وفي حديث آخر أنذر النبي ﷺ بالعقاب الشديد الذين يقرون بالفساد أو بالرذيلة في أوساطهم، روى الترمذي وقال: حديث حسن عن حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ‹‹**والذي نفسي بيده لتأمُرنَّ بالمعروف، ولتنهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**››.

إن المصداقية في قول الحق وفعله شرط أساسي في نجاح كل دعوة إلى الخير والمعروف والإحسان، والإيمان والفضيلة، فإذا لم تتوافر المصداقية في القول والعمل، هان على الناس المخالفة، واستمروا في بُعْد سحيق عن الفضيلة، وانغمسوا في الشر والرذيلة.

---

(١) أي: تعطفونهم وتحملونهم على الامتناع من المنكر.

- ٣٧ -

أمارات محبة الله لعبده

كثير من الناس من يزعم أن الله يحبه، وهو يحب الله، وهو لم يدرِ أن الله يكرهه، ويسخط عليه، وتراه يسترسل في تقصيره وإهمال واجباته نحو ربّه، والواقع أن أبسط علامات محبة الله لعبده: هو تنفيذ أوامره، واجتناب نواهيه، وهذا هو معنى الطاعة والخضوع لله تعالى، كما أن من يحب رجلاً أو امرأة، عليه أن يثبت حبَّه بأدلة ملموسة، وبراهين معقولة.

إن المخطئ في حبِّ الله له، وفي حبِّه لله ربِّه، كالمخطئ في سلوكه من الكفار وأهل الضلال، وتصحيح الخطأ أمر سهل، وإثبات الحق والصواب شيء يسير. وقد أخبر الله تعالى عن خطأ هؤلاء الضلّال فقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً﴾ [الكهف ١٨/١٠٣ - ١٠٥].

إن حبَّ العبد لربِّه، وحب الله لعبده: مشروط بتوجه قلب الإنسان وجوارحه نحو ما يرضي ربّه، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة ٢/١٦٥].

وأما علامات حب الله لعبده فهي كثيرة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران ٣١/٣]، وقال سبحانه: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة ٥٤/٥]. ويحبهم: معناه يثيبهم ويوفقهم، ويحبونه: يؤمنون به ويطيعونه. ويرتدَّ: يكفر. وعلائم الحب الإلهي: هي التواضع بين المؤمنين، والجهاد في سبيل الله، والجرأة في الحق.

ويوضح النبي ﷺ مقومات حب العبد لربِّه، ومحبة الله لعبده، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إن الله تعالى قال: من عادى لي وليّاً[1] فقد آذنته بالحرب[2]، وما تقرَّب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني أعذته**)). ومعنى: ((**كنت سمعه وبصره إلخ..**)) أي كنت حافظاً سمعه وأعضاءه من استعمالها في غير طاعة الله. والظاهر أن كل هذا كناية عن نصر الله لعبده الذي يحبه، ومؤازرته، وتأييده له.

ومن ثمرات أو فضل محبة الله تعالى لعبده: محبة جبريل وأهل السماوات والأرض له، ومن عاقبة أو أثر بغض الله لعبده: إعلان أهل السماوات والأرض وقبوله بغضه.

ورد في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل: إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبه، فيحبه

---

(١) الولي: هو القريب من الله، لامتثال أوامره واجتناب نواهيه.
(٢) أعلمته بأني محارب له.

جبريل، فينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)). وأهل السماء: هم الملائكة.

وفي رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله تعالى إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحببه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً، دعا جبريل فيقول: إني أُبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يُبغض فلاناً، فأبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض)).

ما أعظم الفرق بين ظاهرتي الحب العام للإنسان من الملائكة والناس جميعاً، وبين كراهية الملائكة والناس كلهم، وسبب التفرقة واضح، وهو: أن المحبوب: ملتزمُ الخير وهو الذي يطيع الله طاعة شاملة، وأن المبغوض المكروه الفاسق هو: الذي يعصي الله عصياناً دائماً وكلّياً، فمن حظي بمحبة الله وجبريل والملائكة والناس له، سعد في الدنيا والآخرة، ومن وقع في بغضاء الله وجبريل والملائكة والناس له، شقي في الدنيا والآخرة.

ومن مواقف أو علامات محبة الله لعبده: أن يختم المصلي تلاوته بقراءة سورة الإخلاص. ثبت في الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سَرِية[1]، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختِمُ بـ: ﴿قُلْ: هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: ((سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟)) فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: ((أخبروه أن الله تعالى يحبُّه)).

(١) قطعة من الجيش، لا يشترك فيها النبي ﷺ.

-٣٨-

الخوف من الله وعذابه

على المؤمن أو المؤمنة أن يكون في الدنيا بين الخوف والرجاء، الخوف من الله تعالى ومن بطشه وعذابه إذا عصاه، ورجاء رحمته وفضله وإحسانه إذا اتّقاه. أما الخوف فحق ومن مقتضى العدل، وجدير بالإنسان المنحرف أن يتوقع العذاب الأليم إلا من رحم الله، وعليه أن يستقيم على أمر الله، فلا يتعرض لسخطه، ومظاهر الخوف كثيرة: خوف من هيبة الله وجلاله، وخوف من العذاب في نار جهنم، وخوف من أهوال يوم القيامة وما بعدها من المشي على الصراط (ما بين الجنة والنار)، فلا يأمن أيسقط في النار أم يجتازه إلى الجنة؟ والخوف يولّد الأمان.

أما الخوف من الله تعالى: فقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة في شأنه، تحذر من ذات الله، منها قوله تعالى: ﴿وَإِيّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٢/٤٠] أي لا تخافوا أحداً غيري، ومنها: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣/٢٨]، ومنها: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ٨٥/١٢] والبطش: الأخذ بعنف وشدة، ومنها: ﴿وَكَذَلِكَ[1] أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ

(١) أي: مثل ذلك الأخذ للأمم الماضية أخذ ربك لأمثالهم من أهل القرى.

مَشْهُودٌ ، وَمـا نُؤَخِّرُهُ إلاّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ ، يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ، فَأَمّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١١/١٠٢ - ١٠٦].

وأما الخوف من عذاب ا لله تعالى: ففيه أيضاً آيات كثيرة تصف ألوان العذاب، منها: ﴿هَذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ، وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ، كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢/١٩ - ٢٢]. ومنها في وصف شرر النار: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ، انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ، لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ، إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ، كَأَنَّهُ جِمالَةٌ صُفْرٌ ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٧٧/٢٩ - ٣٤].

وأما الأحاديث في الخوف من ا لله ومن عذابه فكثيرة أيضاً، منها الحديث المعروف المتفق عليه عن ابن مسعود رضي ا لله عنه قال: حَدَّثنا رسول ا لله ﷺ وهو الصادق المصدوق: ((**أن أحدكم يُجمع خَلْقه في بطن أمّه أربعين يوماً نطفة، ثم يكونُ علقة مثلَ ذلك، ثم يكون مضغة مثلَ ذلك، ثم يرسل إليه المَلَك فينفخُ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، بِكَتْبِ رزقِه وأجلَه وعملَه وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخُلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتابُ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلُها**)).

والمراد من الجملة في الحالتين: ((يسبق عليه الكتاب)) أي المكتوب بحسب العلم، فلا يفيد الجبر والإكراه، وإنما المراد بالمكتوب: هو تدوين ما علم ا لله من أفعال العباد قبل أن يخلقهم، وعلم ا لله واسع شامل للمستقبل، وعلم ا لله لا

يتغير، فيقع عمل الإنسان على وفق هذا المدوَّن السابق، وعلم الله بشيء لا يقتضي الجبر والإكراه، وهو معنى الإيمان بالقضاء والقدر، خيره وشرّه من الله تعالى، أي المقضي المقدَّر بحسب علم الله، الذي لا صلة له بالجبر والقسر أو القهر، وإلا فلا يجوز العذاب على أمر يُكْرَه عليه الإنسان، فالعبرة بخواتيم الأمور وبالتثبيت والحفظ، دون الاغترار بظواهر الأعمال، وعلى الإنسان الاستعانة بالله، والاستعاذة بالله، وسؤاله حسن الخاتمة، والخوف من سوء الختام.

ومن أحاديث وصف العذاب الأخروي: ما رواه مسلم عن ابن مسعود أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: ((يؤتى بجهنم يومئذ، لها سبعون ألفَ زمام، مع كل زمام سبعون ألفَ مَلَك يجرّونها)) والزمام: خطام البعير أو مقوده، وهذا إما على سبيل الحقيقة، وإما على سبيل المجاز تمثيلاً لعظم النار وخطرها وكِبَرها وتحكم الملائكة فيها بأمر الله تعالى.

ومن الأحاديث الشريفة: حديث متفق عليه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجلٌ يوضع في أخمَص قدميه[1] جَمْرَتان، يغلي منهما دماغه، ما يَرَى أن أحداً أشدَّ منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً)).

ومن هذه الأحاديث: ما رواه مسلم عن سمُرة بن جُنْدُب رضي الله عنه: أن نبي الله ﷺ قال: ((منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى رُكبتيه، ومنهم من تأخذُه إلى حُجزَته، ومنهم من تأخذُه إلى تَرْقُوته[2])).

---

(١)أي: أسفل قدميه.

(٢) الكعب: العظم الناتئ عند مفصل الساق مع القدم. والحجزة: مَعْقِد الإزار تحت السرة. والترقوة: هي العظم عند ثُغْرة النحر، وللإنسان ترقوتان في جانبي النحر.

- ٣٩ -

الخوف من أهوال القيامة

إن للقيامة شدائد وأهوالاً عظاماً، تكاد القلوب من هولها تتقطع، والنفوس تتصدع، لأنها مقدمة لحساب نهائي حاسم، يتقرر به مصير الإنسان، فإما إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فيعلم المرء عظمة النعمة، والفضل الإلهي، والرحمة، حيث نجّاه الله من تلك الأهوال، وإما إلى نار تتقطع لها الأكباد، فتكون الأهوال الأخروية نذيراً له بالسوء، ومن أجل تقدير تلك الأهوال، جاءت التعابير القرآنية حول القيامة مميَّزة بالشدة، والرهبة، والخوف الشديد، فقال الله تعالى ذاكراً أسماء القيامة وصفاتها:

﴿الْحاقَّةُ، ما الْحاقَّةُ﴾ [الحاقَّة: ٦٩/١ - ٢].

﴿الْقارِعَةُ، ما الْقارِعَةُ﴾ [القارعة: ١٠١/١ - ٢].

﴿إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٥٦/١ - ٢].

﴿اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ٥٤/١].

﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ [القيامة: ٧٥/١].

﴿فَإِذا جاءَتِ الطّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٧٩/٣٤].

﴿فَإِذا جاءَتِ الصّاخَّةُ﴾ [عبس: ٨٠/٣٣].

وقال سبحانه يصف بعض أهوال القيامة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤/٨٠ - ٣٧].

﴿يا أَيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النّاسَ سُكارَى وَما هُمْ بِسُكارَى وَلَكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١/٢٢ - ٢].

وفي مقابل ذلك يُفرغ الله تعالى على قلب المؤمن الصالح مظلة الطمأنينة والأنس، والإحساسَ بالنجاة من المخاوف، فيقول سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ [الرحمن: ٤٦/٥٥] أي من خاف وقوفه بين يدي ربّه للحساب، فعمل بما يرضيه، واجتنب ما يغضبه فله جنتان.

وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ، قالُوا إِنّا كُنّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ، إِنّا كُنّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥/٥٢ - ٢٨].

والأحاديث النبوية في وصف القيامة تدور حول هذا الفلك القرآني، تستمد منه، وتوضحه، وهي كثيرة، منها الحديث المتفق عليه عن أنس رضي الله عنه قال: ((خطبنا رسول الله ﷺ خطبة، ما سمعت مثلها قط، فقال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، فغطّى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، ولهم خَنين(١))).

وروى مسلم عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((تُدْنى الشمس يوم القيامة من الخَلْق، حتى تكون منهم كمقدار ميل)) - قال سليم بن عامر الراوي عن المقداد: فوالله ما أدري ما يعني بالميل: أمسافة الأرض، أم الميل الذي تُكتَحل به العين - ؟!

(١) الخنين: هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف.

((فيكون الناس على قدر أعمالهم في العَرَق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى رُكبتيه، ومنهم من يكون إلى حِقْوَيه[١]، ومنهم من يلجمه العرقُ إلجاماً[٢])) وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه.

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذا سمع وَجْبة[٣]، فقال: ((هل تدرون ما هذا؟)) قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: ((هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفاً[٤]، فهو يهوي في النار الآن، حتى انتهى إلى قعرها، فسمعتم وَجْبَتَها)). وهذا يدل على عمق جهنم، وعلى شدة عذابها، وهو يستدعي الخوف منها.

ومع هذه الأهوال والمخاوف الشديدة للنار يمكن للإنسان أن يتفاداها، ولو بكلمة طيبة، أو بالتصدق بتمرة. ورد في الحديث المتفق عليه عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربُّه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلاّ ما قدَّم. وينظر أشأم منه**[٥]**، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر بين يديه، فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتَّقوا النار ولو بشقِّ تمرة**)).

وتزداد المخاوف في عالم الدنيا من أحوال السماء، روى الترمذي وقال: حديث حسن عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إني أرى مالا ترون، أطّت السماء[٦] وحَقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَك واضع جبهته ساجداً لله تعالى، واللهِ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات

(١) الحِقْو: الخصر.
(٢) أي: يصل إلى فمه وأذنيه، فيكون له بمنزلة لجام الحيوان.
(٣) أي: سقطة.
(٤) أي: عاماً.
(٥) أي: على شماله.
(٦) أي: صوَّتت بسبب كثرة الملائكة العابدين التي أثقلتها.

تجأرون[1] إلى الله تعالى))، أي إن المؤمن بقدر علمه بالله تعالى من العظمة والجلال، يزداد خوفه من عقابه، كما يزداد طمعاً في ثوابه.

ورهبة الأحداث الكونية، ربما تهون أمام المحك الحقيقي: وهو توجيه المسؤولية لكل إنسان عما عمل في دنياه، روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن أبي بَرْزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تزول قدما عبد حتى يُسْأل عن عُمُرِه فيمَ أفناه، وعن عِلْمه فيمَ فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن جسمه فيمَ أبلاه)).

ومن مشاهد القيامة الرهيبة: حال المَلَك الموكل بنفخ الصور (القرن الذي ينفخ فيه)، روى الترمذي وقال: حديث حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((كيف أنعُم، وصاحب القرن قد التقم القرن، واستمع الإذنَ، متى يؤمر بالنفخ، فينفُخ؟ فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول الله ﷺ فقال لهم: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل)). وجاء في الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يُحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً[2]، قلت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم بعضاً؟ قال: يا عائشة، الأمر أشدّ من أن يهمَّهم ذلك)) وفي رواية: ((الأمر أهمّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض)).

---

(١) الصُّعدات: الطرقات. وتجأرون: تستغيثون.

(٢) أي: غير مختونين.

- ٤٠ -

الرجاء والرحمة

من المعلوم أن أسلوب القرآن الكريم في الترغيب والترهيب: هو الموازنة أو المقارنة بين الأضداد أو المتقابلات، فتُذكر الرحمة في مقابلة العذاب، والرجاء والأمل في مواجهة الخوف من العقاب والألم، والفسحة والفرج في موازاة الضيق والشدة والكرب، والعسر يقابله يسران، والفرج يأتي بعد الشدة.

وهكذا نجد أهوال القيامة ومخاوفها يواجهها فتح باب الأمل والرجاء في القرآن والسُّنة النبوية، فإذا امتلأ الإنسان رهبة من سماع آية أو حديث، يمتلئ أيضاً أملاً وطمعاً في رحمة الله حين يسمع آية أخرى أو حديثاً آخر، وهكذا يكون الإنسان بين الخوف والرجاء، يخاف من عذاب الله، فلا يجرؤ على المعصية، ويرجو رحمة الله، فيطمع في فضله وإحسانه.

ومن آيات الرجاء في مواجهة الخوف من الله قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ[1] لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ[2]، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣].

---

(١) أي: أفرطوا في المعاصي.

(٢) أي: لا تيأسوا.

وقولُه سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦/٧] أي في الدنيا، أما الآخرة، فقال تعالى عقب تلك الآية: ﴿فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦/٧]. وأما العذاب فهو للكفرة، قال تعالى: ﴿وَهَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧/٣٤]. وقال سبحانه: ﴿إِنّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨/٢٠].

والأحاديث في فتح باب الرحمة والأمل أو الرجاء كثيرة، منها الحديث المتفق عليه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله، ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه، وأن الجنةَ حقٌّ، والنارَ حقٌّ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**)). وفي رواية لمسلم: ((من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، حَرَّم الله عليه النار))، أي إن المؤمن الموحِّد يدخل الجنة، ولا يخلَّد في النار إن كان عاصياً، فالله تعالى إما أن يدخله الجنة فوراً، أو بعد تعذيبه في النار، فالأمر مفوَّض إلى مشيئة الله تعالى.

والاقتراب من دخول الجنة سهل، إن أقبل الإنسان على الله طائعاً أو تائباً، روى مسلم عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)) أو أزيدُ[1] ((ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلُها، أو أغفر، ومن تقرَّب مني شبراً تقرَّبتُ منه ذراعاً، ومن تقرَّب منّي ذراعاً تقرَّبت منه باعاً[2]، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة[3]، ومن لقيني بقُراب[4] الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيتُه بمثلها مغفرة)) أي من تقرَّب إلى الله بطاعته، تقرَّب الله إليه برحمته، وإن زاد العبد زاد الله، فإن أتى يمشي وأسرع في

(١) يمكن أن يكون جزاء الحسنة سبع مئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء.

(٢) الباع: طول ذراعي الإنسان وعرض صدره.

(٣) هذا مجاز عن الإقبال الإلهي وتعميم الرحمة إن بدر من الإنسان ما يدل على اتجاهه نحو الله طائعاً.

(٤) ما يقارب ملئها.

طاعة الله، أتاه الله هرولة، أي صبَّ عليه الرحمة، وسبقه بها، ومن لقي الله محمَّلاً بالخطايا بما يقارب ملءَ الدنيا، لقيه الله تعالى بملء الدنيا مغفرة. فيكون الحديث دالاًّ على سعة فضل الله ورحمته وعفوه، وعدم اليأس من مغفرته.

ويؤيد ما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما المُوجبتان؟ قال: من مات لا يشرك بالله شيئاً، دخل الجنة، ومن مات يشرك به شيئاً، دخل النار)).

وهو دليل واضح على أن العاصي المؤمن لا يخلَّد في النار، وإنما الكافر هو المخلَّد.

ويزداد الأمل بالرحمة حين الإخبارِ بها في كتاب الله أو في سنَّته، أو حين الكلام عن قبول الله توبة عبده، جاء في الحديث المتفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ بسبي[١]، فإذا امرأة من السَّبي تسعى، إذ وَجَدَت صبيّاً في السَّبي، أخذته فألزقته ببطنها، فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: أترون هذه المرأة طارحةً ولدَها في النار؟ قلنا: لا، والله، فقال: ((لله أرحم بعباده من هذه بولدها)).

وفي حديث آخر متفق عليه أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لما خلق الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: **إن رحمتي تغلب غضبي**)) أو ((غلبت غضبي)) أو ((سبقت غضبي)) دلَّ كلا الحديثين على كثرة الرحمة وشمولها، سواء برزق العبد المؤمن والعاصي، والحلم عنه، وقبول توبة التائب. كما يفهم منهما إرادة الله الخير للإنسان، وإنقاذُه من النار، وأن منفعة العبد تسمى رضا الله تعالى ورحمته، وإرادة عقاب العاصي وخذلانه يسمى غضباً، والمراد بالسبق والغلب: كثرة الرحمة وشمولها.

(١) السَّبي من أسرى العدو: النساء والصبيان.

ومما يدل على سعة رحمة الله تعالى حديث آخر متفق عليه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى تَرْفَعَ الدابَّةُ حافِرَها عن ولدها خشية أن تصيبه)). وفي رواية لمسلم عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن لله تعالى مئة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم، وتسع وتسعون ليوم القيامة)).

-٤١-

سعة فضل الله تعالى

الإنسان ضعيف عاجز في كل شيء، ولا سيما أمام شهواته، فقد يتورط في عصيان الله، ثم يبادر إلى التوبة والاستغفار، والندم وطلب الرحمة من الله سبحانه.

والإنسان أيضاً فيه نزعتان: نزعة إلى الخير ونزعة إلى الشّر، فكما أنه ميَّال إلى الطاعة والخضوع لأمر الله عز وجل، تراه أيضاً ميّالاً إلى المخالفة والتنكُّر لمن أنعم عليه، وهو بين الحالين في صراع ونزاع، ثم يرسو على حقيقة الأمر، ويترفع عن الأهواء والشهوات، ويدرك أن هذه الدنيا غرّارة، فلا ينخدع بملاذّها ومُتَعِها المؤقتة، وينظر لما هو خالد باقٍ.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢/٢٠]. وقال جلَّ جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النّساء: ٤٨/٤، ١١٦].

ولا ييأس الإنسان من فضل الله ورحمته، قال تعالى: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣/٣٩].

ويحكي القرآن الكريم حال أهل الإيمان بقوله: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنـا مَـعَ الْقَوْمِ الصّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٥/٨٤].

﴿إِنّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/٥١].

وتأتي الأحاديث النبوية تشجع على التوبـة والنـدم مـن التفريـط في أمـر مـن الأمور، روى مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قـال: ((**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**)).

وتكون التوبة، ولا سيما من الصغائر، مطهِّرة للذنوب بالصلاة التي هي ندم، وتوجُّه إلى الله، واستغفار، جاء في حديث متفق عليه عـن أنـس رضـي الله عنـه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: ((يا رسـول الله، أصبـت حـدّاً فأقِمْـه علـي، وحضرت الصلاة، فصلى مع رسول الله ﷺ، فلما قضى الصلاة قال: يا رسـول الله، إني أصبْتُ حدّاً فأقِمْ فِيَّ كتاب الله، قال: هل حضرت معنا الصلاة؟ قـال: نعم، قال: قد غُفِر لك)). وقوله: ((أصبت حَدّاً)) معناه معصيـة توجـب التعزيـر، فهي معصية صغيرة لا كبيرة، وليس المراد هو الحدَّ الشرعيَّ الحقيقي، كحدِّ الزِّنا والخمر وغيرهما، فإن هذه الحدود لا تسقط بالصلاة، ولا يجوز للإمام تركها.

ويتأكد هذا المعنى في حديث آخر متفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجـلاً أصـاب مـن امـرأة قبلـة، فـأتى النبي ﷺ فأخـبره، فـأنزل الله تعـالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفـاً مِـنَ اللَّيْـلِ إِنَّ الْحَسَـناتِ يُذْهِبْـنَ السَّـيِّئاتِ﴾ [هود: ١١/١١٤] فقال الرجل: أَلِي هذا يا رسول الله؟ قال: لجميع أمَّتي كلِّهم)).

والمعوَّل في ستر الخطيئة ومحو الذنب على فضل الله وكرمه، جاء في الحديـث المتفق عليه عن ابن عمر رضـي الله عنهمـا قـال: سمعـت رسـول الله ﷺ يقـول:

((يُدْنى المؤمن[١] يوم القيامة من ربِّه حتى يضعَ كَنَفَه عليه[٢]، فيُقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: ربِّ أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطى صحيفة حسناته)).

وهذا دليل على فضل الله على بعض الناس ورحمته بهم، حيث إنه تعالى سترهم في الدنيا والآخرة، وهو يعلّمنا الستر على المؤمن ما أمكن.

أما طبيعة الإنسان: فهي قائمة على التسرع والانغماس في الذنب، ولكن يجد أمامه فسحة الأمل وباب التوبة المفتوح، والعفو والمغفرة من الله تعالى، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون الله تعالى، فيَغْفِر لهم)). وروى مسلم أيضاً عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لولا أنكم تُذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون، فيَسْتَغْفِرون، فيَغْفِر لهم)).

لكن على الإنسان أن يبادر إلى التوبة، ولا يصرّ على المعصية، وأن يعرف حقوق ربِّه عليه، ولا يهمل في طاعة أو أداء فرض، ورد في الحديث المتفق عليه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رِدْف النبي ﷺ على حمار، فقال: ((يا معاذ، هل تدري ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟)) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((فإن حقَّ الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وحقَّ العباد على الله ألا يعذّب من لا يشركُ به شيئاً، فقلت: يا رسول الله، أفلا أُبشِّر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتّكلوا)).

---

(١) أي: يقرب تقريب مكانة وكرامة، لا قرب مكان.

(٢) أي: سَتْرَه ورحمَتَه.

ومن علائم النجاة في الخط الأول من حياة البرزخ بعد الحياة الدنيوية هو اجتياز اختبار المَلَكَيْن اللذين يسألان كل ميت عقب دفنه، ففي حديث متفق عليه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٧].

- ٤٢ -

فضل الأمل والرجاء

الخالق جلَّ جلاله كريم سخي معطاء، رحيم بَرّ جواد، والناس في بحر الدنيا حيارى، معرَّضون للفتنة والاختبار، والتقصير والإهمال، ومشاغلُ الدنيا قد تطغى على الإنسان، فتشغله عن بعض الواجبات، ولا يؤدي حقوق الله تعالى عليه. فلم يبق أمام هذا الواقع المرّ إلا أن يلتمس من الله الرّضا والقبول، ويحسن الظن بالله تعالى، والله تعالى في معاملة عبده، يعامله بحسب ظنّه وقوة ثقته بالله، فمن أحسن الظن ووثق بربِّه، فالله لا يخيِّب أمله، ولا يرده خائباً متعثراً حيران في الأرض، وكل ذلك يستدعي محبة الله تعالى، وعرفان إحسانه وفضله، وشكره على ما أنعم، كما يستدعي تفويض الأمور والنتائج إلى الله مالك الملك، وصاحب العزة والسلطان.

وما أجمل هذا التجاوب الإلهي لدعاء الإنسان ربّه بالقبول، ومغفرة الذنوب وتكفير السيئات، ومن أمثلة هذا التجاوب أو الاستجابة: قول الله تعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام: ﴿قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩/١٠] وفي آية أخرى مشابهة: ﴿قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦/٢٠].

وقال الله تعالى إخباراً عن العبد الصالح: مؤمن آل فرعون: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٠/٤٤ - ٤٥].

وتزداد الصورة وضوحاً في مرآة النبوة، وفي دلالات الأحاديث النبوية الثابتة، ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((**قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكُرني، واللهِ، للهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرَّب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّبت إليه باعاً، وإذا أقبل إليَّ يمشي أقبلت إليه أهرول**))! أي إن الله تعالى يقول: أنا عند حسن ظن عبدي بي، أي في الرجاء وأمل العفو، وأنا معه أي بالرحمة والتوفيق والإعانة. والله أفرح أي أكثر رضا وقبولاً، بتوبة عبده المؤمن، من أي إنسان يضيع راحلته التي عليها زاده وشرابه، في الفلاة: الصحراء أو الأرض التي لا ماء فيها.

وما أقرب الإنسان من ربِّه وأعظم فضله عليه حيث يثق به وبعطائه وفضله، ويحسن الظن بالله إحساناً يملك عليه جميع مشاعره وحواسه، وينبع ذلك من سويداء قلبه، فلا يشك ولا يتردد، ولا ييأس، روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل)). وهو دليل على التحذير من اليأس والقنوط، والحثّ على الرجاء، ولا سيما عند الخاتمة.

وهذا أمر سهل جداً، ولا صعوبة فيه، إذا نبع من أصالة الإيمان وحسن الاعتقاد والثقة بالله تعالى، وحينئذ تكون الذنوب والخطايا كلها، ومهما كثرت وتنوعت، في فيض الرحمة الإلهية والمغفرة الشاملة، لا شيء فيها، وتمسح أو تُمحى كما يمحو السيل أو الماء الأرض، فيزيل ما علق فيها، روى الترمذي، وقال: حديث حسن، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت رسول

الله ﷺ يقول: ((**قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنكَ ما دعوتني ورجوتني، غفَرت لك على ما كان منكَ ولا أُبالي. يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عَنَان السماء**[١]**، ثم استغفرتني غفرت لكَ، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقُراب الأرض**[٢] **خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقُرابها مغفرةً**)). أي إنك أيها الإنسان ما دمت تدعوني وتطلب الخير مني، أجبتك، وغفرت لك جميع خطاياك ومعاصيك، وفيه دليل على سعة فضل الله تعالى، فإن رحمته لا حدود ولا نهاية لها، ويدل الحديث أيضاً على مشروعية الاستغفار والدعاء والرجاء من الله تعالى، وعلى أن الذنوب مهما كثرت، يرجى مغفرتها من الله إلا الشرك بالله، فإنه لا يُغْفَر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء: ٤/٤٨].

وهل يبقى شيء من ذنوب الإنسان لا تناله مغفرة الله ورضوانه؟ إنه العطاء الإلهي الذي لا حدود له، وإن الله جلَّت أسماؤه لا يؤاخذ عباده على كل ما اقترفت أيديهم، ويكون حصاد تلك الذنوب بالمحو والإزالة فضلاً كبيراً من الله لا ينكر، ومطلباً عاماً لا يرد، ولا نجد مثل هذا في خلق الإنسان مهما علا قدره وحسُنت أخلاقه.

---

(١) عنان السماء: السحاب، وقيل: هو ما عَنَّ لك منها أي ظهر.

(٢) هو ما يقارب مِلْئها.

-٤٣-

الجمع بين الخوف والرجاء

إن من أصول شرع الله ودينه: أن يكون الإنسان على صلة بـالله تعـالى، وأن يكون في حال الصحة والقوة خائفاً راجياً، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، خوفُه من الله وعذابه ومن أهوال القيامة، ورجـاؤه وطمعـه في النجـاة مـن المخـاوف، وأملَه برحمة الله وفضله وإحسانه. وأما في حال المرض فيُمحِّـض الرجـاء ويغلِّبـه على الخوف، ويزداد ثقة بالله ورحمته، فمن نهج هـذا النهـج، تحقـق لـه الأمـل، وظفر بـالمطلوب، والله لا يخيِّـب عبـده الـذي يرجـوه ويرفـع يديـه متجهـاً إليـه وحده، دون إشراك، ولا شك بأنَّ الله قادر على كل شيء، وأن رحمته وسـعت كل شيء، من جماد وإنسان وحيوان ونبات.

دلَّ على هذا المنهج نصوص كثيرة في القرآن والسُّـنة، قـال الله تعـالى: ﴿ فَـلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِـرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٩٩] والمكـر: التدبـير واسـتدراج العبد وأخذه من حيث لا يحتسب، عافانا الله من البـلاء. وقـال سـبحانه: ﴿إِنَّـهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٨٧] أي لا يقنط من رحمـة الله التي يحيي بها العباد والأرض والكون كله إلا كل كافر. وقـال عـز وجـل: ﴿يَـوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُـوهٌ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٦]. أي يـوم تشـرق بشـراً وسـروراً وجوه أهل الإيمان، وتشحَب وتصفَرُّ خوفاً وهلَعاً وجوه أهل الضلال والكفران.

وقال سبحانه، جامعاً بين صفة التهديد بالعقاب وإنذار الكافرين والمقصِّرين، وبين صفة المغفرة والرحمة بالمؤمنين إيماناً صحيحاً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧/٧]. وقال الله أيضاً: ﴿إِنَّ الأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الْفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ، يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٣/٨٢ - ١٥] والأبرار: هم المؤمنون الصادقون، والفجار: هم الفسَّاق والعصاة.

وقال الله تعالى: ﴿فَأَمّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ، وَأَمّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ، فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦/١٠١ - ٩] أي من رجحت حسناته على سيئاته، فهو في عيش هني رضي آمن مطمئن، ومن رجحت سيئاته على حسناته فمسكنه جهنم، ومصيره النار وسقوطه فيها.

إن هذه الآيات مجتمعة تجمع بين الخوف والرجاء، وتقرن أحدهما بالآخر، للمعادلة والمساواة. وبما أن القرآن والسُّنة من مصدر واحد وهو الله عز وجل، فالقرآن وحي بالمعنى واللفظ، والسُّنة وحي بالمعنى فقط، فإننا نجد تعليمات السُّنة وتوجيهاتها تسير في مسيرة القرآن الكريم، ترغيباً وترهيباً، تشويقاً وتحذيراً. روى مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنَّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنَط من جنّته أحد**)) إنها العدالة الشاملة التي تجعل للمؤمنين الجنة إن أطاعوا ربَّهم، فلا ييأس أحد منهم من دخول الجنة، وتجعل للكافرين النار إن ماتوا مصرِّين على كفرهم وضلالهم.

وألسنة الخلق أقلام الحق، وقرائن الأحوال في الحياة واضحة، وعند الموت وتشييع الجنازة إما مبشرة وإما منفرة ومنذرة، روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا وُضِعت الجنازة، واحتملها الناس أو الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدِّموني قدِّموني. وإن

كانت غير صالحة قالت: يا ويلها، أين تذهبون بها، يسمع صوتَها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه صَعِق)). وروى مسلم في شفاعة المصلّين على الجنازة الصلاة الشرعية المعروفة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً، لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم فيه)).

وهذا دليل على أن لكل مؤمن شفاعة مقبولة عند الله تعالى.

وعمل الخير لكل إنسان مفيد، أما المؤمن فخيره يفيده في الدنيا والآخرة، وأما غير المؤمن فخيره مقصور الفائدة على الدنيا، ولا نفع له به في الآخرة، روى مسلم عن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: ((إن الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طُعمة من الدنيا، وأما المؤمن، فإن الله تعالى يدَّخر له حسناتِه في الآخرة، ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته)).

والحواجز بين الإنسان وبين الجنة أو النار غير موجودة في ميزان العمل، والمرء قريب من الجنة بعمله الصالح، وقريب من النار بعمله الفاسد، روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الجنة أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله)).

- ٤٤ -

البكاء من خشية الله

إن عظمة الله تعالى وهيبته تفوق كل شيء في هذا الوجود، وعلى المؤمن أن يخشع لذكر الله، ويخضع ويخشى الله عند سماع آيات الله تتلى، ويكون هذا الخشوع أو الخشية دليلاً على صحة الإيمان وسلامة الاعتقاد، وكان النبي ﷺ والصحابة والتابعون والصلحاء يبكون بكاء حارّاً حين تلاوة آي القرآن الكريم، ولا سيما ما يتعلق منها بالعذاب والتذكير بأهوال القيامة، وشدائد النار، ووصف ألوان العذاب.

ويصف لنا القرآن الكريم مواقف البكائين من خشية الله تعالى، فيقول سبحانه: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ [الإسراء: ١٧/١٠٩] أي يسجدون على وجوههم حال كونهم باكين، ويزيدهم سماع القرآن خشوعاً وهيبة، وتدبُّراً واتّعاظاً. ويحضُّ القرآن الكريم على البكاء حين سماع آيات الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿أَفَمِنْ هَذا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ، وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ﴾ [النجم: ٥٣/٥٩ - ٦٠] أي كيف تتعجبون من هذا القرآن منكرين له؟

إن التأثر بالقرآن الكريم واضح السمة، لأنه كلام الله تعالى، ويزداد التأثر لدى أهل الإيمان بل الجبال الرواسخ، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هَذا الْقُرْآنَ

عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّـهِ وَتِلْـكَ الأَمْثـالُ نَضْرِبُهـا لِلنّـاسِ لَعَلَّهُمْ يَتفكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٥٩/٢١].

ويظهر هذا التأثر في رسول الله ﷺ، جـاء في الحديث المتفـق عليه عـن ابـن مسعود رضي الله عنه، قال: قال لِيَ النبي ﷺ: ((اقـرأ علـيّ القـرآن))، قلـت: يـا رسول الله، أقرأ عليك، وعليك أُنزل؟ قال: ((إني أُحبُّ أن أسمَعَـه مـن غـيري))، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِـنْ كُـلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾ قال: ((حسبك الآن))، فـالتفتُّ إليـه، فإذا عيناه تَذْرِفان. دلَّ على فضيلة البكاء خشيةً مـن الله عـز وجـل حـين سمـاع آياته.

وروى أبـو داود والـترمذي في الشـمائل بإسـناد صحيـح عـن عبـد الله بـن الشِّخِّير رضي الله عنه قـال: أتيـت رسـول الله ﷺ، وهـو يصلـي، ولجوفـه أزيـز كأزيز المِرْجل من البكاء، وهو دليـل علـى كمـال خشـية النبي ﷺ مـن الله عـز وجل وخضوعه لعظمة ربِّه، مع علوِّ منزلته.

ويحـضُّ النبي ﷺ علـى البكـاء مـن خشـية الله، لحمـل النفـس المؤمنـة علـى الاستقامة واتّقاء عذاب النار، فقال فيمـا روى الـترمذي وقـال: حديـث حسـن صحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: ((لا يَلـج النـار رجل بكى مـن خشـية ا لله حتـى يعـود اللـبن في الضَّرْع، ولا يجتمـع غبـار في سـبيل ا لله ودخان جهنم)).

الشّق الأول يدل على البكاء المستديم وقتاً.

والثاني على الجهاد في سبيل الله.

وروى الترمذي وقـال: حديـث حسـن عـن أبـي أمامـة صُـدَي بـن عجـلان الباهلي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((ليـس شـيء أحـب إلى الله تعـالى مـن

قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية ا لله، وقطرة دم تُهراق في سبيل ا لله، وأما الأثران: فأثر في سبيل ا لله تعالى، وأثر في فريضة من فرائض ا لله تعالى)).

والبكاء من خشية ا لله والتأثر بكلامه سبب للنجاة من أهوال القيامة، ورد في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((**سبعة يُظلُّهم ا لله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلُّه: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة ا لله تعالى، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابّا في ا لله، اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف ا لله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر ا لله خالياً، ففاضت عيناه**)) دلَّ على فضيلة من بكى من خشية ا لله ورجاء ثوابه، وأن هذا الخوف والبكاء يحقق له الأمان يوم القيامة.

ومن نماذج البكّائين من الصحابة: أُبي بن كعب، ورد في الحديث المتفق عليه عن أنس رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ لأُبي بن كعب رضي ا لله عنه: إن ا لله عز وجل أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: وسمّاني، قال: نعم، فبكى أُبيّ.

ومنهم أبو بكر وعمر فقد هيجتهما أم أيمن على البكاء، حينما قالت بعد وفاة رسول ا لله ﷺ - فيما روى مسلم عن أنس -: ((ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء))، وفي حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي ا لله عنهما قال: لما اشتدَّ برسول ا لله ﷺ وجعه، قيل له في الصلاة قال: ((مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس)) فقالت عائشة رضي ا لله عنها: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن غلبه البكاء، فقال: ((مُروه فليصلِّ)).

أعطينا، قد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

وكان جماعة الصحابة يبكون للوعظ النبوي. روى أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: ((وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذَرِفت منها العيون..)).

-٤٥-

الزهد في الدنيا

يذمُّ الإسلام الحرص على الدنيا وحدها، وإهمال الآخرة والعمل لها، فتلك نظرة قاصرة محدودة، والعقل وبُعْد النظر وحسن التخطيط: أن يكون العمل للدنيا والآخرة معاً. ومن هنا زهَّد القرآن الكريم في الدنيا حتى لا تسيطر على الإنسان الأطماع فيها، وقَصْر الجهد عليها، والاستماتة في سبيلها. والزهد في الحقيقة: ليس معناه اعتزال الناس والانعزال عن مهام الدنيا وأشغالها، وإنما معناه كما قال الرسول ﷺ: ((**أما إنه – أي الزهد – ما هو بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهد في الدنيا: أن تكون بما في يد الله أغنى منك بما في يدك**)) أي أن تثق بالله، وأنه هو الرَّزّاق الغني الكافي للناس، وقال الحسن البصري: لا يزال الرجل كريماً على الناس ما لم يطمع فيما في أيديهم.

ومن أجل ترسيخ معنى الزهد في الإسلام وهو الاعتدال وترك الطمع الشديد والجشع، وردت آيات في القرآن الكريم تقلل من أهمية الدنيا وتذمّها، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ مِمّا يَأْكُلُ النّاسُ وَالأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤/١٠]. وقال سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ

الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً [1] تَذْرُوهُ[2] الرِّياحُ وَكانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً، الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ١٨/٤٥ - ٤٦].

إن التزهيد في الدنيا له هدف أدبي سامٍ وأخلاقي رفيع، وهو من أجل الحد من الأطماع والصراع، وتخفيف حدة الشره والمنازعات من أجل الدنيا وثرواتها وملكياتها، حتى إذا جاء الموت، صار الإنسان نادماً، ويسأل عما جمع من حطام الدنيا من حرام وحلال، ثم لا ينفعه الندم، قال الله تعالى: ﴿أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ، كَلاّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلاّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ، كَلاّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ، ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١٠٢/١ - ٨].

وكثرت الأحاديث النبوية التي سارت على منوال القرآن ونسيجه العام، ومنها ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الدنيا حُلوة خَضِرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظُرُ كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء)).

أي إن في الدنيا متعة الذوق والبصر، والله جعلكم خلفاء فيها، فلا تتصرفوا بما لم يأذن به الله لكم، واتقوا الله، أي افعلوا أوامره واتركوا نواهيه، واحذروا فتنة النساء وكيدهن.

وفي حديث متفق عليه عن أنس رضي الله أن النبي ﷺ قال: ((اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة)) أي على المؤمن أن يفرح ويعنى بالباقي الخالد وهو نعيم الآخرة.

---

(١) الهشيم: اليابس المتفتت.

(٢) أي: تفرّقه وتنسفه.

وروى مسلم عن المستورد بن شدَّاد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يجعلُ أحدُكم أُصبَعه في اليمِّ، فلينظر بِمَ يرجع)) وهذا دليل على قيمة الدنيا الزهيدة، أمام نعيم الآخرة، وأن نسبة نعيم الدنيا لنعيم الآخرة، ليس إلا مثل نسبة الماء اللاصق بالإصبع إذا غمسها في البحر.

وروى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جَناح بعوضة ما سقى كافراً منها شَرْبة ماء)) أي إن الدنيا لا قيمة لها إذا قصدت لذاتها، وإنما قيمتها أن تجعل طريقاً للآخرة، ومزرعة للأعمال الصالحة، وهذه الأعمال مستثناة من هوان الدنيا، ودليل هذا الاستثناء:

حديث آخر للترمذي وقال: حديث حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكرَ الله وما والاه، وعالماً ومتعلّماً)).

ومن أهم شواغل الإنسان عن الآخرة: العناية بأسباب المعيشة، كالصنعة والتجارة وزراعة الأرض، روى الترمذي وقال: حديث حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تتخذوا الضَّيعة[1] فترغبوا في الدنيا)) ويراد به النهي عن الاستكثار من الضِّياع بما يزيد عن الكفاية، لئلا ينصرف المرء إليها بالقلب، وينسى الآخرة.

والناس أمام الدنيا نوعان: شخص مؤمن بالله، يتخذ الدنيا جسراً إلى الآخرة، وشخص جاحد بالله لا يهمه إلا تعمير الدنيا، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الدنيا سجن المؤمن، وجَنَّة الكافر)) هي سجن المؤمن لما أعدَّ الله له من نعيم الآخرة الدائم، والدنيا جَنَّة الكافر لما أعدَّ الله له فيها من ألوان النعيم ليحرم منها في الآخرة.

(١) أي: العقار، والجمع ضِيع وضِياع، وقال ابن الأثير في النهاية: ضيعة الرجل: ما يكون منه معاشه كالصنعة والتجارة والزراعة.

- ٤٦ -

التحذير من أهواء الدنيا

إن أهواء الدنيا وشهواتها مثل العاصفة الهوجاء التي تدمِّر كل ما يأتي أمامها، وكم من العظماء والكبراء والأثرياء دمَّرتهم الأهواء والشهوات، وكادت تعصف بهم، وتغيِّر معالم التاريخ، فيسقط الزعيم من شدَّة زعامته، والعظيم من سلطان عظمته وينهار عرشه. وبما أن القرآن الكريم دعوة خيِّرة للإنسان والأُمة، فقد حذَّر تحذيراً شديداً من جموح النفس وركوب الأهواء، والسير في مزالق الشهوة وزخارف الشيطان، حفاظاً على الكرامة الإنسانية، واحتراماً للوجود الإنساني، وصوناً للسمعة والشهرة وناموس الأخلاق والآداب، ولا سيما الحياء، حتى لا يغتر الإنسان بزخارف الحياة.

قال الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّما الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ[١] فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفّارَ[٢] نَباتُهُ، ثُمَّ يَهِيجُ[٣] فَتَراهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً[٤]، وَفِي الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ، وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ، وَما الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاّ مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٠]. وهذا تشبيه تمثيل

---

(١) مباهاة وتطاول.

(٢) أعجب الزراع.

(٣) يطول ثم ييبس.

(٤) هشيماً متكسِّراً.

للدنيا بحال ازدهارها بخضرة النبات فجأة، ثم تبديده وصيرورته هشيماً يابساً بعد أن كان غضاً طريّاً.

وقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ(١) مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ(٢) مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ(٣)، وَالأَنْعامِ وَالْحَرْثِ(٤)، ذَلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ(٥)﴾ [آل عمران: ٣/١٤].

﴿يا أَيُّها النّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا، وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(٦)﴾ [فاطر: ٣٥/٥].

وقال عز وجل: ﴿وَما هَذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ(٧)، وَإِنَّ الدّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ(٨) لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٤].

وتأتي الأحاديث النبوية تؤيد توجيه القرآن الكريم، فتحذّر من الاغترار بالدنيا ومفاتنها، ومن نزوة الاستعلاء، واستعباد الثروة والمال، واستغلال النفوذ، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((تعس عبد الدينار والدرهم، والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعطَ لم يرضَ)).

أي عثر وانتكس عبد المال، وعبد القطيفة (دثار أو ثوب مُخْمَل) وعبد الخميصة (الثوب الأسود المربع) وفيه التحذير من العبودية لغير الله تعالى.

---

(١) المشتهيات طبعاً.
(٢) الأموال الكثيرة المكدسة.
(٣) المعْلَمة.
(٤) الأنعام: الإبل والبقر والغنم، والحرث: الزرع.
(٥) حسن المرجع.
(٦) لا يخدعنكم كل ما يغر من شيطان وغيره.
(٧) كل ما يلهي من متاع زائل.
(٨) لهي الحياة الدائمة الباقية.

وروى البخـاري أيضـاً عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمَنْكِبي[1] فقال: ((**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**)).

وكان ابن عمر رضي الله عنه يقول: ((إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)) والمعنى: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطناً، ولا تحدِّث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء الشديد بها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله.

وروى ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، دُلَّني على عمل إذا عملته، أحبني الله وأحبني الناس، فقال: ((**ازهد في الدنيا يحبَّك الله، وازهد فيما عند الناس يحبّك الناس**)). ومعنى الزهد: هو التخلص من عبودية المال والمتاع، حتى تستقل العبودية لله وحده. وفيه إرشاد إلى القناعة بالرزق الحلال والرضا به، بعد بذل الجهد والعمل، كما فيه دلالة إلى ضرورة التعفف عن الحرام، والاحتياط للشبهة، وإنفاق الحلال في الوجوه المشروعة.

ووجَّه النبي ﷺ إلى راحة النفس والنظر إلى الأدنى وترك النظر للأعلى، جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ((انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم)).

وكان عليه الصلاة والسلام رأس الزهاد، لا عن عوز أو حاجة أو فقر، جاء في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: ((لو كان لي مثل أُحد ذهباً، لسرَّني ألا تمرَّ عليّ ثلاثُ ليال، وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدين)).

---

(١) المنكب: موضع اجتماع رأس العضد والكتف.

وروى مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناسُ من الدنيا، فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي، ما يجد من الدَّقَل[١] ما يملأ به بطنه)). وهو أعلى درجات الزهد. وتوفّي النبي ﷺ وما في بيته - كما قالت عائشة في حديث متفق عليه - إلا شطرُ شعير، أي شيء من شعير.

وكذلك الصحابة كانوا في قمة الزهد، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((لقد رأيت سبعين من أهل الصُّفّة[٢]، ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد رَبَطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته)).

---

(١) الدَّقَل: رديء التمر.

(٢) هم زهّاد الصحابة الفقراء الغرباء، كانوا يأوون إلى صفة في آخر مسجد النبي ﷺ.

- ٤٧ -

ظاهرة الفقر

ظاهرة الفقر والمرض والجهل ظاهرة تخلُّف، وإضعاف لبنية الأمة والمجتمع، وينبغي التخلص من هذه الظاهرة بتعاون الدولة والأمة، فإذا شاع الفقر شاعت الجريمة، وضعف الاقتصاد، واهتزت أوضاع المجتمع، ولكن خطر الفقر الفردي غير الشائع مقصور على صاحبه، ويظل الغنى أو البطر أخطر منه، فإذا كثر الأغنياء من غير مراعاة أحوال الفقراء، ظهرت الطبقية والاحتكار والاستبداد. وعلى كل حال ينبغي التوسط والاعتدال، وهذا منهج الإسلام القائم على الوسطية في كل شيء، وعلى تحقيق التوازن في المعيشة، والتقارب بين فئات الناس، والعمل بموجب أو مقتضى التكافل الاجتماعي أو الضمان الاجتماعي، وإذا أدى الغني زكاة ماله، وأنفق في سبيل الله ما يجب عليه إنفاقه، فلا يقف الإسلام أمامه ولا يجعل للغنى أو الثروة سقفاً.

قال الله تعالى مبيِّناً الحرص على تحقيق التوازن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة: ﴿الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦/١٨]. لكن المال أمانة، فينبغي إحسان الاستفادة منه، قال ﷺ: «إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بحقه بورك له فيه، ومن

أخذه بإشراف نفس لم يُبَارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى))[١].

وقد تعوَّذ النبي ﷺ من الفقر الفردي، وقال: ((كاد الفقر أن يكون كفراً))[٢]، ولكن بشَّر النبي ﷺ أمته بأنها لا تتعرَّض لفقر عام، جاء في حديث متفق عليه عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((**فوالله، ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم، كما بُسطت على من كان قبلكم، فتَنافسوها كما تنافسوها، فتُهلككم كما أهلكتهم**)).

وفي حديث آخر متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: ((إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها)).

ومن المعلوم أن الإنسان لا يفيده في آخرته إلا عمله الصالح، ولا ينفعه المال، جاء في حديث متفق عليه عن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: ((يَتْبع الميتَ ثلاثةٌ: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان، ويبقى واحد، يرجع أهله وماله، ويبقى عمله)).

وصوناً لسمعة الأنبياء والرُّسل، وتحقيقاً لسموِّ رسالاتهم الداعية إلى الخير والإصلاح وتوحيد الله عز وجل، فإنهم لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ أوفر. وروى البخاري عن عمرو بن الحارث - أخي جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنهما - قال: ((ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهماً، ولا عبداً ولا أمة، ولا شيئاً إلا بغلتَه البيضاء التي كان يركبها، وسلاحَه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة)).

---

(١) أخرجه أحمد والشيخان والترمذي والنَّسائي عن حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية عن أنس رضي الله عنه.

وحذَّر النبي ﷺ من إغراءات المال وفتنته، روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن كعب بن عياض رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**إن لكل أمةٍ فتنةً، وفتنةُ أمتي: المال**)) والفتنة: الامتحان والاختبار، ويكون في الخير والشر، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥/٢١]. وفتنة الأمة: ما تمتحن به في دنياها. وقد جعل الله المال من زينة الحياة الدنيا، وجعل في فطرة الإنسان حبّاً لتملُّكه، ولكنه تعالى الذي استخلف الإنسان في الدنيا وعمارتها ناظر كيف يعمل الناس جميعاً.

وتثمير المال مشروع، والتصدق بالفضل الزائد عن الحاجة مطلوب، روى مسلم عن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه أنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ﴾ [التكاثر: ١/١٠٢] قال: ((يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدَّقت فأبقيت)).

ومن حقِّ كل إنسان تحقيق الحاجات الثلاث الأساسية، وهي: المسكن أو المأوى، والثوب، والطعام والماء، روى الترمذي وقال: حديث صحيح، عن أبي عمرو أو أبي عبد الله عثمان بن عفان رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيتٌ يسكنه، وثوب يواري عورته، وجِلْف الخبز[1]، والماء)). وهذا ترغيب في حدِّ الكفاية في الدنيا من بيت السكن، وثوب ساتر العورة، والخبز والماء.

وروى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما ذئبان جائعان أُرسلا في غَنَم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)). وروى الترمذي أيضاً عن ابن مسعود

---

(١) الجلف: الخبز الذي ليس معه إدام، أو غليظ الخبز، والمراد به هنا: وعاء الخبز كالجَوالق والخُرْج.

رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثَّر في جنبه، قلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وِطاءً[1]، فقال: ((مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها))، وهذا يدلُّ على زهد النبي ﷺ، باعتباره إمام الضعفاء، وجعل الدنيا دار ممر، والعناية بدار الآخرة بالأعمال الصالحة.

وروى الترمذي أيضاً وقال: حديث صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مئة عام)) وهو يدلُّ على فضل الفقراء الصلحاء على الأغنياء العصاة، وأن الأغنياء يحاسبون في الموقف عن المال.

(١) الوِطاء: الفراش الوطيء الذي يستريح عليه النائم.

-٤٨-

خشونة العيش

لا يصفو الدهر لإنسان مهما كان، فمرة يعيش مترفاً أو منعَّماً، ومـرة يعيـش متوسِّط الحال أو معدِماً فقيراً، أو معسراً لا يجد ما كان يألفه من طيـب العيـش، والدهر يومان كما قال الشاعر النَّمر بن تَوْلب[1] :

فيـومٌ علينـا ويـومٌ لنـا ويـومٌ نُسَـاءُ ويـومٌ نُسَـرُّ

لذا كان من الحكمـة والتربيـة القويمـة أن يـتربى الإنسـان علـى الحلـو والمرّ، والنعمة وشظف العيش، والسعة والقلة، ليـألف كـلَّ حـال، ويجتـاز كـل عسير وصعب: ((اخشوشنوا فإن النِّعَم لا تدوم))[2] .

ومثاله كم مـن محـارب أو مجـاهد أو ثـري أو ذي منصـب وجـاه منعَـمِ الحـال والبال، يتعرَّض لفقد الطعـام والشـراب والكسـاء، والشـمس والـبرد، فمـن تعـوَّد الحالين، نجا وسلم، ومن اعتاد تناولَ الطيب الهني من الطعام والماء البـارد، وقـع في أزمة ومحنة، فكان من الضروري تهيئةُ الإنسان نفسَه لسوء الحال ويسر الحال.

وهذا ما وصفـه القـرآن الكريـم مـن أحـوال بعـض النـاس، قـال ا لله تعـالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضـاعُوا الصَّـلاةَ وَاتَّبَعُـوا الشَّـهَواتِ فَسَـوْفَ يَلْقَـوْنَ غَيّاً[3] ، إلاّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَـأُولَئِكَ يَدْخُلُـونَ الْجَنَّـةَ وَلا يُظْلَمُـونَ

---

(١) انظر الكتاب لسيبويه ١/٨٦ وهو من الشواهد المشهورة.

(٢) رواه الطبراني بلفظ: ((اخشوشنوا وامشوا حفاة)).

(٣) شرّاً أو وادياً في جهنم.

شَيْئاً﴾ [مريم: ٥٩/١٩ - ٦٠]. وحكى القرآن الكريم تقلُّب حال قارون من قوم موسى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقّاها إِلاّ الصّابِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩/٢٨ - ٨٠].

وكان النبي ﷺ إمام الصابرين على خشونة العيش، حتى يكون الأسوة الحسنة للمستضعفين والمحرومين والبؤساء في العالم، وسيرته الشريفة ملأى بسرد الوقائع الدالَّة على شظف العيش، بل وشدته وعسرته، جاء في حديث متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((**ما شبع آل محمد ﷺ من خُبز شعير يومين متتابعين حتى قُبض**)) وفي رواية: ((**ما شبع آل محمد**))[1] **منذ قدم المدينة من طعام البُرّ**[2] **ثلاث ليال تِباعاً، حتى قُبض**)). فهل نجد أكثر المسلمين في العالم قاطبة من لا يأكل إلا الخبز من القمح والأرز واللحم وغيره؟!

وفي حديث آخر متفق عليه أيضاً عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: والله يابن أختي، إن كنا ننظر إلى الهلال[3]، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثةُ أهلَّة في شهرين، وما أُوقد في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ!! قلت: يا خالةُ، فما كان يُعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمرُ والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منايح[4]، وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها، فيسقينا)).

وتمرُّ الظروف والأحوال برسول الله ﷺ وبآل بيته، فلا يجدون في بيته أو بيوته إلا القليل جداً من الطعام، وهذه حوادث بروايات، روى البخاري عن أبي سعيد المَقْبُري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مرَّ بقوم بين أيديهم شاة

(١) أي: أزواجه ومن يعولهم من الخدم.

(٢) البرّ: أي القمح.

(٣) الهلال: القمر ابن ليلتين، أو ابن ست وعشرين وسبع وعشرين.

(٤) المنايح جمع منيحة، وهي الشاة أو الناقة، يعطيها صاحبها غيره إعارة ليشرب لبنها، ثم يردها.

مَصْلية[١] ، فدعوه فأبى أن يأكل، وقال: ((خرج رسول الله ﷺ من الدنيا، ولم يشبع من خُبز الشعير)).

وروى البخاري أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال: ((لم يأكل النبي ﷺ على خِوان[٢] حتى مات، وما أكل خُبزاً مُرَقَّقاً حتى مات)) وفي رواية له: ((ولا رأى شاة سميطاً[٣] بعينه قط)).

وروى مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: ((لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدَّقَل ما يملأ به بطنه)) والدَّقَل: تمر رديء. وهو دليل على أن النبي ﷺ كان لا يجد أحياناً كفايته، لانصرافه إلى الدعوة في سبيل الله، وزهده في الدنيا، وترفعه عن الشهوات.

وتتوالى الأخبار الدالة على زهده وإعراضه عن ترف الدنيا ومغرياتها، منها ما رواه البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: ((ما رأى رسول الله النَّقِي[٤] من حينَ ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله تعالى، فقيل له: هل كان لكم في عهد رسول الله ﷺ مناخل؟ قال: ما رأى رسول الله ﷺ مُنخلاً من حينَ ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله تعالى. فقيل له: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: كنا نطحنُه وننفخُهُ، فيطير ما طار، وما بقي ثرَّيناه)) أي: بَلَلْناه وعجَنَّاه.

وفي حديث آخر متفق عليه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: ((إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، ولقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ مالنا طعام إلا ورقُ الحُبْلة، وهذا السَّمُرُ، حتى إن كان أحدُنا ليَضَع كما تضع الشاة[٥] ، ماله خِلْط)) أي لا يختلط بعضه ببعض، لشدة جفافه؟ والحُبْلة والسمُر: نوعان معروفان من شجر البادية. وهذا يدل على صبر الصحابة رضوان الله عليهم، على الشدة حتى فتح الله عليهم وأغناهم من فضله.

---

(١) أي: مشوية.

(٢) ما يوضع عليه الطعام عند الأكل كالسفرة أو الطاولة.

(٣) هي الشاة المشوية بجلدها، وتكون عادة صغيرة السِّن.

(٤) الخبز الأبيض الخالي من النخالة.

(٥) أي: يسرع في سيره.

- ٤٩ -

قليل المأكول والمشروب والملبوس

كلما كانت الحياة خفيفة لطيفة، كلما سهلت المعيشة، وخفَّ الحِمْل، وارتاح الجسد، وتوافرت الصحة. أما الإكثار من الطعام والشراب والثياب، فمرهق للإنسان، ومتعب للحياة والصحة، والتقليل من أمتعة الدنيا وزخارفها طريق لتخفيف المسؤولية والحساب، وسبيل للتفرغ للواجبات الكبرى من الدعوة والجهاد في سبيل الله، وتحصيلِ العلم والخبرة، والابتكارِ والإبداع، وإنجازِ أكبر قدر ممكن من العطاء والنتاج، ونفع الذات والأمة، لذا حذَّر الله تعالى من الإكثار من مظاهر النعيم والترف، والرضا بالوسط والاعتدال، والقناعة بما ييسره الله تعالى.

قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١٠٢/٨].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً، وَمَنْ أَرادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ [الإسراء: ١٧/١٨ - ١٩].

ومن الأمثلة البارزة في الشعور بالمسؤولية عن النعيم الدنيوي: ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا

هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوعُ، يا رسول الله، قال: وأنا والذي نفسي بيده، لأَخْرجَني الذي أخرجَكما، قُوما، فقاما معه، فأتى رجلاً من الأنصار[١]، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً. فقال رسول الله ﷺ: أين فلان؟ قالت: ذهب يستعذب[٢] لنا الماء. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليومَ أكرمَ أضيافاً مني، فانطلق، فجاء بعِذْق[٣] فيه بسر وتمر ورُطب، فقال: كلوا، وأخذ المُدْية[٤]، فقال له رسول الله ﷺ: إياك والحَلوب[٥]. فذبح لهم، فأكلوا من الشاء، ومن ذلك العِذْق، وشربوا.

فلما أن شَبِعوا ورَوُوْا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: ((**والذي نفسي بيده، لتُسألُنَّ عن هذا النعيم يومَ القيامة! أخرجكم من بيوتكم الجوعُ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**)).

هذا السؤال ليس بسؤال توبيخ وتعذيب، وإنما هو سؤال تعداد النِّعَم. والحديث دليل واضح على تعرُّض النبي وصاحبيه للجوع، مع أنهم في مركز القيادة والسلطة. ولكنهم اعتنوا في تخصيص أنفسهم لنشر دعوة الإسلام، وإرضاء الله تعالى. كما دلَّ الحديث على استحباب إكرام الضيف، وعلى أن للمرأة استقبال ضيوف زوجها ما لم تكن خلوة ولا فتنة، والوقت قريب لقدوم زوجها.

وفي رواية لمسلم عن عُتبة بن غَزْوان أمير البصرة قال في خطبة له: ((ولقد رأيتُني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ مالنا طعام إلا ورقُ الشجر، حتى قَرِحت أشداقنا، فالتقطتُ بُرْدة، فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتَّزرت بنصفها،

---

(١) هو أبو الهيثم بن التَّيِّهان، كما في رواية الترمذي وغيره.
(٢) يطلب الماء العَذْب، وهو الطيب.
(٣) أي: الغصن.
(٤) أي: السكين.
(٥) أي: ذات اللبن.

واتَّزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً، وعند الله صغيراً)).

ومن مظاهر لبس النبي ﷺ ما نقله الثقات: البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: أخرجتْ لنا عائشةُ رضي الله عنها كساءً وإزاراً غليظاً[1]، قالت: ((قُبِض رسول الله ﷺ في هذين)). وهذا يدلُّ على بساطة ألبسة الرسول، وأنه كان أحياناً يلبَس الغليظ من الثياب. ويؤكد النبي على هذه البساطة والإقلال من متاع الدنيا، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((اللهم اجعل رِزق آل محمد قوتاً)) أي ما يسدُّ الرَّمَق، أي إن النبي ﷺ يريد الكفاية دون زيادة، لأن الأنبياء لم يبعثوا للدنيا وزينتها وزخارفها. ولا يمنع هذا من مشروعية الغنى إذا كان من حلال، وأدى الغني حقَّ الله فيه، فقد كان في الصحابة أغنياء شاكرون، أنفقوا الكثير من أموالهم في سبيل الله.

وفي حديث آخر متفق عليه بين الشيخين عن عائشة رضي الله عنها قالت: توفِّي رسول الله ﷺ، ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير. وهو دليل على زهد النبي ﷺ في الدنيا وترك استكثاره منها، وجواز معاملة أهل الكتاب، وجواز الدَّين لمن نوى الوفاء.

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان فراش رسول الله ﷺ من أَدَم[2]، حشوه ليف[3]. وهو يدلُّ على إعراض الرسول ﷺ عن متع الدنيا ورضاه باليسير منها.

---

(١) أي: ثخيناً، والكساء: الثوب الأعلى، والإزار: الثوب الأسفل.

(٢) أدم: جمع أديم، وهو الجلد المدبوغ.

(٣) ليف: قشر النخل الرقيق.

- ٥٠ -

ترك المظاهر والشهوات

إن مدرسة النبوة علَّمت المسلمين والعالم كيفية بناء القادة والرجال، بالتضحية والقيام بالواجب، وتقديم كل غالٍ ونفيس في سبيل الدعوة والخير، وإعلاء شأن الأمة، وتخليد ذكراهم بالأعمال المجيدة، والبطولات الفريدة، فصغُرت الدنيا في أعينهم، وعزفوا عن طيبات الحياة، وقدَّموا للأمة على مدى التاريخ تضحيات عزيزة، وأُسوة طيبة عالية، وتركوا في الغالب مظاهر الثراء واللباس والشهوات، والعناية بالبطون والمآكل وفنون المشارب، وعرفوا حقيقة الدنيا، وأدركوا أنها خدَّاعة غرَّارة موقوتة، قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّها النّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ، إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٣٥/٥ - ٦].

وكان الصحب الكرام تلامذة أوفياء لمدرسة النبوة في مظهرهم ومخبرهم، في طعامهم وشرابهم وملبسهم. روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ إذ رجل من الأنصار، فسلَّم عليه، ثم أدبر الأنصاري، فقال رسول الله ﷺ: ((يا أخا الأنصار، كيف أخي سعد بن عبادة؟)) فقال: صالح، فقال رسول الله ﷺ: ((من يعوده منكم؟)) فقام وقمنا

معه، ونحن بضعة عشر[١]، ما علينا نِعال ولا خِفاف، ولا قلانس ولا قُمُص[٢]، نمشي في تلك السباخ[٣] حتى جئناه، فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه)) وهو واضح الدلالة على زهد الصحابة وتقللهم من الملابس.

أما ظاهرة الترف والتفنن في المآكل والمشارب والملابس: فقد ظهرت بعد الصحابة والتابعين لهم بإحسان، في العصر العباسي وما تلاه، جاء في الحديث المتفق عليه عن عمران بن حصين رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: ((خيركم قرني[٤]، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون، ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذُرون ولا يُوفون، ويظهر فيهم السِّمن)). وهذا التفضيل من حيث المجموع، لا الجميع، أي لا من حيث كل فرد من الأفراد، فقد يظهر من بعضهم ترف، وأما الظاهرة الشائعة بعد القرون الثلاثة الأولى، فكانت واضحة المعالم والتغير، من حيث الإغراق في النعيم، والإسراف في الشهوات، وظهور السمن من كثرة الطعام.

والمبدأ الإسلامي في الإنفاق واضح: وهو مشروعية الادِّخار من المال قدر الحاجة، والترغيب في إنفاق الزائد عن الحاجة في وجوه الخير، فربما يكون إمساك الزائد شرّاً، إذا كان في الناس حاجة لسدِّ الرَّمق، فيكون هذا الإنفاق مستحباً وفضيلة، لا واجباً لازماً، بدليل ما أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**يا ابن آدم، إنك إن تبذُل الفضل خير لك، وإن تمسكه شرٌّ لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول**)) والفضل: هو الزائد عن الحاجة. ولا تلام: أي لا يلحقك لوم شرعي.

---

(١) البضع: ما بين الثلاثة إلى العشرة.

(٢) الخف: حذاء الرجل، والقلنسوة: غطاء الرأس. والقميص: الذي يلبس في الداخل.

(٣) أي: الأرض الملحة، التي لا ينبت فيها إلا بعض الشجر.

(٤) القرن: مئة سنة، وقرن النبي ﷺ هو الأول، ثم الثاني قرن أصحابه، ثم الثالث قرن التابعين.

والكفاف: إمساك قدر الحاجة. وترتيب أولويات الإنفاق: هو أن يبدأ الإنسان أولاً بالإنفاق على نفسه، ثم على عياله، لأن النفقة عليهم فرض عين، ثم على غيرهم من الأقارب أو الأباعد بصفة كونها فرض كفاية أو سنة.

وأسلوب تناول الطعام يتبين فيما رواه الترمذي وقال: حديث حسن عن أبي كَريمة المقدام بن معديكرِب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه، بِحَسْب ابن آدم أَكَلات يُقِمْن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسِه**)).

وأما الحاجات الأساسية التي ينفق الإنسان عليها أولاً: فهي ما نصَّ عليه الحديث الذي أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن، عن عُبيد الله بن مِحْصَن الأنصاري الخَطْمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أصبح منكم آمناً في سربه[1]، معافىً في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها)) أي إن هذه هي الحاجات الضرورية، وهي: المسكن أو المأوى، والملبس، والمطعم، وبها يتحقق الأمن والكفاية، وما بعدها استكثار فيه مزالق، فقد يؤدي إلى الإسراف والتبذير، وترك أداء شكر النعمة، وإهمال فرائض الله.

ويؤيده ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((لقد أفلح من أسلم، وكان رزقه كَفافاً[2]، وقنَّعه الله بما آتاه)) وفي رواية للترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن أبي محمد فضَالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((طوبى لمن هُدي للإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنِع[3])).

---

(١) السِّرب: النفس أو القوم.
(٢) أي: قدر الحاجة.
(٣) رضَّاه.

وكان النبي ﷺ إماماً في الاقتصار على الكفاف، روى الترمذي وقال: حديث صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي طاوياً، وأهله لا يجدون عَشاء، وكان أكثرُ خبزهم خبزَ الشعير)). وكان أهل الصُّفة مثل نبيهم، روى الترمذي وقال: حديث صحيح عن فَضالة بن عُبيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يَخِرُّ رجال من قامتِهم في الصلاة من الخصاصة[1] - وهم أهل الصُّفة - حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين، فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم، فقال: لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة)).

(١) الفاقة والجوع الشديد.

-٥١-

القناعة
والاقتصاد في المعيشة

من أصول الإسلام الاقتصادية: هو أن الرزق لكل حي مكفولٌ من الله تعالى بشرط العمل، وأنه تنبغي العفة وترك السؤال، ويلزم الاعتدال في النفقة من غير إسراف ولا تقتير، وأن الادِّخار لِسَنَة مستحب، ولا بد من الاقتصاد في المعيشة، فالتدبير نصف المعيشة، وأن السؤال أو الاستجداء مذموم من غير ضرورة، وعلى السائل أن يعتبر ذلك كونه سلوكاً مؤقتاً، من غير ديمومة ولا استمرار، وعليه أن يبادر إلى الاعتماد على نفسه، ويبدأ العمل البسيط من جديد، ليكفي نفسه وأهله، ويقلع عن المسألة التي لا تأتي بخير، فإن السؤال مذلة وهوان، ومريق لماء الحياء في الوجه وإزالة له.

وقد دلَّت النصوص القرآنية على هذه القواعد، فقال الله تعالى: ﴿وَما مِنْ دابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُها﴾ [هود: ١١/٦].

والدّابة: كل ما يدب على الأرض، من حيوان أو إنسان، يحتاج إلى رزق.

وقال سبحانه: ﴿وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ، فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذّاريات: ٥١/٢٢ - ٢٣].

وقال عز وجل: ﴿لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ[١]، يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ[٢]، لا يَسْأَلُونَ النّاسَ إِلْحافاً[٣]﴾ [البقرة: ٢٧٣/٢].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَواماً[٤]﴾ [الفرقان: ٦٧/٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ، ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذّاريات: ٥٦/٥١ - ٥٧].

وتأتي السُّنة مبينة للقرآن الكريم، لحمل الناس على التزام التوجيهات الإلهية لصالح البشر وتحقيق منافعهم، من ذلك ما يرشد إلى القناعة والعفة، روى الشيخان (البخاري ومسلم) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**ليس الغنى عن كثرة العَرَض[٥]، ولكن الغنى غنى النفس**».

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم، ورُزِق كفافاً[٦]، وقنّعه الله بما آتاه**». ففي هذين الحديثين الشريفين: الحثّ على الرضا بما قسم الله تعالى، وترك الازدياد من غير حاجة، وفضل من رضي بإغناء الله تعالى له عن سؤال الناس ولو قليلاً.

ويستهوي المال جميع الناس في الغالب، فلم يحجر الشرع على أحد تملكه، إن أدى حق الله فيه، وكان مكتَسباً من حلال لا من حرام، ولا من جشع أو طمع مفرط، وتظل اليد العليا، أي المعطية خيراً من اليد السفلى (الآخذة) أو السائلة.

---

(١) أي: سفراً للتجارة.
(٢) أي: بعلامتهم وما يظهر عليهم من أثر الجهد والمشقة.
(٣) إلحاحاً. والمراد: أنهم لا يسألون أبداً.
(٤) وسطاً واعتدالاً بحسب الطاقة.
(٥) العَرَض: المال.
(٦) مقدار حاجته.

جاء في الحديث المتفق عليه عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: ((يا حكيم، إن هذا المال خَضِر حُلْو، فمن أخذه بسخاوة نفس[١] بُورِك له فيه، ومن أخذه بإشراف[٢] نفس لم يبارَك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى)).

قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا أرزأ[٣] أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطاء، فيأبى أن يقبل منه شيئاً، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه، فأبى أن يقبله، فقال: يا معشر المسلمين أُشهدكم على حكيم أني أعرض عليه حقه الذي قسمه الله له في هذا الفيء[٤]، فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد النبي ﷺ حتى توفّي.

دلَّ الحديث على أن أخذ المال وجمعه بطرق مشروعة لا يتعارض مع الزهد في الدنيا، لأن الزهد سخاوة النفس، وعدم تعلُّق القلب بالمال، ودلَّ أيضاً على التنفير من مسألة الناس ولا سيما لغير حاجة، والحرص على أن يكون المرء معطياً لا سائلاً.

وقد عانى الصحابة الكرام معاناة شديدة من متابعة الجهاد في سبيل الله وخوض المعارك الفاصلة، بتقشف وخشونة عيش، وصبر على ذلك مع الرضا، حتى سميت إحدى الغزوات بذات الرقاع، بسبب ما يَعْصِبون من الخِرَق على أرجلهم. روى البخاري ومسلم عن أبي بُرْدة عن أبي موسى الأشعري رضي

---

(١) سخاوة النفس: هي عدم الإشراف إلى الشيء، والطمع فيه، والمبالاة به، والشَّرَه.
(٢) إشراف النفس: تطلُّعها وطمعها بالشيء.
(٣) أصل الرزء: النقصان، أي لم ينقص أحداً شيئاً بالأخذ منه، والمراد: لم يأخذ من أحد شيئاً.
(٤) الفيء: ما أخذ من الحربيين الأعداء، صلحاً، من غير حرب ولا قتال.

الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غَزْوة، ونحن ستةُ نفر، بيننا بعير نعتقبه[١]، فنَقِبَت أقدامُنا[٢]، ونَقِبَتْ قدمي، وسقطت أظفاري، فكنا نلفُّ على أرجلنا الخِرَق، فسمِّيت ذات الرِّقاع، لما كنا نَعصِب على أرجلنا من الخِرَق، قال أبو بردة: فحدَّث أبو موسى بهذا الحديث، ثم كرِه ذلك وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره[٣]! قال: كأنه كرِه أن يكون شيئاً من عمله أفشاه.

وهذا يدلُّ على مزيد التقشف، وعلى كراهية أن يذكر الإنسان عمله الصالح، خشية الرياء والمباهاة.

---

(١) نتعاقبه في الركوب، واحداً بعد الآخر.
(٢) أصابتها خفة أو رقة.
(٣) أي: ما أصنع بذكره.

- ٥٢ -

ذمُّ السؤال من غير ضرورة

يتألم المرء حين يجد في العالم الإسلامي ظاهرة السؤال شائعة منتشرة، على أبواب المساجد، أيام الجُمَع والأعياد وصلوات الجماعة، وأصبح باب الجامع مصحوباً بالرجال والنساء والصغار الواقفين على زواياه، أو القاعدين على الأرض، أو المكتسبين بتلاوة شيء من القرآن الكريم. وهذه ظاهرة مذمومة، ينبغي التخلص منها، والتعاون بإيجاد جمعيات اجتماعية تعاونية إنسانية، لعلاج هذه الظاهرة، وتقديم المساعدات المالية لهؤلاء وغيرهم من المحتاجين بحق، ممن يحجبهم الحياء وعزة النفس عن مدِّ أيديهم، والوقوف مهانين متعرضين لذلِّ السؤال.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨].

وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ..﴾ [البقرة: ٢/١٧٧].

وليس كل سائل محتاجاً، جاء في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((**ليس المسكين الذي يطوف على الناس، تردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكنَّ المسكينَ الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يفطن له، فيُتصدَّق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس**)).

ويعلّمنا النبي ﷺ ضرورة الامتناع عن السؤال إلا في حال الضرورة القصوى، وهي حيث يتعرض الإنسان لخطر الموت جوعاً أو عطشاً ونحو ذلك، جاء في الحديث المتفق عليه عن حكيم بن حزام رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((**اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستعفِفْ يعفّه الله، ومن يستغنِ يغنه الله**)) أي ابدأ بمن تجب عليك نفقته من زوجة أو ولد، وخير الصدقات: ما كان عن ظهر غنى، أي غير محتاج إليه. ومن يستعفف: يكف عن سؤال الناس، يعفه الله ويمده بالعون. ومن يستغن، أي يظهر الغنى، يغنه الله من فضله. دلَّ هذا الحديث على كراهة التصدق بما يحتاجه، أو بكل ما يملكه، حتى لا يصبح عالة على الناس، أو يضطر إلى سؤال الناس. والعفة عن السؤال والاستغناء بالله مجلبة للرزق الحسن، والحفاظ على الكرامة الإنسانية.

وينهى النبي ﷺ عن السؤال، ويبين مدى المذلة والهوان فيه، وأن الله لا يبارك فيه، روى مسلم عن أبي عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تلحفوا في المسألة[1]، فوالله لا يسألني أحد منكم شيئاً فتخرجَ له مسألتُه مني شيئاً، وأنا له كاره، فيبارَك له فيما أعطيته)) وهو دليل تحريم إحراج الآخرين وحملهم على العطاء بالإلحاح، ودليل أيضاً على أن ما يعطى كرهاً من غير رضا أو حياء، فهو حرام، فليتنبه

(١) من الإلحاف: وهو الإلحاح أي كثرة الطلب.

السائلون لهذا، وليدركوا أنهم إن لم يكونوا محتاجين، حرم فعلهم، ولا يبارك الله لهم في هذا العطاء.

وكان من فِقرات أو بنود بيعة النبي ﷺ - كما روى مسلم عن أبي عبيد الرحمن: عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه -: ((أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا الله)) وأسرَّ كلمة خفيفة: ((ولا تسألوا الناس شيئاً))، وهو دليل على ضرورة الابتعاد عن كل ما يسمى سؤالاً، وعلى ضرورة التحلي بعزة النفس، والترفع عن مِنَّة الخلْق.

ومخاطر السؤال الأدبية شديدة وقبيحة، جاء في الحديث المتفق عليه، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: ((لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى، وليس في وجهه مُزْعة لحم)) أي قطعة لحم، كناية عن ذلّه وسقوطه يوم القيامة، فالسؤال حرام، لما فيه من ذلِّ الدنيا وعذاب الآخرة.

وفي حديث آخر رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من سأل الناس تكثُّراً فإنما يسأل جمراً، فليستقلّ أو ليستكثر)) وهذا صريح في تحريم السؤال لغير حاجة، وأن المأخوذ حينئذ وبال، ودمار على صاحبه.

وفي صورة أخرى لمذلة السؤال: روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن سَمُرة بن جُنْدُب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن المسألة كَدٌّ[1]، يكُدُّ بها الرجل وجهَه، إلا أن يسأل الرجل سلطاناً أو في أمر لا بد منه))، أي إن السؤال جائز في حالتين: سؤال أو طلب شيء من السلطان، وسؤال الناس للحاجة.

---

(١) أي: خَدْش ونحوه.

وهناك أحوال (ثلاثة) أخرى يحلُّ فيها السؤال، روى مسلم عن أبي بشْر قُبيصة بن المخارق رضي الله عنه قال: تحمَّلت حَمَالة[١] فأتيت رسول الله ﷺ أسأل فيها، فقال: ((أقم حتى تأتيَنا الصدقةُ فنأمرَ لك بها، ثم قال: يا قُبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة:

- رجلٍ تحمَّل حَمَالة، فحلَّت له المسألة حتى يُصيبها، ثم يُمسك، ورجل أصابته جائحة[٢] اجتاحت ماله، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قِواماً[٣] من عيش - أو قال: سِداداً[٤] من عيش، ورجلٍ أصابته فاقة[٥]، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحِجى[٦] من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيش - أو قال: سِداداً من عيش - فما سواهن من المسألة، يا قبيصة، سُحت، يأكلها صاحبها سُحْتاً)).

ويجوز الأخذ من غير مسألة ولا تطلُّع إليه، ورد في حديث متفق عليه، من حديث سالم بن عبد الله، عن أبيه عبد الله، عن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((كان رسول الله ﷺ يُعطيني العطاء، فأقول: أعطه من هو أفقر إليه مني، فقال: خُذه، إذا جاءك من هذا المال شيء، وأنت غيرُ مشرف[٧]، ولا سائل، فخذه، فتموَّله، فإن شئت كُلْه، وإن شئت تصدَّقْ به، ومالا[٨] فلا تُتبعْه نفسك)).

---

(١) الحمالة: أن يقع قتال ونحوه بين فريقين، فيصلح إنسان بينهم على مال، يتحملُه ويلتزمُه على نفسه.

(٢) الجائحة: الآفة تصيب مال الإنسان.

(٣) القوام: هو ما يقُوم به أمر الإنسان من مال ونحوه.

(٤) السداد: ما يَسدُّ حاجة المـعْوز ويكفيه.

(٥) الفاقة: الفقر.

(٦) الحجى: العقل.

(٧) أي غير متطلّع إليه.

(٨) أي: وأيُّ مال لا يجيئك على هذه الحال، بل جاءك وأنت مشرف أو سائل.

وسؤال الناس يدلُّ على ضعف الإيمان، لتركه سؤال الله عز وجل، روى أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أصابته فاقة، فأنزلها بالناس، لم تُسَدَّ فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك[1] الله له برزق عاجل أو آجل)) فيه الحث على سؤال الله تعالى وحده عند الشدائد والهموم. وروى أبو داود بإسناد صحيح عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من تكفَّل لي ألا يسألَ الناس شيئاً، وأتكفَّلُ له بالجنة)) فقلت: أنا. فكان لا يسأل أحداً شيئاً.

(١) أي: يسرع.

-٥٣-

كسب العمل اليدوي

الإسلام يحب العمل والنتاج والعطاء والنشاط، ويكره الكسل والإهمال والأخذ بغير حق، ويوجب الابتعاد عن الشبهات ومظانّ التهمة، والمكاسب الحرام، ويحض العاملين على الاكتساب من عمل اليد، سواء من زراعة أو تجارة أو صناعة، أو خبرة علمية كالطبيب والمهندس والعالم بعلم مأذون به شرعاً، فإن كسب اليد يبارك الله فيه، لأنه يقترن بعرق الجبين والجهد والعناء، ويكون الكسب سبيلاً لصون الكرامة والحياء والاعتماد على النفس.

والرزق منوط بالسعي له، والبحث عن موارده، والتنقيب عن مصادره، والله دائماً يلهم العاملين الخير، ويوفقهم لما يرضيه، وييسر لهم الحصول على المال من طريق عزيز كريم. وأما الكسالى الذين يستسهلون السؤال وترك العمل مع القدرة عليه، فهم أناس متخلفون فكرياً وعملياً، وبأشد الحاجة إلى التقويم والتربية والتوجيه.

ولم يمنع الإسلام من العمل والاكتساب إلا في وقت أداء الصلاة، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٦٢/١٠].

أي إذا انتهت صلاة الجماعة، اطلبوا الخير من رزق الله، ولا تعثوا في الأرض، مفسدين، لأن الانتشار في الأرض وحرية التنقل فيها مقيد بترك الضرر والضرار، والإفساد، والتخريب، والإساءة للآخرين. وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ٦٧/١٥].

وقد علّم النبي ﷺ ضرورة الاعتماد على الذات والجهد الشخصي المستقل، وترك الكسل والاعتماد على جهود الآخرين أو مكاسبهم وأعمالهم.

روى البخاري عن أبي عبد الله الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**لأَن يأخذ أحدُكم أَحْبُلَه، ثم يأتيَ الجبل، فيأتيَ بِحُزمة من حطب على ظهره، فيبيعَها، فيكفَّ الله بها وجهَه، خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه**)) فيه الحث على العمل لتحصيل الرزق، وفيه ضرورة إجهاد النفس في تحصيل الرزق الحلال الطيب والمبارَك فيه.

ويؤيده حديث آخر متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لأَن يحتطب أحدكم حُزْمة[1] على ظهره، خير له من أن يسأل أحداً، فيُعطيَه أو يمنعَه)).

وكان داود عليه السلام وغيره من الأنبياء المرسلين يعملون بأيديهم، ويأكلون من ثمرة جهودهم وأتعابهم، ولا يتّكلون على ما يقدمه الآخرون لهم، بل ولا يسألون الناس أجراً على قيامهم بدعوتهم إلى الله تعالى، فهذا واجب إلهي محض، لا يتوقف على أجر، ولا يتعلق بدفع المقابل، بل تظل الدعوة سائرة في خطها أو منهجها المقرر من الله تعالى، وما على الناس إلا المبادرة لتلبية نداء هذا الرسول، والإقرار بفضله، ومقابلته بالإحسان، قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٥٥/٦٠].

وهذه أمثلة من حِرَف أو أعمال الرسل، روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((كان داود عليه السلام لا يأكل

(١) أي: حزمة من حطب.

إلا من عمل يده)) وفيه الحث على العمل، وأن يكون الرزق من كسب اليد أو من العمل وثمرة الجهد، فقد كان داود عليه السلام يصنع الدروع، كما حكى القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠/٢١]. وكان قوم عاد، الذين أرسل إليهم هود عليه السلام، صُنَّاعاً مهرة حرفيين، قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨/٢٦ - ١٢٩].

وكان زكريا عليه السلام نجاراً، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((كان زكريا عليه السلام نَجَّاراً)). وهذا يدلُّ على فضل العمل الصناعي. وكان نوح عليه السلام يعمل السفن، وكان إدريس عليه السلام خياطاً.

وكان النبي ﷺ كأخيه موسى يرعى الغنم، ويمارس التجارة في مال خديجة رضي الله عنها، وما بعث الله نبياً إلا وكان راعي غنم، ليكونوا أُسوة حسنة في ممارسة الأعمال.

روى البخاري عن المِقْدام بن مَعْدِيكرِب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)).

هذه النصوص القرآنية والنبوية التشريعية ترشد إلى العمل وحبه، وتحث على الأخذ بالأسباب، علماً بأن ذلك لا يتعارض مع التوكل على الله عز وجل، وأن العمل عز وشرف، والكسل مهانة وذلة، كما أن جمال الحياة والعمل من أجلها، وشغل الفراغ، ضروريان لكل إنسان، والله تعالى أمر بالعمل الصالح للدنيا والآخرة، كما منع من السؤال لغير ضرورة أو حاجة، قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥/٩].

- ٥٤ -

ثواب الجود والسخاء

النفقة في مجال الضيافة أو الهدية ونحوهما لها ثواب الصدقة في سبيل الله، أي جهاد الأعداء، والهدية تسلُّ السخيمة، أي الحقد والكراهية، والجواد يتمتع بثقة الناس ومحبتهم، ويصير محط آمالهم في إقامة مشروع عام مثلاً، كتعبيد طريق، أو إيصال ماء، أو نور، أو بناء مشفى أو مدرسة أو إنقاذ مرض أو جماعة من الكرب والشدة، ويصبح هذا السخي حديث الناس في المحافل، ومقصد الطالبين والمحتاجين. وما أجمل، وما أروع، وما أسمى فضيلة السخاء وإنفاقَ المال في سبيل الخير والناس. قال الله تعالى مبشراً المنفقين بالجنة:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٤].

وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/٢٦١].

وقال جل جلاله: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢٤٥].

ليس هناك أجلّ من نفقة تفرج كرباً، أو تنقذ بها إنساناً، أو تمسح الدموع عن بائس أو مشرد أو طريد أو مسكين، أو تعالج مريضاً فتعيد إليه الحياة، أو تزيل عنه ألماً مبرِّحاً، وترفع عنه شكوى مريرة.

وتتوارد الأحاديث النبوية الكثيرة حاضَّة على السخاء، أو مرغِّبة بالإنفاق، منها ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((**أربعون خصلةً، أعلاها منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها، وتصديقَ موعودها إلا أدخله الله تعالى بها الجنة**)).

أي هناك أربعون حسنة، منها تشميت العاطس، وإطعام الجائع، وإرواء الظمآن، ومنها عطية العنزة أو الناقة لجار أو صديق، ليشرب لبنها، ثم يردّها لصاحبها.

وروى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، عن عائشة رضي الله عنها: أنهم ذَبَحوا شاة، فقال النبي ﷺ: ((ما بقي منها؟)) قالت: ما بقي منها إلا كَتِفُها، قال: ((بقي كلها غيرَ كتفها)). والمعنى: تصدقوا بها إلا كتفها، فقال النبي ﷺ: بقيت لنا في الآخرة إلا كتفَها. فيه الحث على الصدقة، وألا يستكثر الإنسان ما أنفقه منها. وأما ما يأكله الإنسان من طعام، فلا ثواب له إن لم يقارنه نية طيبة، أو قصد صحيح، مثل نية التقوِّي على طاعة الله تعالى.

وفي حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: ((من تصدَّق بعَدْل[1] تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربِّيها لصاحبها، كما يربِّي أحدكم فَلُوَّه[2]، حتى تكون مثل الجبل)).

أي إن الله تعالى يتقبل صدقة الإنسان بقبول حسن، وينمي له ثوابها، ويضاعفُها له إلى أن تصبح مثل الجبل، وتنميتها مثل تربية المُهْر حتى يكبر

(١) العَدْل بالفتح: قيمة الشيء من غير جنسه.
(٢) الفَلُوّ: المُهْر.

ويسمن. ودلَّ الحديث أيضاً على أن الله تعالى لا يقبل إلا الطيب وهو الكسب الحلال الخالي من الغش والخديعة.

ومن فضل الله وإحسانه: أنه جعل الجزاء من جنس العمل، ويؤكد النبي عليه الصلاة والسلام على فضيلة الصدقة، ويحث على الإنفاق، جاء في حديث متفق عليه، عن أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنهما قالت: قال رسول الله ﷺ: ((لا تُوكي فيُوكيَ الله عليك[١])). وفي رواية: ((أنفقي أو انفحي أو انْضَحي[٢]، ولا تُحصي فيُحصيَ الله عليكِ[٣]، ولا تُوعي فيوعي الله عليكِ[٤])).

ومن عجائب القصص في بيان فضل التقرب إلى الله تعالى بالإنفاق: ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((بينما رجل يمشي بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة: اسقِ حديقة فلان، فتنحَّى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرَّة[٥]، فإذا شرجة[٦] من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كلَّه، فتتبع الماءَ، فإذا رجل قائم في حديقته يحوِّل الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله، لِمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسقِ حديقة فلان لاسمكَ، فما تصنع فيها، فقال: أمّا إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدقُ بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأردُّ فيها ثلثه)).

وهذا إخبار من الملائكة بفضيلة الإنفاق، وأن الله تعالى يكرم المنفق ويعوضه خيراً، وهذا من أعاجيب الوقائع، حيث يسمع الإنسان صوت أحد الملائكة الموكل بالأرزاق.

---

(١) أي: لا تدَّخري وتمنعي ما في يدك، فيقطع الله رِفدك ويمسك عنك مادة الرزق.

(٢) انفحي وانضحي: بمعنى أنفقي.

(٣) أي: لا تمسكي المال وتدخريه من غير إنفاق، فيمسك الله عنك الرزق ويحاسبك في الآخرة.

(٤) أي: لا تمنعي ما فضل عنك، فيصيبك الله بالتشدد، أو يمنع الله عنك فضله وجوده.

(٥) الحرَّة: الأرض ذات الحجارة السود.

(٦) الشرجة: مسيل الماء.

-٥٥-

البخل والشُّح

الجود أو السخاء يلتقي مع الإيمان الصحيح، لأن المؤمن يعتقد اعتقاداً جازماً أن الرزق مقسوم، والأجل محدود، وأن الله تعالى يعوض المنفق عما أنفقه، ويمدُّه من فضله ويزيده رزقاً، فلا يضطرب ولا يقلق، وينفق ولا يبخل. وأما البخل والشُّح فليس من صفات أهل الإيمان، وهو من ربع المهلكات كما ذكر الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين. والبخل شرعاً: منع الواجب، وعند العرب: منع السائل مما يفضل عنده، والشُّح: أشد البخل وأبلغ في المنع منه، وهو البخل مع الحرص.

والبخيل مذموم عند الله والناس، والبخل نقيصة وعيب ورذيلة، ولا سيما في الرجل، لذا رغَّب الشرع بالجود والسخاء، ونهى عن البخل والشُّح، فقال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ٩٢/٥ - ١١] أي من يستغن عن ربِّه، فلم يرغب إليه بالعمل بطاعته، ومن استغنى بماله عن كسب الفضيلة، يوفقه الله للخصلة المؤدية إلى العسر.

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ٦٤/١٦].

أي من يكفّ نفسه عن البخل، ويمنع نفسه عن الشُّح مع حرصها، فهو سالم ناجٍ، فائز في الدار الآخرة.

والبخل يُلحق ضرراً بالنفس وبالغير وبالمجتمع، ويسيء إلى صاحبه إساءة بالغة، فيتحدث الناس عنه بالسوء، ويحرم هو نفسَه من طيبات الحياة الدنيا، ومن التنعم بماله وثروته، وتكون أمواله من حظ قرابته وورثته. ويحجب البخيل عن نفسه ثواب العمل الصالح، والإسهام في الخير، وإذا ساد البخل في مجتمع، تعطلت المصالح ونضب الخير، وطغى الشر، وعمَّ الفساد، وامتدت الأطماع إلى أكل أموال الناس وسلب حقوقهم بالباطل.

فللحريص البخيل حالتان ظاهرتان: اكتناز المال وادِّخاره حتى يعرَّض للسرقة والضياع، وطمعٌ فيما في أيدي الناس، واعتداء على حقوقهم ودمائهم وأعراضهم، روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**اتّقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتّقوا الشُّح، فإن الشُّح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**)).

والشُّح أيضاً يؤدي مع الطمع إلى مساوئ الأخلاق، وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات، وإضاعة الفرص الطيبة لتكوين السمعة الحسنة والظفر برضوان الله تعالى، جاء في الحديث المتفق عليه عن ابن عباس وأنس رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: ((لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)).

وروى الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن أبي واقد الليثي قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوحي إليه، أتيناه يعلّمنا مما أوحي إليه،

فجئته ذات يوم، فقال: ((إن الله عز وجل يقول: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لأحبَّ أن يكون له ثانٍ، ولو كان له الثاني، لأحبَّ أن يكون لهما ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)).

ويستطيع البخيل أن يتخلص من داء البخل والشُّح بترويض نفسه على السخاء والإنفاق تدريجاً، فيعطي أولاً القليل، ثم يتدرج إلى الكثير بخطوات متوالية أو متباعدة، فيتخلص من عقدة البخل، ويطمع في فضل الله وإحسانه بثقة المؤمن الراضي، ويتخلق بخلق القناعة، جاء في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس)).

وليعلم البخيل أن النبي ﷺ نهى عن البخل وشدة الحرص والمبالغة في الطلب، روى الحاكم من حديث جابر رضي الله عنه، وصحح إسناده: أن النبي ﷺ قال: ((ألا أيها الناس، أجملوا في الطلب، فإنه ليس لعبد إلا ما كُتِب له، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كُتِب له من الدنيا وهي راغمة)).

وروى ابن أبي الدنيا والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن رُوح القُدُس نَفَث في رُوعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها، فاتَّقوا الله، وأجملوا في الطلب)).

-٥٦-

الغني الشاكر

مما لاشك فيه أن تعميم النفع، وزيادة الأثر، وإفادة الناس، تجعل الإنسان الذي يحقق هذه المعاني أفضل من غيره، وأكثر ثواباً وعملاً صالحاً. وينبني على ذلك معرفة: هل الغني الشاكر أفضل عند الله تعالى وفي ميزان الإسلام من الفقير الصابر؟

هذا ما أُجيب عنه هنا، علماً بأن الصبر على الفقر والضيق وانتظارِ الفرج والاعتمادِ على الله تعالى عمل طيب وخلق حسن. والغني الشاكر: هو من أخذ المال من وجهه المشروع، وصرفه في وجوهه المأمور بها شرعاً. وهو أفضل من الفقير الصابر، لأنه ينفع نفسه وغيره على السواء، ويكون أداة إعمار وتنمية وتحريك للمال.

قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٩٢/٥ - ٧].

أي من أنفق ماله ابتغاء رضوان الله تعالى، وبذل ماله في سبيل الله ومن أجل نفع الآخرين وآمن بالله، وبالقرآن كتاباً ودستوراً، واجتنب محارم الله، وصدق

بالجزاء الحسن الموعود به في الآخرة، فالله يوفقه لأيسر الأمور التي توصله إلى الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة.

وقال سبحانه: ﴿وَسَيُجَنَّبُها الأَتْقَى، الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى، وَما لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى، إلاّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى، وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ٩٢/١٧ - ٢١].

أي سيُبعد عن النار الذي اتَّقى الكفر والمعاصي، الذي يعطي ماله في سبيل الله، بقصد تطهير نفسه، وطلب النماء من الله تعالى، ولم يعط ماله في مقابل نعمة من غيره، وسوف يرضى عن ربِّه حين يدخله الجنة.

وأسلوب العطاء والصدقات الأفضل شرعاً: أن يكون سرّاً، لا يدل على المراءاة، أو السمعة والمباهاة.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوها الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢/٢٧١].

أي إن أظهرتم الصدقات أو المبرات فهو خير لكم وأفضل شيء تظهرونه، والمراد بذلك الزكاة، وإن أخفيتموها فهو أفضل من إظهارها وإعلانها، والله يغفر لكم ذنوبكم الصغيرة، والله خبير بكل عمل تعملونه.

ومن أسلوب الصدقة: التصدق بكرائم الأموال، قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/٩٢]. أي لن تصلوا إلى كمال الخير المؤدّي للجنة إلا ببذل المال المحبَّب إليكم، والله عالم بكل شيء تفعلونه.

وأجاز الإسلام الغبطة المحمودة: وهي تمني ما لدى الغير من غير تمني زوالها عنه، جاء في الحديث المتفق عليه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: ((لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته في الحق. ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها))، لا حسد أي لا غبطة محمودة إلا في إحدى خصلتين، هما مجال التنافس المشروع: إنفاق المال في الحق، أي في وجوه الخير، وتعليم العلم وفصل الخصومات والمنازعات بين الناس بالعدل.

وفي رواية أخرى متفق عليها أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار. ورجلٌ آتاه الله مالاً، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار)). والآناء: الساعات، والمراد: كل الأوقات.

وأمام وجود فرصة التصدق للأغنياء، هناك فرصة أخرى مماثلة أمام الفقراء وهي الإكثار من ذكر الله تعالى، ورد في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: ((أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور[1] بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال: وما ذاك؟ فقالوا: يصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق. ويعتقون ولا نَعتِق. فقال رسول الله ﷺ: أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدَكم، ولا يكون أحد أفضلَ منكم إلا من صنَع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: تسبِّحون، وتكبِّرون، وتَحْمدون دُبُر كل صلاة، ثلاثاً وثلاثين مرة. فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهلُ الأموال بما فعلناه، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)) أي إن العطاء الإلهي لبعض العباد فضل منه ورحمة، لا يعترض عليه، فهو متفق مع الحكمة الإلهية.

(١) أي: الأموال الكثيرة.

- ٥٧ -

المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل الموت

وجَّه القرآن الكريم كل إنسان لاستغلال ظرف حياته، قبل فوات الأوان، ومفاجأة الموت العاجل، وهذا من أجل خير الإنسان وتحقيق مصلحته، وإغناء وقته بمرضاة الله تعالى، دون تضييع الفرصة، فالدنيا غرارة، والأجل قريب، والعمر قصير، والعزيمة أو القدرة لا تتوافر كل وقت، ولا سيما وقت المرض أو الشيخوخة.

وقد جاءت النصوص القرآنية الكثيرة، مرغّبة تارة، ومحذّرة تارة أخرى، فينبغي التأمل فيها، والإصغاء لنداءاتها.

ومنها قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَما الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاّ مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥/٣]. أي متاع الخداع.

وقال الله تعالى: ﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤/٣١].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤/٧].

وتجيء الآيات أحياناً منبِّهة إلى الداء، وواصفة العلاج، مثل قوله تعالى في الحثّ على الصدقة: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ، وَأَنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصّالِحِينَ، وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٩ - ١١].

ويندم الإنسان يوم القيامة على تفريطه في أداء العمل الصالح، ويخبر القرآن الكريم عن هذا في الدنيا، فيقول تعالى: ﴿حَتَّى إذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُون، لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ، تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ، أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٩٩ - ١٠٥].

ويعالج القرآن المجيد عناد بعض الأقوام وقسوتهم، فيقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٥٧/١٦].

وتوضح السُّنة النبوية هذا الاتجاه القرآني في تذكير الإنسان قبل فوات الأوان، روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمَنْكبي فقال: ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)). وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخُذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)).

وبسبب ما قد يحدث من مفاجأة الموت، حثَّ النبي المصطفى على كتابة كل مسلم وصيته في أعمال الخير، ورد في الحديث المتفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((ما حقّ امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده)). وهذا يدل على استحباب الوصية. وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي وقال: حديث حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه: ((أكثروا من ذكر هاذم اللذات)) يعني الموت، وهاذم اللذات أي قاطعها.

والمحاذير أو المخاطر كثيرة أمام الإنسان، واحتمالات وقوع هذه المخاطر كثيرة، وما أروع وصف النبي ﷺ لهذه المخاطر في قوله - فيما أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن - عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشرُّ غائب يُنتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمرُّ**)). هذه المخاطر السبع: هي الفقر، والغنى الضار المفسد، والمرض، والهرم المفند أي المؤدي إلى ضعف العقل والفهم والخرف، والموت المجهز على الإنسان، والدجال الفتّان المضلّ الذي يفتن ضعاف الإيمان، والقيامة ذات الأهوال الرهيبة. وهذا يدل على سنّية ذكر الموت بالقلب واللسان والإكثار منه.

ومن أهم أعمال الخير والصلاح: كثرة الصلاة (أي الدعاء) على النبي ﷺ. روى الترمذي وقال حديث حسن، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلث الليل قام، فقال: ((يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه! قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: ما شئت، قلت: الربع؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك. قلت: فالنصف؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: أجعل لك صلاتي كلَّها، قال: إذن تُكْفى همَّك ويُغفر لك ذنبك))، فيه فضيلة الصلاة والدعاء للنبي ﷺ، وفيه إرشاد النبي ﷺ إلى الطريق الموصلة إلى مرضاة الله تعالى.

-٥٨-

زيارة القبور

ليس هناك ما يزهِّد في الدنيا أكثر من الموت، وإنذارات الموت كثيرة، ومنها المقابر العامة التي تملأ المدن والقرى، وتَبْرز فيها الظواهر المادية المذكِّرة بالموت والرحيل عن هذا العالَم، وحينئذ تطوى صحائف الأعمال التي قدَّمها الإنسان في حياته، ويجد الجزاء المؤكد عليها في القبر قبل القيامة، فإن كانت أعماله سيئة، تعرَّض للسوء والعقاب، فعذاب القبر حق، قال الله تعالى عن آل فرعون في القبور: ﴿النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ [غافر: ٤٠/٤٦].

وإن كانت أعمال الإنسان صالحة متفقة مع رضوان الله وأمره ونهيه، لقي الجزاء الحسن والثواب الجزيل، وكان قبره قطعة من الجنة، لقوله ﷺ فيما رواه الطبراني في الأوسط - لكنه ضعيف - عن أبي هريرة: ((القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار)).

وفي حديث آخر أخرجه الإمام أحمد: ((القبر أول منازل الآخرة)).

وزيارة القبر، ولا سيما قبور الوالدين والأقارب والأصدقاء من حين لآخر، في وقت الفراغ: إيناس للميت، وتخليد لذكراه، وبرّ ووفاء له، فيسلم الزائر على

الميت ثم يدعو للميت بالمغفرة والرحمة، ويقرأ آية الكرسي والمعوذات الثلاث، وكل ذلك مشروع ثابت في السُّنة النبوية.

روى مسلم عن بُريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها**))، وفي رواية: ((**فمن أراد أن يزور القبور، فليزُر، فإنها تذكّر بالآخرة**)).

ومن السُّنة العملية في هذا: ما رواه مسلم أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كان ليلتُها من رسول الله ﷺ، يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما تُوعدون غداً، مؤجَّلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. اللهم اغفر لأهل بقيع الغَرْقد))، والبقيع: مقبرة أهل المدينة. وأتاكم ما توعدون غداً: أي جاءكم ما كنتم توعدون بوقوعه في الغد. ومؤجلون: أي وأنتم مؤجلون. والمراد بالأجل هنا: ما بين الموت إلى النشور. والغرقد: نوع من شجر الشوك، كان موجوداً في المدينة.

وروى مسلم كذلك عن بُريدة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يعلّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية))، والمراد بالعافية هنا: محو الذنوب والأمن من المكروه.

وروى الترمذي وقال: حديث حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ رسول الله ﷺ بقبور بالمدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال: السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا، ونحن بالأثر)) أي أنتم مُتُّم قبلنا، ونحن تابعون لكم عن قرب.

هذه الأحاديث النبوية تدل على استحباب زيارة القبور، والدعاء للموتى، وإشراك الزائر نفسه بالدعاء. وقد منع وحرم النبي ﷺ في مبدأ الأمر زيارة

القبور، لقرب عهد الناس بالجاهلية، وتأثرهم بالوثنية، وقيامهم بالنياحة واللطم وشقِّ الجيوب وغير ذلك مما حرمه الإسلام، ثم نسخ هذا الحكم بعد استقرار عقيدة التوحيد والإيمان، ورسوخ قواعد الإسلام، فلم يعد هناك التباس أو إشكال في زيارة القبور.

واتفق العلماء على أنها مندوبة للرجال، لما فيها من تذكير بالآخرة، وترقيق للقلوب بذكر الموت وأحواله، وتزهيد في الدنيا وعدم التعلق الشديد بها، والاستعداد للرحيل، مما يدفع الإنسان إلى العمل الصالح، وتحسين الأخلاق والآداب، ولا سيما حسن العشرة ومودة القرابة.

وأما النساء: فتكره لهن الزيارة، للنهي عن ذلك. وقد تحرم إذا صاحبها محظور شرعي، كالنياحة، والكلمات المنافية للرضا بالقضاء والقدر. وتباح لهن الزيارة إذا قرب المصاب، و لم تقترن بمحظور شرعي، بل عمم جماعة من العلماء إباحة الزيارة لهن إذا خلت عن الموانع الشرعية.

وتندب زيارة قبر النبي ﷺ، وزيارة مسجده في المدينة المنورة، وزيارة صاحبيه أبي بكر وعمر، والدعاء لهم بأن يجزيهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ومن المعلوم أن الصلاة في المسجد النبوي بخمس مئة صلاة في الثواب والأجر، لا في العدد والمقدار.

- ٥٩ -

كراهية تمنّي الموت بسبب ضُرّ

الموت للخلائق أمر حتمي، وليس عقاباً أو شرّاً، وإنما هو نهاية العمر، لتتهيأ الفرصة للأجيال المتلاحقة، وليستمر النوع الإنساني موجوداً متمكناً من العيش الكريم، وليؤدي كل إنسان واجبه في هذه الحياة.

وقد يكون الموت ستراً لصاحبه الذي تعرض للخرف أو التشويه أو العلة المزمنة، وقد يكون راحة من مرض اشتدَّ ألمه، وعسر علاجه، والله تعالى وحده هو المقدِّر للحياة والموت، بحسب الحكمة العالية التي هي لخير الإنسان وإسعاده، وعلى الإنسان الرضا بالقدر المقدَّر، فلا فائدة في الجزع أو الحزن، أو الاعتراض على مراد الله تعالى، والحياة ميدان اختبار أو ابتلاء، ليُعْرَف المحسنُ من المسيء، والصالح من الطالح، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٦٧/٢].

ولا شك بأن كل إنسان يحتاج إلى الاختبار، ففي ذلك تقييم لعمله، ومحاسبة لنفسه، وإعدادها لمستقبل الخلود، إما في جنة عرضها السماوات والأرض، وإما في نار تتلظى لها الأكباد.

وإذا كان أمر الحياة والموت بيد الله سبحانه، فلا يتمنى أحد الموت لضرٍّ أصابه، ولا لضيق تعرَّض له، ولكن لا بأس به حال الخوف من الفتنة في الدين،

لأن سلامة الدين والحفاظ عليه أغلى شيء في الوجود، فإذا كان هناك احتمال بتعريض الإنسان للخطر بسبب دينه أو قهره على تبديله، فلا بأس بتمني الموت، من أجل الخلاص من البؤس والشقاء ومصادرة الحرية. وقد ورد في السُّنة النبوية ما يرشد إلى هذه الأحكام.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**لا يَتَمنى**[١] **أحدكم الموت، إما محسناً**[٢] **فلعله يزداد، وإما مسيئاً فلعله يُسْتَعتب**)) أي لعله يرجع إلى الله بالتوبة وردِّ المظالم، وطلب عتبى الله، أي رضاه. هذا لفظ البخاري. وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: ((لا يتمنَّ أحدكم الموت، ولا يَدْعُ به من قَبْلِ أن يأتيه، إنه إذا مات انقطع عمله، وإنه لا يزيدُ المؤمنَ عُمُرُه إلا خيراً)). فيه النهي الصريح عن تمنّي الموت وطلبه من الله تعالى قبل أن ينزل به، لأن في زيادة العمر حال التقوى زيادةً في الحسنات، وقد روى الترمذي من حديث رسول الله ﷺ أنه قال: ((خير الناس من طال عمره، وحسن عمله)).

والسُّنة: تفويض الأمر في هذا الشأن إلى الله تعالى، والدعاء بالخير، ورد في حديث متفق عليه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضُرٍّ أصابه، فإن كان لا بدَّ فاعلاً، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي**)).

ويؤكد هذا حديث آخر متفق عليه، ولفظ البخاري: عن قيس بن أبي حازم قال: دخلنا على خبَّاب بن الأرتّ رضي الله عنه نعودُه، وقد اكتوى سبع كَيَّات[٣]، فقال: إن أصحابنا الذين سلفوا مَضَوْا[٤]، ولم تنقصهم الدنيا[٥]،

(١) لا: نافية، فالكلام خبر بمعنى النهي.

(٢) محسناً: مطيعاً لله.

(٣) أي: إنه اكتوى سبع كيّات في سبعة مواضع من جسمه.

(٤) أي: ماتوا وذهبوا إلى الله تعالى.

(٥) أي: لم يتمتعوا بشيء من ملذات الدنيا، فيكون ذلك منقصاً لهم ثوابهم في الآخرة.

وإنا أصبنا مالا نجد له موضعاً إلا التراب[1] . ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوتُ به، ثم أتيناه مرة أخرى، وهو يبني حائطاً له، فقال: إن المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب)) دلَّ على أن الكيَّ بالنار نافع لبعض الأمراض، وأما حديث: ((لا يسترقون ولا يكتوون)) فهو محمول على من ينسب الشفاء إليه كالجاهلية، أما من يراه مجرد سبب وأن الله في الحقيقة هو الشافي، فلا بأس به. ودلَّ الحديث أيضاً على كراهة تمني الموت، وأنه لا ثواب في المال الذي ينفق في البناء.

والذي يلاحظ أن الله تعالى خلق الإنسان لحكمة ومهمة في حياته، فتمنيه الموت يعدُّ معارضة للحكمة الإلهية، ومصادمة لمراد الله تعالى. فعلى المخلوق: التزام الأدب مع الله تعالى، والصبر على المصائب، وتحمُّل المشاق والمتاعب، ففي ذلك ثواب عظيم، أما التبرُّم أو القلق، أو محاولة التهرُّب عن أداء الرسالة في الحياة، فهو ضعف وجبن، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف. وفي كلٍّ خير.

(١) أي: جمعنا مالاً زائداً عن الحاجة، لا نجد له مكاناً نخبئه فيه إلا في التراب، ندفنه فيه.

- ٦٠ -

الورعُ وتركُ الشُّبُهات

المسلم حريصٌ دائماً على اجتناب الحرام الصَّريح كله، وكذلك اجتناب ما فيه شبهة قد توقع في الحرام، وتؤدِّي إليه، فسلامة الدين وعدم التورُّط في الشُّبهات: يقتضيان البُعد عن كل ما فيه شبهة وإشكالات، وهذا شأن الصَّفوة العليا من أهل الإيمان، في عهد الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وقد حذَّر القرآن الكريم والسُّنة النبوية المطهرة من الوقوع في مواقع الشَّكِّ والشُّبهة، ليضمنَ الإسلام للمسلم سلامة النتائج، والمواقف، فمن حام حول الشبهة وجلس بمجالس الريبة، تعرَّض للمسؤولية والعقاب، قال الله تعالى محذِّراً من الخوض ولو بالكلام في قصة الإفْكِ على السيدة عائشة: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥/٢٤].

أي أتظنون أن إشاعة الطُّعون والكلام الفاحش أمر سهل لا تَبِعَة فيه، وهو عند الله أمر عظيم، من حيث ارتكاب الإثم والذنب؟! فالذنوب الصغائر قد يستسهلها بعض الناس، لكنها كبيرة الوزر عند الله، لجرأة مرتكبها على المساس بحدود الله تعالى.

وقال الله تعالى محذِّراً أيضاً من الضلال والفساد: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤/٨٩]. أي إنه تعالى يراقب أعمال الناس ويجازيهم عليها، كعاد وثمود وآل فرعون.

وتأتي الأحاديث النبوية موضحة مواقف التهمة والسوء.

ورد في حديث متفق عليه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**إن الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن، وبينهما مشتبِهات**[1]**، لا يعلمهنَّ كثير من الناس، فمن اتَّقى الشُّبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشُّبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإنَّ في الجسد مُضْغَةً إذا صلَحت صلَح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**)).

وتطبيقاً لهذا من النبي ﷺ ذاته، جاء في حديث متفق عليه عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ وجد تمرة في الطريق فقال: ((لولا أنّي أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها)).

وميزان أو معيار تمييز الخير من الشر، والضرر من النفع: هو ما أوضحه المصطفى عليه الصلاة والسلام.

روى مسلم عن النَّواس بن سَمْعان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((**البِرّ حسن الخلُق، والإثم ما حاك**[2] **في نفسك، وكرهت أن يطَّلع عليه الناس**)).

ويوضح هذا المعيار حديث حسن، رواه أحمد والدارمي في مسنديهما عن وابصة بن مَعْبد رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقال: ((جئتَ تسأل عن البر؟)) قلتُ: نعم، فقال: ((استفتِ قلبك، البِرُّ: ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم: ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك)).

وفي عبارة موجزة، في حديث رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح،

---

(١) أي: الأمور القريبة الوقوع، المجاورة للحرام، وليس الاحتمالات البعيدة.

(٢) أي: تردد فيها.

عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: حفظت عن رسول الله ﷺ: ((دع ما يَريبك إلى مالا يريبك)).

معناه: اترك ما تشك فيه، وخذ مالا تشك فيه.

ويؤيد ذلك ما رواه الترمذي وقال: حديث حسن، عن عطية بن عُروة السَّعْدي الصحابي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يبلُغ العبد أن يكون من المتقين، حتى يدع مالا بأس به، حذراً مما به بأس)).

ومن ورع الصحابة الكرام: موقفان لأبي بكر وعمر.

الأول: روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لأبي بكر الصِّديق رضي الله عنه غلام يُخرج له الخراج[1]، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ فقال: كنت تكهَّنت لإنسان في الجاهلية، وما أُحسن الكِهانة[2] إلا أني خدعته[3]، فلقيني، فأعطاني[4] لذلك هذا الذي أكلتَ منه، فأدخل أبو بكر يده، فقاء كلَّ شيء في بطنه.

والموقف الثاني: ما رواه البخاري عن نافع: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان فرض للمهاجرين الأولين أربعة آلاف، وفرض لابنه ثلاثة آلاف وخمس مئة، فقيل له: هو من المهاجرين، فلِمَ نقصْتَه؟ فقال: إنما هاجر به أبوه، يقول: ليس هو كمن هاجر بنفسه. وهذا لا يفعله إلا كل من صحَّ إيمانه، وخلصت نفسه من شبهة الحرام.

---

(١) أي: يأتيه بكسبه من الخراج، وهو شيء يجعله السيد على عبده، يؤديه كل يوم، وباقي كسبه يكون للعبد.

(٢) الكهانة: الإخبار عما سيكون من غير دليل شرعي.

(٣) الخدع: الإطماع بما لا وصول إليه.

(٤) أي: في الإسلام.

-٦١-

الاعتزال حال شيوع الفساد

قد تتعرض البلاد وأحوال الناس إلى انتشار الفتنة والفساد، ولا سيما في آخر الزمان، فهل يكون من المصلحة الانخراط فيها مع الناس، أو اعتزالهم لحماية النفس من الضرر والأذى؟

الواقع أن الحكمة تقتضي البعد عن الشر والفساد، والفتنة والأذى، حتى لا يحترق الإنسان بشرار الفتنة، ويتعرض للضرر والسوء، أما إذا انخرط مع الناس، ولا يدري المحقَّ من المبطل، والصالح من الفاجر أو الفاسد، فإنه سرعان ما يدمِّر وجوده، ويقضي على حياته.

والقرآن الكريم حذَّرنا من الفتنة، فقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً﴾ [الأنفال: ٨/٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢/٢١٧]، وقال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢/١٩١]. والمسلم مأمور دائماً بالتعقُّل وأخذ الحذر، فقال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٤/٧١]. والاعتصام بالله تعالى وقاية: ﴿ففِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١/٥٠] أي الجؤوا إلى الله دون سواه، وهو أمر بالتزام الإيمان وطاعة الله تعالى.

وجاءت السنة النبوية محذِّرة من التورُّط في المفاسد والمفــاتن، أو المتاهـات أو غوامض الأحداث، روى مسلم عن سعد بن أبــي وقـاص رضـي الله عنـه قـال: سمعـت رسـول الله ﷺ يقـول: ((إن الله يحـب العبـد التقـي الغـني الخفـي)) المـراد بالغني: غني النفس، والتقي: الممتثل للأوامر، والمجتنب للنواهي. والخفي: المجهول الذي لا يُعرف بين الناس، المعتزل لعبادة ربِّه.

وحينئذ يكون الاعتزال للعبادة مرغوباً، ورد في حديث متفق عليــه عـن أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((قال رجل: أي الناس أفضل يــا رسـول الله؟ قال: مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، قال: ثم من؟ قال: ثم رجل معـتزل في شِعْب من الشِّعاب يعبد ربَّه)) وفي رواية: ((يتقي الله ويَدَعُ الناس من شرِّه)).

وهو دليل على فضل اعتزال الناس أحياناً حينما لا يأمن الإنســان الفتنـة مـن الاختلاط بهم، بشرط قصد التفرغ لعبادة الله، وكفِّ أذاه عن الناس.

وفي آخـر الزمـان حيـث تختلـط المحرَّمـات بغيرهـا، ويعـمُّ الفسـاد، ولا يجـد الإنسان مطعماً مباحاً، ولا مشرباً حلالاً، ولا ملبساً طاهراً، أخبر النـبي ﷺ عـن استحباب العزلة عند فساد الناس والزمان، واتِّقاء المعاصي والمطعم المحرَّم.

روى البخاري عن أبي سعيـد الخدري رضــي الله عنــه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: ((**يوشك أن يكون خيرَ مال المسلم غنمٌ يتتبَّع بهـا شَـعَف الجبـال**[1]**، ومواقـع القَطْر**[2]**، يفرُّ بدينه من الفتن**)).

وهذا إخبار عما سيكون عليه حـال النـاس المسـلمين مـن تلوُّثِ مكاسبهم بالمحارم، وانفتاح باب المعاصي عليهم، بحيث يصبـح الفـرار لسـلامة الديـن أمـراً متعيِّناً، فيرعى الشخص الغنم من الكلأ المباح، ويعيش من اللَّبن، وهذا ليس أمراً

(١) أي: أعلاها.

(٢) أي: مواضع العشب.

سهلاً لمن لم يعتد ذلك، لأن قسوة الرعي في البراري والصحاري والتعرض للشمس والمطر والوحوش ظاهرة معروفة، والله المستعان.

ورعيَ الغنم كانت مهمةُ الأنبياء والمرسلين، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((ما بعث الله نبيّاً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ قال: نعم، كنت أرعاها على قراريط[1] لأهل مكة)).

وفي هذا ترغيب للأنبياء بالكسب الحلال وإن قلَّ.

ومن حالات الكسب الحلال: غنائم الحرب، فهي كرعي الغنم، وقد جُمِع الأمران في حديث واحد:

روى مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: من خير معاش الناس: رجل ممسك عِنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فَزْعة، طار عليه، يبتغي القتل أو الموت مظانَّه، أو رجل في غُنَيمة في رأس شَعَفة من هذه الشَّعَف أو بطنِ وادٍ من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربَّه، حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير)).

والمعنى: أن من خير المعاش شيئين:

الأول - رجل يمتطي فرسه، يطير على متنه، أي يسرع على ظهره، كلما سمع هيعة، أي صوتاً داعياً للحرب، أو الفَزْعة لطرد الأعداء، بادر إلى التلبية، وغشيان مظانِّ الحرب، أي المواضع التي يظن وجوده فيها.

والثاني - من يرعى غُنيمة (تصغير غنمة) في أعلى الجبل، ليكون قُوتُه حلالاً.

---

(١) القراريط: جمع قيراط، والقيراط: سدس الدرهم.

-٦٢-

الكبر والعُجْب بالنفس

التكبر والعُجْب بالنفس عقدة نقص، وخلق مرذول، وعادة قبيحة جداً، يستنكرها الناس جميعاً، وتستوجب غضب الله وسخطه، لأن الكبرياء من صفات الإله الخالق القادر قدرة مطلقة، الذي يشاء مشيئة نافذة، والمتكبر عدوٌّ نفسه وعدوُّ الإنسانيَّة، حيث يتمرد على مبدأ المساواة التي خلق الله الناس عليها، من أصل واحد ومنشأ واحد، فالناس كلُّهم لآدم، وآدم من تراب، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وقد جاءت النصوص الكثيرة في القرآن والسنة بتحريم التكبر والعُجْب بالنفس والإعجاب[1] :

قال الله تعالى: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨/٣١].

أي لا تُمِلْ خدَّك وتعرض به عن الناس تكبُّراً عليهم، ولا تمش متبختراً، فالله تعالى يغضب على كل ذي خيلاء وكبر، مفتخر على الناس، معجب بأوصافه وشخصيته.

---

(١) هو النظر إلى النفس بعين الكمال، والفخر بما فيها من علم أو صلاح صوري، أو عندها من مال أو جاه.

ومن عناوين التكبُّرِ الشنيعة: قارون المتغطرس بماله في عهد موسى عليه السلام، وابن عمِّه، وقصته في سورة القصص معروفة.

قال الله تعالى في مطلعها: ﴿إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الأَرْضَ﴾ [القصص: ٧٦/٢٨ – ٨١]. لقد تكبَّر قارون على قومه، بسبب كثرة أمواله المكتنزة، حتى إنَّ مفاتيح خزائنه المالية تعجز عن حملها الجماعة الأقوياء الذين يتعصبون لبعضهم، والجماعة من ثلاثة إلى سبعين، فعاقبه الله على كبريائه بالخسف به، أي بتغويره مع داره في الأرض، فابتلعته.

وكذلك في الدار الآخرة يُحْرَم المتكبر من الجنَّةِ.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣/٢٨] أي إنَّ الجنَّة للمتواضعين، الذين لا يتَّصفون بصفة العلوِّ، أي: الكبر والاستعلاء، ولا بالفساد، أي: ارتكاب المعاصي، والخاتمة الحسنة لأهل التقوى، الملتزمين بأوامر ربِّهم واجتناب نواهيه.

وأكَّدت السُّنَّة النبويَّة استقباح الكبر والعجب.

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبْر)) فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة! قال: ((إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطَر الحق وغمْط الناس)).**

وبطر الحق: دفعه وردّه على قائله، وغمط الناس: احتقارهم. وإن الله جميل: أي كل أمره جميل، يحب الجمال، أي الجمال من حيث تكوين الخلقة، فالإنسان في أحسن تقويم، لا من حيث المظهر أو الشكل، ومحبته الجمال: معناه أنه

يرضى عمن كان فعله جميلاً. يدل الحديث على جواز التجمُّل أو التأنُّق من غير خيلاء.

وفي حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره بطراً)) وهو يدل على حرمة تطويل الثوب لأجل الكبر، ويكره إذا كان لغير تكبُّرٍ.

ومن أمثلة المتكبرين في الدنيا: ما رواه مسلم عن سلَمة بن الأكوع رضي الله عنه: ((أنَّ رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: كُلْ بيمينك، قال: لا أستطيع، قال: لا استطعت، ما منعه إلا الكبر! قال: فما رفعها إلى فيه)). يدل هذا الحديث على قبح التكبر وعاقبة المتكبر الذي دعا عليه النبي ﷺ.

ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((بينما رجل يمشي في حُلَّة، تُعجبه نفسه، مرجِّل رأسه، يختال في مِشْيَتِه، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل (يغوص وينزل) في الأرض إلى يوم القيامة)).

وعاقبة المتكبر في الآخرة: دخول النار.

ورد في حديث متفق عليه عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ألا أخبركم بأهل النار؟ كلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظ مستكبر)).

والجواظ: الذي يجمع المال ويمنعه عن مستحقيه، ويختال في مِشْيَته، والعتُلُّ: الغليظ الجافي.

وما أروع هذا الحوار الرمزي بين الجنَّة والنار حول المتكبرين، روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((احتجَّت الجنَّةُ والنَّارُ، فقالت النار: فيَّ الجبّارون والمتكبِّرون. وقالت الجنَّةُ: فيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى الله بينهما: إنَّكِ الجنة رحمتي، أرحم بكِ من أشاء، وإنَّك النار عذابي، أُعذِّب بك من أشاء، ولكليكما عليَّ ملؤُها)).

ويوضح هذا ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم، شيخٌ زانٍ، وملِكٌ كذاب، وعائل (أي فقير) مستكبر)).

وليعلم المتكبرون أن التكبر والجلال مقصور على الله عز وجل.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله عز وجل: العِز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني في واحد منهما فقد عذَّبته)).

وروى الترمذي عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يزال الرجل يذهب بنفسه - أي يرتفع ويتكبر- حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم)). قال الترمذي: حديث حسن.

-٦٣-

حُسنُ الخُلُق

ليس هناك أجمل ولا أكرم في الإنسان من حسن الخلق: وهو طلاقة الوجه والتَّبسُّم، ولين اللسان وعفَّته، وبذل المعروف، وليس هناك أقبح في الإنسان من سوء الخُلُق وشراسة الطبع: وهو العُبُوس، وفحش اللسان، وتكلُّف الكلام، وكانت مهمة النبي ﷺ تحسين الأخلاق وتهذيب الطباع، بعد إصلاح العقيدة، وغرس بذرة الإيمان في القلب.

قال ﷺ: ((إنما بعثت لأُتمم صالح - أو مكارم - الأخلاق))(١).

إن تحسين الأخلاق وتصحيح العقيدة من أَوْلويات مهام الأنبياء والمرسلين، ويكون النجاح الباهر في تحقيق هذين الأمرين.

لذا استحق النبي ﷺ المدح بحُسْنِ الخُلُق في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/٤].

ورغَّب القرآن الكريم بكظم الغيظ والعفو عن المسيئين من الناس، فقال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٣٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكظم الغيظ: يكون مع القدرة على تنفيذ التهديد، أو الغيظ: وهو الغضب.

وكان النبي ﷺ هو الأسوةَ الحسنةَ لأُمَّته في حسن الخلق، بشهادة أصحابه، وهذان حديثان عن أنس في وصف خلق النبي ﷺ:

الأول - حديث متفق عليه عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس خُلُقاً.

والثاني - حديث متفق عليه أيضاً عن أنس أيضاً قال: ما مسستُ ديباجاً ولا حريراً[١] ألين من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أفّ، ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلتَ كذا؟!)).

وفي حادثة حساسة أخرى تتعلق بردِّ النبي ﷺ هدية صحابي، ورد في حديث متفق عليه عن الصَّعْب بن جَثَّامة رضي الله عنه قال: أَهْديتُ رسول الله ﷺ حماراً وحشياً، فرَدَّه عليَّ، فلما رأى ما في وجهي قال: ((إنا لم نردّه عليك إلا لأنّا حُرُمٌ)) أي محرمون بحج أو عمرة.

وفي وصف آخر، في حديث متفق عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، ولا متفحِّشاً[٢]، وكان يقول: ((**إنَّ من خياركم أحسنَكم أخلاقاً**)).

وضابط التمييز بين حسن الخلق وسوء الخلق: ما رواه مسلم عن النَّواس بن سَمْعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البِرِّ والإثم، فقال: ((**البِرُّ: حُسن الخُلُق، والإثم: ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطَّلع عليه الناس**)).

---

(١) الديباج: الحرير السميك، والحرير: هو الرقيق أو الناعم الدقيق.

(٢) الفاحش: ما اشتد قبحه من القول أو الفعل. والمتفحش: المبالغ والمتعمد الفحش.

ولا يظُنَّنَّ إنسان أن حسن الخلق لا ثواب عليه، وأن سوء الخلق لا إثم ولا عقاب عليه، وإنما له عقوبة، إذا امتد أذاه إلى الآخرين.

روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: ((تقوى الله وحسن الخلق))، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: ((الفم والفرج)).

فيه ترغيب واضح بالتقوى وحسن الخلق، والتقوى: تُصلح ما بين الإنسان وربه، وحسن الخلق: يصلح ما بين الإنسان والناس.

وفيه تنفير وتحذير من كلام الفم وارتكاب الزنا، لأن الفم: يصدر منه الفحش كالكفر والقذف والغيبة والنميمة، والفرج أداة الزنا، فيؤدي كلٌّ منهما إلى النار.

وقد دعا النبي ﷺ أُمَّته إلى حسن الخلق وحسن معاشرة النِّساء، روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أكمل المؤمنين إيماناً: أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم)).

وحسن الخلق سبيل الجنـ[illegible]وى أبو داود بإسناد صحيح عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أنا زعيمٌ[1] ببيت في رَبَض[2] الجنة لمن ترك المراء[3] وإن كان مُحِقّاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُنَ خُلُقُه)).

وحَسَن الخُلُق في مرتبةٍ قرب النبي، وسَيِّئُ الخُلُق بعيد عن النبي ﷺ.

---

(١) أي: ضامن.

(٢) أي: أطرافها، والربض: ما حول البيوت.

(٣) أي: المجادلة بالباطل، وهي الطعن في قول غيره، وتصغير قائله.

روى الترمذي وقال: حديث حسن، عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبِّكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنَكم أخلاقاً، وإن أبغضَكم إليَّ وأبعدَكم مني يوم القيامة: الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون[1] » قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون».

وروى الترمذي عن عبد الله بن المبارك رحمه الله في تفسير حسن الخلق قال: هو طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكفّ الأذى.

(١) الثرثار: هو كثير الكلام تكلُّفاً، والمتشدق: هو المتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه. والمتفيهق: من الفهْق: وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه تكبُّراً وترفُّعاً.

- ٦٤ -

الحلم والرفق في الأمور

يظل الإنسان محتفظاً بعقله وكرامته ووعيه، ما دام حليماً متأنّياً في إصدار الحكم على الأشياء، ويضطرب فكره وعقله وتوازنه إذا اشتاط غضباً وقسا في فعله، وتجاوز حدَّ الاعتدال، وسرعان ما يندم الغضبان على سوء ما صدر منه، ولا يندم الحليم المتأنّي على ما يفعل، فيكون حلمه سبباً في بناء المستقبل الزاهر، والمتعجِّل يخسر النتائج، ويلوم نفسه.

وبما أن الإسلام رسالة خير وإصلاح للمجتمع والفرد، فقد دعا القرآن الكريم إلى ضبط الأعصاب وكظم الغيظ، وإيثار العفو عند المقدرة، والإعراض عن الجاهلين والأُميين.

قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤/٣].

وأمر الله رسوله بالتزام أصول الأخلاق المجموعة في ثلاثة أوصاف، فقال سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩/٧].

روي أنه لما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك)).

ونهى القرآن الكريم عن مقابلة السيئة بمثلها، وترك الأخذ بالثأر، فقال الله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَما يُلَقّاها إِلاّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقّاها إِلاّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصّلت: ٤١/٣٤ – ٣٥]. والحسنة والسيئة: هي الفعلة الحسنة والسيئة.

وامتدح الله الصابرين العافين بقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٢/٤٣].

وأوضحت السنة النبوية خصال الحلم والرفق في الأمور كلّها، ورد في حديث متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كلّه**)).

وروى مسلم عن عائشة أيضاً: أن النبي ﷺ قال: ((إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه)).

وروى مسلم عن عائشة أيضاً أن النبي ﷺ قال: ((إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه)).

والرفق سلوك شريف من الناحية الفعلية العملية، لا بمجرد الكلام النظري بدليل هذه الأمثلة:

روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأشجِّ عبدِ القيس: ((إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)).

وفي حادثة طريفة أخرى، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه، ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: ((دعوه

وأريقوا على بوله سَجْلاً من ماء، أو ذنوباً[1] من ماء، فإنّما بعثتم ميسِّرين، ولم تبعثوا معسِّرين)).

إن الإسلام يحب من الأخلاق الاجتماعية اليسر والسماحة، ويكره الشدة والغلظة، ويكون علاج المشكلة بالرفق أبعد أثراً، وأطيب صنعاً، وأنفذ وأكرم فعلاً، وذلك من أجل تحبيب الناس بالخير والدِّين والترغيب فيه، والتحذير من التنفير منه، بالقسوة والغلظة معهم. ورد في حديث متفق عليه عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا)).

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً[2] قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: ((لا تغضب)) فردد مراراً، قال: ((لا تغضب)).

وليس الأمر سهل النتائج، بل الخسارة المحقَّقة تلحق بمن يعالج الأحوال أو الأوضاع المحيطة به بالعنف والقسوة.

أخرج مسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**من يُحْرَم الرفقَ يحرم الخير كلّه**)).

وأخرج الترمذي عن ابن مسعود حديثاً لفظه: ((ألا أخبركم بمن يحرم على النار، أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هيِّن ليِّن سَهْل)).

وبما أن النبي ﷺ رحمة للعالمين كلّهم: الإنس والجن، والجماد والحيوان، والنبات، فقد أوصى بالرحمة حتى بالحيوان والرفق به، أخرج مسلم عن أبي يعلى شَدَّاد بن أوس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة،

(١) السَّجْل وكذلك الذَّنوب: هي الدلو الممتلئة ماء.

(٢) هو جارية بن قدامة أو غيره.

وليُحد أحدكم شفرته، وليُرح ذبيحته))، أي يجب الرفق والإحسان والرحمة عند أي عمل، حتى عند ذبح الحيوان.

ومن خصاله عليه الصلاة والسلام: ما جاء في الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً، كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله تعالى)).

-٦٥-

الغيرة على حرمات الشرع

كلما كان الإيمان بالله تعالى قويّاً يملأ القلب والنفس، كانت الغيرة على حرمات الله وشرعه قوية شديدة، ينتصر المؤمن لها، ولو ضحَّى بكل شيء لديه، غالٍ أو نفيس. وإذا ضعف الإيمان، وخَفَت صوت الحق في النفس المؤمنة، وغلبت المجاملة والخوف من الاتهام بشيء، كانت الغيرة حينئذ ضعيفة أو مفقودة.

والله تعالى أمر بتعظيم حرمات الله والانتصار لها، ما لم يغلب على الظن الوقوع في الأذى والضرر، فحينئذ يعتصم الإنسان بأدنى مراتب النهي عن المنكر، وهو الإنكار في القلب، قائلاً: ((اللهم إن هذا منكر لا أرضى به، ولا أستطيع على رده)) أو منعه.

وموقف الأخذ بالعزيمة والمنع: أفضل وأولى، لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢/٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ[1] فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠/٢٢]. وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧/٤٧]. أي إن تنصروا دين الله بالعمل به، والدفاع عنه، ينصركم الله، ويقوّ أقدامكم عند الجهاد.

---

(١) أي: شعائر دينه.

وهذه مواقف ثابتة، وبارزة للنبي ﷺ في إعلان الحق ومجابهة الانحراف.

ورد في حديث متفق عليه عن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدري رضي الله عنه قال: جاء رجل[١] إلى النبي ﷺ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح، من أجل فلان مما يُطيل بنا! فما رأيت النبي ﷺ غضِب في موعظة قطُّ أشد مما غضب يومئذ! فقال: ((يا أيها الناس، إن منكم منفّرين، فأيكم أَمَّ الناس فليوجز، فإن من ورائه الكبيرَ، والصغيرَ، وذا الحاجة))، ومعنى ((فليوجز)): أي فليخفف وليقتصر على الحد الأقل، مع إتمام الأركان والسنن.

وهذا الحديث دالٌّ على مشروعية الغضب من أجل الدين، وعلى مشروعية التخفيف في صلاة الجماعة لعذر، وترك ما ينفّر الناس عن أداء الجماعة والعبادة.

وفي حديث آخر متفق عليه، يَبينُ منه موقف الحزم والغضب لدين الله، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من سفر[٢]، وقد سترت سَهْوة[٣] لي بقِرام[٤] فيه تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه[٥] وتلوَّن وجهه، وقال: ((يا عائشة، أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله)) أي يشبِّهون صنعهم بصنع الله. وهو دليل على تحريم التصوير المجسَّم إذا كانت الصورة لذي روح، من إنسان أو حيوان، ولا يحرم تصوير مناظر الطبيعة والنباتات.

أما التصوير الخيالي: فهو مجرد حبس للظل، وليس فيه مضاهاة أو مشابهة لخلق الله تعالى، فلا يكون حراماً.

---

(١) هو حرام بن ملحان أو غيره.

(٢) أي: من غزوة تبوك.

(٣) السهوة: تكون بين يدي البيت.

(٤) القرام: سِتر رقيق كالبرداية اليوم.

(٥) أي: أفسد الصورة التي فيه.

ومن أمثلة غضب النبي ﷺ لانتهاك حرمات الله، ما جاء في حديث متفق عليه، عن عائشة رضي الله عنها: أن قريشاً أهمَّهم شأن المرأة المخزومية[1] ، التي سرقت، فقالوا: من يكلِّم فيها رسولَ الله ﷺ؟ فكلَّمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: ((أتشفع في حدٍّ من حدود الله تعالى))؟! ثم قام فاختطب، ثم قال: ((إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ! وايْم الله، لو أن فاطمةَ بنت محمد سرقت، لقُطِعتْ يدها)).

أي إن الشفاعة في الحدود بعد بلوغ خبرها إلى الإمام ممنوعة غير جائزة، لأن الناس سواء في التكاليف والأحكام الشرعية، لا فرق فيها بين الشريف والوضيع، والغني والفقير، والرجل والمرأة، فشرَف الجاني أو كونه حسيباً نسيباً، لا يُسقط الحدَّ عنه، لتساوي الناس جميعاً أمام أحكام الشرع.

فأين هذا، من محاولة بعض الناس تبرئة المتهم، والتخفيف عن القاتل عمداً، أو إخلاء سبيله وبراءته، وفي هذا إخلال بميزان العدالة في تشريع الأحكام الشرعية، وإهدار تطبيقها تطبيقاً عادلاً ومتساوياً على الناس جميعاً.

وهناك موقف نبوي حازم آخر، وهو ما ورد في حديث متفق عليه، عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى نُخامة[2] في القِبلة، فشقَّ ذلك عليه، حتى رُئي في وجهه، فقام فحكَّه بيده، فقال: ((إن أحدكم إذا قام في صلاته، فإنه يناجي ربَّه، وإنَّ ربَّه بينه وبين القبلة، فلا يَبْزُقنَّ أحدكم قِبلَ القبلة، ولكن عن يساره أو تحت قدمه))، ثم أخذ طرف ردائه، فبصق فيه، ثم رد بعضه على بعض، فقال: ((أَوْ يَفْعَلُ هكذا)).

ويلاحظ أن البصاق عن يساره أو تحت قدمه: هو فيما إذا كان في غير المسجد، فأما في المسجد، فلا يَبْصُق إلا في ثوبه.

---

(١) هي: فاطمة بنت أبي الأسد.

(٢) ما يخرجه الإنسان من صدره قبل خروجه من فمه.

- ٦٦ -

تقديم اليمين في أحوال التكريم

كان النبي ﷺ يحب التيامن في الأمور المكرمة كلّها، كالوضوء والغُسل والتيمم ولبس الثوب والنعل والخف والسراويل، حتى في ترجيل (تسريح) الشعر، وفي دخول المسجد واستعمال السواك والاكتحال، وتقليم الأظفار، وقص الشارب، ونتف الإبط، وحلق الرأس، والسلام من الصلاة، والأكل والشرب والمصافحة، واستلام الحجر الأسود، والخروج من الخلاء، والأخذ والإعطاء، وغير ذلك مما هو في معناه. فكل ذلك مستحب مندوب إليه شرعاً. وكذلك يستحب تقديم اليسار في ضدّ ذلك، كالامتخاط والبُصاق عن اليسار ودخول الخلاء، والخروج من المسجد، وخلع الخف، والنعل، والسراويل، والثوب، والاستنجاء، وفعل المستقذرات، وأشباه ذلك.

قال الله تعالى مبيناً تحقيق التفاؤل باستعمال اليمين، والبشارة به في تسلّم الصحف أو الكتب المدونة عن أعمال الإنسان، يوم الحساب: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ[1] اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ..﴾ الآيات [الحاقة: ١٩/٦٩].

---

(١) أي: خذوا.

وقال سبحانه: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ[١] ما أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ[٢] ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ما أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ[٣]﴾ [الواقعة: ٥٦/٨ – ٩].

وقد رغَّبت السُّنة النبوية الشريفة باستعمال اليمين في الأمور المكرَّمة، في أحاديث كثيرة وسنن فعلية.

منها: الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمنى، وإذا نَزَع فليبدأ بالشِّمال، لتكن اليمنى أولَهما تُنْعل، وآخرَهما تُنْزَع)). هذا في لبس النعل ونزعه، وإكرام الرِّجْل اليمنى على اليسرى.

وفي حديثين آخرين متفق عليهما عن عائشة رضي الله عنها.

الأول – قالت: ((**كان رسول الله ﷺ يعجبُه التيمن في شأنه كلّه: في طُهوره[٤] وترجُّله[٥] ، وتنعُّله[٦]**)).

والثاني – قالت فيما أخرجه أبو داود وغيره بإسناد صحيح: ((كانت يدُ رسول الله ﷺ اليمنى لطُهوره وطعامه، وكانت يدُه اليسرى لِخَلائه وما كان من أذى)).

في هذين الحديثين دلالة واضحة على استحباب البدء باليمين في كل شيء مكرَّم أو مشرَّف، والبدء بالشمال في غير المكرَّم.

ويؤيد ذلك حديث متفق عليه عن أم عطية رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال لهن في غُسْل ابنته زينب رضي الله عنها: ((ابدأن بميامنها، ومواضعِ الوضوء منها)) فيه تقديم اليمنى على اليسرى، وتقديم مواضع الوضوء، أي اليمين على اليسار.

---

(١) الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم.. يقابلهم أصحاب المشأمة الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم.

(٢) أي: ما أسعدهم.

(٣) أي: ما أشقاهم وأشدَّ عذابهم.

(٤) استعمال الماء للتطهر.

(٥) تسريح شعر رأسه.

(٦) لبس النعلين.

وأخرج أبو داود وغيره عن حفصة رضي الله عنها: ((أن رسول الله ﷺ كان يجعل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه، ويجعل يساره لما سوى ذلك))، أي تفضيل اليمين على اليسار، وتخصيص اليمين لكريم الأفعال، واليسار لما سوى ذلك.

وتركز الأحاديث في الجزئيات على استعمال اليمين أولاً، واليسار ثانياً، منها ما أخرجه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا لبستم وإذا توضأتم، فابدؤوا بأيامنكم)).

وفي حديث آخر متفق عليه عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أتى منى، فأتى الجمرة[١] فرماها، ثم أتى منزله بمنى[٢] ونَحَر، ثم قال للحلاّق: ((خذ)) وأشار إلى جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس.

وفي رواية: لما رمى الجَمْرة، ونحر نُسكه[٣]، وحَلَق، ناول الحلاق شقه الأيمن فحلقه، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري[٤] رضي الله عنه، فأعطاه إياه، ثم ناوله الشق الأيسر، فقال: ((احلق))، فأعطاه أبا طلحة، فقال: ((اقسمه بين الناس)).

دلَّ الحديث على استحباب البدء بيمين المحلوق، وهو شقّ رأسه الأيمن.

ودلَّ أيضاً في حادث توزيع شعر النبي ﷺ على الناس، على جواز التبرك بآثار الرسول ﷺ فيما أذن به.

إن استعمال اليمين في المكرَّمات فيه بركة وقوة وسلامة، وتشبُّه بفعل الملائكة، وأما استعمال اليسار في مواضع التكريم فهو تشبُّه وتقليد للشيطان، فإن الشيطان على عكس أهل الإيمان يأكل ويشرب بشماله، كما جاء في حديث آخر، وفعل الشيطان ينافي البركة، وسنةَ اتباع النبي ﷺ، في كل ما شرع واستنَّ، فعلى المؤمن محبة ما أحبَّ النبي ﷺ، وكراهة ما كره.

---

(١) أي: جمرة العقبة.

(٢) وهو ما بين مسجد الخيف ومحل النحر المشهور.

(٣) أي: هديه الذي ساقه معه.

(٤) أبو طلحة (زيد بن سهل) زوج أم سُليم، أم أنس بن مالك رضي ا لله عنهم.

-٦٧-

التسمية في أول الطعام والحمد في آخره

الطعام خير وبركة ورزق حسن، يسَّره الله تعالى للإنسان، وهيَّأ له سبيل الانتفاع به، والتقوِّي على طاعة الله تعالى به، وهو من نعم الله وأفضاله، فيستحق اللهُ تعالى المنعمُ به شكرَه وحمده والثناء عليه في آخر تناوله، وأن يبدأ الطعام بالبسملة، لأن المؤمن يبدأ باسم الله في كل شيء، ويتبرك به، فيكون البدء والختام في تناول الطعام مقروناً باسم الجلالة، وفي ذلك خير وثواب من الله، وإرضاء له، وتأدُّب بآداب الإسلام، وتلك الآداب تميِّز الشخصية الإسلامية. ويكون ذكر الله استعانة به، وتمجيداً له، وشكراً على فضله وإنعامه، وحمداً على إكرامه، وجعل الطعام والشراب من أسباب القوة، والتغلب على متاعب الحياة، وإمداد الجسم بما يحتاج إليه. وقد علَّمنا الله تعالى أن نبدأ تلاوة كل سورة من سور القرآن بالبسملة، لما لها من الفوائد العظيمة، كما تختم التلاوة الشاملة للقرآن بالحمد لله ربِّ العالمين.

والأحاديث النبوية في استحباب التسمية في أول الطعام وحمد الله في آخره: كثيرة ومتنوعة.

منها الحديث المتفق عليه عن عمر بن أبي سَلَمة رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((**سمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك**))، وتحصل التسمية بقول: بسم الله أو ببسم الله الرحمن الرحيم، وهذه الثانية هي الأكمل.

قال النووي رحمه الله: استحباب التسمية في ابتداء الطعام مجمع عليه، وكذا حمده آخره، والحكمة من التسمية: أنها تجلب البركة، وتدعو إلى القناعة، وعدمِ الشره.

والأكل مما يلي الآكل: سنة متفق عليها، وخلافها مكروه، وفي ذلك أدب جمّ، لا سيما مع وجود أيدٍ أخرى تمتد إلى الطعام، إلا أن الشرع رخَّص في تناول الفاكهة اختيارَ ما شاء منها، دون تقيد بما يلي الآكل.

وأخرج أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله، فليقل: بسم الله أوله وآخره)). وفيه دلالة على استحباب ذكر الله بعد الفراغ من الطعام، والتسمية قبله، وفي آخره إن نسي.

والتسمية أول الطعام تجعل البركة فيه، فإذا لم تذكر، رفعت البركة من الطعام، والدليل على هذا ما أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأكل طعاماً في ستة من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال رسول الله ﷺ: ((أما إنه لو سمَّى لكفاكم)).

وليس من الحكمة ولا من الأدب أن يترك الإنسان المسلم رجلاً أو امرأة أو كبيراً أو صغيراً، التسميةَ عند كل عمل، لما أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله تعالى عند دخوله، وعند طعامه، قال الشيطان لأصحابه: لا مبيت لكم ولا عَشاء.

وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعَشَاء)).

فيه استحباب ذكر الله تعالى عند دخول البيت وعند الطعام، وفي ترك ذلك غفلة عن الله تعالى تستدعي مخالفة أمر الله تعالى، واتباع الشيطان في ضلاله، وتمكين الشيطان من الوسوسة والإفساد في البيت، ليلاً ونهاراً.

ويؤكد ذلك ما أخرجه مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعاماً، لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ، فيضع يده، وإنّا حضرنا معه طعاماً، فجاءت جارية[١] كأنها تُدْفَع[٢]، فذَهبتْ لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، ثم جاء أعرابي[٣] كأنما يُدْفَع، فأخذ بيده، فقال رسول الله ﷺ: ((إن الشيطان يستحلُّ الطعام، أن لا يُذْكَر اسم الله تعالى عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحلَّ بها، فأخذتُ بيدها، فجاء بهذا الأعرابي ليستحلَّ به، فأخذتُ بيده، والذي نفسي بيده، إن يده في يدي مع يديهما)) ثم ذكر اسم الله تعالى وأكل. وهو دليل على استحباب تعليم الناس أدب الأكل والشرب في الإسلام، وعلى مشاركة الشيطان للناس مآكلهم عند عدم التسمية.

وعلاج نسيان التسمية: أن يعود الآكل أو الشارب إلى التسمية آخر الأمر، لما أخرجه أبو داود والنَّسائي عن أمية بن مَخْشِي الصحابي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالساً، ورجل يأكل، فلم يسمِّ الله حتى لم يبق من طعامه لقمة، فلما رفعها إلى فيه قال: بسم الله أوله وآخره، فضحك النبي ﷺ ثم قال: ((ما زال الشيطان يأكل معه، فلما ذكر اسم الله استقاء ما في بطنه)).

(١) شابة.

(٢) أي: لشدة سرعتها.

(٣) ساكن البادية.

ويستحب الحمد لله آخر الطعام، لما أخرجه البخاري عن أبي أمامة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: ((الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مَكْفي ولا مُسْتَغنىً عنه، ربَّنا)) الكلام راجع إلى الحمد كأنه قال: حمداً كثيراً غير مكفي ولا مستغنى عنه، أو إلى الله تعالى، أي إن الله مستغن عن المعين، فهو يُطعِم ولا يُطعَم، بدليل قوله في آخره: ربَّنا.

وأخرج أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن عن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غُفر له ما تقدم من ذنبه)) وهو دليل على أجر الحامد لله تعالى بتكفير ذنوبه الصغائر. هذان الأدبان: التسمية والحمد لتحقيق هناءة الإنسان وتوفير شبعه وزيادة رزقه وشكر ربه.

-٦٨-

الرؤيا وما يترتب عليها

لا يخلو أحد من التعرض لرؤيا في منامه، قد تفرحه وقد تخيفه، وقد تسوءه، وقد تتطابق الرؤيا مع الواقع، فتكون إنذاراً بشرّ أو سوء، أو بشارة بخير، وقد تكون مجرد تخاليط وأضغاث أحلام. وربما تتمثل في مرأى الإنسان وفي روحه صور لشخصيات أو حيوانات أو ملائكة أو جنّ أو شياطين، وقد يرى المؤمن نبيَّه، وتكون رؤياه صحيحة صادقة، لأن الشيطان لا يتمثل بالنبي ﷺ. وسبب الرؤيا: إما عضوي كتعب أو تلبُّك معدة، وإما نفسي كالتأثر بحادث أو مصاب، فترتسم في مخيلة النائم مزعجات، وقد تكون الرؤيا بسبب ما يرتسم في النفس مما قد يدور في الذهن أثناء اليقظة، وإذا كان الحادث سارّاً، عمّت الفرحة النفس، فظهرت آثار الفرحة في موقع جميل كبستان أو حديقة غنَّاء. وكل ذلك من آيات الله. قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ [الروم: ٢٣/٣٠].

ورؤيا الأنبياء: حق وصدق، فهي تُطابِق الواقع، ويعمل النبي بموجب الرؤيا على أنها إحدى ألوان الوحي، كرؤيا سيدنا يوسف عليه السلام حين قال لأبيه: ﴿يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤/١٢]، ورؤيا سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿ يا بُنَيَّ

إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ماذا تَرَى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢/٣٧].

ووردت أحاديث نبوية صحيحة في السُّنة تبين أحوال الرؤيا وأحكامها، منها حديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**لم يبق من النبوة إلا المبشِّرات، قالوا: وما المبشِّرات؟ قال: الرؤيا الصالحة**)) أي: إن الرؤيا الصادقة حق، يُطلع الله بها المؤمن على ما سيكون من خير أو شرّ.

ويؤيد ذلك حديث متفق عليه عن أبي هريرة أيضاً: أن النبي ﷺ قال: ((**إذا اقترب الزمان**[1] **لم تكد رؤيا المؤمن تكذِبُ، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**)) وفي رواية: ((أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً)) أي: إن الله يؤنس المؤمن أحياناً بما يريه من الحقائق عند فساد الزمان، ويزداد صدق الرؤيا بصدق حديث صاحبها. والرؤيا الحق: من النبوة باعتبارها إعلاماً من الله بشيء لبعض المؤمنين.

وورد في مسألة رؤيا النبي ﷺ في المنام حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من رآني في المنام، فسيراني في اليقظة، أو كأنما رآني في اليقظة، لا يتمثل الشيطان بي)) وهذا تبشير لصاحب الرؤيا وإكرامه، وتكون رؤيا الرسول ﷺ في المنام حقّاً، وليست من قبيل الأضغاث، لأن الشيطان لا يتخيل للإنسان بصورة أو شكل النبي ﷺ، وهذا من خصوصياته على الأصح.

وأما ما يفعله الرائي بعد الرؤيا: فهو كما جاء في حديث متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: ((إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها، فإنما هي من الله تعالى، فليحمد الله عليها، وليحدِّث بها))، وفي رواية:

---

(١) أي: اقترب انتهاء أمد الدنيا.

((فلا يحدِّث بها إلا من يحب، وإذا رأى غير ذلك مما يَكْرَه، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرِّها، ولا يذكرْها لأحد، فإنها لا تضرّه)).

ويؤيده حديث آخر متفق عليه عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((الرؤيا الصالحة، أو الحسنة: من الله، والحُلْم من الشيطان، فمن رأى شيئاً يكرهه، فلْيَنْفُثْ عن شماله ثلاثاً، وليتعوَّذ من الشيطان، فإنها لا تضرّه))، والنَّفْث: نفخ لطيف لا ريق معه. والحُلْم: الرؤيا، فهما بمعنى واحد، لكن غلب في اصطلاح الشرع: تخصيص الرؤيا، بما يراه من الخير، والحلْم بما يراه من الشَّر. دلَّ الحديث على استحباب النَّفْث عن يساره، والتعوُّذ من الشيطان إذا رأى رؤيا شرّ.

وأخرج مسلم عن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: ((إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها، فليبصُق عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحوَّل عن جنبه الذي كان عليه)). دلَّ على استحباب التحول عن جنبه الذي كان عليه حين الرؤيا، تفاؤلاً بتحول الحال من الرؤيا القبيحة إلى الرؤيا الحسنة.

ولكن الرؤيا أمانة، فلا يجوز شرعاً ادِّعاء رؤيا لم يرها الرائي في نومه، فذلك أعظم الكذب، لما أخرجه البخاري عن أبي الأسقع واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ من أعظم الفِرى[1]: أن يدَّعي الرجل إلى غير أبيه، أو يُري عينه ما لم تر، أو يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل)).

دلَّ هذا الحديث على أن الانتساب إلى غير الأب معصية كبيرة، لما فيها من إضاعة الأنساب، وأن الكذب في الرؤيا كبيرة أيضاً، لأنه كذب على الله في أنه أراه كذا.

---

(١) الفرى: جمع فِرية وهي: الكذبة.

-٦٩-

فضل من مات له أولاد صغار والخوف عند المرور بقبور الظالمين

مما لا شك فيه أن الأولاد قطعة من فلذة الكبد، وأن حبهم مستقر في فطرة الإنسان، والحفاظ عليهم مركوز في النفس بدافع العاطفة الأبوية أو عاطفة الأمومة، وربما يضحي الإنسان بنفسه في سبيل النجاة لأولاده، وهذا مثل أعلى للتضحية والإيثار، لذا كان إنجاب الأولاد مصدر سرور وغبطة، وفَقْدهم مجلبة للحزن الأسى، وقد واسى الإسلام الأبوين بفَقْد أولادهم، وجعل الأولاد الذين يموتون وهم صغار حجاباً وحاجزاً من النار لأبويهم، وهذا ما صرَّح به النبي ﷺ في أحاديث ثابتة، منها:

الحديث المتفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**ما من مسلم يموت له ثلاثة لم يبلغوا الحِنْث[1] إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم**)).

دلَّ هذا الحديث على فضل من مات له أولادٌ صغار، فصبر واحتسب، فإنه لشفقته عليهم، يرحمه الله، ويدخله الجنة بفضل رحمة الله للصغار الذين ماتوا.

(١) أي: الذنب، عبَّر به عن البلوغ، لأنه سبب المسؤولية عن الذنوب.

ويؤكده حديث آخر متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثةٌ من الولد، لا تمسّه النار إلا تَحِلَّةَ القَسَم)). وتحلّة القسم: قول الله تعالى: ﴿وإنْ مِنْكُمْ إلاَّ وارِدُها﴾ [مريم: ٧١/١٩]. والورود: هو العبور على الصراط، وهو جسر منصوب على ظهر جهنم، عافانا الله منها. والمعنى: إن من فقد له ثلاثة أولاد وهم صغار، فصبر واحتسب الثواب عند الله ورضي بالقدر، لم يدخل جهنم، وإنما يمرُّ على النار، ليحقق القسم الإلهي الوارد في الآية: ﴿وإنْ مِنْكُمْ إلاَّ وارِدُها﴾، وإنْ وَرَدَها لم يؤذِه لظاها، إن كان من أهل السعادة، وإنما يجتازها كلمح البصر أو أطول بقليل.

وتأكد هذا أيضاً في حديث متفق عليه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه، تعلّمنا مما علّمك الله، قال: اجتمِعْنَ يوم كذا وكذا، فاجتَمعْن، فأتاهنَّ النبي ﷺ، فعلَّمهن مما علَّمه الله، ثم قال: ((ما منكن من امرأة تقدِّم ثلاثةً من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار، فقالت امرأة: واثنين؟ فقال رسول الله ﷺ: واثنين)). في هذا الحديث البشارة بالنجاة من النار، ودخول الجنة، لمن فقدت من أولادها ثلاثاً أو اثنين.

وحذّرتنا السُّنة النبوية من المكث أو المُقَام عند قبور الظالمين، ويسنُّ الإسراع عند المرور بتلك القبور، والبكاءُ والخوفُ، إظهاراً للإنكار عليهم، والبعدِ عن التشبُّه بهم، لما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه - يعني لما وصلوا الحِجْر: ديار ثمود[1]: **((لا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم)).**

(١) هم قوم صالح عليه السلام، وهي ما بين الشام والمدينة. ومرّ الصحابة مع النبي ﷺ بها حين توجههم إلى غزوة تبوك في السنة العاشرة من الهجرة.

وفي رواية قال: لما مرَّ رسول الله ﷺ بالحِجْر قال: ((لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين، ثم قنَّع رسول الله ﷺ رأسه[1] وأسرع السير، حتى أجاز الوادي)) أي قطعه وجاوزه.

دلَّ الحديث صراحة على أن الإنسان إذا مرَّ بديار المغضوب عليهم الذين عاقبهم الله، أسرع الخُطا حتى يتجاوزَها. وكذلك نهانا الله تعالى عن مجالسة الظالمين ومساكنتهم ومؤاكلتهم، حتى لا نتأثر بأخلاقهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣/١١].

ونهانا الإسلام أيضاً عن حضور موائد الشُّرب والمعاصي والفسوق، ومواقع اللغو والاستهزاء بآيات الله تعالى، فقال الله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١/٢٣ – ٣].

وأما الإعراض عن الخائضين في آيات الله، فهو واجب شرعاً، ويأثم الجالس معهم، لأن الجلوس معهم علامة الرضا، وأمارة الموافقة على ضلالهم وانحرافهم وكفرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨/٦]. وقال سبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣/٤٣].

---

(١) أي: ألقى عليه القناع وهو الغطاء.

-٧٠-

آداب السَّفر

للسَّفر آداب وسنن يقصد بها تيسير الأمور على المسافر، وقطع المسافة، وإنجاز الغاية، والوصولُ إلى المقصد براحة واطمئنان، وسلامة وأمان، وأساس كل ذلك التوفيق الإلهي، والحفظ والرعاية الرَّبانية، فمن تأمَّل خيراً، وراقب الله تعالى، والتزم الطاعة وما يباح شرعاً، وابتعد عن المعاصي، كان موفَّقاً، وفي حرز الله وفي حصن حصين من الأحداث والمشكلات.

ومن هذه الآداب:

- **استحباب الخروج يوم الخميس في أول النهار**، للحديث المتفق عليه عن كعب ابن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ خرج في غزوة تبوك يوم الخميس، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس. وفي رواية في الصحيحين: ((لقلَّما كان رسول الله ﷺ يخرج إلا في يوم الخميس)) وذلك سواء كان السفر للجهاد أو لغيره.

وكون بدء السفر أول النهار، لما أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن، عن صخر بن وَداعة الغامدي الصحابي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((اللهم بارك لأُمتي في بكورها)) وكان - أي النبي - إذا

بعث سريَّةً[١] أو جيشاً، بعثهم من أول النهار، وكان صخر تاجراً، وكان يبعث تجارته أول النهار، فأثرى وكثر ماله.

في الحديث دلالة على فضيلة التبكير، والبدء من أول النهار، في العمل والتجارة والسفر والوظائف وسائر المصالح.

- ومن آداب السفر: **استحباب طلب الرُّفقة وتأمير واحد منهم**، أخرج البخاري عن ابن عمَر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((لو أن الناس يعلمون من الوَحْدة ما أعلم، ما سار راكب بليل وحده)) أي: إنَّ في الوحدة (الانفراد في السفر) مخاوف ومخاطر وأضراراً، ولا سيما في الليل، لاجتماع الظلمة مع الانفراد.

وهذا دليل على كراهة السفر منفرداً من غير رفقة، لأن للسفر أضراراً دينية ودنيوية كثيرة، كالحرمان من صلاة الجماعة، وحصول الوحشة والقلق والتعرض إلى المخاطر، وفقدان الأنيس والصديق وغير ذلك.

لذا أخرج أبو داود والترمذي والنَّسائي بأسانيد صحيحة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة رَكْب))، أي إنه يستحب كون الرفقة في السفر ثلاثة على الأقل، والتنفير دون ذلك، لأن بالثلاثة تتحقق المصلحة والأُنس، وتندفع المفسدة والوحشة.

وأما تأمير أحد المسافرين على الآخرين، فلما أخرجه أبو داود بإسناد حسن عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: ((إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم))، أي: يندب للجماعة المسافرين أن يجعلوا واحداً منهم أميراً عليهم، والأولى أن يكون من خيرتهم فقهاً وحزماً وخبرة بأحوال السفر.

---

(١) السَّرية: قطعة من الجيش.

- **ويستحب كون الرفقة أربعة**، لما أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: ((خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربع مئة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلّةٍ)). والحكمة من كون الرفقة أربعة، أنهم قد يحتاجون للمشاورة والتعاون على الخير وإنجاز المهمة. ولم يكن يهزم المسلمون في الماضي بسبب قلة عددهم إذا بلغ عددهم اثني عشر ألفاً، وإنما يكون الانهزام لأسباب أخرى.

- **ويستحب كونُ السير في مقدم الليل**، والرِّفقُ بأدوات الركوب، والنومُ في السفر، واجتنابُ المبيت على الطرق المأهولة، لأنها طرق الدواب وغيرها، ومأوى الهوامّ، أي الحشرات كالأفاعي وغيرها.

أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((إذا سافرتم في الخِصْب فأعطوا الإبل حظَّها من الأرض، وإذا سافرتم في الجَدْب فأسرعوا عليها السَّير، وبادروا بها نِقْيها، وإذا عرَّستم فاجتنبوا الطريق، فإنها طرق الدواب، ومأوى الهوامّ بالليل))، أي إذا سافرتم في مكان مخصب فيه عشب وكلأ، فأعطوا الإبل حظَّها من الأرض، أي ارْفَقُوا بها في السير، لترعى في حال سيرها. وبادروا بها نقيها وهو مخها: معناه: أسرعوا بها حتى تصلوا المقصد قبل أن يذهب مُخّها من ضَنْك السير. وإذا عرَّستم (والتعريس: النزول في الليل) فاجتنبوا المبيت على جادات الطرق، فإنها طرق الدواب، ومأوى الحشرات كالأفاعي وغيرها.

-٧١-

التعاون على الخير

المجتمع المسلم مجتمعٌ متراحمٌ، متعاون في السَّرَّاء والضَّرَّاء، متكافل مع أفراده تعاوناً ماديّاً ومعنويّاً، في البنية والمظهر والمخبر، لتحقيق الأهداف والغايات الكبرى التي يهدف إليها، ويسعى هذا المجتمع في سبيل قوة الذات، وبناء الشخصية، والحفاظ على قوة الأمة وعزّتها، وصلابتها أمام أعدائها.

وهذا يتطلب المتابعة والمراقبة والبحث والتنقيب عن ذوي الحاجة وأهل البؤس والفقر والمسكنة، فأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء.

وحثّ النبي ﷺ على التعاون المستمر بين أبناء المجتمع. فقال فيما يرويه مسلم عن أبي هريرة: ((والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)). وقال أيضاً - فيما رواه أحمد والبخاري عن جابر، وأحمد ومسلم وأبو داود عن حذيفة -: ((**كل معروف صدقة**)).

ومصدر هذه الترغيبات كلها: هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿وتَعاوَنُوا عَلى البِرِّ والتَّقْوى وَلا تَعاوَنُوا عَلى الإِثْمِ والعُدْوانِ﴾ [المائدة: ٥/٢]. والآية دليل واضح على أن التعاون فضيلة حميدة، بل ومأمور به شرعاً في جميع الأحوال العامة

والخاصة، مع الدولة والمؤسسات والجماعات والأفراد، والرفاق والأصحاب، سواء في السفر والحضر، وسواء أكانت هناك صداقة حميمة دائمة، أم رفقة عابرة طارئة، من أجل خير الجميع ولمصلحة الجميع، ولا نكاد نجد شرعاً كالإسلام يأمر ببذل الزائد عن الحاجة في كل شيء، كما يتبين في الحديث التالي:

ثبت عن النبي ﷺ - فيما يرويه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - قال: بينما نحن في سفر، إذ جاء رجل على راحلة له (أي مركوب) فجعل يَصْرِف بصرَه يميناً وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: ((**من كان معه فضل ظهر**[1] **فليعُدْ به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعُدْ به على من لا زاد له، فذكر من أصناف المال ما ذكرَه، حتى رأينا أنه لا حقَّ لأحد منا في فضل**[2]))، أي في شيء زائد عن حاجته.

دلَّ الحديث الشريف على الترغيب الشديد في التعاون وتحقيق التكافل بين المسلمين، وبخاصة في أوقات الأزمة والشدة، والواقع أنه في وقت الشدة يصبح التعاون فرض كفاية على الناس كافة، وعلى القادرين منهم خاصة. وليس التعاون مقصوراً على الطعام والشراب، بل هو عام وشامل يتناول جميع متطلبات الحياة، كالزلازل والفيضانات وحصار الأعداء لشعب مسلم أو جماعة مسلمة مثلاً.

وقد بادر المسلمون الأوائل إلى ترجمة الأمر الشرعي بالتعاون إلى واقع عملي في صدر الإسلام بين جماعتي المهاجرين والأنصار الذين كانوا نواة المجتمع الإسلامي، وشَعْبَ الدولة الإسلامية في بداية تكوينها، روى أبو داود عن جابر رضي الله

(١) أي: مركوب زائد عن حاجته، والمراد هنا الإبل.
(٢) أي: ظننا.

عنه، عن رسول الله ﷺ أنه أراد أن يغزو[١]، فقال: ((يا معشر المهاجرين والأنصار، إن من إخوانكم قوماً ليس لهم مال ولا عشيرة، فليضمَّ أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة، فما لأحدنا من ظهر[٢] يحمله إلا عُقْبَةُ أحدهم[٣])) يعني كعقبة أحدهم، قال: فضممت إلي اثنين أو ثلاثة، مالي إلا عُقْبة أحدهم من جَمَلي.

في هذا الحديث حثٌّ واضح على ضرورة التعاون في أعمال الخير كالجهاد وغيره، وقد نفَّذ الصحابة الكرام هذا المطلب خير تنفيذ، فبادروا إلى طاعة الرسول ﷺ والتزموا أوامره من غير تباطؤ ولا تردُّد، بسبب إخلاصهم الشديد وتفانيهم في مساندة بعضهم بعضاً، فهذا الصحابي ضَمَّ إليه في التناوب على ركوب جَمَله اثنين أو ثلاثة، وكان هو كأحدهم يتعاقبون على ركوب البعير.

والثواب محقق على أي تعاون في سبيل الخير، وهو دليل على وعي المسلم والجماعة الإسلامية الأُولى الذين كانوا بحق خير أمة أخرجت للناس.

روى أبو داود بإسناد حسن عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ يتخلَّف في المسير[٤]، فيُزجي الضعيف[٥] ويُردِف[٦] ويدعو له))، أي كان القائد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه يتأخر عن جماعة الرَّكب، ليراقب أحوال الجميع، فيؤازر الضعيف المتخلِّف، ويُركِبُه خلفه على دابته، ويدعو له بالقوة والعون والثواب، وهو دليل واضح على رعاية النبي ﷺ لأصحابه، وتفقده لجماعته، وتشجيعه الضعيف منهم، وإعانته المحتاج، والاطمئنان على الجميع، مع الدعاء للضعيف ليصل لمطلوبه.

---

(١) المراد بالغزو: هو الجهاد المشروع، وليس المراد به في مفهوم اليوم وهو النهب والسلب والاعتداء.

(٢) أي: أداة ركوب.

(٣) أي: نوبة من التناوب أو تبادل الركوب على دابة واحدة.

(٤) أي: يسير آخر الناس في السفر.

(٥) أي: يسوق الضعيف ليلحق بأصحابه.

(٦) أي: يركبه وراءه إن عجز.

-٧٢-

دعاء السَّفر

للأسفار في الماضي والحاضر مخاطر كثيرة متنوعة، ففي الماضي كان الخوف من الوحوش والجناة وقطّاع الطرق هو الغالب، وفي الحاضر بقي الخوف من بعض الجناة والإرهابيين، وزادت مخاطر السفر بسبب تعرُّض وسائط الركوب للحوادث المريعة، والاصطدامات الرهيبة، فازدادت المخاوف في البر والبحر والجو، ولا يجد المسافر ملجأ يحميه، ويُفرغ على قلبه الطمأنينة والسكينة إلا الله تعالى الذي بيده الأمر كله.

ومن خير ما يعصم المسافر ويحميه من حوادث السفر: الأدعية المطلوبة شرعاً حين ابتداء السفر والركوب والجلوس على المقعد، وقد جاء الترغيب في دعاء السفر في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ، لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هَذا وَما كُنّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنّا إِلَى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢/٤٣ – ١٤]. والفُلك: السفينة، والأنعام: الإبل والبقر والغنم، والمركوب منها هو الإبل. والدعاء عند الاستواء على المقعد، أي حين الاستقرار عليه. وسخّر لنا هذا: أي ذلّل وسهّل، وما كنا له مُقْرنين: أي مطيقين، وقوله سبحانه ((لـمُنقلبون)) أي لراجعون إلى ربنا تبارك وتعالى.

وعلَّمنا النبي ﷺ دعاء السفر رحمة بنا، وإرشاداً لما فيه خيرنا، أخرج مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره، خارجاً إلى سفر، كبَّر ثلاثاً[١]، ثم قال: ((سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مُقْرنين. وإنا إلى ربِّنا لمنقلبون)).

- اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البِرَّ والتَّقوى، ومن العمل ما ترضى.

- اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا، واطْوِ عنا بُعْده.

- اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل.

- اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاء[٢] السفر، وكآبة[٣] المنظر، وسوء المنقلب[٤] في المال والأهل والولد)). وإذا رَجَع قالهن، وزاد فيهن: ((آيبون تائبون، عابدون، لربِّنا حامدون)).

هذه هي صيغة دعاء السفر الواردة في السنة النبوية، وتأكَّدت روايتها في أحاديث أخرى: إما بالصيغة نفسها أو بألفاظ أخرى.

منها: ما رواه مسلم أيضاً عن عبد الله بن سَرْجس رضي الله عنه قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا سافر يتعوَّذ من وَعْثاء السفر، وكآبة المنقلب، والحَوْر بعد الكون، ودعوة المظلوم، وسوء المنظر في الأهل والمال)). ومعنى قوله: ((والحور بعد الكون)) أي النقص بعد الوجود والاستقرار السليم، وروي أيضاً: ((والحور بعد الكَوْر)) أي الرجوع من الاستقامة أو الزيادة إلى النقص، والكور: مأخوذ من تكوير العمامة، وهو لفّها وجمعها. والمراد: من التفرق بعد التجمع.

---

(١) أي: قال: الله أكبر ثلاث مرات.

(٢) أي: الشدة.

(٣) أي: تغيُّر النفس من حُزن ونحوه.

(٤) أي: المرجع.

دلَّ الحديث على استحباب التعوُّذ من شدة السفر، وتغيُّر الأحوال وتبدُّلها، ومن دعوة المظلوم، فلا بد للمسافر من ردِّ المظالم قبل السفر، لأن المظلوم قد يدعو، فيستجاب دعاؤه في السفر، فيكون الضرر أشد. وهذا تعليم لنا بضرورة عدم التعرض لظلم أحد في السفر، كمنع إعانة الرفيق في الطريق، أو نقص أجرة، أو شتم أو سبٍّ أو لعنٍ أو غير ذلك.

وروى أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن، عن علي بن ربيعة قال: شهدتُ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه أُتي بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الرِّكاب[1] قال: بسم الله، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربِّنا لمنقلبون. ثم قال: الحمد لله ثلاث مرات، ثم قال: الله أكبر ثلاث مرات. ثم قال: سبحانك إني ظلمت[2] نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ثم ضحِك، فقيل: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكتَ؟ قال: رأيت النبي ﷺ فعَل كما فعلتُ، ثم ضحك فقلت: يا رسول الله، من أي شيء ضحكتَ؟ قال: ((إن ربَّك سبحانه يعجب[3] من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري)).

دلَّ الحديث على استحباب التسمية عند الركوب، وعلى الإكثار من رحمة الله تعالى وتعظيمه عند التمتع بوافر نعمه، وعلى الإكثار من الاستغفار، وعلى سعة رحمة الله تعالى، وحرص النبي ﷺ على نجاة المسلمين وسلامتهم وقبول الله تعالى لهم، لأن ضحك الرسول معناه: سروره بثواب الله تعالى ورضاه عن أُمته.

---

(١) الركاب: ما يضع الراكب رجله فيه من السرج، للاستعانة به على الركوب.

(٢) أي: ظلمتها بعدم شكري لنعم الله الكثيرة.

(٣) أي: يرضى.

-٧٣-

أذكار السفر والمسافر

للسفر مخاطر ومخاوف في جميع أنواعه: البري والبحري والجوي، ويتعرض المسافر حتى في الطائرات وغيرها لمتاعب كثيرة نفسية ومادية من تفتيش وتحقيق وانتظار ومضايقات ومتاعب هنا وهناك، وما تزال النظرة إلى المسافر نظرة تخوُّف واستغراب، واستغلال وإتعاب، في أي بلد في العالم، وإذا اختلَّ الأمن في الطريق أو في البلد زادت المخاوف والقلاقل والمشكلات، وصدق الرسول ﷺ حين قال - فيما يرويه أحمد والشيخان وابن ماجه ومالك -: ((**السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدَكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى أحدكم نَهْمته (أي مقصوده) من وجهه، فليعجل الرجوع إلى أهله**)).

ولكن الله تعالى يخص المسافر بأنواع العناية والرعاية، والرحمة واللطف الإلهي، فدعاء المسافر مستجاب، ورحمة الله ملازمة له، روى السلفي عن أبي هريرة - وهو في الواقع من كلام بعض السلف -: ((لو علم الناس رحمة الله بالمسافر، لأصبح الناس وهم على سفر، إن المسافر ورحله على قَلْت (هلاك) إلا ما وقى الله)).

وعلى المسافر أن يكون على صلة بالله تعالى بالأذكار من تهليل وتسبيح وتحميد وتكبير واستغفار، وبُعْد عن المعاصي والمنكرات، حتى يستحق لطف الله

به، روى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: ((كنا إذا صعِدنا (أي على مرتفع) كبَّرنا، وإذا نزلنا (أي في منخفض) سبحنا))، أي قلنا في المرتفعات: الله أكبر، وفي المنخفضات: سبحان الله.

وفي حديث آخر رواه أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((كان النبي ﷺ وجيوشه إذا عَلَوا الثنايا (أي أصبحوا فوقها) كبَّروا، وإذا هبطوا سبَّحوا)). وفي هذين الحديثين: استحباب التكبير عند صعود مرتفع، إظهاراً للعلو الحقيقي وهو الله تعالى، واستحباب التسبيح عند النزول، تنزيهاً لله تعالى عما لا يليق به من النقص عند وجود الدنوّ.

ويسنُّ في العودة من السفر: تكرار التهليل ((لا إله إلا الله))، ورد في حديث متفق عليه عن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا قَفَل (عاد أو رجع) من الحج أو العمرة، كلما أوفى (ارتفع) على ثنيَّة (مرتفع) أو فدفد (مرتفع غليظ من الأرض) كبَّر ثلاثاً، ثم قال: ((لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الـمُلْك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون ساجدون، لربِّنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهَزَم الأحزاب وحده)). وفي رواية لمسلم: إذا قَفَل من الجيوش أو السرايا، أو الحج أو العمرة.

والاستقامة والابتعاد عما يغضب الله ويسخطه ينبغي أن يكون شأن المسلم في سفره، مع ملازمة دعاء السفر عند الركوب وعند النزول، روى الترمذي وقال: حديث حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أريد أن أُسافر فأوصني، قال: ((عليك بتقوى الله، والتكبير على كل شُرُفٍ)) (أي على كل علو ومرتفع) فلما ولَّى الرجل قال: ((اللهم اطوِ له البُعْد، وهوِّن عليه السَّفر))، فيه وصية المسافر بتقوى الله عز وجل، وتعليمه آداب السفر، وتعليم دعاء السفر بما يفيده في سفره، ويخفف عنه عناء السفر ومشقته.

ويسنُّ للمسافر الإسرار وعدم رفع الصوت بالأذكار، فهو أقرب لمناجاة الحق تبارك وتعالى، والاستعانة به والاستغاثة بالله عز وجل، وأما رفع الصوت أو الجهر بالدعاء فليس مسنوناً إلا بقصد التعليم والتوجيه، لأن الله تعالى قريب يسمع السِّر وأخفى، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، ولأن الثقة بالله والإيمان الصحيح يستدعي حسن الظن بالله، والتوكل عليه، ولا حاجة للاستعانة بغير الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٦]. وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال له: ((**يا غلام إني أعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تِجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**)) وفي حديث آخر متفق عليه في ترك رفع الصوت بالدعاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فكنا إذا أشرفنا (علونا) على وادٍ، هلَّلنا وكبَّرنا، وارتفعت أصواتنا، فقال النبي ﷺ: ((اربعوا على أنفسكم (هوِّنوا عليها وارفقُوا بها وخفِّفوا عنها) فإنكم لا تَدْعون أصمّ ولا غائباً، إنه معكم، إنه سميع قريب)). وفيه دلالة واضحة على استحباب عدم رفع الصوت بالدعاء والأذكار، وعلى قرب الله تعالى من المؤمنين والمؤمنات.

- ٧٤ -

أنواع الدعاء في السَّفَر

المسافر غالباً غريب اليد واللسان، والقول والعمل، والناس لا يعرفونه، ومن جهل شيئاً جافاه أو عاداه، وقد تحيط بالمسافر ظروف شديدة، فيها خوف من بعض الناس أو من بعض هوام (حشرات) الأرض، وقد يحتاج إلى مال بسبب بعض الطوارئ والرسوم والمطالب، وقد يتعرض للصوصية أو السرقة والنشل، فيصبح صفر اليدين، فتنشل حركته، ويتحير في أمره، ويضطرب فؤاده، وقد يقع في خوف شديد، ومتاعب وإرهاقات لا حصر لها.

والمسافر يشعر أيضاً بقلق نحو أهله وأسرته، ونحو وطنه وقومه، وقد يتعرضون لحوادث أو مشكلات، وربما يكون هو العائل أو المنقذ لهم من كل ما يحدث.

ولا يفيد المسافر أمام هذه المفاجآت إلا الصبر والدعاء والتوجه إلى الله تعالى ليجعل بعد العسر يسراً، وبعد الكرب والشدة فرجاً وسعة ونجاة، وإذا وثق الإنسان بربِّه، استجاب الله دعاءه وأنقذه مما يتعرض.

روى أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده**)).

دلَّ الحديث بوضوح على استجباب دعاء المسافر لنفسه وغيره، وعلى أن الله يستجيب دعاء المسافر لما يتعرض له من شدَّة ومشقَّة. وليحذر الإنسان من الظلم ودعوة المظلوم في السفر والحضر، ومن عقوق الوالدين ودعوة الوالد، فإن كلاًّ من دعوة المظلوم ودعوة الوالد لا تردّ.

وإذا أحسَّ المسافر بتآمر أحدٍ أو جماعةٍ عليه أو خاف قوماً، فليلجأ إلى الدعاء بقوله، كما روى أبو داود والنَّسائي بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: ((**اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم**)) فيه الالتجاء إلى الله تعالى، لوقاية الإنسان من مكائد الأعداء وشرورهم، ففي دعاء الله استعانة به للوقاية من الشَّر، ورد كيد الأعداء إلى نحورهم، والاعتصام بالله عند كل نازلة، للتخلص من شرور الأشرار، وكيد الفجّار، وطوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير، والسفر بما فيه من خوف غالباً يتأكد فيه الدعاء عند توقُّع شرِّ ظالم أو ماكر أو حاقد أو متعصِّب أو عدو، وغير ذلك.

ويتأكد الدعاء حين النزول في منزل موحش، أو النوم في وادٍ أو صحراء أو برية، فيحمي الله تعالى من دَعاه من كل سوء، ويصرف عنه الشَّر، ويزيل عنه مخاطر الوحشة والاغتراب، أو اعتداء الذئاب والوحوش الضارية، أو الهوام والحشرات الأرضية السامة، وهذا شيء مجرَّب، ففي الدعاء بصيغة مأثورة حماية ونجاة وإنقاذ، روى مسلم عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**من نزل منزلاً، ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامّات من شرِّ ما خلق، لم يضرُّه شيء حتى يرتحل من منزله ذلك**)). وكلمات الله: صفاته الأزلية

القائمة به تعالى، والتّامّات: التي لا يتطرق إليها نقص، لكمال الله وقدرته الشاملة. وشرِّ ما خلق: أي مما هو ذو شرّ. وهذا الدعاء مستحب عند كل نزول في مكان، ليلاً كان أو نهاراً.

ويؤيد ذلك حديث آخر رواه أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر، فأقبل الليل قال: ((يا أرض، ربِّي وربُّكِ الله، أعوذ بالله من شرِّكِ وشرِّ ما فيكِ، وشرِّ ما خُلق فيك، وشرِّ ما يدِبُّ عليكِ، وأعوذ بكَ من شرِّ أسد وأسْود، ومن الحيَّة والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد)). والأسود: الشخص، وساكن البلد: هم الجنّ الذين هم سُكّان الأرض. والبلد من الأرض: ما كان مأوى الحيوان، وإن لم يكن فيه بناء ومنازل. ويحتمل أن المراد بالوالد: إبليس، وما ولد: الشياطين.

في هذا الحديث استحباب الدعاء بهذه الكلمات وبخاصة في الليل، لأنه مظنة الأذى أكثر من النهار، ومن دعا بهذا الدعاء غلبت سلامته بإذن الله تعالى.

-٧٥-

ما يستحب للمسافر عند عودته

ما أجمل عودة المسافر بسلام وأمان، وما أسعد الأهل الذين يستقبلونه بكل بهجة وسرور، يهنئونه على السلامة والعافية والصحة والراحة، ولا سيما إذا كان السفر طويلاً، والغربة من مدة بعيدة. والمسافر أحوج إلى شكر نعمة الله وفضله ورحمته ووصوله بالسلامة والأمن والاستقرار في وطنه وبين أهله، والأنس بالمستقبلين، لذا شاع بين الناس حسن اصطحاب المسافر لأهله شيئاً من الهدايا، فالهدية وسيلة المحبة، والتعبير عن فرحة اللقاء التي لا يعادلها في العادات شيء يذكر.

ومما يستحب للمسافر: ألا يطيل سفره، ويعجِّل الرجوع إلى أهله ووطنه إذا قضى حاجته، فهذا أمر مرغوب فيه، لأن التأخر في السفر مصدر قلق، وطروء هواجس ووساوس، وما أحسن السفر المحقق للهدف المقصود، والظفر بالمطلوب، ثم العودة السريعة إلى الأهل. جاء في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((السفر قطعة من العذاب: يمنع أحدَكم طعامه وشرابَه ونومَه، فإذا قضى أحدكم نَهْمته (أي مقصوده) من سفره، فليعجِّل إلى أهله))، أي إن السفر فيه مشقة ومفارقة الأحباب، فيكون مشتملاً على عذاب نفسي وجسدي، ويكون أيضاً مانعاً من كمال المتعة

والراحة، فكان مستحبّاً الرجوع إلى الوطن بمجرد انتهاء الغرض من السفر، كما يستحب عدم التأخر في العودة إذا تيسرت وسائل الركوب أو النقل، و لم يكن هناك مخاطر ومتاعب ومشاق.

ويستحب أيضاً للمسافر القدوم على أهله نهاراً، ويكره له المجيء في الليل لغير حاجة أو عذر أو سبب معقول.

ورد في حديث متفق عليه عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا أطال أحدكم الغيبة، فلا يطرقنَّ أهله ليلاً))، وفي رواية: ((أن رسول الله ﷺ نهى أن يطرُق الرجل أهله ليلاً)).

دلَّ الحديث على استحباب القدوم نهاراً، وكراهة المجيء من السفر ليلاً، منعاً من الإزعاج أو رؤية ما يسوءُه عند الأهل (الزوجة). ولا كراهة إذا علم الأهل بقدوم المسافر أو كان هناك عذر أو حاجة أو ظرف محوج.

ويستحب للمسافر أن يدعو عند عودته ورؤية بلده، وشكر نعمة مولاه، روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: أقبلنا مع النبي ﷺ، حتى إذا كنا بظهر المدينة[1] قال: ((آيبون، تائبون، عابدون، لربِّنا حامدون))، فلم يَزَلْ يقول ذلك حتى قدِمنا المدينة. أي المدينة المنورة. والإكثار من هذا الدعاء مطلوب، لمقابلة نعمة السلامة والطمأنينة بالشكر، وتجديد العهد مع الله على التوبة والطاعة والحمد.

ويستحب ابتداء القادم بالمسجد المجاور لمنزله إن وجد، لصلاة ركعتين فيه، ورد في حديث متفق عليه عن كعب بن مالك رضي الله عنه: ((أن رسول

---

(١) أي: بمكان تظهر فيه مدينة الرسول ﷺ – المدينة المنورة.

الله ﷺ كان إذا قدِم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين))، وحكمة ذلك افتتاح الإقامة في بلده بعبادة الله تعالى.

ويحرم سفر المرأة وحدها من غير مَحْرم (قريب أو زوج)، لحج أو عمرة أو نزهة أو زيارة أهل وأقارب إذا كان السفر لمسافة بعيدة تزيد عن (٨٦) كم، حفاظاً على النساء من التعرض للريبة أو التهمة أو الاعتداء عليهن، ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي مَحْرم عليها)). وفي حديث آخر متفق عليه أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه سمع النبي ﷺ يقول: ((لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، فقال له رجل: يا رسول الله، إن امرأتي خرجت حاجَّة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، قال: انطلق فحجّ مع امرأتك)). وأجاز الشافعية سفر المرأة مع نسوة ثقات من غير محرم لحج أو عمرة مفروضين، كما أجاز المالكية السفر في وسائل الركوب العامة لعذر أو حاجة.

-٧٦-

فضل تلاوة القرآن الكريم

القرآن الكريم: كتاب البشرية جمعاء، وحجة الله على عباده، وهو مصدر الخير والسعادة، ودليل النجاة، والإنقاذ، لا يستغني عنه مسلم أو مسلمة، للإرشاد إلى معرفة الحلال والحرام، والشرائع والأحكام، والآداب والأخلاق، والترغيب في العمل الصالح، وغرس أصول الإيمان، والتحذير من العصيان والتقصير، وبيان مستقبل الإنسان في عالم الآخرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً، وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ [الإسراء: ١٧/٩ – ١٠].

لذا وردت أحاديث كثيرة فيها ترغيب شديد بقراءة القرآن، لخير الإنسان نفسه في الدنيا والآخرة، روى مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه**)).

وهذا أمر واضح بتلاوة القرآن، وهو دالّ على أن القرآن الكريم يشفع يوم القيامة لقارئه الذي يلتزم بما فيه ويعمل بأحكامه، ويتأدَّب بآدابه، فالعبرة بالعمل والفائدة.

ويؤكده ما رواه مسلم عن النَّواس بن سَمْعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يُؤتى يومَ القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقدُمه سورة البقرة وآل عمران، تحاجَّان عن صاحبهما)) أي إن سورتي البقرة وآل عمران تجادلان عن التالي لهما، العامل بهما، والتارك لما ينهيان عنه.

والتعلُّم والتعليم للقرآن وسيلة للتلاوة الصحيحة والعمل بالأحكام والاتِّعاظ بالمواعظ، والانزجار عند الزواجر، روى البخاري عن عثمان بن عفّان رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: ((**خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**)). والتعليم ينبغي أن يكون مع الإخلاص لله وابتغاء رضوانه،و الإرشاد لما فيه من الأحكام والآداب.

وكل تالٍ للقرآن له الثواب، سواء كان عالماً أو غير عالم، ورد في حديث متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به[١] مع السَّفَرة الكرام البَررة[٢]، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه[٣] ، وهو عليه شاقّ، له أجران)).

والقرآن فيه عزّة لأهله، ورفعة للقوم العاملين به، وسبب مذلة وهوان وخسران في الدنيا والآخرة للمعرضين عنه، روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين)) أي يخفض به آخرين لم يعملوا به.

ويكفي العرب فخراً: أن نَزَل القرآن بلغتهم، وكان سبباً لعزتهم وسؤددهم ورفعتهم، حتى صاروا به سادة الأمم والشعوب، قال الله تعالى عن فضل

---

(١) أي: يجيد تلاوته ويطبق أحكام تجويده.

(٢) أي: مع الملائكة المرسلين المطيعين لله.

(٣) أي: يتردد عليه في قراءته ويثقل على لسانه كالأعاجم غير العرب أو العوام العرب.

القرآن على العرب: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٤٤].

وقد وازن النبي ﷺ بين قارئ القرآن المؤمن به وبين غير المؤمن به، فقال في حديث متفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَثَل المؤمن الذي يقرأ القرآن مَثَل الأُتْرُجَّة[١] ريحها طيب وطعمها طيب. ومَثَل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمَثَل التَّمْرة، لا ريح لها وطعمها حلو. ومَثَل المنافق الذي يقرأ القرآن كمَثَل الريحانة[٢] : ريحها طيب وطعمها مُرّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة: ليس لها ريح وطعمها مُرّ)). فحامل القرآن العامل به: في القمة والدرجة العليا، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن طيب عند الله والناس، ولكن لا نفع فيه، والمنافق الذي يقرأ القرآن حسن الظاهر خبيث الباطن، والمنافق الذي لا يقرأ القرآن: خبيث الباطن والظاهر.

وثواب تلاوة القرآن عظيم، حتى على الشيء القليل منه، روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول لكم: ألم: حرف، ولكن ألِفْ: حرف، ولامْ: حرف، وميم: حرف)).

وفيه الحثّ على تلاوة القرآن، والإخبار بأن تلاوة كل حرف فيها حسنة، مضاعفة بعشر أمثالها.

وينبغي أن يكون القصد من تلاوة القرآن: فهم آياته، وتطبيق أحكامه، والعمل بآدابه.

---

(١) ثمرة منظرها جميل وريحها طيب كالبرتقال والتفاح.

(٢) النبات الطيب الرائحة كالورد والريحان والياسمين.

-٧٧-

فضل العناية بالقرآن الكريم

العناية بالقرآن الكريم تعليماً وتعلُّماً، وفهماً واستنباطاً، وبحثاً عن مراده، وعملاً بما فيه، تبوئ صاحبها منزلة عالية عند الله تعالى، وتجعله من المحسنين الأبرار، وتكون تلاوة القرآن سبباً لاطمئنان النفس وسكينة القلب كما قال تعالى: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨/١٣] كما تكون مجلبة لرضوان الله سبحانه، وبقراءة القرآن تنزل الرحمات الإلهية والفيوضات الرَّبانية على القارئ ومن حوله، وتزداد الرحمة عند العمل بما وجه إليه القرآن، فهو كتاب نور وهداية وإصلاح، قال الله تعالى: ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥/٥ - ١٦].

ويُغبَط معلّم القرآن، ويكون التنافس في عمله مطلوباً ومشروعاً، ورد في حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((**لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل (أي ساعاته) وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**)).

فيه الترغيب بحفظ القرآن، والمداومة على تلاوته، مع التدبر والتفكر، وامتثال أوامره ونواهيه.

ومن أمثلة الفوائد العملية لتالي القرآن: ما جاء في حديث متفق عليه عن البراء بن عازِب رضي الله عنهما قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشَطَنين[1]، فتغشَّته[2] سحابة، فجعلت تدنو، وجعَل فرسُه ينفِر منها، فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فذَكَر له ذلك، فقال: تلك السكينة تنزَّلت للقرآن)).

فيه بيان فضيلة تلاوة سورة الكهف، وظهور الكرامة للصالحين.

أما هاجر القرآن: فهو في ظلمة وغَواية وجهالة، وقد ندد القرآن الكريم بفعله، فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: ٢٥/٣٠]. وأخبر النبي ﷺ عن سوء حال الخالي من القرآن.

روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن، كالبيت الخرِب)).

أمـا تالي القرآن فيترقى في درجات الجنة إلى ما شاء الله تكريماً له، روى أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتقِ ورتِّل كما كنت ترتِّل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها)).

أفاد الحديث أن لصاحب القرآن درجات في الجنة، بعدد ما يحفظ منه.

وحذَّر النبي ﷺ من نسيان القرآن، جاء في حديث متفق عليه عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((**تعاهدوا هذا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده لهو**

---

(١) الشَّطن: الحبل.

(٢) أي: ظللته سحابة.

أشدّ تفلّتاً من الإبل في عُقُلها)) أي حبالها، جمع عقال: وهو حبل يشدّ به البعير في وسط الذراع. والمحافظة على القرآن: تكون بتعهد تلاوته مرة بعد أخرى، حتى يبقى محفوظاً في لوحة قلبه، وإلا نسيه حافظه، لأنه أسرع ذهاباً من الإبل.

يدلُّ لذلك أيضاً حديث آخر متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: ((إنما مَثَل صاحب القرآن كمَثَل الإبل المُعَقَّلة[1]، إن عاهَد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت)). هذا تشبيه واقعي رائع، وهو تشبيه صاحب القرآن بصاحب الإبل، إن عقَلها (ربطها) وحافظ عليها، أمن انفلاتها وهروبها، وإن تركها ضاعت، ووجه الشبه: سرعة التفلت والضياع كالإبل.

إن حفظ القرآن في القلب والذاكرة: واجب كفائي على الأمة الإسلامية، حفظاً له من الضياع، وقد طبَّق المسلمون هذا الواجب على مدى الزمان بدءاً من عهد النبوة إلى عصرنا وكل عصر، وهذا شرط ضروري للثقة بآي القرآن المنقولة بالتواتر (جمع عن جمع) على مدى العصور.

(١) أي: الممسوكة بالعقال وهو الحبل.

-٧٨-

الاستمتاع بالقرآن الكريم

يتلذَّذ الإنسان ويستمتع بما يحب وينفع، ويُطري الفؤاد، ويشنّف الآذان، وهذه الخصائص كلها وغيرها لا تنطبق على غير كتاب الله تعالى، فهو يملأ النفس بهجة حين سماع آيات الجنان وما أعدَّ الله للمؤمنين والمؤمنات، ويثير الذعر والمخاوف حين سماع وصف النار وألوان العذاب في جهنم، ويَسْرح الخيال حين فهم قصص القرآن، ويستعد السامع لتطبيق حكم الله في الفرائض، والامتناع عن محظورات الشرع ونواهيه حين الأمر والنهي.

هذا التناغم والانفعال أو تأثر الوجدان، وهذا الخوف من عذاب الله تعالى، لأن القرآن مائدة الله، فيها كل ما لذَّ وطاب، ترغيب في الخير، وترهيب من الشَّر، وجاءت الأحاديث النبوية متجاوبة مع كل هذا، فاستحب الشرع تحسين الصوت بالقرآن، جاء في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما أَذِن الله لشيء ما أذن لنبي حسنِ الصوت، يتغنى بالقرآن، يجهر به)) أذن الله: أي استمع، وهو دليل على الرضا والقبول، والمعنى: لم يأذن الله لنبي بشيء إلا إذنه، أي استماعه لنبي أو غيره حسن الصوت يتغنى بالقرآن، أي يحسِّن القراءة ويرققها، كما جاء في حديث آخر أخرجه الحاكم عن البراء بن عازِب رضي الله عنه: ((**زيِّنوا القرآن بأصواتكم، فإن**

الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً)) والمراد: ترتيل القرآن بأصول التجويد المقررة، وذلك من غير تمطيط ولا تطريب، ولا زيادة ولا نقص.

وروى أبو داود بإسناد جيد عن أبي لُبابة بشير بن عبد المنذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((من لم يتغنَّ بالقرآن فليس منا)) أي ليس من هدينا وطريقتنا ترك التغني بالقرآن، أي تحسين الصوت بقراءة القرآن، لأن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً وتأثيراً.

وكذلك كان بعض الأنبياء السابقين يحسِّنون أصواتهم بالآيات المنزلة عليهم، روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال له: ((لقد أوتيتَ مزماراً من مزامير آل داود)). وفي رواية لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال له: ((لو رأيتَني وأنا أستمع لقراءتك البارحة)) أي لو رأيتني لسرَّك ذلك، شبّه النبي ﷺ حُسْن صوت أبي موسى وحلاوة نغمته بصوت المزمار. وآل داود: يراد به داود نفسه، وآل: مُقْحمة (أي مضافة)، فلم يعرف لغير داود عليه السلام صوت حسن. وهذا دليل آخر على استحباب تحسين الصوت بالقرآن ضمن حدود قواعد التجويد، دون خروج عن ذلك إلى ألوان التطريب والتنغيم الأخرى.

وفي حديث آخر متفق عليه عن البراء بن عازِب رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ قرأ في العشاء بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه. أي قرأ سورة التين كلها، وقد كان النبي ﷺ حسن الصوت بالقراءة.

واستمع النبي ﷺ إلى ابن مسعود كما استمع إلى أبي موسى الأشعري في تلاوة القرآن، جاء في حديث متفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((اقرأ عليَّ القرآن)) فقلت: يا رسول الله، أقرَأُ عليك، وعليك أُنزِل؟ قال: إني أحبُّ أن أسمعه من غيري، فقرأتُ عليه سورة النِّساء، حتى جئت إلى

هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾ [النِّساء: ٤/٤١] قال: ((حسبك الآن، فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تَذْرِفان)).

دلَّ هذا على استحباب طلب تلاوة القرآن من حسن الصوت، والاستماع إليه مع الإمعان والتدبر.

إن هذه الأحاديث تلتقي مع الأمر القرآني بتدبر القرآن، ومما يساعد على التدبر: حسن الصوت بالتجويد من غير زيادة ولا نقص فيه، قال الله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾ [محمد: ٤٧/٢٤]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٦٨]، وقال عز وجل: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبابِ﴾ [ص: ٣٨/٢٩].

-٧٩-

فضائل الفاتحة والإخلاص والمعوِّذتين

من عظمة القرآن الكريم فضلاً عن إعجازه في الحرف الواحد والكلمة الواحدة والجملة الواحدة: أنه قد يجمع في آية واحدة أو سورة قصيرة واحدة أصولَ الإسلام وعقائده وما تقتضيه من تصحيح العبادة وتصحيح الأخلاق، ويتمثل ذلك في سورة الفاتحة والإخلاص والمعوِّذتين، فقد ثبت وجود معانٍ كثيرة في كل واحد من هذه السور، للدلالة على فضائل الإسلام وأصوله الإصلاحية في الدين والدنيا والآخرة.

أما سورة **الفاتحة** المعروفة: فقد ورد في شأنها أحاديث كثيرة تبين فضلها وأهميتها الكبرى.

منها ما أخرجه البخاري عن أبي سعيد رافع بن المعَلّى رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((**ألا أُعلّمك أعظمَ سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلتُ: يا رسول الله، إنك قلت: لأعلّمنك أعظم سورة في القرآن. قال: الحمد لله ربِّ العالمين هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيم الذي أوتيته**)). والحمد لله ربِّ العالمين: هي سورة الفاتحة، وهي أيضاً السبع المثاني، أي السبع الآيات التي تثنّى وتقرأ في كل ركعة من ركعات الصلاة، وهي واجبة في كل ركعة من ركعات الصلاة، لقوله ﷺ في الحديث المتواتر:

((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)) أو ((بأُم الكتاب))، وهي تسمى أيضاً بالقرآن العظيم لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ١٥/٨٧].

والسبب في كون سورة الفاتحة أعظم سورة في كتاب الله: أنها جمعت مقاصد القرآن الكريم وأصوله.

ففيها تقرير عقيدة التوحيد، وعبادة الله تعالى، والوعد والوعيد، وَعْد السعداء الذين أنعم الله عليهم بالجنة، ووعيد الضّالين الأشقياء بالنار، أخرج أبو داود والترمذي أن النبي ﷺ قال: ((الحمد لله ربِّ العالمين أمُّ القرآن)).

وأما **سورة الإخلاص** وسميت بذلك لإخلاص التوحيد فيها وبيان صفات الله العليا: فقد ثبت في شأنها أيضاً أحاديث صحاح،

منها ما أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال في: قل هو الله أحد: ((**والذي نفسي بيده**[1]، **إنها لتعدِل ثلُث القرآن**)).

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: ((أيعجِز أحدُكم أن يقرأ بثلث القرآن في ليلة؟)) فشقَّ ذلك عليهم، وقالوا: أيُّنا يُطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: ((قل: هو الله أحد، الله الصمد: ثلث القرآن)). أقسم النبي ﷺ بالله الذي يملك نفسه أن: قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، أي باعتبار ثواب قراءتها، لاشتمالها على توحيد الله وتعظيمه.

وأخرج البخاري أيضاً عن الخدري: أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ((قل هو الله أحد)) يردِّدها، فلما أصبح، جاء إلى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، وكان

---

(١) أي: بقدرته أو بيده التي لا شبيه لها في المخلوقات.

الرجل يتقالّها[١]، فقال رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن)). ويؤكده ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في ((قل هو الله أحد: إنها تعدل ثلث القرآن)). وأخرج البخاري في صحيحه تعليقاً والترمذي وقال: حديث حسن عن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أحب هذه السورة: قل هو الله أحد، قال: ((إن حُبَّها أدخلك الجنة)). دلَّت هذه الأحاديث الأربعة على بيان فضل سورة: ((قل هو الله أحد))، وعلى أن ثواب قراءتها مرة واحدة كثواب قراءة ثلث القرآن في الأجر، لأن أصول القرآن ثلاثة، وهي: التوحيد، والتشريع، والأخلاق، وهذه الأصول الثلاثة مجموعة في هذه السورة.

وأما **المعوِّذتان**: الفلق والناس ففيهما روايات ثابتة تدل على فضلهما، منها ما أخرجه مسلم عن عُقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((ألم تر آيات أُنزلت هذه الليلة لم يُر مثلُهن قط؟ قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس))، أي لم يوجد آيات كلهن تعويذ غيرُ هاتين السورتين، والتعويذ: الاعتصام والاستجارة بالله، والفلق: الصبح.

وأخرج الترمذي أيضاً وقال: حديث حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((كان رسول الله ﷺ يتعوَّذ من الجانِّ وعينِ الإنسان، حتى نزلت المعوِّذتان، فلما نزلتا أخذ بهما، وترك ما سواهما)). كان النبي ﷺ يقول: ((اللهم إني أعوذ بك من الجانِّ وعين الإنسان)) فلما نَزَلت المعوِّذتان: أي قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، أخذ بهما في التعوذ، لعمومهما، وتَرَك ما عداهما من التعاويذ، أي التي يُعتصم بها من أذى الجانّ ومن عين الإنسان، أي الحاقد الحسود، لعظم ضررهما. والمعوِّذتان أنسب وسيلة لدفع أذى الجن والعين.

---

(١) أي: يعدّها قليلة في العمل والثواب والمقدار.

-٨٠-

فضل سورة تبارك والبقرة وآية الكرسي

لقد علّمنا رسول الله ﷺ فضائل سورة تبارك ((المُلك)) والبقرة، وآية الكرسي، لنكرر تلاوتها، والتأمل فيها، والاستفادة منها، ولحفظِها، ولا سيما عند النوم أو الرقاد، ففي كلٍّ من هذه الآيات عصمة وأمان من الشيطان ومن كل سوء، وهذا من فضل الله تعالى وإحسانه، ورحمته بعباده ومخلوقاته.

أخرج أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**من القرآن سورة، ثلاثون آية، شفعت - أو تشفع في رواية أبي داود - لرجل حتى غُفر له، وهي: تبارك الذي بيده المُلك**)) أي إن سورة المُلْك (تبارك) تشفع لقارئها يوم القيامة، فما أيسر ذلك على الإنسان، فيندب المحافظة على تلاوتها يومياً ولا سيما عند النوم. وطريق تيسير تلاوتها هو حفظها، وفضلها أنها تشفع لقارئها حتى يُغفر له.

ويضم إلى سورة المُلك أواخر سورة البقرة، أخرج البخاري عن أبي مسعود البَدْري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة، في ليلة، كَفَتاه))، أي كفتاه المكروه. وقيل: كفتاه عن قيام الليل. ففي تلاوة هاتين الآيتين كفاية همّ الدنيا والآخرة - ودفعُ كل شرّ عن تاليها، لما فيهما من التفويض للخالق، وقيل: كفتاه عما ورد من الأدعية الكثيرة، لاشتمال

الدعاء بهما على تحقيق خيري الدنيا والآخرة. ومما لا شك فيه أن أفضل ما يدعو به الإنسان المؤمن: أدعية القرآن الكريم، وآي القرآن المجيد.

بل إن قراءة **سورة البقرة** مع التدبر والامتثال لما فيها تكون حصناً وأماناً من شرِّ الشيطان ووساوسه، أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تجعلوا بيوتكم مقابر[١]، إن الشيطان يَنْفِر[٢] من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة)) وسبب ذلك أن سورة البقرة تشتمل على تفصيل الأحكام والوقائع الغريبة والمعجزات الغيبية، وقصص أولياء الله الصالحين، وبيان قصة الشيطان مع آدم في الجنة، وفيها أَلْف أمْر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر، فيندب تكرار تلاوتها، والتدبر لآياتها.

وأخرج مسلم عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**يا أبا المنذر[٣]، أتدري أيُّ آية من كتاب الله أعظم؟ قلت: الله لا إله إلا هو الحيُّ القيُّوم[٤]، فضرب في صدري، وقال: لِيَهْنِكَ العلم، أبا المنذر**)) أي ليكن هنيئاً لك، ونافعاً لك، ورافعاً لذكرك علمك أو معرفتك. وهذا دليل على أن آية الكرسي أعظم آيات القرآن الكريم، لما تضمنته من عظم مقتضاها ومشتملاتها الدالة على توحيد الله وحياته ودوام قيامه بشؤون خلقه.

ويؤكد ذلك حديث آخر أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((وكَّلَني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان (أي زكاة الفطر)، فأتاني آتٍ، فجعل يحثو من الطعام[٥]، فأخذتُه فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعليَّ عيال، وبي حاجة شديدة، فخلَّيت عنه فأصبحتُ، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟ فقلت: يا رسول الله، شكا

(١) أي: كالمقابر خالية من العمل وتلاوة القرآن الكريم، فتكونوا كالموتى في ذلك.

(٢) أي: يُعرِض ويبتعد.

(٣) هذه كنية أُبي بن كعب.

(٤) أي: الدائم القيام بشؤون خلقه.

(٥) أي: يأخذ من الطعام بكفيه.

حاجة وعِيالاً، فرحمته، فخلَّيت سبيله، فقال: أما إنه كَذَبك وسيعود، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ، فرَصدته[1]، فجاء يحثو من الطعام، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، قال: دَعْني فإني محتاج، وعلي عِيال، لا أعود، فرحمته، وخلَّيت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله، شكا حاجة وعِيالاً، فرحمته، وخلَّيت سبيله، فقال: إنه قد كَذَبك وسيعود، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات. إنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود! فقال: دعني، فإني أعلِّمك كلمات ينفعْك الله بها، قلت: ما هُنَّ؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يَزال عليك من الله حافظ، ولا يَقْرَبك شيطان حتى تصبح، فخلَّيت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: ما فعل أسيرك البارحة؟ فقلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلِّمني كلمات ينفعني الله بها، فخلَّيت سبيله. فقال: ما هي؟ فقلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، من أولها حتى تَخْتِم، الآية: ((الله لا إله إلا هو الحي القيوم)) وقال لي: لا يزال عليك من الله حافظ، ولن يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: أما إنه قد صدقك، وهو كذوب! تعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة؟ قلت: لا، قال: ذلك شيطان)).

دلَّ هذا الحديث أن قراءة آية الكرسي بإخلاص في المساء، تحفظ من الشياطين، في تلك الليلة، فيندب قراءتها عند النوم.

(١) أي: راقبته.

-٨١-

فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة وآياتٍ من سورة الكهف

لا يملُّ المؤمن من تعلُّم الخير وهو النافع المفيد في الدنيا والآخرة، سواء كان ذلك بطريق الدعاء، أو بتلاوة آيات من سورة قرآنية، أو بقراءة ما يغرس في القلب نور الإيمان وصحة العقيدة، ونحن الآن في عصرنا حيث تعقَّدت شؤون الحياة، يكون القرآن شفاء للناس ورحمة، وبَلْسماً نافعاً وحامياً من كل سوء، وهادياً ومبشراً ونذيراً.

وهذه آيات ورد عن النبي ﷺ ما يدل على فضلها وضرورة العناية بها حفظاً وتلاوة، أخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: «بينما جبريل عليه السلام قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً[1] من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم، ولم يفتح قط إلا اليوم، فنزَل منه مَلَك[2]، فقال: هذا مَلَك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلَّم وقال: **أبْشِر بنورَيْن أُوتيتَهما لم يُؤْتَهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته**».

---

(١) أي: صوتاً.

(٢) هو جبريل عليه السلام، لكثرة اطِّلاعه على أحوال السماء.

دلَّ هذا الحديث - كما تقدَّم - على فضل سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، وأن من قرأهما مخلصاً لله ربّه، أعطاه الله ما فيهما من الهداية والمغفرة، وحقق له سعادة الدنيا والآخرة.

ومن فضائل بعض الآيات: **الآيات العشر الأولى والأخيرة من سورة الكهف،** أخرج مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((من حفِظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عُصِم من الدجَّال)) أي: حفظ من المسيح الدجال الكذاب، الذي يخرج في آخر الزمان، ويكون ظهوره فتنة للناس، حيث يدَّعي الأُلوهية، وتظهر على يديه بعض الخوارق، لذا حذَّر كلُّ نبي قومَه فتنته.

دلَّ هذا الحديث على أن من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، وقرأها صباحاً ومساء، حفظ من فتنة المسيح الدجال. وفي رواية للحديث: ((من آخر سورة الكهف)) من أول قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ..﴾ إلى آخر السورة. والحكمة في هذه الآيات ما تضمنته من التعرف على قوة اليقين، مهما اشتد البلاء وعظمت الفتنة.

ويستحب اجتماع الجماعة على قراءة القرآن، أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحَفَّتهم الملائكة، وذكَرَهم الله فيمن عنده)).

دلَّ الحديث على استحباب الاجتماع في بيوت الله، وتلاوة القرآن الكريم، ومدارسته بينهم، لأن ذلك سبب في نزول الطمأنينة، وهبوط الرحمة الإلهية، وحضور الملائكة، ورضاء الله عن المجتمعين، وذِكرِهم في السماء بعملهم المبارك، وإخلاصهم لله تعالى.

هذه خصائص لبعض آيات القرآن الكريم، والواقع أن القرآن كله رحمة، وشفاء للمؤمنين ولما في الصدور، فالإقبال على تلاوته فيه خير وفضل، والتزامُ أحكامه وشرائعه فيه نجاة وعظة وعبرة، والتأدبُ بآدابه وأخلاقه فيه نجاح ونفع للإنسان وإنقاذ، ولا تخلو آية من آي القرآن من فائدة في دنياه وآخرته، وكلما تأمل الإنسان في القرآن الكريم أدرك أسرار الكون، ولمس عظمة منزل القرآن وهو الله جل جلاله، وأحسَّ بحلاوته وعذوبته، وملأ قلبه سكينة وطمأنينة، ووجد أسراراً عجيبة من إعجاز القرآن وبيانه السامي، حيث عجزت أمامه ألسنة أساطين البيان وعقولهم، ولم تستطع معارضة القرآن ومجاراته، وتحدَّاهم الله إلى يوم القيامة بأن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل أقصر سورة منه ذات موضوع منسجم ومتكامل ومحقق للفائدة. وتتكرر ألوان إعجاز القرآن وآياته بحسب مقتضى الأحوال في ألوان البيان، في بيان الحكم الشرعي، وفي الإنذارات والبشائر، وفي قصص القرآن، وفي أخباره الغيبية، وفي التحدث عن دقة الخَلْق الإلهي وعظمته في السماء والأرض، سواء بأسلوب الجملة الاسمية أو الفعلية، أو النفي والإثبات، أو الذكر والحذف، أو الإطلاق والتقييد، والتعريف والتنكير، أو التقديم والتأخير، أو الحقيقة والمجاز، أو العموم والخصوص، أو الإطناب والإيجاز.

-٨٢-

فضائل الوضوء

- ١ -

لم نجد ديناً تتلازم فيه العبادة مع النظافة يومياً كالإسلام المجيد، ففيه دعوة متجددة إلى التطهُّر والتنظُّف، وأَمْر على سبيل الفريضة للرجال والنساء، والكبار والصغار، والشباب والكهول بملازمة الطهارة في مناسبات متكررة، إمّا يوميّاً في خمسة أوقات بالوضوء، وإمّا أسبوعيّاً أو أقل من أسبوع مرتين أو ثلاثاً بالغسل. وهذا برهان واضح ودليل قاطع على حرص الإسلام على نظافة الظاهر والباطن، والبيت والشارع، والبيئة العامة والخاصة.

والأمر بالوضوء والغسل المتكرر واضح في قول الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ[1] وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٥/٦].

---

(١) أي: من شدة وضيق.

وهـذا معلـوم مـن فرائـض الإسـلام، وجـاءت السُّنة النبويـة مؤكـدة هـذه الفريضة، وداعية إلى الاستزادة على مواضع غسل أعضاء الوضوء الأربعة، وهـي الوجه واليـدان والـرأس والرجـلان، فشـرعت المضمضـة والاستنشـاق، وغسـل الأيدي أولاً، ثـم مسح الأذنين، كما شرع طلب الزيادة على المفروض من غسل الأعضاء.

ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعـت رسـول الله ﷺ يقول: ((**إن أمتي يُدْعَـون يـوم القيامـة غُـرّاً محجَّلـين مـن آثـار الوضـوء، فمـن استطاع منكم أن يطيـل غُرَّتـه فليفعـل**)) أي إن أمـة محمـد ﷺ ينـادون إلى موقـف الحساب أو الميزان بعلامات نور أو بياض تميزهم في وجوههم وأيديهم وأرجلهم بسبب زيادة غسل أعضاء الوضوء، فهم ذوو غُرَّة، والغرَّة: بياض في الجبهة، أي نور يشع من جباههم، فيعرفون به، والتحجيل: بياض أو نور في أماكن الوضـوء في أيديهم وأرجلهم، من آثار الوضوء، وسمي وضوءاً: من الوضاءة وهي الحسـن والنظافة.

دلَّ الحديث على استحباب إطالة الغرّة والتحجيل، وذلك بغسل ما زاد على مقدار الواجب في غسل الوجه واليدين والرجلين، وهذا من خصوصيـات الأمـة المحمدية، ورد في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: ((سِيما (علامة) ليسـت لأحـد غيركم)).

وأخرج مسلم أيضاً عن أبي هريـرة قـال: سمعـت خليلـي ﷺ يقـول: ((تبلُـغ الحِلْية من المؤمن حيث يبلُغ الوضـوء)) أي إن حليـة المؤمـن تبلـغ في الجنـة مبلـغ الوضوء من المؤمن.

ويحثُّ النبي ﷺ على سـنّية الغـرة والتحجيـل (الزيـادة في أمـاكن الغسـل) في الوضوء وعلى معرفة آداب الوضوء وشروطه، بغيـة تحقيـق غاياتـه، روى مسـلم

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره)). وهذا دليل على كثرة الثواب على الوضوء، وعلى أن الوضوء فيه فضيلة عظيمة، هي تطهير الظاهر من الأوساخ، أو الأقذار، وتطهير الباطن من الآثام والذنوب والسيئات.

ويوضح ذلك حديث آخر رواه مسلم عن عثمان أيضاً قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ مثل وُضوئي هذا، ثم قال: ((**من توضأ هكذا غُفر له ما تقدم من ذنبه، وكانت صلاته ومَشْيُه إلى المسجد نافلة**)). أي إن الوضوء سبب واضح في غفران صغائر الذنوب المتعلقة بحق الله تعالى، وتحصيل الحسنات الكثيرة بالمشي إلى المسجد والصلاة فيه. وإذا علم المسلم أنه بتنظيف أعضائه بالوضوء يظفر بثواب عظيم وهو مغفرة ذنوبه، أقبل على الوضوء وتكراره، فتترتب عليه المقاصد الشرعية، وأهمها ملازمة النظافة.

وتفصيل تساقط الذنوب بالوضوء يتضح فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغَسَل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء - أو مع آخر قَطْر الماء - فإذا غَسَل يديه، خرج من يديه كل خطيئة كان بَطَشَتْها يداه مع الماء - أو مع آخر قَطْر الماء - فإذا غَسَل رجليه خرجت كل خطيئة مَشَتْها رِجلاه مع الماء - أو مع آخر قَطْر الماء - حتى يخرج نَقيّاً من الذنوب)) ألا إنها لسعادة غامرة تغمر المؤمن إذا توضأ، حيث يكون من فوائد الوضوء: الطهارة من الذنوب الصغيرة، والنظافة من الأوساخ المادية الظاهرة، وتجديد الحيوية والنشاط، وإزالة التعب وإراحة الأعصاب بالماء البارد.

-٨٣-

فضائل أخرى للوضوء

- ٢ -

يتميز المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها بعلامات ومزايا لا تتوافر عند غيرهم، منها نور الإيمان وإشراقة الوجه، ومنها ترددهم على المساجد لصلاة الجماعة، ومنها ممارستهم فريضة الوضوء، حيث ترى آثار الماء تتساقط من أعضائهم إذا توضؤوا، وتلك سمات أو علامات تفيد الغريب، وتشعر بنعمة الأخوة الإيمانية، والوحدة الإسلامية المتينة الظاهرة في سلوك المسلم وفعله ونشاطه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّما المُؤْمِنونَ إخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٠].

ولا تقتصر مزايا وحدة المسلمين على الدنيا، وإنما تتضح وتبدو في عالم الآخرة في مواقف الحساب الرهيبة، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أتى المقبرَة[١]، فقال: ((السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، ودِدتُ أنّا قد رأينا إخواننا، قالوا: أولسنا بإخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ، قالوا: كيف تعرفُ من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال: أرأيت لو أنَّ رجلاً له خيل غُرٌّ محجَّلة[٢] بين ظهري خيل دُهْم بُهْمٍ[٣]، ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول

(١) أي: مقبرة البقيع في المدينة.

(٢) أي: في وجوهها بياض، وفي قوائمها بياض.

(٣) أي: سُود لا يختلط سوادها بلون آخر.

الله، قال: فإنهم يأتون غرّاً محجَّلين من الوضوء، وأنا فَرَطهم[1] علـى الحـوض)).
دلَّ الحديث على أن إخوان النبي ﷺ: مَنْ يأتون بعد عَصْر الصحابـة. والصحبـة التي تميز بها الصحابة ذات شرف عظيم لا ينالها غيرهم، ودلَّ الحديث أيضاً على بشارة عظيمة: وهي تقدُّم الرسول ﷺ لأمتـه إلى الحـوض المورود يـوم القيامـة، فهنيئاً لمن سعد باقتفاء أثر الرسول، وشرب من هذا الحوض، فمن شرب منـه لم يظمأ بعده أبداً. وهذا تكريم للنبي ﷺ، وأن أمته تتمـيز عـن سـائر الأمـم بآثـار الوضوء، حيث يشع منهم نور يعلو جباههم وأيديهم وأرجلهم بسبب وضوئهم في الدنيا.

وللوضوء فضيلة أخرى عظيمة لا تقتصر على تنظيف الأعضاء، وإنمـا يكـون أيضاً سبباً لغفـران الذنـوب والسيئات، روى مسـلم عـن أبـي هريـرة أيضـاً أن رسول الله ﷺ قـال: (**(ألا أدلّكم على مـا يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطـا إلى المسـاجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**)) أي إن من أسـباب محـو الخطايا إتمامَ الوضـوء في حـال المكـاره كشـدة البـرد وغـيره، وكـثرةَ المشـي إلى المساجد، وانتظارَ إقامة الصلاة الأخرى، أي فيما بين الصلاتين، فذلك ربـــاط، أي استعداد للجهاد في سبيل الله، وحبس للنفس على طاعة الله.

بل إن الوضوء علامة واضحة على الإيمان، بل هو شطر الإيمان، روى مسـلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**(الطُّهـور شـطر الإيمـان**)) أي إن التطهُّـر نصـف الإيمـان، وعـبَّر عنـه بالشـطر إيحـاءً إلى تشـريفه وتعظيمه، فضلاً عن أن الطهور، أي التطهُّـر شـرط لصحـة الصـلاة. وإذا بنيـت العبادة على طهارة ونقاء، وخلو عن المشاغل التي تقلق النفس وتُذهب الخشوع،

(١) أي: متقدمهم على الحوض: وهو مصب ماء من ميزابين من كوثر الجنة.

كانت عبادة صافية تامة، وسبباً للخشوع والاطمئنان القلبي، وقبول الله لهذه العبادة.

ويستحب بعد الوضوء: الإتيان بالشهادتين، تعبيراً عن صدق الاعتقاد، وإعلان توحيد الله وتمجيده، وإخلاص العبادة له، أخرج مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((ما منكم من أحد يتوضأ فيبلُغ - أو فيُسبغ الوضوء[1] - ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، إلا فُتِحَت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء)) وزاد الترمذي: ((اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين)).

دلَّ الحديث على فضل إتمام واجبات الوضوء ومستحباته، وعلى استحباب الدعاء بأن يكون المتوضئ من الذين يُكثرون من التوبة الصادقة، ومن المتطهرين من الذنوب والخطايا.

والدعاء بهذه الصيغة ليظفر المؤمن بالمغفرة الإلهية والرضوان الرَّباني.

(١) أي: يتم الوضوء ويكمل واجباته ومندوباته.

- ٨٤ -

فضائل الأذان

الأذان وهو لغة: الإعلام، من شعائر الإسلام الدالة على إيمان البلد أو الحي أو الإقليم، لأنه يجمع بين الدعوة إلى عقيدة التوحيد وتعظيم الله تعالى والإيمان بخاتم الرسل والنبيين، وبين الدعوة إلى العبادة والنجاة والفلاح، وسِحْرُه أو أثره عجيب على النفوس، فهو مذكّر بقيمة الوقت وأهميته ومنظم له، وهو نشيد أهل الإيمان الذي يرتاحون له، وتطمئن به قلوبهم ونفوسهم ومشاعرهم، فما أجمله وما أروعه من نداء حكيم ومفيد. كما أنه يميز بين المؤمنين وغير المؤمنين من الكافرين والمنافقين، قال الله تعالى في مدى تأثيره على المنافقين: ﴿وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً﴾ [المائدة: ٥/٥٨].

وقد أجمل النبي ﷺ فائدة الأذان ومدى فضيلته، فقال في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: ((**لو يعلم الناس ما في النداء**[١] **والصَّفِّ الأول**[٢]، **ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه**[٣] **لاستهموا عليه؛ ولو يعلمون ما في**

(١) أي: الأذان.

(٢) أي: من صفوف صلاة الجماعة.

(٣) أي: يقترعوا ويتنافسوا.

التهجير[١] لاستبقوا إليه[٢]، ولو يعلمون ما في العَتَمة[٣] والصُّبح لأتوهما ولو حَبْواً[٤])).

دلَّ الحديث على أمرين: الترغيب في الأذان، لأنه من شعائر الإسلام، وسبب الثواب العظيم، والترغيب في حضور الصف الأول من صلاة الجماعة، للدلالة على أداء الصلاة أول الوقت، ولأن ملائكة الرحمة تدعو للإمام، ثم لمن في الصف الأول، ثم لمن بعده.

كما يدلُّ الحديث على فضل صلاة الجماعة، وفضل التبكير إليها.

وعلى الحثّ على حضور صلاتي العشاء والصبح في المسجد، لدلالتهما على صدق العبد مع ربّه، وهما أثقل الصلوات على المنافقين.

ومما يدل على فضيلة الأذان وثواب المؤذن: ما رواه مسلم عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**المؤذّنون أطولُ الناس أعناقاً يوم القيامة**)) أي أكثر تطلُّعاً إلى رحمة الله، ويدلُّ ذلك على مكانتهم وعلو منزلتهم يوم القيامة، لأن المؤذن يدعو إلى الصلاة والخير، والدال على الخير كفاعله.

ويسنُّ رفع الصوت في الأذان، روى البخاري عن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبي صَعْصَعة: أنَّ أبا سعيد الخُدري رضي الله عنه قال له: ((إني أراك تحب الغَنَم والبادية، فإذا كنت في غنمك - أو باديتك - فأذَّنت للصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنّ، ولا إنس، ولا شيء، إلا شهد له يوم القيامة)). قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ. وهو دليل على فضل المؤذن، بدليل الشهادة له بالفضل من كل شيء، ودليل أيضاً على استحباب الأذان للمنفرد ورفع الصوت به.

---

(١) أي: التبكير إلى الصلاة.
(٢) لسبق بعضهم بعضاً إلى الصلاة.
(٣) أي: صلاة العشاء.
(٤) أي: مشياً على اليدين أو على الركبتين.

وللأذان فائدة عظمى أيضاً وهي طرد الشَّيطان والجن إذا تراءوا للإنسان، جاء في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا نُودي بالصلاة أدبر الشيطان، وله ضراط[١] حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضي النداء أقبل، حتى إذا ثوِّب بالصلاة[٢] أدبر، حتى إذا قضي التثويب أقبل، حتى يَخْطِر[٣] بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا واذكر كذا، - لما لم يَذْكُر من قبل - حتى يظلَّ الرجل ما يدري كم صلى)).

أرشد الحديث إلى خوف الشيطان وفراره من سماع الأذان، لما يجده من إعلان شعائر الدين وإظهار عقيدة التوحيد.

وينبِّه الحديث إلى ضرورة الخشوع في الصلاة، ومجاهدة النفس لطرد وساوس الشيطان الذي يحاول التسلُّط على صلاة الإنسان.

ونظراً لأهمية الأذان وفضله يُسنُّ إجابة المؤذن، لما أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((إذا سمعتم النداء[٤] فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا علي، فإنه من صلّى عليَّ صلاة، صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا لِيَ الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لِيَ الوسيلة، حلَّت له الشفاعة)) أي: تستحب إجابة المؤذن بأن يقول السامع عقب كل كلمة من الأذان مثلما يقول إلا في الحيعلتين (حي على الصلاة، حي على الفلاح) فيقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) أي: يفر هارباً وله صوت مرتفع، وعبر بالضراط كناية عن الإسراع الشديد في الهرب من سماع الأذان.

(٢) التثويب بالصلاة: الإقامة.

(٣) أي: يوسوس.

(٤) أي: الأذان.

وتستحب الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان للسامع والمؤذن. ويؤكد ذلك حديث متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا سمعتم النداء فقولوا كما يقول المؤذن)).

ويسنُّ الدعاء بعد الأذان بصيغة، كما في حديث جابر رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري: ((من قال حين يسمع النداء: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة[١]، والصلاة القائمة، آتِ محمَّداً الوسيلة[٢] والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلَّت له شفاعتي يوم القيامة)). وهناك دعاء آخر في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي أخرجه مسلم: ((من قال حين يسمع الأذان: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله ربّاً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً، غفر له ذنبه)).

ومن فضيلة الوقت بين الأذان والإقامة: إجابة الدعاء، روى أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الدعاء لا يُردُّ بين الأذان والإقامة)).

---

(١) أي: الدعوة إلى الصلاة التي لا يدخلها تغيير ولا تبديل إلى يوم القيامة، ولا نقص فيها، لجمعها العقائد بتمامها.

(٢) هي منزلة عالية في الجنة.

-٨٥-

فضائلُ الصَّلاة

الصلاة: صلةٌ بين العبد وربِّه، فهي معراج المؤمن بقلبه وروحه إلى الله تعالى، ولها فضائل كثيرة في الدنيا والآخرة، فهي ترشد إلى الخير، وتساعد على ترك الرَّذيلة والفاحشة، كما أنها تكون سبباً للظفر بثواب عظيم عند الله تعالى، وتكفِّر السيئات، وترفع الدرجات، وتزيل الهم والحزن عن القلب، وتمنع الخوف وتطرده. قال الله تعالى في بيان مدى صلة الصلاة بالأخلاق والآداب: ﴿اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٥]. أي إن الصلوات الخمس تمنع النفس إذا أُدِّيت بحق وخشوع عن الاقتراب من الفواحش والمنكرات، وتصرف عن المعاصي والذنوب.

ودلَّت السُّنة النبوية على فضيلة الصلاة، وأنها تكون سبباً للثواب وتطهير النفس مما تلوثت به من آثار الخطايا والذنوب، ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **((أرأيتم لو أنَّ نَهَراً بباب أحدكم يغتسل منه كلَّ يوم خمسَ مرات، هل يَبْقى من دَرَنِهِ[1] شيءٌ؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مَثَل الصلوات الخمس، يمحو الله بهنَّ الخطايا))**. أي إن الصلوات الخمس المؤداة بحق يغفر الله بها الذنوب الصغائر لمن يؤدِّيها:

---

(١) أي: وسخه.

أما الكبائر فلا بدَّ لها من توبة صادقة. والتشبيه بالاغتسال بالنهر يدلُّ على تطهير العبد من الذنوب.

ويؤكده حديث آخر رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَثَل الصلوات الخمس كمَثَل نَهَرٍ جارٍ غَمْر[1] على باب أحدكم، يغتسل منه كل يوم خمس مرات)) أي إن الصلاة تمحو (تزيل) الذنوب، كما يزيل الماء الأوساخ.

ومن الأمثلة الطريفة على الذنب الذي تسقطه الصلاة: قبلة المرأة الأجنبية، ورد في حديث متفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه: ((أن رجلاً أصاب من امرأة قُبْلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ[2] وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ[3] إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ فقال الرجل: ألي هذا؟ قال: لجميع أمتي كلِّهم)).

أي إنَّ هذا الحكم عام لا خاص، يشمل جميع أمة النبي محمد ﷺ، فالصلاة مُطَهِّرةٌ للذنب، ماحيةٌ للخطأ الصغير، مثل تقبيل المرأة الأجنبية ومصافحتها.

ومن فضائل هذا الدين: أن جعل للإنسان مكفِّرات دورية عن الذنوب، للتخلُّص من آثار المعصية، وعدم تحمُّل الأوزار.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((الصلوات الخمس، والجُمعة إلى الجُمعة، كفارة لما بينهن، ما لم تُغْشَ الكبائر)). أي: ما لم ترتكب أو تؤت الكبائر، كالإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، أي: إن تكرار الصلوات الخمس، وتكرار أداء الجمعة من جمعة إلى

---

(١) أي: كثير.

(٢) أي: صلاة الصبح والمغرب.

(٣) أي: صلاة المغرب والعشاء.

أخرى، يؤدي إلى تكفير الذنوب الصغار، وتجاوز ما يحصل بين الصلوات وأداءِ الجُمَعِ: من سيئات صغيرة. وهذا دليل على فضل أداء الصلوات، وصلاة الجمعة، فإنها تؤدي إلى محو الذنوب الصغيرة، أما الكبائر فلا بد فيها من توبة نصوح، وأكبر الكبائر كما ورد في حديث متفق عليه عن أبي بكر رضي الله عنه: ((الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور وشهادة الزور)).

ويؤكد ذلك وهو تكفير الصلاة للذنوب: ما رواه مسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة[1]، فيُحْسِنُ وضوءَها وخشوعَها وركوعَها إلا كانت كفارةً لما قبلها من الذنوب، ما لم تُؤت كبيرة، وذلك الدهر كلَّه)). والذنوب الصغائر: مثل تقبيل المرأة، وتقطيب الوجه من غير سبب في وجه الغير، وعدم الاعتراف بالفضل لمن أحسن إليه. والكبائر: السيئات العظيمة، وعددها سبعون كبيرة، مثل الكذب والغيبة والنميمة وتطفيف الكيل والميزان.

والحديث دليل على ضرورة العناية بأداء الصلاة المفروضة على وجه أتمّ: من تحسين الوضوء، والخشوع في أدائها، والاطمئنان في أركانها، وركوعها وسجودها، فإنها تكفّر ما سبقها من الذنوب الصغائر.

إن الحفاظ على الصلاة المفروضة فرضُ عينٍ على كل مسلم ومسلمة، لأنَّها عماد الدين، ودليل الإيمان واليقين، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، ومبعث الطمأنينة وسكون النفس، وتفريج الكرب، وإزالة الهم والغم، فلقد كان النبي ﷺ إذا حَزَبه أمر (أصابه واشتدَّ عليه) فزِع إلى الصلاة، فتدفع عنه ما أهمَّه وأغمَّه، وهي كانت قرة عينه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) أي: مفروضة.

-٨٦-

فضل صلاة الصبح والعصر

شدَّد الإسلام على أداء بعض الصلوات، وهي صلاة الفجر والعصر، لأنَّ صلاة الفجر يغفل الناس عنها بسبب النوم، وصلاة العصر يلتهي الناس عنها لإنهاء مشاغل اليوم، فكان لزاماً التنبيهُ على أداء هاتين الصلاتين، والحرصُ على القيام بهما، لأنهما في وقتين دقيقين حرجين، وهذا التأكيد على أداء هاتين الصلاتين بعد الأمر بإقامة الصلوات الخمس، يشعر بمزيد عناية الإسلام بهما، ولا يعني ذلك إهمال ما عداهما من بقية الصلوات الخمس، لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣/٢]، وقوله عز وجل: ﴿فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً﴾ [النساء: ١٠٣/٤]، أي مفروضة في وقت معين.

وقد وردت عدة أحاديث تشدِّد على أداء صلاتي الصبح والعصر، لما لهما من الفضيلة، منها حديث متفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**من صلّى البَرْدَين دخل الجنة**)) والبَرْدان: الصبح والعصر. وخصَّ الصبح والعصر لمزيد العناية بهما، فوقت صلاة الصبح: وقت محبَّب للنوم وإغراء الشيطان. ووقت صلاة العصر: وقت محبَّب للعمل ومزيد تحقيق الربح في التجارة، وإنهاء العمل وذيوله.

ويؤكده حديث آخر رواه مسلم عن زُهير بن عُمارة بن رُوَيْبة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لن يلجَ النارَ أحدٌ صلَّى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها)) يعني: الفجر والعصر.

دلَّ الحديث على وجوب المحافظة على هاتين الصلاتين لمزيد العناية بهما، وأن من حافظ عليهما وقاه الله من دخول النار، وهو تمهيد لضرورة المحافظة على بقية الصلوات المفروضات كلها، لأنها تمنع من الفحشاء والمنكر وارتكاب المظالم، وقد جاء التصريح بالأمر بالمحافظة على صلاة العصر مع بقية الصلوات في قول الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨/٢]. والصلاة الوسطى في رأي الأكثرين: هي صلاة العصر.

وتتميز صلاة الصبح أيضاً بأنها تأمين من المخاطر، وضمان من الله تعالى لعبده وجعله في ذِمَّتِه، أي في حفظه وأمانه، روى مسلم عن جُنْدَب بن سفيان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من صلَّى الصبح فهو في ذمَّةِ الله، فانظر يا ابن آدم، لا يطلبنَّك الله من ذمَّته بشيء)) أي: إنَّك أيها المصلِّي تكون في رعاية الله وأمانه، فاحرص على صلاة الصبح حتى لا يؤاخذك الله بسبب غفلتك عنها، وهذا هو التأمين الرَّباني المضمون عند أهل الإيمان والتسليم.

وتشهد ملائكة الليل والنهار صلاة الفجر والعصر، لقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء: ٧٨/١٧]، وللحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتُوا فيكم، فيسألهم الله - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي. فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون، وأتيناهم وهم يصلُّون)). وهذا لطف من الله تعالى، وتكريمٌ لعباده المؤمنين، إذ

جعل ملائكته يتعاقبون بالليل والنهار على عباده، تدعو لهم وتستغفر لهم وتشهد لهم، ثم فيه إظهار شرف المصلّين وبيان فضل عبادتهم.

ويؤكد ذلك التفضيل والعناية بصلاتي الفجر والعصر حديث متفق عليه عن جابر بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: ((إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا القمر، لا تَضَامُّون في رؤيته[1]، فإن استطعتم ألا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا)). وفي رواية: ((فنظر إلى القمر ليلة أربعَ عشرة)).

والحديث دليل على ثبوت رؤية المؤمنين ربهم من غير كيف معين ولا انحصار رؤية في حدود معينة، وإنما هي رؤية تليق بكماله تعالى، وهو دليل أيضاً على أن المحافظة على صلاتي الصبح والعصر تقوِّي الأمل في رؤية الله عز وجل.

وإذا لم يُجْدِ الترغيب، جاء الترهيب، وتحريم ترك صلاتي الصبح والعصر، لما رواه البخاري عن بُريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**)) أي: بطل ثوابه، وخصصت صلاة العصر لمزيد العناية بها. والمراد: التشديد في ترك صلاة العصر، فمن تركها فكأنما حبط عمله وخسر وضاع ثوابه.

---

(١) أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض، ويتم ذلك فرادى، وروي: لا تُضامُون أي: لا يصيبكم ضيم، أي مشقة وتعب.

-٨٧-

فضل المشي إلى المسجد

إن أفضل بقعة في الأرض: المساجد، فيها عبادة الله وتعظيمه ومناجاته والتماس التقرب منه، والعفو والمغفرة وتكفير الخطايا، وتكون الصلاة في المساجد جماعة أفضل من الصلاة في البيت ولو جماعة، لأن ((**صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ ـ الفرد ـ بسبع وعشرين درجة**)) حديث صحيح رواه مالك وأحمد والشيخان والترمذي والنَّسائي وابن ماجه، عن ابن عمر.

والله تعالى أمر بعمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، بالصلاة فيها وتشييدها وبنائها، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَساجدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاّ اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨/٩].

وحضَّ النبي ﷺ على أداء الصلاة جماعة في المساجد، وعلى المشي إليها، قرُب المسجد أو بعُد، روى البخاري ومسلم (الشيخان) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((**من غدا إلى المسجد أو راح، أعدَّ الله له في الجنة نُـزُلاً، كلما غدا أو راح**)) أي من سَار إلى المساجد في الصباح قبل الزوال (الظهر)، أو بعد الزوال، أكرمه الله بضيافة وتكريم عظيم، وهو النُّزُل الكريم، وذلك هو التكريم في جنان الخلد، لأن الله تعالى جواد سخي، وهو أكرم الأكرمين.

والمشي إلى المسجد يكفِّر الخطايا والصغائر بكل خطوة يمشيها المصلي، ويرفعه بها درجة في الجنة، ويحطّ عنه خطيئة، لما رواه مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((من تطهَّر في بيته، ثم مضى إلى بيت من بيوت الله، ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خُطواته إحداها تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة)) أي: إن من قصد المسجد لأداء الصلاة فيه، كفَّر الله عنه بكل خطوة معصية، ورفعه بها درجة في الجنة، إذا كانت المعاصي من الصغائر، أما كبائر الذنوب وحقوق الناس: فلا يكفِّرها إلا التوبة الخالصة، وسماحُ أصحابها عن المذنب.

ويؤكد هذا حديث آخر رواه مسلم عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار لا أعلم أحداً أبعدَ من المسجد منه، وكانت لا تُخطئه صلاة! فقيل له: لو اشتريت حماراً لتركبه في الظلماء، وفي الرمضاء (شدة الحرّ) قال: ما يسرّني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يُكتَب لي ممشاي إلى المسجد ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي. فقال رسول الله ﷺ: ((قد جمع الله لك ذلك كله)).

دلَّ الحديث على أن ثواب المشي إلى المساجد يكون على الذهاب والإياب، وأن الثواب على قدر المشقة، إذا تعينت المشقة للوصول إلى المسجد، لا أن يترك الإنسان المسجد القريب، ويذهب إلى المسجد البعيد، لا لسبب إلا ليغتنم ثواب البُعد، فهذا لا ثواب فيه حينئذ، أما إذا تعين الذهاب إلى المسجد البعيد فيثاب عليه، ويكون ثواب مشيه إليه أكبر وأتم، وكلما توافر الإخلاص وحسن القصد، يعظم الأجر ويزداد.

ويدل لهذا ما رواه مسلم عن جابر رضي ا لله عنه قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سَلِمة[١] أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال لهم: بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قُرْب المسجد؟ قالوا: نعم يا رسول ا لله، قد أردنا ذلك، فقال: بني سَلِمة، ديارَكم تكتب آثارُكم[٢]، ديارَكم تكتب آثارُكم، فقالوا: ما يسرُّنا أنا كنّا تحوَّلنا)).

دلَّ الحديث على زيادة ثواب من بعُد عن المسجد إذا تعين عليه ذلك، ولا يستحب تقريب المسكن من المسجد، إذا ترتب عليه إخلاء أطراف البلد من أهلها، أو طلباً للراحة، فإن الثواب على قدر المشقة، وأن الأرض تسجل ما يقع عليها من عمل.

ويتضح ذلك بحديث آخر متفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي ا لله عنه، قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدُهم إليها ممشى، فأبعدُهم، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلّيها ثم ينام))، أي كلما كان البعد غير المتعمد أكثر، كان ثواب المشي والمشقة أكثر، وانتظار الصلاة مع الإمام أفضل من الصلاة أول الوقت منفرداً.

وتتوالى البشائر بإثابة المشّائين إلى المساجد، روى أبو داود والترمذي عن بُريدة رضي ا لله عنه عن النبي ﷺ قال: ((**بشِّروا المشّائين في الظُّلَم إلى المساجد، بالنُّور التّام يوم القيامة**)) أي بشِّروا الماشين إلى صلاة الفجر والعشاء بالنور الذي يضيء لهم من جميع جوانبهم على الصراط.

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه أن رسول ا لله ﷺ قال: ((ألا أدلكم على ما يمحو ا لله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول

(١) بطن من الأنصار.

(٢) أي: الزموا دياركم يكتب لكم ثواب خطواتكم الكثيرة إلى المسجد.

الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره[١]، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط» والرباط: ملازمة الثغور، أي حدود البلاد القريبة من الأعداء، لدفع عدوانهم عن البلاد الإسلامية، وثواب الرباط بانتظار الصلاة، لأنه جهاد للنفس، والصلاة أفضل العبادات.

وروى الترمذي وقال: حديث حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨/٩]»، وهو دليل على فضل ملازمة الصلاة في المساجد.

(١) أي: على المشقات.

-٨٨-

فضل انتظار الصلاة

الوقت ثمينٌ عند الله تعالى والناس، وهو أساس الإنجاز والتنمية، وبه تقوَّم الأشياء وأثمان السلع بالإضافة إلى جهد العامل ورأس المال، ولذا كان من فضل الله ورحمته أن جعل للوقت قيمة وثواباً إن صرف الوقت في الاستعداد للصلاة أو انتظار الصلاة، وهذا دليل على أن وقت المؤمن كلَّه في خير، وله ثواب أو أجر، ويدَّخر الله له هذا الثواب في صحيفة أعماله يوم القيامة.

وقد سبق إيراد حديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره**[1]**، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**[2])).

ويؤيده حديث آخر متفق عليه عن أبي هريرة أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يزال أحدكم في صلاة، ما دامت الصلاة تحبسُه، لا يمنعُه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة))، أي: يُعَدُّ الإنسان في حكم الصلاة وفضلها، ما دامت الصلاة تمنعه من العودة إلى أهله، لا يمنعه أن يرجع إلى أهله إلا الصلاة، وهو دليل واضح

(١) أي: إتمام الوضوء واستيعاب الأعضاء بالغسل، على المشقات.

(٢) أي: انتظار الصلاة هو الرباط، أي: الاستعداد للدفاع عن البلاد، وهو جهاد للنفس.

على فضل انتظار الصلاة، وأن منتظرها يعدُّ حكماً في صلاة، وله ثواب الصلاة، ما دام ينتظر الصلاة من غير وجود غرض دنيوي آخر.

وما أكرم هذا الموقف وما أحسن هذه الساعة التي ينتظر فيها الإنسان أداء الصلاة، فالثواب له محقَّقٌ، ولو من غير أي عمل أو جهد، والملائكة تدعو له بالمغفرة والرحمة، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاّه الذي صلَّى فيه ما لم يُحْدِثْ، تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه)).

وصلاة الملائكة على المؤمن: معناها الدعاء له بالمغفرة والرحمة، ما دام في مكان صلاته، ما لم ينتقض وضوءه. وفيه دلالة على استحباب تطويل مدة الجلوس في مكان الصلاة، لينال فضيلة دعاء الملائكة واستغفارها له.

وهذه الفضيلة والثواب لمنتظر الصلاة يظلان دائمين، ولو طال الوقت، ويكون ثواب منتظر الجماعة أفضل من الصلاة منفرداً، روى البخاري عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أخَّر ليلةً صلاةَ العشاء إلى شَطْر الليل[1]، ثم أقبل علينا بوجهه بعدما صلى، فقال: ((صلّى الناس ورقدوا، ولم تزالوا في صلاة منذ انتظرتموها)).

دلَّ الحديث على أمرين هما: جواز تأخير العشاء إلى نصف الليل، وعلى أن انتظار الصلاة مع الجماعة أفضل ممن صلَّى منفرداً، ويكون انتظار الصلاة عبادة، وله ثواب الصلاة.

وإذا انضم إلى انتظار الصلاة: شَغْلُ الوقت بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، أو بتلاوة القرآن، كان الثواب مضاعفاً، والحسنات أكثرَ وأتمَّ.

---

(١) أي: إلى نصفه.

وجعلُ انتظار الصلاة في حكم الصلاة: دليل واضح على أهمية الصلاة، وكونها بحقٍّ عمادَ الدين، ومعراجَ المؤمن بروحه إلى ربِّه، وسبيلاً لإصلاح النفس وتهذيبها، وترقيةِ المشاعر والحواس، وتنميةِ العواطف الخيِّرة، والبعدِ عن الفحشاء والمنكر. كما أن التأمُّلَ في عظمة الله والكون أثناء الانتظار يزيد في الإيمان، ويرفع درجة اليقين، وقد وردت آثار عديدة ترشد إلى التفكُّر في مصنوعات الله وآلائه (نعمه) وفي أجزاء الكون وانسجامه ودقته، وذلك خير من العبادة، منها: ((تفكُّرُ ساعةٍ خير من عبادة سَنَةٍ))، ومنها: ((تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة))، ومنها: ((تفكُّر ساعة في اختلاف الليل والنهار خير من عبادة سنة))، ((تفكَّروا في آلاء الله، ولا تتفكَّروا في الله عز وجل))، ((تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكَّروا في الله - الخالق))، ((تفكَّروا في الخلق - خلق الله - ولا تفكَّروا في الله))، ((تفكَّروا في الخلق ولا تفكَّروا في الخالق))، ((تفكَّروا في خلق الله، ولا تفكَّروا في الله))، ((تفكَّروا في خلق الله، ولا تفكَّروا في ذات الله))[1].

(١) انظر تخريج هذه الآثار في موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف للشيخ محمد السعيد بن بسيوني زغلول: ٤/٤٠٠.

- ٨٩ -

فضل صلاة الجماعة

الجماعة رحمةٌ والفرقةُ عذابٌ، وصلاة الجماعة تقوِّي المعاني الاجتماعية والأخوية، وتعلّم الانضباط، وتدرِّب المؤمنين على ضرورة تفقُّد أحوال بعضهم بعضاً، كما أنها تشبُّهٌ بعبادة الملائكة في السماء صفوفاً، كما قال الله تعالى عن الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/١٦٥ - ١٦٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفّاً﴾ [الصافات: ٣٧/١].

وصلاة الجماعة كالأذان وصلاة العيدين من شعائر الإسلام وعلاماته المميزة له، وتدل على المعاني العميقة التي تجمع بين المسلمين في توحيد الله وعبادته، وتنمي فضيلة الصدق والإخلاص، وتعمل على تشديد أواصر الانتماء إلى أمة الإسلام الواحدة، وتقوية بعضهم بعضاً، والابتعاد عن عوامل الضعف والتفرق والضياع، لهذه المعاني والآداب ضاعف الله تعالى ثواب صلاة الجماعة إلى سبع وعشرين درجة، ورد في حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: ((**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ**[1] **بسبع وعشرين درجة**)).

وفي رواية أخرى للبخاري واللفظ له، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((صلاة الرجل في جماعة تُضَعَّف - أو تَضْعُف - على

(١) أي: الواحد المنفرد.

صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضِعْفاً، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة، لم يَخْطُ خُطْوة إلا رُفعت له بها درجة، وحُطَّت عنه بها خطيئة. فإذا صلّى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاّه، ما لم يُحدث[1]، تقول: اللهم صلِّ عليه، اللهم ارحمه. ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة)).

دلَّ الحديث على فضل صلاة الجماعة، وأن انتظار هذه الصلاة ذو فضيلة عظيمة.

ودلَّ أيضاً على فضل إسباغ الوضوء، وعلى الإخلاص لله في القصد، بحيث يكون المراد من الانتظار خالصاً لله عز وجل دون رياء أو سمعة أو مباهاة.

ويتأكد طلب حضور الجماعة لكل من يسمع النداء، حتى ولو كان أعمى، روى مسلم عن أبي هريرة قال: أتى النبي ﷺ رجل أعمى[2]، فقال: يا رسول الله، ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يُرخّص له، فيصلّي في بيته، فرَخَّص له، فلما ولَّى دعاه، فقال له: هل تسمع النداء بالصلاة؟ قال: نعم، قال: فأجب)).

ويوضح هذا الحديث حديث آخر رواه أبو داود عن عبد الله أو عمرو بن قيس، المعروف بابن أم مكتوم، المؤذن رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، إن المدينة كثيرة الهوامّ[3] والسِّباع[4]، فقال رسول الله ﷺ: ((تسمع حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، فحيهلا)) أي تعال.

وشدَّد النبي ﷺ على من ترك صلاة الجماعة من غير عذر، ورد في حديث متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((والذي نفسي بيده، لقد هممتُ أن آمر بحطب فيُحتَطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذَّن لها، ثم

---

(١) أي: ما لم ينتقض وضوءه بريح أو نوم ونحوهما.

(٢) هو عبد الله بن أم مكتوم.

(٣) الهوام جمع هامَّة، وهي الحشرات المؤذية كالعقرب والأفعى.

(٤) هي الحيوانات المفترسة كالذئب والسبع والكلب العقور.

آمر رجلاً فيؤمَّ الناس، ثـم أخـالف إلى رجـال، فـأحرِّق عليهـم بيوتهـم)). هـذا التهديد بتحريق بيوت المتخلّفين عن صلاة الجماعة يدلُّ علـى التشـديد في هـذه الصلاة، ويرى جمهور العلماء أن صلاة الجماعة فـرض كفايـة، وفي هـذا تيسـير وترخيص واضح، وذهب الحنابلة إلى أن صلاة الجماعة فرض عين على الرجـال الأحرار المقيمين غير المعذورين، يأثم الكل بتركها.

ويؤكد الحثَّ على صلاة الجماعة ما رواه مسلم عن ابن مسعود رضـي الله عنه قـال: ((مـن سـرَّه أن يلقـى الله تعـالى غـداً مسـلماً، فليحـافظ علـى هـؤلاء الصلوات، حيث يُنادى بهنَّ، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سُنَن الهدى، وإنهن مـن سُنن الهدى، ولو أنكم صلّيتـم في بيوتكـم، كمـا يصلّـي هـذا المتخلّـف في بيتـه لتركتم سنَّة نبيكم، ولو تركتم سنّة نبيِّكم لضللتم. ولقد رأيتُنا وما يتخلَّف عنها إلا منافقٌ معلوم النِّفاق، ولقد كان الرجل يُؤتى به، يُهـادى بـين الرَّجلـين حتـى يقامَ في الصَّفِّ. وفي رواية له قال: إن رسول الله ﷺ علَّمنـا سُـنَن الهـدى، وإن من سُنن الهدى الصلاةَ في المسجد الذي يؤذَّن فيه)).

يشير الحـديث إلى أن التخلُّف عن صـلاة الجماعة من عادات المنـافقين، وأن ترك صلاة الجماعة في المسجد ضلال موجب للإثم، ومخالف للهدي النبوي.

ويتحقق ثواب صلاة الجماعة، ولو في المنزل، بـاثنين فـأكثر، روى أبـو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من ثلاثـة في قرية ولا بَـدْو لا تقـام فيهـم الصـلاة، إلا قـد استحوذ عليهـم الشيطان[١]، فعليكم[٢] بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية[٣])).

في الحديث الحثُّ الواضح على صلاة الجماعة، وأن تركهـا يـؤدي لاسـتيلاء وساوس الشيطان، ومحاولة تفريق المسلمين وإضعافهم.

---

(١) أي: غلبهم واستولى عليهم.

(٢) أي: الزموا.

(٣) أي: البعيدة عن أقرانها.

-٩٠-

حضور صلاة الجماعة في الصبح والعشاء

الثوابُ على قدَر المشقّة، إلا أن المشقة في ممارسة العبادات محتملة وعادية، لأنه لا يخلو عمل من الأعمال العادية حتى الأكل والشرب من المشقة المعتادة غير الزائدة، وإنما المنفي في التشريع الإسلامي في التكاليف الشرعية هو المشقة غير المعتادة والتي لا تتحملها النفوس، وتُفسد عليها تصرُّفاتها وبقية الأعمال، قال الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦]، وقال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ ما اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ..﴾ [التغابن: ٦٤/١٦].

وقد حثَّ النبي ﷺ على حضور صلاة الجماعة في الصبح والعشاء، لما فيهما من مجاهدة النفس والتعرض للبرد أحياناً، والظلمة المخيفة أحياناً أخرى، ولما قد يتعرض له الإنسان في هذين الوقتين من مخاطر الجُناة أو الهوام والحشرات أو الوحوش الضارية، فيكون التكلُّف للذهاب إلى المسجد فيه مشقة تقتضي زيادة الثواب. وهذا ما أخبر عنه الحديث الثابت الذي رواه مسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**من صلى العشاء في جماعة، فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كلّه**)).

وفي رواية الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن عثمان أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: ((من شهد العشاء في جماعة، كان له قيام نصف ليلة، ومن شهد العشاء والفجر في جماعة كان له كقيام ليلة)).

دلَّ هذا الحديث على فضل صلاة العشاء والصبح جماعة، حتى إن ثواب أدائهما يعادل قيام الليل كله للتهجد.

ويؤكد ذلك حديث آخر متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((ولو يعلمون ما في العَتَمة[1] والصبح لأتوهما ولو حَبْواً))، أي ولو زحفاً أو مشياً على اليدين والركبتين. وهو دليل آخر على فضيلة صلاة الجماعة في الصبح والعشاء، لأن وقت الصبح يطيب فيه النوم، ووقت العشاء وقت يغلب فيه الراحة والنعاس.

ومن هنا كانت صلاة كل من الصبح والعشاء ثقيلة على المنافقين، ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: ((ليس صلاةٌ أثقلَ على المنافقين من صلاة الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً))، لأن صلاة المنافقين هي رياء وسمعة، لا بقصد مرضاة الله تعالى، فتثقل هاتان الصلاتان عليهم، وقد حذَّر النبي ﷺ من التقصير في هاتين الصلاتين، منعاً من التشبُّه بالمنافقين.

إن أداء صلاة الصبح جماعة فيه معانٍ كثيرة، فالناس نيام، والمصلّي هو الذي يتجه إلى ربِّه بصدق في وقت تكون فيه الروح صافية، والنفس مطمئنة، والجسد مرتاحاً، والعقل فارغاً من الشواغل والهموم، وجمالُ الكون ظاهراً باهراً، فالنجوم تميل إلى الغروب، والشمس مؤذنة بالبزوغ، والنهار يزحف فيبدد الظلمة، ومعالم الحياة والنشاط والمتعة تتجلى في وقت الصبح.

---

(١) أي: صلاة العشاء في الظلمة.

إن المصلّي في صلاة الصبح يجد متعة في العبادة، ولذة في المناجاة، واطمئناناً في القلب، وسكينة في النفس، وشعوراً بالارتباط با لله تعالى، فإذا كان مسروراً زاد سروره، وأحسَّ بوجوب شكر النعمة الإلهية، وإذا كان محزوناً أو مصاباً، أحسَّ بالفرج، وطُرد عنه الجزع المنافي للصبر الذي هو سعادة. وإذا كان محتاجاً استعان با لله فتفتح الدنيا أمامه، ويلهمه ربّه طريق البحث عن الرزق. وأرزاق العباد تقسم فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا تعرَّض الإنسان لها وهو قائم غير نائم، أو مصلٍّ غير متكاسل، نالته بركات ا لله وتوفيقه.

وكذلك صلاة العشاء جماعة فيها فضيلة عظيمة، حيث يكون الناس في لهو ولغو وطرب، والمصلي يقبل على ربِّه غير عابئ بالصعاب، ولا ملتفت لما يسمع أو يشاهد من ظواهر الكسل والخمول أو التقصير في أداء الواجبات، وإذا أكرم ا لله المصلي جماعة بهذا الثواب العظيم، نام قرير النفس، مرتاح الضمير، متطلعاً إلى يوم سعيد، يسعد بتوفيق ا لله تعالى له للطاعة والعبادة.

وما أعذب ترتيل القرآن في وقت الصبح والعشاء، وما أجمل التسبيح والتحميد والتكبير والاستغفار في هذين الوقتين، حيث تبدو عظمة ا لله وجلاله في الآفاق، وأنه القاهر ذو السلطان المطلق على جميع أجزاء الوجود، فاقتضى كلُّ ذلك التسبيح، أي تنزيه ا لله عن كل صفات النقص، قال ا لله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨/٣٠].

- ٩١ -

المحافظة على الصلوات المكتوبة

الصلاةُ عمادُ الدين، ونور اليقين، وشفاء الصدور، وملاك كل الأمور، لأنها تهذب النفس، وتبعدها عن الشرور والآثام، وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فلا غرابة أن تتوالى الأوامر الإلهية في الحفاظ على الصلوات المفروضة، وتردفها النواهي وألوان الوعيد الشديد في تركهن، أو إهمال واحدة منهن، قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨/٢] وقال سبحانه في الكافرين: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥/٩] أي: إن تابوا من الكفر، وأدّوا الصلاة، وأعطوا الزكاة المفروضة، فلا تتعرَّضوا لهم بسوء، وتنحّوا عن طريقهم، لأنهم صاروا مسلمين بالصلاة وإيتاء الزكاة، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم.

وأوصى النبي ﷺ بضرورة المحافظة على الصلوات كلها جماعة أو فرادى، لإبراء الذمّة، ووفاء العهد، والظفر بالثواب الجزيل في الآخرة. جاء في حديث متفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((**سألت رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثمّ أيّ؟ قال: برّ الوالدين، قلت: ثم أيّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله**)). فالصلاة في طليعة العمل الصالح، وتكون في وقتها المقرر شرعاً، ويحرم تأخير الصلاة عن وقتها.

والصلاة كما هو معروف أحد أركان الإسلام الخمسة، روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وحجِّ البيت، وصوم رمضان**)) وإقام الصلاة: الإتيان بها جامعةً الشروط والأركان، وإيتاءُ الزكاة: إعطاؤها لمستحقيها.

والإسلام لا يتحقق إلا بإكمال أركانه الخمسة، والإيمان بها، وممارستِها فعلاً، فمن أنكر واحداً منها كفر، ومن ترك واحداً منها تهاوناً فجر وفسق.

ويُقاتَل الناس على ترك الصلاة إذا استباحوا تركها، ولم يُؤمنوا بفرضيتها، جاء في حديث متفق عليه عن ابن عمر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: ((أُمرت أن أقاتل الناس[1] حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله)). فيقاتل تاركو الصلاة أو تاركو الزكاة، وقوله: ((إلا بحق الإسلام)) أي بما يوجبه الإسلام من تطبيق القصاص وإقامة الحدود إذا ارتكبوا جُرْماً موجباً للحدّ. ويبقى الحساب الحقيقي إلى الله تعالى، فالله سبحانه هو المطَّلع على البواطن والظواهر، ويجازي بحق وعدل.

وأركان الإسلام يكمِّل بعضها بعضاً، وتحقّق دائرة الشريعة الرَّبانية، فالتوحيد لله والإيمان برسوله قاعدة الدين، وأداءُ الصلوات الخمس دليل صحة الاعتقاد والإيمان، وزكاة البدن (صدقة الفطر) والزكاةُ المفروضة لإقامة المجتمع الفاضل القوي، وتحقيق أصول التكافل الاجتماعي، وصومُ رمضان لمجاهدة النفس وإعفاف اللسان وصحة الأبدان، وحجُّ البيت الحرام للمستطيع لتحقيق مدلول الوحدانية لله عز وجل، واتحاد الدين على مركز واحد هو الكعبة المشرفة، وتوفير نواة تجمع إسلامي قائم على الحق والعدل والمساواة والوحدة الفكرية

(١) المراد بالناس: المشركون عبدة الأوثان غير أهل الكتاب.

والسياسية والعَقَدية، والاجتماعية والاقتصادية. وهذا التكامل بين الأركان هو ما دعا إليه النبي عليه الصلاة والسلام، في حديث متفق عليه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: ((إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم - أي نفائسها -، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)). هذا كناية عن سرعة إجابة دعوة المظلوم، لأن الله تعالى لا يحب الظالمين، ولا يقرّ الظلم في أي وسط كان.

إن في أداء الصلاة للمنفرد والجماعة طاعةً لله تعالى، وبناءً لشخصية الفرد، وتهذيباً لنفسه، ومنعاً من المنكرات، وفي الجماعة تعارف وتآلف، واجتماع واتحاد وتحبُّب، وصهر للمسلمين في قاعدة المساواة التامة، من غير تمييز بين غني وفقير، وسيِّد ومَسود. وتحقيق المساواة من قواعد الإسلام الحنيف، الكل يستوون أمام الله تعالى في الوقوف بين يديه، ولا يفضل عربي على عجمي إلا بالتقوى أو العمل الصالح: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣/٤٩].

-٩٢-

حكم تارك الصلاة

تحتاج أصول الأحكام الشرعية وقواعدُ الدين الأساسية إلى مؤيدات مدنية كفسخ العقود الفاسدة وإبطالها، ومؤيدات جزائية وهي القصاص والحدود والتعازير على الجناة ومستحلي ترك الفرائض الدينية، ومن أخطر فرائض الإسلام: أداء الصلوات الخمس المفروضة، ليظل المسلم على صلة با لله تعالى، فيراقبه في السِّر والعلن، وفي جميع أجزاء الوقت، في الليل والنهار، فشرعت الصلوات الخمس لتحقيق هذه الرقابة، والخوف من عقاب ا لله، إذا قصر المسلم أو أهمل أو ترَكَ صلاة من هذه الصلوات.

وتعددت أوامر الحث على أداء الصلاة، ووردَ الوعيد الشديد على من استباح ترك الصلاة أو أهمل فريضة منها، روى مسلم عن جابر رضي ا لله عنه قال: سمعت رسول ا لله ﷺ يقول: «**إن بين الرَّجل وبين الشِّرك والكفر تركَ الصلاة**» فمن ترك الصلاة، مستحلاًّ تركها، فقد كفر عند جمهور العلماء، ومن تركها كسلاً وتهاوناً، فإنه يقتل عند الأكثرين أو يعزَّر ويُحبس حتى يموت أو يرجع عن معصيته عند الإمام أبي حنيفة. والواقع أن الصلاة هي العلامة البارزة التي تدلُّ على الإسلام، وتركها يدلُّ على الكفر.

ويؤكد ذلك: ما رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن بُريدة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر)) أي العهد الذي بيننا وبين المنافقين هو أداء الصلاة، فالعبرة أو العمدة في إجراء أحكام المسلمين حضور الصلوات المفروضة، فإذا تركوا ذلك فهم كغيرهم من سائر الكفار. وفي هذا زجر وتغليظ على ترك الصلاة.

وعظَّم النبي ﷺ شأن الصلاة، وحثَّ على أدائها، وحذَّر من تركها، فجعلها علامة مميِّزة بين المؤمن والكافر، روى الترمذي بإسناد صحيح عن شَقيق بن عبد الله، التابعي المتفق على جلالة قدره رحمه الله تعالى، قال: ((كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال، تركه كفر، غيرَ الصلاة)). وهذا فرق واضح المعالم، سهل التطبيق.

ونظراً لهذه الأهمية الملحوظة للصلاة، كانت أولَ أعمال الإنسان التي يحاسب عليها يوم القيامة، روى الترمذي وقال: حديث حسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن أول ما يُحاسَب به العبد يوم القيامة من عمله صلاتُه، فإن صَلَحَت، فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضة شيئاً، قال الرَّب عزَّ وجلَّ: انظروا هل لعبدي من تطوعٍ، فيُكَمَّل بها ما انتقص من الفريضة؟ ثم تكون سائر أعماله على هذا)). أي أول ما يحاسب عليه الإنسان يوم القيامة من حقوق الله تعالى هو الصلاة، فإن صلَحَت باستجماع شرائطها وأركانها وآدابها، وإدراك مغزاها ومقصدها، وتحقيق الخشوع لله تعالى فيها، فقد فاز صاحبها وظفر، وإن فسدت بسبب وجود نقص ركن أو شرط منها، خاب صاحبها وخسر، وهلك. ثم يرمم نقص عمل الإنسان بالنوافل، أي السنن والتطوعات. ثم تكون سائر أعماله على هذا: من صوم وحج وزكاة، أي يتمِّم نفلُها فرضها.

دلَّ هذا الحديث على مزيد الحثّ على أداء الفرائض وإتقانها، والحضِّ على الإكثار من النوافل، لتَجْبُرَ خلل الفرائض الذي لا يخلو منه العمل عادة.

والتعوُّد على أداء صلاة الجماعة يساعد المؤمن على تذكر واجباته وأداء فرائضه، مخلصاً لله تعالى، من غير سمعة ولا مباهاة ولا رياء، لقوله تعالى: ﴿إنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢/٣٩]، وقال سبحانه: ﴿وَما أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥/٩٨]، وقال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢/٦]. فالإخلاص في الطاعة لله عز وجل أساس القبول، وتحقُّق النور الإلهي الذي يضيء به الله وجه المؤمن وطريقه في الدنيا وعلى الصراط.

-٩٣-

تنظيم صفوف الصلاة

الصلاة جماعةً وتنظيم صفوفها يشبه تنظيم صفوف الملائكة الذين يصطفون لعبادة ربِّهم، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥/٣٧ - ١٦٦]. ويشبه أيضاً تنظيم صفوف الجيش المجاهد في سبيل الله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصَّف: ٤/٦١].

وتنظيم صفوف صلاة الجماعة يتطلب إتمام الصفوف، وتسويتها، والتَّراصّ فيها، وسدّ الثغرات حتى لا يترك منفذ للشيطان، وطريق التسوية بتسوية الأكتاف، كل واحد عن يمينه، حتى يكون الجميع كتلة واحدة وجماعة واحدة في القيام والقعود، والركوع والسجود، وبدءِ الصلاة ونهايتها، والالتزام بقيادة إمام واحد، يقود المصلّين إلى مرضاة الله تعالى، وعبادة ربٍّ واحدٍ. وهذه الآداب كلها مأمور بها في السُّنة النبوية الثابتة.

فالأمر بإتمام الصفوف، الأوَّل فالأوَّل وتراصّها: ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: ((**ألا تَصفُّون كما تصُفُّ الملائكة عند ربِّها؟ فقلنا: بلى يا رسول الله، وكيف تصُفُّ الملائكة عند ربِّها؟ قال: يُتمّون الصفوف الأُوَل، ويتراصُّون في الصَّفِّ**)) أي يقتربون من بعضهم، فلا يتركون بينهم فُرْجة.

دلَّ الحديث على استحباب تسوية الصفوف، وإتمام الصَّف الأول فالأول، وعدم ترك الثغرات أو الفُرَج التي تتسع لمصلٍّ، ويكره ترك ذلك، ويؤدي تركه إلى فوات ثواب الجماعة.

وفضيلة الصف الأول: ثابتة في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا)) أي أن يقترعوا عليه حبّاً وتحصيلاً لفضيلة المنافسة والتسابق في الخير.

وترتيب الصفوف يكون بحسب مدلول الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((خير صفوف الرجال أولها، وشرّها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرّها أولها))، فالصف الأول للرجال هو الذي يلي الإمام، وفضله لقربه من الإمام، وسماعِهِ قراءته الجهرية، ومتابعته في أجزاء الصلاة السِّرِّيَّة، وللإقبال على الله تعالى، والبعد عن شواغل الدنيا، وأفضل صفوف النساء: آخرها لبعدهن عن الرجال الذي قد يؤدي قربهن إلى الفتنة، والانشغالِ بالزينة وغيرها، ويترتب على الأفضلية كثرة الثواب.

والقرب من الإمام ثبت في حديث مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ رأى في أصحابه تأخُّراً، فقال لهم: ((تقدَّموا فائتمّوا بي، وليأتمَّ بكم مَنْ بَعْدَكم، لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرَهم الله)) أي يؤخرهم عن ثوابه العظيم وفضله الكبير.

وتسوية الصفوف دون اعوجاج أو انحراف: مطلوب كما في رواية مسلم عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: ((**كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: استووا ولا تختلفوا[1]، فتختلفَ قلوبكم[2]، لِيَلِني منكم أولو الأحلام**

(١) أي: لا يتقدم بعضكم على منكب بعض.

(٢) أي: تختلف الإرادات والأهواء.

والنُّهى[١] ، **ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**)) في الحديث الأمر بتسوية الصفوف، أي اعتدالها على نسق واحد، وترتيبها بحيث يتقدم الكبار، ثم الصبيان، ثم النساء. فذلك الترتيب حسن وله غاية، وهو دليل على تآلف القلوب، لأن المحسوس يدل على المعقول. ويؤيده حديث آخر متفق عليه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((سوّوا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة)) أي من تمام آدابها ومحاسنها. ويؤكده حديث آخر متفق عليه عن أنس أيضاً قال: أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: ((أقيموا صفوفكم وتراصّوا، فإني أراكم من وراء ظهري)) وفي رواية للبخاري: ((وكان أحدنا يَلْزِق منكبه بمنكب صاحبه، وقدَمه بقدمه)).

وعدم تسوية الصفوف: يؤدي إلى اختلاف الآراء والقلوب، جاء في حديث متفق عليه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لَتُسوُّنَّ صفوفَكم أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم))، أي يوقع الخلاف في آرائكم عقوبةً على تهاونكم في إقامة الصفوف وتحسين أداء الصلاة. وفي رواية لأبي داود بإسناد حسن عن البراء بن عازِب: ((لا تختلفوا فتختلف قلوبكم)).

وسدّ الفُرَج أو الثغرات: ثابت فيما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: ((أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسُدُّوا الخَلَل، ولِينوا بأيدي إخوانكم، ولا تَذَروا فُرُجاتٍ للشيطان، ومن وصل صفّاً وصله الله، ومن قطع صفّاً قطعه الله)).

وفيه زجر واضح عن قطع الصفوف، فهو من زخرفة الشيطان ووسوسته.

ويؤكده حديث آخر عند أبي داود على شرط مسلم عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((رُصُّوا صفوفكم، وقارِبوا بينها، وحاذُوا

(١) أي: ليقترب مني أصحاب الحُلُم والعقل.

بالأعناق، فوالذي نفسي بيده إني لأرى الشيطان يدخل من خَلَل الصَّف كأنها الحَذْف)) أي يدخل فُرَج الصفوف وتباعدها عن بعضها. والحذف: غَنَم سود صغار تكون باليمن، فالشياطين كأنها غنم صغار، وهي كناية عن رضا الشياطين بالإخلال بآداب الصلاة.

وفي حديث آخر رواه أبو داود عن أنس بإسناد حسن: ((أتمّوا الصَّف المقدَّم ثم الذي يليه، فما كان من نقص فليكن في الصَّف المؤخَّر)) وروى أبو داود أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف)) وهو دليل على أفضلية الوقوف عن يمين الإمام.

وكيفية وقوف المقتدين بالإمام ثابتة فيما رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((وسِّطوا الإمام، وسُدّوا الخَلَل)).

وروى مسلم عن البراء رضي الله عنه قال: كنا إذا صلَّينا خلف رسول الله ﷺ أحببنا أن نكون عن يمينه، يُقبل علينا بوجهه، فسمعته يقول: ((ربِّ قني عذابك يوم تبعث - أو تجمع - عبادك)).

- ٩٤ -

فضيلة السُّنة الراتبة

السُّنن الراتبة مع الفرائض: لها فضل وثواب، فهي إما ممهِّدة مقدِّمة للدخول في الفرائض، فتمنع تعرُّضَ الشَّيطان للمصلّي، وتُضْعِفُ وساوسه، وإما مكمِّلة للنقص القائم أو الواقع في صلاة الفريضة، بسبب ترك بعض الآداب والسنن المطلوبة فيها، فيكون للسُّنن فضل واضح في تحصين الفرائض وحمايتها أو ترميمها وسدِّ أوجه الخلل أو النقص فيها، فيكون تركها إخلالاً بالفريضة ذاتها، ومفوِّتاً للثواب المترتب عليها. لذا أكَّد النبي ﷺ على مشروعية هذه السُّنن أو النوافل من أجل خير الإنسان نفسه.

والأدلة على ذلك: من الأحاديث الثابتة الصحيحة، روى مسلم عن أم المؤمنين أمِّ حَبيبة رَمْلة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**ما من عبد مسلم يصلّي لله تعالى في كل يوم ثِنْتي عشرة ركعة تطوعاً، غير الفريضة، إلا بنى الله له بيتاً في الجنة، - أو إلا بُني له بيتٌ في الجنة -!**)).

دلَّ على استحباب المحافظة على أداء اثنتي عشرة ركعة تطوُّعاً. وهو يشمل بقية السنن المؤكدة كالضحى.

وعدد هذه السُّنن الرواتب تفصيلاً: واضح في حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلَّيْتُ مع رسول الله ﷺ ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد الجمعة، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء)) والأفضل أداء هذه السنن في البيت، لحديث زيد بن ثابت الذي رواه النَّسائي والطبراني وهو حسن: ((أفضلُ الصلاة: صلاة المرء في بيته، إلا المكتوبة)).

ويؤكد حديث استحباب السُّنن حديث متفق عليه عن عبد الله بن مُغَفَّل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((بين كل أذانين[1] صلاة، بين كل أذانين صلاة، بين كل أذانين صلاة، قال في الثالثة: لمن شاء)) أي: يستحب صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة في الصلوات الخمس جميعاً.

وبعض السُّنن الراتبة آكد من بعض كركعتي سنة الصبح، ثم الوتر، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: ((أن النبي ﷺ كان لا يدع أربعاً قبل الظهر، وركعتين قبل الغَداة))، أي قبل صلاة الصبح. وفي حديث آخر متفق عليه عن عائشة أيضاً قالت: ((لم يكن النبي ﷺ على شيء من النَّوافل أشدّ تعاهُداً منه على ركعتي الفجر)) أي أشد تفقداً وعناية.

وثواب صلاة سنة الفجر عظيم، روى مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ قال: ((**ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها**)) وفي رواية للشيخين: ((أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً)).

وتؤدى صلاة سنة الصبح ولو تأخر الوقت المحدد لصلاة الفجر، وتقضى إذا فاتت عن وقتها، لما رواه أبو داود بإسناد حسن عن أبي عبد الله بلال بن رَباح رضي الله عنه، مؤذِّنِ رسول الله ﷺ: أنه أتى رسول الله ﷺ لِيُؤْذنَه بصلاة

(١) المراد بالأذانين: الأذان والإقامة.

الغداة، فشَغَلت عائشة بلالاً بأمرٍ سألته عنه حتى أصبح جدّاً[١]. فقام بلال فآذنه بالصلاة[٢]، وتابع أذانه، فلم يخرج رسول الله ﷺ، فلما خرج صلَّى بالناس، فأخبره أنَّ عائشة شغلته بأمر سألته عنه، حتى أصبح جداً، وأنه أبطأ عليه بالخروج، فقال – يعني النبي ﷺ –: ((إني كنت ركعت ركعتي الفجر))، فقال: يا رسول الله، إنَّك أصبحت جدّاً، فقال: ((لو أصبحتُ أكثر مما أصبحت لركعتهما، وأحسنتُهما وأجملتُهما، أي لو دخلت في وقت الصباح أكثر، لصلَّيت هاتين الركعتين)).

دلَّت الأحاديث الأربعة المتقدمة في بيان فضيلة ركعتي الفجر على تأكيد سنيّتهما، وأهميتهما، وتأكيد المحافظة عليهما، وعلى أن أداءهما بإخلاص خيرٌ من الدنيا وما فيها من متاع.

وإنني لأستغرب صنيع بعض الناس، ولو من بعض الأعلام المشهورين، حين يتركون صلاة السُّنن الرواتب، ويكتفون بأداء الفرائض، والواقع أنه لا عذر لهم إلا الكسل والتهاون بالسُّنن، مع أن المطلوب شرعاً كثرة الأعمال الصالحة، لزيادة الحسنات، ومزيد الثواب، والله لا يضيع أجر المحسنين.

---

(١) أي: دخل وقت كثير من وقت صلاة الصبح.

(٢) أي: أعلمه.

-٩٥-

كيفية أداء ركعتي الفجر

لصلاة الصبح فرضِها وسنّتِها: فضيلةٌ متميزة عظيمة بسبب مجاهدة النفس، وترك فراش النوم والراحة، وإيثار مرضاة الله تعالى، وذلك دليل على قوة الإيمان وصلابة اليقين، وعلو الهمة الذي هو من الإيمان، والصبر على المشقة، فيكون الثواب على قدر المشقة.

وقد امتدح الله تعالى صلاة الفجر بقوله المبيِّن حضور ملائكة الليل والنهار لهذه الصلاة فقال: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء: ١٧/٧٨]، وأقسم الله تعالى بالفجر فقال: ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ٨٩/١ - ٢]، وامتدح الحق أيضاً القائمين لصلاة الفجر والتهجد بقوله: ﴿تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السَّجدة: ٣٢/١٦].

ويسنُّ تخفيف سنّة ركعتي الفجر، للحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها: ((**أن رسول الله ﷺ كان يصلي ركعتين خفيفتين بين النداء والإقامة من صلاة الصبح**)) وفي رواية لعائشة: ((يصلي ركعتي الفجر فيخفّفهما حتى أقول: هل قرأ فيهما بأُمِّ القرآن))؟! وفي رواية لمسلم: ((كان يصلي ركعتي الفجر إذا سمع الأذان ويخفّفهما)). وفي رواية: ((إذا طلع الفجر)).

وفي حديث آخر متفق عليه عن حفصة رضي الله عنها: ((أن رسول الله ﷺ كان إذا أذَّن المؤذّن للصبح، وبدا الصبح[١]، صلَّى ركعتين خفيفتين)) وفي رواية لمسلم: ((كان رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر لا يصلي إلا ركعتين خفيفتين)).

وهو دليل على الاقتصار على ركعتي سنة الصبح بعد طلوع الفجر.

ودليل أيضاً على التخفيف ليتسع الوقت للفرض، فيسنُّ في الفرض إطالة القراءة.

وكان النبي ﷺ يبادر إلى أداء صلاة سنة الصبح بمجرد سماع الأذان، ورد في حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((كان النبي ﷺ يصلّي من الليل مثنى مثنى، ويُوتر بركعة من آخر الليل، ويصلي الركعتين قبل صلاة الغداة[٢]، وكأن الأذان بأذنيه)) أي إنه عليه الصلاة والسلام كان يسرع لصلاة سنة الصبح إسراع من يسمع إقامة الصلاة، فالمراد من قوله: ((وكأن الأذان بأذنيه)) أي إقامة الصلاة، وذلك خشية فوات أول الوقت.

ودلَّ الحديث على ثلاثة أحكام:

يكون أداء صلاة الليل (التهجد) ركعتين ركعتين.

وأقل الوتر ركعة، كما هو المقرر عند جمهور الفقهاء خلافاً للحنفية القائلين: إن أقل الوتر ثلاث ركعات.

ودلَّ أيضاً على استحباب المبادرة إلى صلاة سنة الصبح والتخفيف فيها.

ويسن قراءة آيتين في سنة الصبح من سورة البقرة وسورة آل عمران، وهما كما في رواية مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان

---

(١) أي: طلع الفجر.

(٢) أي: صلاة فريضة الصبح.

يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦/٢] وفي الآخرة منهما (أي الركعة الثانية): ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤/٣]، وفي رواية: وفي الآخرة التي في آل عمران: ﴿تَعالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤/٣].

وللمصلّي أيضاً في سنة الصبح قراءة سورتي ((الكافرون)) و ((الإخلاص)) لما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: **أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ((قل: يا أيها الكافرون)) و ((قل هو الله أحد))** ويؤيد ذلك حديث آخر رواه الترمذي وقال: حديث حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((رَمَقْت(١) النبي ﷺ شهراً يقرأ في الركعتين قبل الفجر: ﴿قُلْ: يا أَيُّها الْكافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ: هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

ويستحب الاضطجاع بعد ركعتي الفجر على الجنب الأيمن، لما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان النبي ﷺ إذا صلى ركعتي الفجر اضطجع على شقه الأيمن)) أي رقد على جنبه الأيمن، للفصل بين السنة والفرض. ويؤكد ذلك حديث آخر رواه مسلم عن عائشة أيضاً قالت: كان النبي ﷺ يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العِشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة، يسلّم بين كل ركعتين، ويوتر بواحدة، فإذا سكت المؤذّن من صلاة الفجر، وتبين له الفجر، وجاءه المؤذّن، قام فركع ركعتين خفيفتين، ثم اضطجع على شقه هكذا، حتى يأتيه المؤذن للإقامة)). وجاء الأمر بضجعة الفجر في حديث آخر رواه أبو داود والترمذي بأسانيد صحيحة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا صلّى أحدكم ركعتي الفجر، فليضطجع على يمينه)). ففي هذا الحديث حثّ على الاضطجاع أو أمر بالاضطجاع بعد ركعتي الفجر.

(١) أي: أطلت النظر إليه.

-٩٦-

سنة الظهر والعصر

ورد في السنة النبوية ما يرشد إلى الأمر بصلاة سنة الظهر القبلية والبعدية وسنة العصر القبلية، تمهيداً لصلاة الفريضة أو جبراً لما حدث من نقص فيها، فيصبح هناك نوع من التكامل بين الفرض والسنة، وفتح لباب الثواب العظيم على أداء الصلاة فرضاً كانت أو تطوعاً، وكل ذلك دليل على حرص المؤمن على التقرب إلى الله تعالى، ودوام الصلة المعنوية به، وتعلق القلب العامر بالإيمان بمحبة الله، والطمع في جنته وفضله وإحسانه.

أما **سنة الظهر**: فورد في شأنها ستة أحاديث، هي ما يأتي:

- روى الشيخان (البخاري ومسلم) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((**صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعدها**)) وهذا إرشاد للسنة المؤكدة القبلية والبعدية، وهي ركعتان قبل الظهر، وركعتان بعده.

- وروى البخاري ما يدل على أن السنة القبلية قبل الظهر أربع ركعات، وهو ما ثبت عن عائشة رضي الله عنها ((**أن النبي ﷺ كان لا يدع أربعاً قبل الظهر**)) فمداومة النبي ﷺ على أربع ركعات دليل على كون ذلك سنة مؤكدة.

ويؤكد سنّية الأربع ركعات قبل الظهر حديث آخر رواه مسلم عن عائشة أيضاً قالت: ((كان النبي ﷺ يصلي في بيتي قبل الظهر أربعاً، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيصلي ركعتين، وكان يصلي بالناس المغرب، ثم يدخل بيتي فيصلي ركعتين، ويصلي بالناس العشاء، ويدخل بيتي فيصلي ركعتين)).

وثواب صلاة أربع ركعات قبل الظهر ثواب عظيم، محقق لدخول الجنة، ومانع من دخول النار والخلود فيها، لما رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح: ((**من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر، وأربع بعدها، حرَّمه الله على النار**)) أي حرَّم الله عليه الخلود في النار، وهذه بشارة ألا يخلد في النار كالكافر. وفي رواية أخرى تكون صلاة أربع ركعات قبل الظهر سبباً لتنزل الرحمات الإلهية، وصعود الأعمال الصالحة إلى الله تعالى وقبولها، روى الترمذي وقال: حديث حسن، عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه: ((أن رسول الله ﷺ كان يصلي أربعاً بعد أن تزول الشمس قبل الظهر، وقال: إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء، فأُحب أن يصعد لي فيها عمل صالح)) وهذا دليل على فضيلة الوقت بعد الزوال (بعد دخول وقت الظهر) والحث على الصلاة فيه.

وتقضى هذه الأربع ركعات القبلية بعد الظهر، لما رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، عن عائشة رضي الله عنها: ((أن النبي ﷺ كان إذا لم يصلِّ أربعاً قبل الظهر صلاّهنَّ بعدها)) وهذا يدل على مزيد عناية النبي ﷺ بأربع ركعات قبل الظهر، وتصلى كل ركعتين على حدة أو الأربع معاً.

وأما **سنّة العصر**، وإن كانت غير مؤكدة، لكن فيها فضيلة عظيمة، وتصلى كل ركعتين على حدة أو مجتمعة مع بعضها، تأسياً بالنبي ﷺ، لما رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ((كان النبي ﷺ يصلي قبل العصر أربع ركعات، يفصل بينهن بالتسليم على الملائكة المقرَّبين[1]، ومن تبعهم من المسلمين والمؤمنين)).

(١) أي: بإلقاء السلام على الملائكة وصالحي المؤمنين من الإنس والجن.

وسنَّة العصر قبله سبب لرحمة ا لله ومغفرته وإنعامه، لما رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن، عن ابن عمر رضي ا لله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((**رحم ا لله امرءاً صلّى قبل العصر أربعاً**)) فمن واظب على هذه الركعات الأربع غفر ا لله له وأكرمه بجنة الخلد.

ويجوز أيضاً أن تكون سنة العصر ركعتين، لما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه: ((أن النبي ﷺ كان يصلي قبل العصر ركعتين)) وهذا تخفيف، ورحمة وتيسير على الناس في وقت العصر.

إن تحصيل فضل ا لله يكون في أداء السُّنن والتطوعات القبلية والبعدية، أي قبل الفرائض وبعدها، ومنها سنة الظِهر والعصر، فذلك مرغوب فيه شرعاً، أداءً في الوقت أو قضاءً بعده، قبل الفريضة وبعدها، وهو عنوان على شكر العبد لربِّه، وحرصِه على طاعته، وطلب التقرب من جنابه، وهو سبب أيضاً لتكفير السيئات، ورفع الدرجات، وقبول الأعمال وصعودها إلى ا لله تعالى، وما أحوج الإنسان لهذه الفضائل كلها!!.

-٩٧-

سنة الجمعة والمغرب والعشاء وكونها في البيت

لكل فريضة من الصلوات الخمس المفروضة سنة مؤكدة أو غير مؤكدة، وتلك السُّنن مندوبة شرعاً، وثبت ذلك في السنة النبوية من قول الرسول ﷺ أو فعله أو تقريره، حبّاً في الطاعة، ولأن الصلاة كلها كانت قرة عين النبي عليه الصلاة والسلام، فهي سلوة المكروب، وفرجة المحزون، وسبيل الرضوان الإلهي، ومبعث الثقة والطمأنينة لوعد الله وفضله. فما أسعد المؤمن الذي بدأ صلاته منذ البلوغ أو قبله، وحرص طوال حياته على ألا تفوته صلاة، فريضة كانت أو مندوبة، أي تطوعاً ونفلاً، مؤكدة أو غير مؤكدة.

أما سنة الجمعة: فهي ركعتان أو أربع ركعات بعد الجمعة، وهذه هي السنة البعدية المؤكدة، والتي ورد فيها ثلاثة أحاديث:

الحديث الأول: هو حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما: ((**أنه صلى مع النبي ﷺ ركعتين بعد الجمعة**)).

والحديث الثاني: ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إذا صلّى أحدكم الجمعة، فليصلِّ بعدها أربعاً**)).

وهذا على سبيل الندب لا الفرض، لأن المفروضات خمس فقط.

والحديث الثالث في سنة الجمعة البعدية: ما رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما: ((أن النبي ﷺ كان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف، فيصلي ركعتين في بيته)) وصلاة السُّنن كلها ومنها سنة الجمعة البعدية الأفضل فيها أداؤها في البيت.

وبما أن الجمعة حلَّت محلَّ الظهر فتكون سنة الظهر القبلية هي سنة الجمعة القبلية.

وأما **سنة المغرب**: فهي ركعتان قبل المغرب، وركعتان بعده، أما السنة البعدية المؤكدة فقد ثبتت فيما رواه مسلم عن عائشة: ((**أن النبي ﷺ كان يصلي بعد المغرب ركعتين**)).

وأما سنة المغرب القبلية غير المؤكدة: فهي ركعتان، وفيها أربعة أحاديث، روى البخاري عن عبد الله بن مغفَّل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((صلُّوا قبل المغرب)) ثم قال في الثالثة: ((لمن شاء))، وهو دليل واضح على ندب صلاة ركعتين قبل المغرب، لقوله ﷺ: ((**صلّوا قبل المغرب**)).

وروى البخاري أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال: ((لقد رأيت كبار أصحاب رسول الله ﷺ يبتدرون السواري عند المغرب)) أي يتسابقون الأسطوانات للصلاة أمامها، وكانت تلك السواري (الأسطوانات) في عهد النبي إلى عهد عثمان رضي الله عنه من جذوع النخل.

والحديث دليل على أن الصحابة كانوا يصلّون ركعتين خفيفتين قبل المغرب، وذلك مندوب لحديث صحيح: ((بين كل أذانين صلاة)).

وروى مسلم عن أنس قال: ((كنا نصلي على عهد رسول الله ﷺ ركعتين بعد غروب الشمس قبل المغرب، فقيل: أكان رسول الله ﷺ صلاّها؟ قال: كان يرانا نصليهما، فلم يأمرنا و لم ينهنا)).

وهذا إقرار من النبي ﷺ أن صلاة ركعتين قبل المغرب مندوبة.

وروى مسلم أيضاً عن أنس قال: ((كنا بالمدينة، فإذا أذّن المؤذن لصلاة المغرب، ابتدروا السواري، فركعوا ركعتين، حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد، فيحسب أن الصلاة قد صليت، من كثرة من يصلّيهما))، وفيه دلالة على أن كثيراً من الصحابة الكرام كانوا يداومون على صلاة ركعتين قبل المغرب، وهي سنة غير مؤكدة، أما سنة المغرب البعدية فهي مؤكدة.

وأما **سنة العشاء:** فهي مثل المغرب، ركعتان قبلية غير مؤكدة، وركعتان بعدية مؤكدة، لحديث متفق عليه عن ابن عمر قال: ((**صلّيت مع النبي ﷺ ركعتين بعد العشاء**)) وحديث عبد الله بن مغَفَّل عند الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة): ((بين كل أذانين صلاة لمن شاء)).

ويستحب جعل النوافل كلها في البيت لا في المسجد، لأربعة أحاديث، لأن ذلك أبعد عن الرياء، وليحظى البيت بالبركة فيه.

جاء في حديث متفق عليه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((صلّوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة، صلاةُ المرء في بيته إلا المكتوبة)) أي صلاة الفرض في المسجد جماعة أفضل، ويؤيده حديث آخر متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبوراً)).

أي: اجعلوا من بعض صلاتكم، وهي النفل، في البيوت، لتعميرها بالصلاة، وتجنّبوا جعل البيت شبيهاً بالقبر، في خُلوّه من الخير والعمل الصالح.

وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا قضى أحدكم صلاته[١] في المسجد فليجعل لبيته نصيباً من صلاته[٢]، فإن الله جاعل في بيته من صلاته خيراً)).

دلَّ على أن تعمير البيت بصلاة النافلة سبب لجلب الخير والبركة.

وروى مسلم عن عمرو بن عطاء: أن نافع بن جُبير أرسله إلى السائب بن أخت نَمِر، يسأله عن شيء رآه منه معاوية في الصلاة، فقال: نعم، صليتُ معه الجمعة في المقصورة[٣]، فلما سلَّم الإمام قمت في مقامي فصلَّيت، فلما دخل أرسل إليَّ، فقال: ((لا تعُدْ لما فعلت[٤]؛ إذا صلَّيتَ الجمعة، فلا تَصِلْها بصلاة، حتى تتكلَّم أو تخرج، فإن رسول الله ﷺ أمرنا بذلك ألا نُوصِل صلاة بصلاة حتى نتكلَّم أو نخرج)).

دلَّ الحديث على سنيَّة الفصل بين الصلاة المكتوبة وصلاة النفل بكلام أو خروج من المسجد أو بتغيير مكان الصلاة.

---

(١) أي: المفروضة.

(٢) أي: جزءاً من صلاة النفل.

(٣) هي الحجرة في المسجد أو البيت.

(٤) أي: لا تعُد إلى وصل النافلة بالمكتوبة، والنهي نهي تنزيه للندب.

-٩٨-

فضيلة صلاة الوتر

تُتوَّج صلوات الليل والنهار بخاتمة مؤكدة مرغَّب فيها شرعاً، وهي صلاة الوتر التي هي واجبة عند الحنفية، سنة مؤكدة عند بقية المذاهب، لما لها من الفضيلة، فهي سبب في النجاة من العذاب، والتقرب إلى الله تعالى، والظفر بمحبته وإحسانه ورحمته. ولقد واظب عليها النبي ﷺ وصحابتُه الكرام، والآل والتابعون لهم بإحسان، فجدير بنا السير على منهاجهم، واتّباع سنّتهم، وتقليدهم في أعمالهم الصالحة.

وقد ثبتت مشروعية الوتر في السنة القولية والعملية، منها ما رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن، عن علي رضي الله عنه قال: ((الوتر ليس بحَتْم[1] كصلاة المكتوبة، ولكن سنَّ رسول الله ﷺ قال: ((**إن الله وتر يحب الوتر، فأوتروا يا أهل القرآن**)).

أي: إن الله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، يحب المفرد لا الشفع، فأوتروا معشر القرَّاء والحفَّاظ، وغيرُهم يتشبَّه بهم.

دلَّ الحديث على أن صلاة الوتر سنة مؤكدة، ليست بفرض كالصلوات المكتوبات.

---

(١) أي: ليس بفرض، بل هو سنة مؤكدة.

ووقتها بعد العشاء إلى الصبح، كما ورد في الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي ا لله عنها قالت: ((مِنْ كلِّ الليل، قد أوتر رسول ا لله ﷺ: من أول الليل، ومن أوسطه، ومن آخره، وانتهى وتره إلى السَّحَر)). أي: إن وقتها ما بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر، وامتد أداء وتره إلى الثلث الأخير من الليل.

والأفضل تأخير الوتر إلى آخر الليل بعد التهجد وقبل الفجر، لما جاء في حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي ا لله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً)). وأقل الوتر: ركعة، وأكثره إحدى عشرة ركعة، بعد صلاة الليل أو التهجد، لأن الوتر أفضل من بقية الصلوات الليلية، فيندب ختمها به، ليختم الإنسان عمله بالأفضل.

ووقتها يمتد إلى ما قبل طلوع الصبح، لما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((أوتروا قبل أن تصبحوا)) أي: صلّوا الوتر، قبل أذان صلاة الصبح.

ويؤكد توقيتها على هذا النحو: ما رواه مسلم عن عائشة رضي ا لله عنها: ((أن النبي ﷺ كان يصلي صلاته بالليل[1] ، وهي معترضة بين يديه، فإذا بقي الوتر أيقظها فأوتر)) وفي رواية لمسلم أيضاً: ((فإذا بقي الوتر قال: قومي فأوتري يا عائشة)).

دلَّ الحديث على جواز الصلاة، وأمام المصلي شخص معترض، وعلى ندب إيقاظ الأهل في الليل لصلاة النافلة.

ويندب تأخير الوتر إلى آخر الليل قبل طلوع الفجر لمن وثق بالاستيقاظ آخر الليل، فإن لم يثق بذلك كان تقديم الوتر عقب العشاء أفضل، لما رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح عن ابن عمر رضي ا لله عنهما: أن النبي ﷺ قال: ((بادروا الصبح بالوتر)) أي أسرعوا لأداء صلاة الوتر قبل طلوع الفجر.

---

(١) أي: صلاة التهجد الحادثة بعد النوم.

وبيان الأفضلية يحتاج إلى تفصيل.

مفهوم من حديث جابر رضي الله عنه، عند مسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: ((من خاف ألا يقوم من آخرِ الليل، فليوتر أوَّله، ومن طمِع أن يقوم آخره، فليوتر آخر الليل، فإن صلاة آخر الليل مشهودة، وذلك أفضل))، أي من غلب على ظنّه عدم الاستيقاظ، فليوتر أول الليل بعد صلاة العشاء، ومن تأكد من الاستيقاظ بعادة أو إيقاظٍ من غيره، فليوتر آخر الليل، فإن صلاة آخر الليل تشهدها الملائكة الذين يحملون الخيرات والبركات، والنفحات الإلهية. حتى إن تأخير الوتر إلى آخر الليل أفضل من صلاة الجماعة في وتر رمضان.

يلاحظ من الترغيب في أداء الوتر: أن له فضلاً، بل هو أفضل النوافل، كما يفهم من الأحاديث المتقدمة، والنوافل أو التطوعات سبب واضح لتحقيق رضوان الله، والتقرب إليه، والتماس الرحمة من جنابه، وتعميم الفضل الإلهي على المصلي.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله تعالى قال: ((من عادى لي ولياً[1] فقد آذنته بالحرب[2]، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطِش بها، ورِجْله التي يمشي بها[3]، ولئن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه)) أي إن أداء الفرائض متعين ومُقدَّم على النوافل، وثواب الفريضة أفضل من ثواب النافلة بسبعين مرة. ومَن صلَّى النوافل كان الله تعالى حافظاً لسمعه وبصره وبطش يده ورجله، من الشيطان.

---

(١) أي: مؤمناً ملتزماً.

(٢) أي: أعلمته بأن الله محارب له، ومحاربة الله: إهلاك للمحارَب.

(٣) أي: من يصلي النوافل مع الفرائض يصير أحب إلى الله تعالى، ومحبة الله: إرادة الخير وتوفيقه للطاعة. وتصير حركاته باليدين والرجلين كلها لله تعالى.

- ٩٩ -

فضل صلاة الضحى ومقدارها

على المؤمن أن يكون حريصاً على الإكثار من التطوعات أو النوافل، في الليل والنهار، فيكون التطوع في النهار كما يكون في الليل، ولا يملُّ المؤمن من كثرة الصلاة، فإنها تقرِّب العبد من ربِّه، وتكون سبباً للتعرض لفيوضات الرحمة الإلهية والبركات الرِّبانية. وما أحوج المؤمن لهذا في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا تكون النوافل سبباً للتخلص من الشيطان ووساوسه، وفي الآخرة للظفر بجنات النعيم، لذا ورد في السُّنة النبوية ما يرغِّب في هذه النوافل قولاً وعملاً، ولا سيما صلاة الضحى في وقت الضحى: ما بعد طلوع الشمس بحوالي ثلث ساعة إلى ما قبل دخول وقت الظهر، فلصلاة الضحى فضل عظيم.

ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((أوصاني خليلي ﷺ بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أرقد)) لكن الإيتار قبل النوم إنما يستحب لمن لا يثق من الاستيقاظ آخر الليل. وصوم ثلاثة أيام من كل شهر حتى يكون كصيام الدهر، لأن الحسنة بعشر أمثالها، فيكمَّل رمضان بهذه الأيام الثلاثة، فيكون كصيام الدهر. وهذه الأيام الثلاثة: هي الأيام البيض، وهي الثالث عشر وتالياه، أي الرابع عشر والخامس عشر، من كل شهر قمري، وصلاة ركعتي الضحى والمواظبة عليهما مرغّب فيه شرعاً، كما يرغَّب بسائر الطاعات والخيرات وأنواع البر والإحسان.

بدليل ما رواه مسلم عن أبي ذرّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((يُصبح على كل سُلامى[١] من أحدكم صدقة: فكلُّ تسبيحة صدقة، وكلُّ تحميدة صدقة، وكلُّ تهليلة صدقة، وكلُّ تكبيرة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى)) فيه الحثّ على صلاة الضحى، وأقلها ركعتان، فهما يجزئان عما على الإنسان من التصدق مقابل كل مفصل من مفاصله، شكراً لله تعالى على نِعمه وآلائه.

ويدلُّ الحديث أيضاً على أن مفهوم الصدقة يشمل كثيراً من أنواع البر.

وتصلَّى الضحى أربعاً أو ثماني ركعات، لما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((**كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى أربعاً، ويزيد ما شاء الله**)) أي إلى ثماني ركعات أو اثنتي عشرة ركعة.

وروى البخاري ومسلم عن أم هانئ فاخِتة بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت: ((ذهبتُ إلى رسول الله ﷺ عام الفتح[٢] ، فوجدته يغتسل، فلما فرغ من غُسله، صلَّى ثماني ركعات، وذلك ضحى)) أي إن أكثر الضحى ثماني ركعات، وهو الأفضل والأكمل، اقتداءً بفعل النبي ﷺ، كل ركعتين بتسليمة، زاد ابن خزيمة: ((يسلّم من كل ركعتين)).

ووقت صلاة الضحى وقد تسمَّى بصلاة الأوَّابين: من بعد ارتفاع الشمس بمقدار رُمْح تقريباً يقدر بربع أو ثلث ساعة إلى الاستواء أو الزوال، أي وقت دخول الظهر، وتأخيرها إلى ربع النهار أفضل.

---

(١) أي: مفصل أو عضو.

(٢) أي: فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة.

لما رواه أحمد ومسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه: أنه رأى قوماً يصلُّون من الضحى[١] ، فقال: أما لقد علموا أن الصلاة في غير هذه الساعة أفضل[٢] . إن رسول الله ﷺ قال: ((صلاة الأوَّابين حين تَرْمَضُ[٣] الفِصال)) يعني: حين اشتداد الحر الفصال وهي: الصغار من الإبل، جمع فصيل.

سميت صلاة الضحى بصلاة الأوَّابين أيضاً، أي الرجَّاعين إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار، فيكون أداء صلاة الضحى من ارتفاع الشمس إلى زوالها، والأفضل أن تصلى عند ارتفاع الشمس واشتداد الحر، أي وسط الضحى أول اليوم.

إنَّ أداء صلاة الضحى من أسباب السعادة للإنسان، وهذا شيء مجرَّب، فإنَّ المواظبة عليها تحقق للإنسان مزيد التوفيق الإلهي، والظفر برضوان الله وفضله، ومنّه وكرمه وإحسانه، فالسعيد: من واظب عليها.

---

(١) أي: أول وقت الضحى.

(٢) أي: عند ارتفاع الشمس واشتداد الحر، ابتعاداً عن الوقت المحرم لصلاة النافلة وهو عند طلوع الشمس.

(٣) أو ((إذا رَمِضت الفصال من الضحى)) أي إذا وجد الفصيل حر الشمس من الرمضاء.

-١٠٠-

فضل صلاة تحية المسجد وسنّة الوضوء

الإكثار من نوافل الصلوات غير الفرائض مرغوب فيه في شريعتنا، لأن الإقبال على الله تعالى في العبادة والطاعة دليل على قوة الإيمان ومحبة الله عز وجل، والتبشير بدخول الجنان، والبعد عن لظى حرِّ النيران في الآخرة. وكلما صلّى الإنسان نافلة اقترب من الرحمن، وابتعد عن وساوس الشيطان، وآفات النسيان، ففي الصلاة: تفريج الكروب، وطرد الأحزان، وإذهاب الأوهام، وعمارة القلب بحب الله تعالى، لذا حثّ الإسلام على أداء السنن الراتبة المؤكدة وهي السُّنن القبليَّة والسُّنن البعديَّة بعد الفرائض، وعلى أداءِ السُّنن غير المؤكدة مثل التهجُّد (قيام الليل) وسنة صلاة العصر أربع ركعات أو ركعتين قبله، وصلاة تحية المسجد في أي وقت دخل المسجد، وسنة الوضوء أو الغُسل بعده.

وهذا ما ثبت في السُّنة النبوية، ورد في الحديث المتفق عليه عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إذا دخل أحدكم المسجد، فلا يجلس حتى يصلي ركعتين**)) أي يستحب صلاة ركعتين تحية المسجد، ويكره الجلوس قبل أن يصلي ركعتين في أي وقت دخل، سواء صلّى ركعتين بنية التحية، أو صلاة فريضة أو سنّة راتبة أو غيرها. هذا نهي عن الجلوس قبل صلاة ركعتين

تحية للمسجد، لأنه أفضل بقعة في الأرض، ولأن المساجد بيوت الله، فتشغل بالصلاة عند الدخول إليها.

وهناك أمر محمول على الندب، جاء في الحديث المتفق عليه عن جابر رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد، فقال: ((صلِّ ركعتين)) هذا أمر بصلاة ركعتي تحية المسجد، وأمر النبي ﷺ يدل على مدى العناية شرعاً بهذه الصلاة، وهذه الصلاة مندوبة لا واجبة، ويكره تركها لمن دخل المسجد، ولو مارّاً به، ويلحق بالداخل: من استيقظ من نومه فيه. ويجزئ عنها صلاة الفريضة للمسبوق أو من عليه قضاء صلاة فائتة، ويسقط فعلها بتعمُّدِ الجلوس، ولو للوضوء لمن دخل مُحْدِثاً.

ومن السُّنن غير المؤكدة الشبيهة بتحية المسجد، والتي يمكن تحققها بأي صلاة عقب الوضوء وهي سنة الوضوء ركعتان.

جاء في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لبلال: ((يا بلال، حدِّثني بأرجى عمل عملتَه في الإسلام، فإني سمعتُ دَفَّ نعليك[1] بين يدي في الجنة، فقال: ما عملتُ عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهَّرْ طُهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صلَّيت بذلك الطُّهور ما كتب لي أن أصلِّي)).

هذا بلال الحبشي مؤذن رسول الله ﷺ يجد أرجى عمل يعمله، أي أكثر رجاء في حصول أجره، أمام رسول الله: إنما هو بصلاة ركعتين بعد كل وضوء أو غسل أو تيمم، أو ما تيسر له من الصلاة، وتكون المداومة على ذلك سبباً في تحصيل الثواب الجزيل في الجنة.

(١) أي: صوت النعل وحركته في الأرض.

وهذا الحديث دليل أيضاً على جواز الإكثار من العبادة في وقت جوازها، دون تقيد بما حدده الشرع، وتفوت سنة الوضوء بطول الفصل بين الوضوء والصلاة. ويعرف طول الفصل بحسب العرف المعروف بين الناس في أداء العمل، فلا يضر ارتداء الألبسة والكلام اليسير غير الكثير، والعمل القليل أيضاً.

إن صلاتي تحية المسجد وسنة الوضوء ركعتين فيهما دلالة طيبة على محبة الصلاة، وحسن التوجه إلى الله تعالى، والإقبال على الطاعة، وترك الاشتغال بغير مرضاة الله سبحانه، ومواصلة العبادة، والسعي لها، حيث يشرع الإنسان بالصلاة بالدخول إلى المسجد وهو قصد ديني مطلوب، وحيث يعقب الوضوء وهو عبادة بعبادة أخرى، والكل مرغوب فيه شرعاً.

-١٠١-

فضائل يوم الجمعة وآدابها

يوم الجمعة يوم سعيد مبارك، مفضل على سائر الأيام، فآدم عليه السلام خُلق فيه، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها وأُنزل إلى الأرض، وفيه تقوم الساعة، وفيه يجتمع المسلمون لأداء صلاة الجمعة، فهو عيد أسبوعي للمسلمين، قال ا لله تعالى: ﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٦٢/١٠].

أي: مستحب فيه ذكر ا لله تعالى كثيراً، والصلاة والسلام على رسول ا لله، وفيه ساعة إجابة، من صادفها أجيب دعاؤه.

وقد وردت عدة أحاديث تبين فضائل يوم الجمعة وآدابها كالتَّطيُّب والاغتسال، والتبكير لأداء الجمعة في المساجد الجامعة.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((خير يوم طَلَعَت عليه الشمس: يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها)).

فيه الحثُّ على أداء العمل الصالح يوم الجمعة، والتعرُّض لرحمة ا لله ودفع نقمته.

ومن فضائل الجمعة: مغفرة السيئات وتكفير الخطايا.

روى مسلم عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة، فاستمع وأنصت، غُفر له ما بينه وبين الجمعة، وزيادةُ ثلاثة أيام، ومن مسَّ الحصى فقد لغا)).

أي: إن من أتمَّ وضوءه بآدابه وأركانه، ثم أتى صلاة الجمعة في الجامع، فأنصت إلى الخطبة؛ غُفِرَ له صغائر الذنوب، وزيادة مغفرة ثلاثة أيام، لأن الحسنة بعشر أمثالها.

لكن من عبث بالحصى، ومثله السبحة أو المسبحة أثناء الخطبة، أتى باللغو: وهو كلام باطل، لا فائدة فيه.

ويؤكده حديث آخر رواه مسلم عن أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ قال: ((**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفِّرات ما بينهن**[١] **إذا اجتُنبت الكبائر**)) أي: إذا تركت الذنوب الكبائر: وهي كل ما توعَّد ا لله عليه بالعذاب أو نهى عنه نهياً شديداً.

وحذَّر النبي ﷺ من ترك صلاة الجمعة وتوعَّد تاركها، فيما رواه مسلم عن أبي هريرة وابن عمر رضي ا لله عنهم: أنهما سمعا رسول ا لله ﷺ يقول على أعواد منبره[٢]: ((لينتهينَّ أقوام عن وَدْعهم الجُمُعات[٣]، أو ليختمنَّ ا لله على قلوبهم[٤] ، ثم لَيَكونُنَّ من الغافلين)).

أي: من اللاهين عن ذكر ا لله تعالى. فيه التحذير الشديد من ترك صلاة الجمعة، فتركها علامة النفاق والتعرُّضِ للهلاك.

---

(١) أي: سبب في محو الذنوب الصغائر وغفرانها.

(٢) أي: خشبات المنبر.

(٣) أي: تركها.

(٤) أي: ليطبعنَّ عليها، أي: ليحكمن عليهم بالكفر الدائم.

والاغتسال يوم الجمعة من أهم الآداب والسُّنن، احتراماً لوجود الجماعة فيها، ورد في حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل)) أي كغسل الجنابة.

ويؤكده حديث آخر متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((غُسل الجمعة واجبٌ على كلِّ محتلم)) أي: بالغ سواء كان ذكراً أو أنثى، والمراد بالوجوب: وجوب اختيار، كقول الرجل لصاحبه: حقك واجب علي.

وروى أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن عن سَمُرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من توضَّأ يوم الجمعة فبها ونِعْمت، ومن اغتسل فالغُسْل أفضل)).

أي: إنَّ الوضوء مجزئٌ، والغسل أفضل من الوضوء، فهو سنة مؤكدة عند الجمهور، لأن الأمر به للندب، وقوله: ((واجب)) تأكيد الندب، بقرينة مدح النبي ﷺ من اكتفى بالوضوء يوم الجمعة، وقوله ﷺ أيضاً: ((فالغسل أفضل))، ووقت الغسل: من طلوع الفجر، وينتهي بحضور صلاة الجمعة، والأفضل تقريبه من وقت الصلاة.

ومن آداب الجمعة ما عدا الاغتسال: أمر آخر وهو التَّطيُّب.

روى البخاري عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهَّرُ ما استطاع من طُهْر، ويدَّهِن من دُهنه، أو يَمَسُّ من طيب بيته، ثم يَخرُجُ فلا يفرِّق بين اثنين، ثم يصلِّي ما كُتب له، ثم يُنصت إذا تكلَّم الإمام، إلا غُفِر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى)).

والتبكير في الرواح لصلاة الجمعة سنة أيضاً، ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((من اغتسل يوم الجمعة غُسل

الجنابة، ثم راح فكأنما قرَّب بَدَنة[١]، ومن راح في الساعة الثانية فكأنَّما قرَّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة، فكأنَّما قرَّب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنَّما قرَّب دَجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة، فكأنَّما قرَّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذِّكْر» أي الموعظة.

وفي الجمعة: ساعة لإجابة الدعاء أثناء الخطبة.

ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ ذَكَر يوم الجمعة، فقال: «فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو قائم يصلي، يسألُ الله شيئاً إلا أعطاه إياه، وأشار بيده يقلّلها» أي: يبين أنها فترة قليلة ولحظة خفيفة.

وروى مسلم عن أبي بُرْدة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أسمعتَ أباك يحدث عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة. قال: قلت: نعم، سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضى الصلاة».

وتسنُّ **الصلاة** على النبي ﷺ يوم الجمعة، روى أبو داود بإسناد صحيح عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أفضل أيامكم يومَ الجمعة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي».

---

(١) ناقة أو جمل.

-١٠٢-

سجود الشُّكر وقيام الليل

يستحب للمسلم سجدة الشكر عند حصول نعمة أو زوال نقمة أو غيرهما من البشائر والأخبار السارَّة، وهي سجدة واحدة كسجدة التلاوة، ويستحب تطويلها، وأركانها: أربعة عند الشافعية: النية، تكبيرة الإحرام، والسجود، والسلام. وعند الحنفية: هي سجدة بين تكبيرتين. وتكون خارج الصلاة، ويستحب الدعاء بعدها برفع اليدين نحو السماء، وقد ثبتت مشروعيتها فيما رواه أبو داود عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من مكة، نريد المدينة. فلما كنا قريباً من عَزْوراء[1]، نزل ثم رفع يديه، فدعا الله ساعة، ثم خَرَّ ساجداً، فمكث طويلاً، ثم قام فرفع يديه ساعةً، ثم خرَّ ساجداً - فعله ثلاثاً - وقال: ((إني سألت ربي، وشَفَعتُ لأمتي، فأعطاني ثلث أمتي، فخَرَرْت ساجداً لربي شكراً، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي، فأعطاني ثلث أمتي، فخَرَرْت ساجداً لربي شكراً، ثم رفعت رأسي، فسألت ربي لأمتي، فأعطاني الثلث الآخر، فخَرَرْت ساجداً لربي)).

دلَّ الحديث على مشروعية سجدة الشكر، وكانت من النبي ﷺ ثلاث مرات، بسبب قبول الله تعالى شفاعته بجميع أمته، مما يدل على مزيد رأفته بهم، ومزيد فضل الله عليه وعليهم.

---

(١) اسم موضع قريب من مكة.

ويستحب أيضاً قيام الليل: وهو التهجُّد، بصلاة ركعتين فأكثر إلى ثماني ركعات فأكثر، كل ركعتين بسلام، وكان التهجُّد واجباً على النبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾ [الإسراء: ٧٩/١٧] أي زيادة في ثوابك، ورفع درجتك، أو فريضة زائدة عليك دون باقي الأمة. وقد امتدح الله المؤمنين الذين يصلّون قيام الليل بقوله سبحانه: ﴿تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ..﴾ [السجدة: ١٦/٣٢]، وقوله تعالى: ﴿كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ﴾ [الذّاريات: ١٧/٥١].

وكان النبي ﷺ يواظب على قيام الليل في الشطر الثاني منه، لما ورد في الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((**كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطَّر[1] قدماه، فقلت له: لِمَ تصنعُ هذا يا رسول الله، وقد غُفِر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً**)).

أي: إن قيام النبي ﷺ في الليل شكر لله تعالى على ما أنعم عليه من نعمة النبوة والرسالة، فيشرع هذا القيام لشكر العبد ربّه، ومجاهدة نفسه.

جاء في حديث متفق عليه عن علي رضي الله عنه: ((أن النبي ﷺ طَرَقه[2] وفاطمةَ ليلاً، فقال: ألا تصلّيان؟)) فيه: مشروعية إيقاظ الأهل والصهر وغيرهما لقيام الليل، لما فيه من زيادة الفضل الإلهي.

وامتدح النبي ﷺ عبد الله بن عمر لمداومته على قيام الليل، ورد في حديث متفق عليه عن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال[3] : ((نِعْم الرجل عبدُ الله، لو كان يصلّي من الليل)). قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً.

---

(١) أي: تتشقّق.

(٢) أي: أتاه ليلاً.

(٣) أي: لحفصة أم المؤمنين أخت عبد الله، حينما قصت عليه رؤيا رآها أخوها عبد الله.

دلَّ الحديث على أن قيام الليل لـه فضـل، وعلـى أن الصحابـة الكـرام كـانوا يبادرون لما يوصلهم إلى مراتب الكمال والسمو، وعلى جواز الثناء على من يثق بنفسه من دخول الإعجاب أو الغرور على نفسه.

لكن نبَّه النبي ﷺ ابن عمرو على الاقتصار على جزء من الليل، وحـذَّره مـن إطالة القيام خشية الانقطاع عنه.

جاء في حديث متفق عليـه عـن عبـد ا لله بـن عمـرو بـن العـاص رضـي ا لله عنهما قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((يا عبد ا لله، لا تكن مثـل فـلان، كـان يقـوم الليل، فترك قيام الليل)).

وهو دليل على استحباب المواظبـة علـى قيـام الليـل، وعلـى أن قليـل العمـل الدائم خير من كثيره المنقطع.

ولامَ النبي ﷺ رجلاً لم يكن يقوم الليل، ورد في حديث متفق عليه عـن ابـن مسعود رضي ا لله عنه قال: ذُكر عند النبي ﷺ رجلٌ نام ليلة حتى أصبح! قـال: ((ذاك رجل بال الشيطان في أُذنيه - أو قال: أُذُنه[١])) وبول الشيطان: إمـا علـى سبيل الحقيقة، وإما كناية عن تمكُّن الشيطان، وأن إهمال حقوق ا لله تعالى ينشأ من تمكُّن عدو ا لله تعالى من النفس والهوى والشيطان من الإنسان، فيصرفه عـن العبادة.

---

(١) وهذا شك من الراوي.

-١٠٣-

الحضُّ على قيام الليل وعدد ركعاته

لقيام الليل فضيلة عظيمة، لأنه يساعد على مطاردة وساوس الشيطان، ويدل على قوة اليقين والإيمان، ويُشعر المؤمن بلذة المناجاة مع الله تعالى، ويكون عوناً على دخول الجنان، والبعد عن النيران، والظفر برضوان الله سبحانه، لذا يحرص المؤمنون الصالحون والمؤمنات الصالحات على قيام الليل، والناس نيام.

وتدلُّ الأحاديث النبوية الثابتة على فضيلة قيام الليل، ومنها:

- الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((يعقد[١] الشيطان على قافية رأس أحدكم[٢] إذا هو نامَ ثلاثَ عُقَد، يضرب على كل عُقْدة[٣]: عليك ليل طويل فارقُدْ؛ فإذا استيقظ فذكر الله تعالى انحلَّت عُقْدة، فإن توضّأ انحلَّت عُقْدة، فإن صلَّى انحلَّت عُقَدُه كلُّها، فأصبح نشيطاً، طيِّب النفس؛ وإلا أصبح خبيث النفس كسلان)).

دلَّ الحديث على سعي الشيطان لتثبيط المؤمن عن فعل الخير وقيام الليل. وطريقُ التخلُّص من مساعي الشيطان ووساوسه هو: ذكر الله والدعاء،

---

(١) أي: يربط، والربط: إما حقيقة كعقد السحر الذي يؤثر على المسحور فيمنعه من القيام، أو كناية عن تثقيله بالنوم ومنعه عن القيام.

(٢) أي: آخره، وهو مؤخر العنق أو مؤخر الرأس.

(٣) أي: يقول: بقي عليك ليل طويل فنم.

والوضوء والعبادة، فيُطرد الشيطان، ويقاوم الكسل والخمول، ويوفق الله الإنسان لأداء طاعته.

- وفي حديث آخر أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، عن عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((**أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**)) والمراد بصلاة الليل: التهجد، فإنه يوصل إلى الجنة، بسلام من العذاب.

- وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أفضل الصيام بعد رمضان: شهرُ الله المحرَّم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة: صلاة الليل)) أي: إن أفضل صلاة النفل هي صلاة الليل، لأنه وقت الخشوع، والبعد عن الرياء.

أما كيفية صلاة الليل فتؤدى بنية صلاة ركعتين ركعتين ثم السلام، ورد في حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((صلاة الليل مَثْنى مَثْنى، فإذا خِفتَ الصبح فأوتر بواحدة)). أي تكون صلاة الليل ركعتين ركعتين، فإذا خشي المصلي طلوع الفجر، صلَّى ركعة واحدة عن الوتر.

ويؤكد ذلك حديث آخر متفق عليه عن ابن عمر أيضاً قال: ((كان النبي ﷺ يصلّي من الليل مثنى مثنى، ويوتر بركعة)) وصلاة الوتر: تكون ركعتين ركعتين أيضاً مثل قيام الليل، ثم تختم بركعة، وعليه مذهب الشافعية.

وكان النبي ﷺ يواظب على قيام الليل، ويُكثر منه حتى تتورم قدماه، تعبيراً عن شكر خالقه ومولاه على ما أنعم عليه من نعمة النبوة والرسالة وغيرها من النعم الأخرى كسائر البشر.

أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: ((كان رسول الله ﷺ يُفطر من الشهر حتى نظنَّ أنه لا يصومُ منه، ويصوم حتى نظنَّ أنه لا يفطر منه شيئاً، وكان لا تَشَاء أن تراه من الليل مصلّياً إلاَّ رأيته، ولا نائماً إلاَّ رأيته)).

أي: إن النبي عليه الصلاة والسلام كان يتابع الفطر أحياناً، ويتابع الصوم أحياناً أخرى، ويتابع قيام الليل أحياناً، والنوم أحياناً أخرى، فهو يسلك مسلك التوسط بحيث يؤدي الحقوق والواجبات. والأفضل عدم تعيين الليل للقيام أو بعض الأيام للصيام، حتى لا يصبح ذلك عادة له.

وأما عدد ركعات قيام الليل من النبي ﷺ فهو إحدى عشرة ركعة، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: ((أن رسول الله ﷺ كان يصلّي إحدى عشرة ركعة - تعني في الليل - يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية، قبل أن يرفع رأسه، ويركع ركعتين قبل صلاة الفجر، ثم يضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المنادي للصلاة)).

دلَّ الحديث على استحباب إطالة السجود في صلاة الليل، لقرب العبد من ربِّه وهو ساجد، وعلى استحباب الاضطجاع بعد نافلة (سنَّة) الفجر، وفعل ذلك في البيت أفضل منه في المساجد.

ويؤكده حديث آخر متفق عليه عن عائشة قالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيد - في رمضان ولا في غيره - على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً. فقلت: يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ فقال: ((يا عائشة، إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي)) أي إن الوتر لا يزيد على إحدى عشرة ركعة، وهو مذهب الشافعي رحمه الله.

-١٠٤-

وقت قيام الليل ومقدار القراءة فيه

كلما تحمَّل الإنسان مشقَّة زائدة كلما كان الثواب أعظم، فالثواب على قدر المشقة، ويتضح ذلك في مجاهدة النفس بالنهوض من النوم في أواخر الليل، وفي إطالة القراءة والقيام، فإن الله تعالى يتجلى على عباده في وقت السَّحَر (آخر الليل) فيقول: هل من داعٍ فأُجيبه، هل من مُستغفِرٍ فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه، هل من مسترزق فأرزقه، هل من كذا، هل من كذا، حتى يطلع الفجر؟

وقد حدَّد النبي ﷺ وقت قيام الليل، واستنَّ سنة إطالة القيام وتلاوة القرآن فيه، ففي حديث متفق عليه عن عائشة: ((**أن النبي ﷺ كان ينام أوَّلَ الليل، ويقوم آخره، فيصلّي**)) أي إن الأفضل النوم في الجزء الأول من الليل، ثم يكون القيام في الجزء الأخير منه، لينشط المرء في العبادة.

وكان عليه الصلاة والسلام يطيل القيام في التهجُّد، ورد في حديث متفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((صلَّيت مع النبي ﷺ ليلةً، فلم يزل قائماً، حتى هممتُ[1] بأمرٍ سَوْء، قيل: وما هممتَ؟ قال: هممتُ أن أجلس وأدَعَه)).

---

(١) أي: قصدت وعزمت.

دلَّ الحديث على ثلاثة أمور: طول صلاته ﷺ في الليل، وجواز الجماعة في صلاة النفل مطلقاً، وجواز مفارقة الإمام للتطويل. وتفصيل مقدار التلاوة في قيام الليل ثبت في حديث رواه مسلم عن حُذيفة رضي الله عنه قال: ((صلَّيتُ مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النِّساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً[1]: إذا مرَّ بآية فيها تسبيحٌ سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذ، ثم ركع، فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه. ثم قال: سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد. ثم قام طويلاً قريباً مما ركع. ثم سجد، فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه)).

دلَّ الحديث على جواز قراءة سورة في ركعة قبل التي قرأها بعدها، أو يقرأ في الركعة الأولى سورة قبل التي يقرؤها في الركعة الثانية.

وتطويل القيام في الصلاة والتلاوة أفضل من تطويل الركوع والسجود والإكثار منهما، بدليل ما روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: ((أي الصلاة أفضل؟ قال: طول القُنوت)) أي طول القيام للتلاوة، لأن القرآن أفضل الأذكار.

وتنظيم مقدار الصلاة والنوم في الليل على النحو الآتي، ثبت في حديث متفق عليه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: ((أحبُّ الصَّلاةِ إلى الله صلاةُ داود، وأحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوماً ويفطر يوماً)) أي إن أرضى الصلاة في الليل وأكثرها ثواباً أن تكون في النصف الثاني من الليل، بعد النوم في النصف الأول، وذلك بمقدار ثلث الليل، ثم النوم سدسه. وأفضل صيام النَّفل صوم داود: يصوم يوماً ويفطر يوماً.

(١) أي: يرتل الحروف بتأنٍّ.

ومن أهم ثمرات قيام الليل: إجابة الدعاء، روى مسلم عن جابر رضي ا لله عنه قال: سمعت رسول ا لله ﷺ يقول: ((إن في الليل لساعةً لا يوافقها رجل مسلم يسأل ا لله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك في كلِّ ليلة)) أي إن في كل ليلة ساعة إجابة للدعاء أطول من ساعة الجمعة، وذلك في الأجزاء الأخيرة من الليل.

ويبدأ المصلّي صلاة الليل بركعتين خفيفتين، لما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح الصلاة بركعتين خفيفتين)) وهناك حديث آخر عند مسلم عن عائشة بمعناه.

ويمكن جعل صلاة النفل في النهار بدلاً عما فاته في الليل، روى مسلم عن عائشة رضي ا لله عنها قالت: ((كان رسول ا لله ﷺ إذا فاتته الصلاة من وَجَع أو غيره، صلَّى من النهار ثنتي عَشْرة ركعة)).

ويؤيده حديث آخر رواه مسلم عن عمر رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((من نام عن حِزبه[1] أو عن شيء، فقرأه فيما بين صلاة الفجر، وصلاة الظهر، كُتب له، كأنما قرأه من الليل)).

أي: يستحب تعويض ما يفوته من أعمال الخير، على سبيل القضاء، وله مثل ثوابه.

ويستحب إيقاظ الأهل لقيام الليل، روى أبو داود بإسناد صحيح، عن أبي هريرة رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((رحم ا لله رجلاً قام من الليل فصلَّى وأيقظ امرأته، فإن أبت، نضح في وجهها الماء[2]، ورحم ا لله امرأةً قامت من الليل فصلَّت وأيقظت زوجَها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء)).

---

(١) أي: ما يعتاده الإنسان من صلاة وتلاوة وأذكار وغير ذلك.

(٢) أي: رشّ.

ويؤكده حديث آخر رواه أبو داود عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: ((إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصلّيا - أو صلّى - ركعتين جميعاً، كُتبا في الذاكرين والذاكرات)).

وإذا تعب الإنسان في الليل أو نعس نام، ورد في حديث متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: ((إذا نَعسَ أحدكم في الصلاة، فليرقُد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس، لعله يذهب يستغفر، فيسبُّ نفسه)).

ويؤيده حديث آخر رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا قام أحدكم من الليل، فاستعجم القرآنُ على لسانه، فلم يدرِ ما يقول، فليضطجع)) أي تستحب الصلاة حال النشاط واستحضار القلب، وتوافر الاستذكار والفهم والخشوع لله تعالى.

-١٠٥-

استحباب قيام رمضان وقيام ليلة القدر

رمضان كله خير وبركة، ليله ونهاره، امتاز بنزول القرآن الكريم والتوراة والزبور والإنجيل فيه، وأوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتقٌ من النار، فالمؤمن أو المؤمنة يستغل هذا الشهر في التقرب إلى الله تعالى بمختلف أعمال البرِّ والصلاح والتقوى، وثمرته غرس التقوى في القلب، والإفادة منها في جميع أيام العام، قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣/٢]، وقال سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ..﴾ [البقرة: ١٨٥/٢]، وقال تعالى: ﴿إِنّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنّا كُنّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣/٤٤]، وقال عز وجل: ﴿إِنّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١/٩٧] السورة.

ومن أفضل الأعمال في رمضان: قيام رمضان وهو التراويح، وقيام ليلة القدر وإحياء بعضها بالعبادة والتلاوة والأذكار والاستغفار وغير ذلك.

أما **فضيلة التراويح**: ففي حديث متفق عليه يبين ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه**)) أي من أحيا ليالي رمضان بالعبادة مصدِّقاً بثوابها، مخلصاً العمل لله تعالى، مدَّخراً الثواب عنده، غُفر له ما تقدم في عامه من ذنوب وخطايا صغيرة.

ويؤيده حديث آخر رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُرغِّب في قيام رمضان، من غير أن يأمرهم فيه بعزيمة[١]، فيقول: ((من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه)).

وصلاة التراويح إما عشرون ركعة وهو الأفضل، بعشر تسليمات عدا الوتر ثلاثاً، وإما ثماني ركعات، فقد صلاّها النبي ﷺ ثماني ركعات، وسميت تراويح، لأن المصلِّين كانوا لطول قيامهم يستريحون بعد كل تسليمتين.

وأول من جمع الناس لقيام رمضان هو عمر رضي الله عنه، ووافقه الصحابة على ذلك، تأسِّياً بفعل النبي ﷺ، حيث صلاَّها جماعة ثلاث ليال، فلما كثر الناس في الثالثة، تركها خشية أن تفرض عليهم.

وأما **فضيلة ليلة القدر**: فهي من خصائص الأمة الإسلامية، ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدَّم من ذنبه**)) أي من أحياها بالعبادة، موقناً بثوابها، ومخلصاً في قيامها، غفر له ما تقدَّم من ذنوبه الصغائر، ووقتها بعد صلاة العشاء إلى صلاة الفجر.

ووقت ليلة القدر في السبع الأواخر أو العشر الأواخر من رمضان، ورد في حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أُروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله ﷺ: ((أرى رُؤياكم، قد تواطأت في السبع الأواخر[٢]، فمن كان متحرِّيها[٣]، فليتحرَّها في السبع الأواخر)) وهذا لا يمنع تحرِّيها في العشر الأواخر، لأن الجزء داخل في الكل.

---

(١) أي: يذكر الثواب من غير حتم ولا إيجاب.
(٢) أي: رؤياكم أو رؤاكم توافقت في آخر سبع من الشهر.
(٣) أي: قاصدها وطالبها بجد واجتهاد.

ففي رواية أخرى متفق عليها عن عائشة رضي ا لله عنها قالت: كان رسول ا لله ﷺ يُجاور[1] في العشر الأواخر من رمضان، ويقول: ((تحرّوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان)) والمعتمد الراجح تحرِّيها في العشر الأواخر من رمضان في الليالي الفردية، بدليل رواية أخرى عند البخاري عن عائشة أيضاً: أن رسول ا لله ﷺ قال: ((تحرّوا ليلة القدر في الوَتْر من العشر الأواخر من رمضان)) أي في الليالي المفردة، وهي إحدى وعشرون، وثلاث وعشرون، وخمس وعشرون، وسبع وعشرون، وتسع وعشرون. فقد تكون في رمضان إحدى هذه الليالي، وفي رمضان آخر في ليلة أخرى.

والحكمة في أنها في ليالي العشر الأواخر من كل رمضان: مواظبة العبادة فيها.

فللعشر الأواخر من رمضان فضائل، ورد في حديث متفق عليه عن عائشة رضي ا لله عنها قالت: ((كان رسول ا لله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل كله، وأيقظ أهله، وجدّ وشدَّ المئزر)) أي: اعتزل النساء، وشمَّر للعبادة.

وروى مسلم عن عائشة أيضاً قالت: ((كان رسول ا لله ﷺ يجتهد في رمضان مالا يجتهد في غيره، وفي العشر الأواخر منه مالا يجتهد في غيره)).

ففي هذين الحديثين الحث على الإكثار من الطاعة، والعبادة في رمضان، وفي العشر الأخير منه خاصة، والحث على الاعتكاف في هذا العشر (وهو المكث في المسجد) وهو سنة مؤكدة.

والدعاء في ليلة القدر: ثبت فيما رواه الترمذي عن عائشة قالت: ((قلت: يا رسول ا لله، أرأيتَ إن علمتُ أيُّ ليلة ليلةُ القدر، ما أقول فيها؟ قال: قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)).

---

(١) أي: يعتكف.

-١٠٦-

فضل السِّواك

الإسلام دين التطهر والنَّظافة في الظاهر والباطن، لأنه دينٌ حضاري متميز، يحقق الخير والمصلحة والجمال والنقاء للإنسان والإنسانية، ويحفظ على كل امرئ صحَّته وعافيته، حتى لا يقع فريسة المرض والاختلال، ويكون قويّاً في جسده وعقله، لأن ((المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف)). وقد أخبر القرآن الكريم عن محبة الله ورضاه، لأهل الطُّهر والتَّطهُّر، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٢] وقال تعالى عن أهل مسجد قُباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ٩/١٠٨].

ومن أخصِّ مصادر التلوُّث ونقل المؤذيات والأضرار: المنافذ والأعضاء الظاهرة من فم وأنف وأيدٍ وأرجل وشعر، فاعتبر الإسلام تطهيرها: من خصال الفطرة النقيَّة الطيِّبة.

ورد في فضل السِّواك حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**لولا أن أشقَّ على أمتي - أو على الناس - لأمرتهم بالسِّواك مع كل صلاة**)) أي لولا خوفي من حدوث المشقة، لأمرت أمتي أمر إيجاب بالسِّواك، وبقي الأمر رحمة بنا للندب. ويحصل الاستياك بكل خشن لا الإصبع،

والعود أفضل من غـيره، والأولى استعمال عـود الأَراك اتّباعـاً للنبي ﷺ. ولقـد جرَّبتُ الفرشاة والسِّواك، فوجدتُ السِّواك أفضل وأحسن للفم، لما فيه من لين، وفي السِّواك ونحوه فضائل كثيرة، منهـا إزالـة الروائـح الكريهـة، والتنظيـف مـن بقايا الطعام والشراب، وشدّ اللثة، وترك إيذاء الملائكة بفضـلات الأكـل، وفيـه مرضاة الرَّب عز وجل، وتطهير الفم، وغير ذلـك مـن الفوائـد الصحيـة والمنـافع الطِّبِّيَّة، ومن أخصِّها حماية الأسنان من النَّخر والتَّسوُّس.

والسُّنَّة: المداومة على السِّواك بدءاً من الصباح بعد النوم وعنـد كـل صـلاة. ورد في حديث متفق عليه عن حُذيفة رضي الله عنه قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا قام من النوم يشوِّصُ فاه بالسِّواك)) أي يدلّك فمه بالسِّواك، وفي هـذا منفعـة طبِّيَّة لإذهاب تغيُّر رائحة الفم أو إزالة الخمائر.

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كنـا نُعِـدُّ لرسـول الله ﷺ سِواكه وطَهوره[١]، فيبعثه[٢] الله ما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوَّك، ويتوضَّـأ، ويصلّي)).

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أكثرت عليكم في السِّواك)) أي بالغتُ في تكرار طلبه منكم، وفي الترغيب فيه.

وروى مسلم عن شُرَيح بن هانئ قال: قلت لعائشة رضي الله عنهـا: ((بـأي شيء كـان يبـدأ النبي ﷺ إذا دخـل بيتـه؟ قـالت: بالسِّـواك)) وهـو دليـل على استحباب الاستياك عند دخول المنزل، لإزالة ما قد يحدث من تغيُّر رائحة الفـم، ولكثرة الكلام مع الناس دون أي تعثر أو مضايقة.

(١) أي: الماء الذي يتطهَّر به.

(٢) أي: فيوقظه من نومه.

والسِّواك يكــون على الأسنــان واللسان، جاء في حديث متفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: ((دخلتُ على النبي ﷺ، وطرف السِّواك على لسانه)).

يدلّ هذا الحديثُ على استحباب إمرار السِّواك على اللســان، بأن يضعه في منتصف أسنانه السفلى، ثم يمرُّ به إلى اليمين، ثم يعود به على أسنانه العليا، ثم النصف الآخر من الأسنان السفلى، ثم يمرُّ على سطح الأسنان السفلى والعليا، كما سبق. وكذلك يمرُّ به على أسنانه من جهة الداخل، ثم سقف حلقه، ثم على أسنانه.

وورد في السُّنة ما يدلُّ على منافع السِّواك، روى النَّسائي وابن خزيمة في صحيحه بأسانيد صحيحة عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: ((**السِّواك مَطْهَرةٌ للفم، مرضاةٌ للرَّب**)) أي: سبب للطَّهارة والنَّظافة، وسبب لتحصيل رضوان الله تعالى.

دلَّ الحديث على أن السِّواك وسيلة لتنظيف الفم واللِّسان، وأن فيه منافع صحية واجتماعية، وأنه محقّق لرضوان الله تعالى، لأنه يحقّق طيب المناجاة لله سبحانه بالصلاة، ويكون مظهراً لطاعة الله ورسوله، وحامياً من النَّخر وتَسَوُّسِ الأسنان.

إنَّ السِّواك أو الفرشاة عادة طيِّبة، وسنَّة حسنة، تفيد الإنسان والمجتمع، فتمنع التَّأذي بالروائح الكريهة، أو بروائح الطعام، ولا يقتصر الإيذاء على الناس، بل يشمل الملائكة الذين يشتد إيذاؤهم بهذه الروائح التي لا يعرفونها، لأنهم لا يأكلون ولا يشربون، ويأنسون بأطايب الرائحة، والكلامِ، والصفات الحسنة والأفعال الكريمة.

-١٠٧-

فضل خصال الفطرة

اتَّفقتِ الشَّرائع القديمة وخاتمتها الإسلام على الترغيب والعناية بخصال الفطرة العشر أو الإحدى عشرة، وهي أمور جِبِلِّيَّة بشرية نقية، وأمور تقتضيها النظافة والطبيعة البشرية، فعلى الإنسان السَّوِيِّ مراعاتها، والعناية بها، تحقيقاً لمصلحته، والحفاظ على صحته، ومنع التأثر بمصادر البيئة والتلوُّث. وتشتد الحاجة إلى العناية بهذه الخصال كلما تعقَّدت الحياة، وكثر السكان، وازدحمت المباني، وزاد طرح الملوثات في الطرقات والشوارع وفي كل مكان، وساد الغبار.

وجاءت السُّنة النبوية ببيان خمس من الخصال في رواية، وعشر من الخصال في رواية أخرى.

فالرواية الأولى: ثابتة في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((**الفِطرة خمس، أو خمس من الفطرة: الختانُ، والاستحدادُ، وتقليم الأظفار، ونتفُ الإبِط، وقَصُّ الشَّارِب**)) أي: إن الجِبِلَّةَ أو الطبيعة التي خلق الله الناس عليها هي خمسٌ، أو إن من خصال الفطرة خمساً؛ وهي الختان: قطع الجلدة الزائدة على مقدمة عضو الصبي، والاستحداد: أي حلق العانة (السوأة) وهو حلق الشعر الذي حول الفرج مطلقاً، من ذكر وأنثى، وقطع الأظافر: وهو ما طال عن اللحم من رؤوس الأظافر، ونتف الشعر النابت تحت الإبط أو حلقه.

وأما الرواية الثانية التي ذكر فيها خصال الفطرة العشر: فهي ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((**عَشْر من الفطرة: قصُّ الشارب، وإعفاء اللحية**[1]، **والسِّواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم**[2]، **ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء**[3])) قال الراوي: ونسيت العاشرة: إلا أن تكون المضمضة.

ويؤيد ذلك حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((أحْفوا الشَّوارِبَ، وأعفوا اللحى)) أي بالغوا في قصِّ الشوارب، وأطلقوا اللحى، أي توفير شعرها، وهذا من السنة النبوية فقط.

دلَّت هذه الأحاديث على أن خصال الفطرة السوية عشر أو إحدى عشرة وهي:

١ - السِّواك: وهو تنظيف الفم والأسنان واللِّسان بأي شيء خشن، كعود الأراك والفرشاة الحديثة. وهو خصلة طبية نافعة باتِّفاق العلماء.

٢ - ٣: المضمضة والاستنشاق: أي غسل الفم غسلاً مبالغاً فيه، وإيصال الماء إلى أعلى الأنف، وهما سنَّتان في الوضوء والغسل، وعند الحاجة للتنظيف، لا سيما بعد الطعام والشراب. وأوجب الحنابلة وأبو ثور وأبو عبيد الاستنشاق والمضمضة في الغسل والوضوء، وتسنُّ المبالغة فيهما. وفوائدهما واضحة، فهما مظهران صحِّيَّان، يزيلان الفضلات وكل ما يدخل إلى الفم والأنف من غبار وأوساخ، حتى لا تتسرَّب إلى الجوف أو البطن، فيتضرر الإنسان منها.

٤ - غسل عُقَد الأصابع وهي البراجم: أي المبالغة في غسلها، حتى يزيل ما يجتمع في أجزائها من أوساخ. ويُلْحَق بها معاطف البدن، كمعاطف الأذن، وقعر الصماخ، وثنايا البطن ونحوها. يندب تنظيفها لإزالة ما علق بها.

---

(١) أي: لا يقصُّ منها شيء.

(٢) أي: عُقَد الأصابع.

(٣) يعني: الاستنجاء.

٥ - الاستنجاء (انتقاص الماء): وهو واجبٌ عند إرادة الصلاة، وللتَّنَزُّهِ من النجاسة عقب التَّبَوُّلِ والتَّبَرُّز، وفي ذلك صحة محققة، ويحصل ذلك بكل قالع للنجاسة، طاهر، جامد، كالحجر أو الورق، لكن استعمال الماء أفضل، والأفضل الجمع بينهما، فتزال النجاسة بالورق ونحوه، ثم يغسل المحل بالماء.

٦ - الختان: واجب عند جمهور العلماء، ويستحب للصبي في اليوم السابع بعد ولادته، وبه تزال كل أنواع الرواسب والقاذورات، فتحمى البشرة من الالتهابات، والإنتانات.

٧ - ٨: حلق العانة (إزالة شعرها) ونتف الإبط: فذلك مفيد جداً حتى يتخلص الإنسان من الأوساخ العالقة، والروائح المنتنة والعرق العالق على الشعر، ويكره ترك ذلك أكثر من أربعين يوماً.

٩ - تقليم الأظافر: أي إزالة الزائد عن اللحم، للتخلص من الأوساخ المتجمعة تحتها، حتى لا تنتقل إلى الطعام والشراب، فيتأذى صاحبها، وتؤدي إلى التَّقَزُّزِ والاستقذار والنُّفور.

١٠ - قصُّ الشارب: وهو سنة، وهو قصُّ ما طال منه، حتى يظهر بياض الشفة العليا، وفي ذلك نظافة وجمال.

١١ - إعفاء أو إطلاق اللحية: وهو سنة عند الشافعية، واجب عند بقية الأئمة، والسنة: أن يأخذ من طولها ما زاد عن قبضة اليد، ومن عرضها ما خرج عن السمت (هيئة أهل الخير). ويكره تركها شعثة مسترسلة محيطة بوجنات الخد.

-١٠٨-

فرضية الصَّلاة والزَّكاة

الصلاة والزكاة مقترنان في الأمر بهما في كثير من آي القرآن الكريم التي وردت في الصلاة في (٨٣) موضعاً، وكذلك في السنة النبوية لأنهما يؤدِّيان غاية عظمى، تكمل كل واحدة منهما الأخرى، فالصَّلاةُ عماد الدِّين، وزكاة البدن، وترويض الأخلاق، والزكاة فريضة اجتماعية لتحقيق أصول التكافل الاجتماعي، وتعاون أبناء المجتمع في أحوال الحاجة والفقر والأزمات والمحن. وهذا ما يحقق أهداف أو مقاصد الإسلام ببناء الفرد والجماعة.

أما آي القرآن في الصلاة والزكاة فكثيرة، منها قول الله تعالى الآمر بهما: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٢/٤٣] أي أدّوا الصلاة في أوقاتها صحيحة الأركان، مستوفية الشروط. وأعطوا الزكاة المفروضة للمستحقين المحتاجين، واقترانهما في هذه الآية وغيرها دليل على كمال الاتصال بينهما. ومن الآيات: ﴿وَما أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٩٨/٥] أي أمروا بإخلاص العبادة لله مائلين عن كل دين باطل، مستقيمين على الدين الحق، فذلك دين المِلَّةِ أو الشريعة القويمة.

وقال الله تعالى في بيان تنفيذ واجب إخراج الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها﴾ [التوبة: ٩/١٠٣]، أي خذ بعض أموالهم لتطهرهم

بها من الذنوب ورذيلة البخل، وتطهر أموالهم وأنفسهم بالزكاة، فيصبحون في منازل أهل الإيمان المخلصين.

وأكَّدت السنة النبوية الأمر بالصلاة والزكاة، وأوضحت أركان الإسلام، في الحديث المتفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: ((**بُني الإسلام على خمس: شهادةِ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإقامِ الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجٌّ البيت، وصوم رمضان**)).

دلَّ الحديث على أن الزكاة أحد أركان الإسلام، أي أحد دعائمه أو قواعده، وتجب الزكاة عند ملك النِّصاب وحَوَلان الحول.

وفي حديث آخر فيه تفصيل لثلاثة من أركان الإسلام، متفق عليه بين البخاري ومسلم عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد، ثائر الرأس، نَسمع دويّ صوته ولا نفقه ما يقول، حتى دنا من رسول الله ﷺ، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ((خمسُ صلوات في اليوم والليلة، قال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطّوع[1]، فقال رسول الله ﷺ: وصيام شهر رمضان، قال: هل علي غيره؟ قال: لا، إلا أن تطّوع، قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، فقال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطّوع، فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ: أفلح إن صدق)). والرجل السائل: هو ضِمام بن ثعلبة.

قال النووي: أثبت له الفلاح، لأنه أتى بما عليه، ومن أتى بما عليه كان مفلحاً، وليس فيه أنه إذا أتى بزائد لا يكون مفلحاً، فإنه إذا أفلح بالواجب، فلأن يفلح بالواجب والمندوب أولى.

---

(١) أي: إلا أن تتطوع.

دلَّ هذا الحديث على تركيز النبي ﷺ على الدعوة إلى أركان الإسلام بصفة أساسية، لا سيما الأركان العملية وهي الصلاة، والزكاة، والصيام، ففي إهمال هذه الأركان خروج عن الإسلام.

وقد تقرن الصلاة والزكاة بالشهادتين، لأنهما قاعدة الإيمان والإسلام، وأصل الدين، ورد في حديث متفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن (أي بعثه معلماً وقاضياً وواليـاً) فقال: ((ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله تعالى افترض[1] عليهم خمسَ صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة[2] تؤخذ من أغنيائهم، وتردُّ على فقرائهم)).

وهو دليل واضح على أن صرف الزكاة يكون للفقراء المسلمين، واقتصر هنا الحديث على ذكرهم، لأنهم الأغلب في مصارف الزكاة الثمانية في الآية.

وجعل النبي ﷺ شعار أو غاية المقاتلة للمشركين: هو قبول الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة. ورد في الحديث المتفق عليه والمتواتر عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((أُمرت أن أُقاتل الناس[3] حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله)) أي إن إعلان الشهادتين، وأداء الصلاة المفروضة، وإيتاء الزكاة: عاصم أي مانع وحافظ من القتال واستباحة الأموال إلا بحق الإسلام، أي تنفيذاً لأحكام الإسلام، فيمن قتَل عمداً، أو زنى وهو محصن، أو ارتد عن الإسلام.

---

(١) أي: فرض، والتعبير بافترض بدلاً عن فرض يومئ إلى مزيد العناية بالمفروض.

(٢) أي: زكاة مفروضة.

(٣) أي: المشركين من العرب.

-١٠٩-

التأكيد على أداء الزكاة

يخطئ كثير من الناس حين يفرِّق بين فرضية الصلاة وفرضية الزكاة، فيصلي مثلاً الصلوات الخمس لسهولة أدائها ويسرها وعدم وجود مشقَّةٍ فيها، لكنه يبخل في أداء الزكاة المالية، لأن الإنسان محب للمال عادة، حريص على جمعه، ويصعب عليه إنفاقه، وبخاصة إذا كان في سبيل الله، ولا يلمس عوضاً مادياً آخر يقابله. وقد يتذرَّع بعض ضعفاء الإيمان فيمنعون الزكاة لأنها تؤدَّى لبعض الأغراض الشخصية، وهذا ما تذرَّع به مانعو الزكاة، وزعموا أنها كانت تؤدَّى لشخص النبي ﷺ، فامتنعوا عن أدائها في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، فاتفق الصحابة على مقاتلة مانعي الزكاة ووُصفوا بأنهم مرتدّون، لإهمالهم أحد أركان الإسلام الخمسة، وكان موقف الصحابة صائباً وسديداً، لما ثبت عن النبي ﷺ: أن الزكاة فريضة دائمة كالصلاة، وليست خاصة في عهد النبوة، بدليل الأحاديث الآتية:

ثبت في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفِّي رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر رضي الله عنه، وكفَر من كفَر[1] من العَرب، فقال عمر رضي الله عنه: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: ((أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه

(١) أي: ارتدَّ.

إلا بحقه، وحسابه على الله؟)) فقال أبو بكر: والله لأُقاتلن من فَرَّق بين الصلاة والزكاة[١]، فإن الزكاة حق المال! والله لو منعوني عقالاً[٢]، كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا أن رأيتُ الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق. أي إن موقف أبي بكر من مانعي الزكاة، هو الحق الصراح.

- وفي حديث آخر متفق عليه عن أبي أيوب رضي الله عنه: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أخبرني بعمل يُدخلني الجنة، قال: ((تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصلُ الرَّحم))، أي تصِل الأقارب بالزيارة والمساعدة المالية ونحوهما. والمحافظة على هذه الأمور الأربعة سبيل الجنة، والبعد عن النار.

- ويؤكد ذلك حديث ثالث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: ((أن أعرابياً أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، دُلَّني على عمل إذا عملتُه دخلت الجنة، قال: تعبدُ الله ولا تشركُ به شيئاً، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: والذي نفسي بيده[٣]، لا أزيد على هذا، فلما ولّى، قال النبي ﷺ: من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا))، أي إن من أدّى فرائض الإسلام من صلاة وزكاة وصوم رمضان، وحجِّ البيت الحرام، فهو مبشَّر بالجنة، كتبشير الحسن والحسين وأُمهما فاطمة، وجدتهما خديجة، وأزواجِ النبي بالجنة.

- ودلَّ حديث آخر على أن من بنود بيعة النبي ﷺ على الإسلام: الصلاة والزكاة، والنصيحة المخلصة لكل مسلم، ورد في حديث متفق عليه عن جرير

(١) أي: أنكر وجوب إحداهما.
(٢) العقال: الحبل الذي يعقل (يربط) به البعير.
(٣) أي: بقدرته ومشيئته.

ابن عبد الله رضي الله عنه قال: ((**بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم**)).

وجاء في السُّنة النبوية وعيد شديد على ترك الزكاة، ففي حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدِّي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح[١] من نار، فأُحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جَنْبه وجبينه وظهره، كلما بَرَدَت أُعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيَرى سبيله: إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

قيل: يا رسول الله، **فالإبلُ**؟ قال: ولا صاحبِ إبل لا يُؤدِّي منها حقَّها، ومن حقها: حَلْبُها يوم وِرْدها[٢]، إلا إذا كان يومُ القيامة بُطِحَ لها بقاعٍ قَرْقَر[٣] أوفرَ ما كانت، لا يفقِد منها فصيلاً[٤] واحداً، تطؤه بأخفافها، وتعضُّه بأفواهها، كلما مَرَّ عليه أُولاها، رُدَّ عليه أُخراها في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيَرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

قيل: يا رسول الله، فالبقرُ والغنمُ؟ قال: ولا صاحبِ بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بُطِحَ لها بقاعٍ قَرْقَر، لا يفقد منها شيئاً، ليس فيها عَقصاء ولا جلحاء ولا عضباء[٥]، تنطحُه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما مَرَّ عليه أُولاها، رُدَّ عليها أُخراها في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيَرى سبيله: إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

---

(١) أي: جعلت له لوحات عريضة.

(٢) أي: يوم ورودها الماء بأن تحلب ويسقى من ألبانها للمارة.

(٣) أي: طرح على وجهه بصحراء واسعة مستوية وملساء.

(٤) الفصيل: ولد الناقة.

(٥) أي: ملتوية القرن، والتي لا قرن لها، والمكسورة القرن.

قيل: يا رسول الله، فالخيلُ؟ قال: الخيل ثلاثة: هي لرجل وِزر، وهي لرجل سِتْرٌ، وهي لرجلٍ أَجْرٌ. فأما التي هي له وِزْر: فرجلٌ ربطها رياءً وفخراً ونِواء على أهل الإسلام[1]، فهي له وِزْر. وأما التي هي له سِتْر فرجل ربطها في سبيل الله، ثم لم يَنْسَ حقَّ الله في ظهورها ولا رقابها، فهي له سِتْر. وأما التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، لأهل الإسلام في مَرْج[2] - أو روضة - فما أكلت من ذلك المرج - أو الروضة - من شيء إلا كُتب له عددَ ما أكلت حسناتٍ، وكتب له عددَ أرواثها وأبوالها حسنات، ولا تقطع طِوَلها[3] فاستنَّت شَرَفاً[4] أو شرفين إلا كَتب الله له عددَ آثارها وأرواثها حسنات، ولا مَرَّ بها صاحبها على نهر، فشربت منه - ولا يُريد أن يسقيها - إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات.

قيل: يا رسول الله، فالحُمُر[5]؟ قال: ما أُنزل علي في الحُمُر شيء إلا هذه الآية الفاذَّة الجامعة[6]: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره﴾ [الزلزلة: ٩٩/٧-٨].

دلَّ الحديث على وجوب الزكاة في النقود، وفي الماشية من إبل وبقر وغنم، وأنه لا زكاة في الخيل ولا في الحمير.

ودلَّ أيضاً على أن مانعي الزكاة يعذبون في الآخرة بصور من العذاب، منها صور وطء الأموال والأنعام التي منعوا زكاتها لصاحبها.

---

(١) أي: معاداة وحرباً.

(٢) أي: أرض فيها عشب أو حشيش.

(٣) أي: الحبل الطويل المشدود في وتد ونحوه، والمراد: تسير لتدور وترعى فيما حولها.

(٤) أي: رعت مكاناً عالياً أو مكانين.

(٥) جمع حمار.

(٦) أي: الآية المنفردة في معناها، الشاملة لأبواب الخير.

-١١٠-

فريضةُ الصِّيام

فرض الله صيام شهر رمضان كل عام، ليحفظ صاحبه من الضَّلال في الدنيا، ومن عذاب النار في الآخرة، ولغرس فضيلة التَّقْوى - تقوى الله، فهي منبع كل خير، وأساس كل فضل في حياة الناس، وتنعكس فضائل التقوى على النفس لتترك فيها خصال الصدق، والأمانة، والشجاعة، والصبر، والعفة، والعدل، والعفو، والرحمة، وضبط النفس، وإذا توافرت هذه الفضائل في النفس كانت نفساً كاملة مطمئنَّةً، وقد صرَّح القرآن الكريم بأن ثمرة الصيام: هي تحصيل الالتزام بتقوى الله عز وجل، فقال الله سبحانه: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٣]. وما أروع وأشرف وأفضل اقتران الصيام ببركة نزول القرآن الكريم في شهره، فقال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٥].

أي إن صيام شهر رمضان الذي فرض في السنة الثانية من الهجرة فرض على الأمة الإسلامية، كما فرض على الأنبياء والأمم السابقة من لدن آدم عليه السلام إلى عهد خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ. ووجوب الصيام يبدأ من

رؤية هلال رمضان في أي بلد إسلامي متّحدِ المَطْلَعِ مع البلد الآخر، بحيث يجمعهما ليل واحد. جاء في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غبي عليكم**[١]، **فأكملوا عدَّةَ شعبان ثلاثين**)). هذا لفظ البخاري. ولفظ مسلم: ((فإن غُمَّ عليكم[٢]، فصوموا ثلاثين يوماً)) أي يفرض على المسلمين فرض كفاية: أن يلتمسوا الهلال عند غروب شمسِ اليوم التاسع والعشرين من شعبان، والتاسع والعشرين من رمضان حتى يتبيَّنوا أمر صومهم وفطرهم.

وللصيام فوائد كثيرة: شخصية للإنسان من توافر الصحة والقوة، والتربية الخلقية الكريمة، وفوائد دينية كثيرة في الدار الآخرة، مرجعها إلى كرم الله وفيضه وإحسانه، من غير تحديد بمقدار معين، وإنما الثَّواب مفتوح لله عز وجل.

ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله عز وجل: كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنَّه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّة[٣]، فإذا كان يوم صومِ أحدكم فلا يرفُث[٤]، ولا يَصْخَب[٥]، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم. والذي نفس محمد بيده لخُلوف فم الصائم[٦] أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرِح، وإذا لقي ربَّه فرح بصومه))، هذا لفظ البخاري.

---

(١) أي: خفي بسبب غيم أو غيره.
(٢) أي: التبس وخفي.
(٣) أي: وقاية من النار.
(٤) أي: لا يتكلم بكلام فاحش أو رديء.
(٥) أي: لا يصح ويرفع صوته أكثر من المعتاد.
(٦) أي: تغيُّر رائحة الفم.

وفي رواية أخرى للبخاري: ((يترك طعامَه، وشرابَه وشهوتَه، من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنةُ بعشرِ أمثالها)).

وفي رواية لمسلم: ((كلُّ عمل ابن آدم يضاعف، الحسنةُ بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضِعف، قال الله تعالى: ((إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يَدَع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربِّه، ولخُلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك)).

وأغلى ثمرة وأعظم فائدة للصيام: هو دخول الجنان، ببشائر كثيرة، هي حديث متفق عليه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ((من أنفق زوجين[1] في سبيل الله، نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله، هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الرَّيّان، ومن كان من أهل الصدقة، دُعي من باب الصدقة)). قال أبو بكر رضي الله عنه: ((بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما على من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة[2]، فهل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ فقال: نعم وأرجو أن تكون منهم)).

وفي حديث آخر متفق عليه عن سهل بن سَعْد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((**إن في الجنة باباً يقال له الرَّيان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق، فلم يدخل منه أحد**)).

---

(١) أي: فرسين أو بعيرين مثلاً.

(٢) أي: نقص أو خسارة.

وروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً)) أي سبعين سنة.

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه)) أي مؤمناً مصدِّقاً بثوابه، مخلصاً صيامه لله، قاصداً به وجه الله تعالى.

وأخرج البخاري ومسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا جاء رمضان فُتِّحت أبوابُ الجنَّةِ، وغُلِّقت أبوابُ النَّارِ، وصُفِّدت الشياطين)) أي قُيِّدَتْ بالأصفاد، وهي القيود.

-١١١-

فضيلة الجود والسَّخاء في رمضان وفضيلة العشر الأواخر منه

رمضان شهر عظيم حافل بالبركات والخيرات الإلهية، فكان جديراً بالمؤمن أن يتجاوب مع أفواج أو مواكب الخير والبركة هذه، فيجود بما استطاع، ويكثر من عمل المعروف، ويقبل على الله تعالى بأنواع كثيرة من الخير، ليحظى بثواب الله تعالى غير المحدود. وأعمال الخير كثيرة:

منها مدارسة القرآن، ومنها التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، ففي كل منها بشارة بالجنة، ومنها الصدقات على المحتاجين، ومنها الاعتكاف ولا سيما في العشر الأخير من رمضان، أي التفرغ في المساجد لعبادة الله والأذكار والصلوات.

وكل ذلك حضَّ القرآن الكريم والسُّنة النبوية عليه، فمن آي القرآن: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٤].

ومن الآيات الكريمة الشاملة لأصناف الخير وللناس جميعاً من رجال ونساء قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتِينَ

وَالْقانِتاتِ وَالصّادِقِينَ وَالصّادِقاتِ وَالصّابِرِينَ وَالصّابِراتِ وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصّائِمِينَ وَالصّائِماتِ وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ وَالذّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٥].

وورد في السُّنة النبوية القولية والعملية ما يحثُّ على الجود والسخاء، ويُنفّر من البخل والشُّحِّ، وإمساك المال، من غير إنفاق في سبيل الله، ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: قال الله عز وجل: ((**أنفق يا ابنَ آدم يُنْفَق عليك**)). وفي حديث آخر متفق عليه عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: ((**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا مَلَكان ينزلان فيقول أحدهما: اللّهم أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللّهم أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً**)).

وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((اتَّقوا الظُّلم، فإنَّ الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتَّقوا الشُّحَّ، فإن الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أَنْ سفكوا دماءَهم واستحلّوا محارمهم)).

ومن السُّنة العملية في الجود ولا سيما في رمضان: ما ورد في حديث متفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسولُ الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجودُ بالخير من الريح المرسلة)) أي في الإسراع والعموم.

والجود أعمّ من الصَّدقة: فهو شرعاً إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي.

ومدارسة القرآن: أن يقرأ على غيره، ويعيد الثاني ما قرأ الأول، والحكمة من هذا العرض والمدارسة: التأكُّد من حفظ النبي ﷺ، وكان هذا اللقاء مع

جبريل يزيد النبي ﷺ جوداً في رمضان، لأن ذلك يجدِّد العهد بغنى النفس الذي هو سبب الجود.

دلَّ الحديث على أن النبي ﷺ كان أكثر الناس جوداً، لثقته بربِّه، وكان إذا لَقِيَهُ جبريل عليه السلام أمين الوحي لمدارسة القرآن واستذكاره أجود بالخير من الريح المرسلة.

وهذا يدلُّ على الترغيب في الجود واستحبابه، وعلى استحباب مدارسة القرآن في رمضان تأسِّياً برسول الله ﷺ، ولأن المدارسة تذكِّر بفضائل القرآن، وتعلِّم الإنسان قوة الإيمان واليقين، فيجود على الناس بما آتاه الله من مال أو علم أو جاه أو قضاء حاجة، فكل ذلك من المعروف الذي يزرع في النفوس المحبة والأُلفة، والتعاون والإيثار.

ويشتدُّ استحباب الجود وفعلِ المعروف في العشر الأواخر من رمضان، فتلك هي سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ورد في حديث متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشدَّ المِئْزَرَ)) أي: إذا دخل العشر الأخير من رمضان، أحيا الليل بالقيام فيه، وأيقظ أهله لهذا الإحياء لجزء من الليل، وشدَّ المئزر: أي ترك عشرة النساء، وهو كناية عن المبالغة في الجدِّ والإقبال على الخير. وهو دليل على استحباب الاجتهاد في العبادة، والاعتكاف: (المكث أو اللبث في المسجد)، وتحرِّي ليلة القدر في الأيام المفردة من العشر الأخير من رمضان.

-١١٢-

وقت الصيام
أو الاستعداد لرمضان
والاعتماد على رؤية الهلال

تمتاز العبادات الإسلامية بانضباطها وأدائها في وقتها، دون تقدُّم ولا تأخُّر، سواء كان ذلك صلاة أو صوماً أو حجّاً أو زكاة، فهي مؤقّتة بوقت معين، ومفروضة بزمن محدد، دون سبْق ولا تخلُّف أو تلكؤ، ومن أدرك فرضية شيء، أحبَّه واستعدَّ له بما يناسبه، ففي الصلاة: استعداد لها بالتَّطهُّر والوضوء.

وفي الصَّوم: استعداد بترك الصيام في النصف الثاني من شعبان.

وفي الحج: لا بد من السَّعْيِ من الأوطان لأداء المناسك والشعائر في الوقت والمكان المحددين شرعاً: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٨/٢٢] و﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧/٢]، وهي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة.

والزكاة لا تجب إلا بعدَ حَوَلانِ الحول (دوران السنة) ومِلْكِ النِّصاب الشرعي وهو: ما يعادل في وقتنا الحاضر (٨٥ غم) من الذهب.

وجاء النَّهْيُ صريحاً في تقدُّمِ رمضان بصوم في النصف الثاني من شعبان، وذلك في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((لا يَتَقَدَّمَنَّ أحدُكم رمضان بصوم يوم أو يومين، إلا أن يكون رجل كان يصوم صومه، فليصم ذلك اليوم)) وقوله: ((لا يتقدَّمَنَّ أحدكم)) نهيٌ للتحريم عن صوم يوم أو أكثر في فترة النصف الثاني من شعبان، إلا لمن كان معتاداً صوماً دورياً متكرراً، كصوم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، أو صوم يوم وإفطار يوم، أو قضاء بعض الأيام من رمضان فائت.

وتحريم تقدُّم رمضان بصوم شيء في النصف الآخر من شعبان دليل على المنع من الزيادة في العبادات، فتظل العبادات محترمة مشروعة على وفق شرع الله وتقديره.

ويؤيد ذلك حديث آخر، أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تصوموا قبل رمضان، صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن حالت دونه غَيايَة[1]، فأكملوا ثلاثين يوماً)) أي: يحرُمُ صوم النصف الأخير من شعبان، ويكون الصوم لرؤية الهلال، والإفطار له، فإن لم تثبت الرؤية يجب إكمال شعبان ثلاثين يوماً عند الصوم، وإكمال رمضان ثلاثين يوماً عند الإفطار.

ويوضحه حديث آخر رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إذا بقي نصفٌ من شعبان فلا تصوموا**)) أي: إذا حلَّ المؤمن في النصف الثاني من شعبان فلا يَصُمْ صوم تطوع.

وكذلك يحرم **صوم يوم الشك:** وهو الذي يتحدَّث الناس فيه برؤية الهلال دون أن تثبت رؤيته، روى أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح عن أبي اليَقْظان، عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال: ((من صام اليوم الذي

---

(١) الغياية: هي السحابة.

يُشَكُ فيه، فقد عصى أبا القاسم)) الذي يُشَكّ فيه: أي يرتاب الناس بشأنه، أهو من شعبان أم من رمضان؟

دلَّ الحديث على تحريم صوم يوم الشك.

وبما أن طلوع الهلال بنوره وبهائه بشارة خير وأنس، وآية من آيات الله، واتقاءً لفتنة الافتتان به وبالكواكب، يُسَنُّ للمؤمن أن يدعو عند رؤية الهلال بدعاء ثابت في السنة، روى الترمذي وقال: حديث حسن عن طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال قال: ((**اللهم أهِلَّهُ علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربِّي وربُّك الله، هلال رشد وخير**)) أي اللهم اجعله يُشرق بالأمن المستمر والإيمان الثابت، فهو هلال رشد ودلالة على الخير، لا ضلال فيه ولا غي.

دلَّت هذه التربية الإيمانية على شيئين أساسيين في الإسلام:

الأول - أن التحليل والتحريم، والتشريع وإصدار الأحكام من الله عز وجل، لا بالهوى والتَّشَهِّي والرأي الشخصي المحض، فلا يَحِلُّ في الإسلام التلاعب بالأحكام أو التغيير والتبديل والتقديم والتأخير، والإضافة أو الزيادة، والنقص، وإنما يجب الالتزام بضوابط الشرع وحدوده وآدابه.

والأساس الثاني - أن القمرَ وغيره من الكواكب من آيات الله تعالى، التي تطلع وتغيب، ويبدأ القمر في الظهور للناظر كالحبل الرفيع، ثم يتكامل تدريجاً شيئاً فشيئاً، إلى أن يصبح بدراً كاملاً في منتصف الشهر، ثم يبدأ بالتناقص والغياب التدريجي حتى لا يبدو منه شيء في المَحاق في آخر الشهر القمري.

-١١٣-

فضل السُّحور

لم يَشْرَع الإسلام شيئاً إلا وقد أحاطه بما ييسر أداءه، ويدفع عنه المشَقَّة، ويخفِّفه على الناس، حتى لا يضيقوا ذرعاً به، ويتبرَّموا أو يتأفَّفوا من مشروعية الحكم الشرعي، وهذا ثابت في شرعنا في مناسبات كثيرة، منها قوله تعالى في الإذن بقضاء الصيام بعد المرض أو السفر: ﴿وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ..﴾ [البقرة: ٢/١٨٥]. ومنها قوله سبحانه في تيسير الزواج إذا لم يجد الزوج مهر الحرة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٤/٢٨]. ومنها قوله عز وجل في مشروعية التَّيمُّم بدلاً عن الوضوء بسبب المرض أو السفر: ﴿ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٥/٦].

وكذلك الشأن في وضع معيار الصوم بالإمساك عن الطعام والشراب أثناء النهار، وإباحة ذلك في اللَّيل، فقد شرع الله تناولَ السُّحورِ في الفرض والنَّفل، ولو على ماء، وشرع تأخيرَه، ما لم يخشَ الصائم طلوع الفجر، ليساعد بقاء الطعام قبل هضمه على قوة الصائم في عمله أثناء النهار، ورد في حديث متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**تسحَّروا، فإن في السُّحور بركةً**)).

وهذا أمر ندب لا وجوب، لأن السُّحور (بضم السين) وهو تناول الطعام بركة، أي زيادة وقوة وزيادة أجر وثواب.

دلَّ الحديث على أن التَّسحُّرَ للصائم سنة، ولو بقليل الطعام، أو بجرعة ماء. وسبب البركة في السُّحور: أنه يقوِّي الصائم ويهوِّن عليه الصيام.

ويُسَنُّ تأخيرُ السُّحور إلى ما قبل طلوع الفجر بربع ساعة أو قراءة خمسين آية، جاء في الحديث المتفق عليه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: ((تسحَّرْنا مع رسول الله ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة، قيل: كم كان بينهما؟ قال: خمسون آية))، أي كان بين صلاة الفجر أو الأذان، ونهاية السُّحور قدر قراءة خمسين آية متوسطة.

والحديث دليل على مشروعية السُّحور قبل الفجر.

ويُسْتَحَبُّ تأخيرُ السُّحور ما لم يخشَ المرء طلوع الفجر الصادق، لما رواه البخاري ومسلم: ((لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر)) زاد الإمام أحمد: ((وأخَّروا السُّحور)) ولأن تأخير السحور أقرب إلى التقوِّي على العبادة.

وعلامة ذلك في السُّنة: ما بين الأذان الأول في الليل قبل نصف ساعة مثلاً وهو الذي حلَّ محلَّه في بلادنا ما يسمُّونَه بالتسابيح، وبين الأذان الثاني عند طلوع الفجر الصادق. ورد في حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذنان: بلالٌ، وابنُ أمِّ مكتوم، فقال رسول الله ﷺ: ((إن بلالاً يؤذِّن بليل، فكُلوا واشربوا حتى يؤذِّنَ ابنُ أمِّ مكتوم، قال: ولم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا ويرقى هذا)).

دلَّ هذا الحديث على مشروعية أذانين، وندب الأذان الأول للصُّبْحِ قبل دخول وقته، ليستعدَّ الناس للصلاة.

والسُّحور في الواقع من مميزات شرعنا وخصائصه، فلم يكن السُّحور مشروعاً أو معروفاً لدى أتباع الأديان السابقة، فهو من خصائص الأمة الإسلامية، رأفةً ورحمة بنا، وتيسيراً علينا، وبركةً في أعمالنا.

روى مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب: أَكْلَةُ السَّحَر)) أي الفاصل والفارق بين صيامنا نحن المسلمين وصيام أهل الكتاب من اليهود والنصارى: هو أكلة السَّحَر، أي قبيل طلوع الفجر أو الصبح.

إن تناول الطعام والشراب باعتدال عون للإنسان على ممارسة العيش المعقول، والحياة السوية المعتدلة، دون تعثُّر أو صعوبة أو مشقة ومضايقة، لذا أذِن الله تعالى فيه ولم يوجبه، لأنه استجابة لحاجة الإنسان وفطرته، قال الله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧/٢ - والأعراف: ١٦٠/٧]، وقال سبحانه: ﴿يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١/٧].

-١١٤-

تعجيلُ الفطر في الصيام

إن من فضل الله وإحسانه أن يتجاوب التَّشْريع الإلهي أو يتلاءم مع الفطرة الإنسانية البشرية، فلا يصادمها حتى يتحقق الانسجام، ويزول النفور أو الكراهية، والدليل الواضح على هذا: أن من خصائص شرعنا دفع الحرج أو المشقة، وتحقيق اليسر والسماحة في التكاليف الشرعية.

وأمثلة ذلك كثيرة: كرفع الأحكام الشاقة مشقَّةً زائدة التي كانت على من قبلنا، لذا أجاب الله تعالى دعاءَنا الذي علَّمنا إياه بقوله: ﴿رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً[1] كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦].

وسُمِّيت شريعتنا بأنها «المِلَّةُ الحنيفيَّةُ السَّمْحَة» لتميزها بدفع أو رفع الحرج، أي المشقة في التكاليف، قال الله تعالى: ﴿وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾ [الحج: ٢٢/٧٨].

ومن أمثلة التجاوب مع الفطرة البشرية: تعجيلُ الفِطْرِ في رمضان، لإزالةِ الجوع، وإطفاءِ العطش، ورد في حديث متفق عليه عن سهل بن سعد رضي الله

(١) الإصر: الذنب والثقل.

عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**لا يزال الناس بخير ما عَجَّلوا الفِطر**)) أي ما يزالون بخير في دينهم إذا عجَّلوا إفطارهم، فهو أمر مستحبٌّ شرعاً، بعد التحقُّقِ من غروب الشمس بالرؤية أو الإخبار أو الرواية أو السَّاعةِ المجرَّبة التي لا تخطئ، وفي هذا تحقيق اليسر ومنع التنطُّع أو التشدُّد في الدين، الذي يوقع في الحرج والمشقة.

قال المهلب: والحكمة من تعجيل الفطور: أنه لا يزيد في النهار من الليل، ولأنه أرفق بالصائم وأقوى على العبادة.

ويؤكد ذلك ما رواه مسلم عن أبي عطية قال: ((دخلت أنا ومسروق على عائشة رضي الله عنها، فقال لها مسروق: رجلان من أصحاب محمد ﷺ، كلاهما لا يألُو عن الخير[1] : أحدهما يعجِّل المغرب والإفطار، والآخر يؤخّر المغرب والإفطار. فقالت: من يعجِّل المغرب والإفطار؟ قال: عبد الله، يعني ابنَ مسعود، فقالت: هكذا كان رسول الله ﷺ يصنع)) ففي هذا دلالة على أن السُّنة النبوية الفعلية: هي في تعجيل المغرب، وتعجيل الإفطار بعد تحقُّقِ الغروب.

بل إن تعجيلَ الفطر أحبُّ إلى الله عز وجل وأرضى له.

روى الترمذي وقال: حديث حسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله عز وجل: أحبُّ عبادي إليّ أعجلُهم فطراً)) أي: أرضاهم عندي أسرعهم إلى الإفطار بعد الغروب.

والحدّ الفاصل بين اللَّيل والنهار هو غروب الشمس.

ورد في حديث متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغَرَبت الشمس، فقد أفطر الصائم)) أي: إذا أقبل الليل من جهة المشرق، وأدبر النهار

---

(١) أي: لا يقصر في الخير.

بغروب الشمس من جهة المغرب، وغاب قرصُ الشمس، فقد حان وقت إفطار الصائم.

دلَّ الحديث على تحديد وقت الإفطار الشرعي.

ويؤيده حديث آخر في معناه متفق عليه أيضاً عن أبي إبراهيم، عبد ا لله بن أوفى رضي ا لله عنهما قال: سرنا مع رسول ا لله ﷺ، وهو صائم، فلما غربت الشمس قال لبعض القوم: ((يا فلان، اِنْزِلْ فَاجْدَحْ لنا[1]، فقال: يا رسول ا لله، لو أمسيتَ، قال: انزل فاجدح لنا، قال: إن عليك نهاراً، قال: انزل فاجدح لنا، قال: فنزل، فجدح لهم، فشرب رسول ا لله ﷺ، ثم قال: إذا رأيتم الليل قد أقبل من هاهنا، فقد أفطر الصائم، وأشار بيده قِبَل المشرق)).

دلَّ الحديث على ندب المبادرة إلى الإفطار عند الغروب.

والهدي النبوي في الإفطار مبين فيما رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح عن سلمان بن عامر الضَّبِّي الصحابي رضي ا لله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر، فإن لم يجد فليفطر على ماء، فإنه طَهور)) أي مزيل للخبائث والرواسب والفضلات.

وفي حديث آخر رواه أبو داود عن أنس رضي ا لله عنه قال: ((كان رسول ا لله ﷺ يُفطر قبل أن يصلي على رُطبات، فإن لم تكن رُطَبات فتَمْراتٌ، فإن لم تكن تُمَيْرات، حَسَا حَسَواتٍ من ماء)) والرطب: ثمر النخل قبل أن يتتمر، والتمر: هو البلح اليابس، والتميرات أي ثلاث، لأنه أقل الجمع.

دلَّ الحديث على أنه يستحب للصائم أن يفطر على رطبات وتراً، أو على ماء، وحكمة ذلك أن الرطب وغيره يزيل فضلات المعدة.

---

(١) أي: اخلط السويق بالماء، والسويق: قمح أو شعير يغلى ثم يطحن ويمزج إما بماء أو بسمن أو بسمن وعسل.

-١١٥-

حفظ اللسان في الصيام وغيره وأحكام أخرى

الصيام مدرسة تربوية ميدانية أخلاقية عظيمة، به يتحقق ضبط النفس والوقت واللسان والجوارح أو الحواس، وحفظها من تناول المفطرات أو المعكرات والشهوات، لذا كان على الصائم وغيره التدرب على عفة اللسان وصون الحواس عن المحرمات كالغيبة والنميمة، والكلام الفاحش، والكفّ عن إرسال النظر إلى المحرَّم، أو سماع ما يحرم شرعاً، وكل ذلك مما يتنافى مع أدب الصيام والإسلام، وإن لم يُفطر المخالف بهذه المخالفات في الظاهر، لكنه بانحرافه يعمل في الحقيقة على هدم الصوم وأثره، ويتحمل الإثم بالفحش مطلقاً، والمطلوب في الصيام وغيره العناية بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وبتلاوة القرآن الكريم، وسماع دروس العلم والعلماء.

ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفُثْ**[١]**، ولا يَصْخَب**[٢]**، فإن سابَّه أحد أو قاتله**[٣]**، فليقُلْ: إني صائم**)).

---

(١) أي: لا يفحش في القول.

(٢) أي: لا يرفع صوته أو يكثر اللغط والكلام اللغو.

(٣) أي: ضاربه.

أي: يجب كفّ الحواس عن الآثام، ويزداد الوجوب استحباباً في رمضان، لحفظ اللسان من الهذيان واللغو والكذب، والغيبة والنميمة والفحش، والخصومة والمراء والمجادلة، ثم الاشتغال بغير ذلك؛ كتلاوة القرآن الكريم، وذكر الله تعالى، ومطالعة كتب العلم.

بل إن اقتراف الكذب وغيره من ألوان الزور يصادم أصل مشروعية الصيام، ويناقض أحكام الإسلام، روى البخاري عن أبي هريرة أيضاً قال: قال النبي ﷺ: «**من لم يَدَع قول الزور**[1] **والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**». دلَّ الحديث على وجوب الامتناع عن مفطرات الصيام المادية أو الحسية من طعام وشراب وجماع، وكذا المفطرات المعنوية من غيبة وكذب، وفحش قول، وسوء خلُق. كما دلَّ الحديث على أن من لم يدع الكذب، وهو صائم، لا يثاب على صومه.

وأما الأكل أو الشرب ناسياً في الصيام مطلقاً فلا يفطّر الصائم، سواء في رمضان أو في غيره، ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إذا نسي أحدكم، فأكل أو شرب، فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه**». فمن تناول شيئاً من الطعام أو الشراب حال النسيان، لا يفطر، سواء في صيام رمضان أو في غيره من أحوال القضاء، أو النوافل والتطوعات، ولا قضاء على الناسي ولا كفارة، بدليل ما روى الدارقطني والبيهقي والحاكم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أفطر في رمضان ناسياً، فلا قضاء عليه ولا كفارة». ولا فرق في الحقيقة بين رمضان وغيره لإطلاق الأحاديث السابقة.

ويسنُّ في الصيام: **ترك المبالغة في المضمضة والاستنشاق**، خشية وصول الماء إلى الحلق والجوف، مع أن المبالغة فيهما سنة في غير حالة الصيام، روى أبو داود،

(١) أي: من لم يترك الكذب.

والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، عن لَقيط بن صَبِرَة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن الوضوء؟ قال: ((أسبغ الوضوء[1]، وخلّل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق، إلا أن تكون صائماً)).

والمبالغة في المضمضة: الغرغرة، وفي الاستنشاق: إيصال الماء إلى الخيشوم وجذبه بالنَّفَس، وهذا في حال الصيام مكروه لئلا يصل الماء إلى الجوف، فيفطر الصائم.

ولا تشترط **الطهارة في الصيام**، فيجوز تأخير الغسل من الجنابة بعد الفجر قليلاً، ثم أداء صلاة الصبح، ثبت في الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان رسول الله ﷺ يدركه الفجر، وهو جُنُب من أهله، ثم يغتسل ويصوم)) وهو دليل واضح على صحة صوم من طلع عليه الفجر، وهو جُنُب. ويحرم بقاء الجنابة إذا أدَّت إلى ترك فريضة الصلاة.

ويؤكد الحكمَ السابق حديث آخر متفق عليه عن عائشة وأم سَلَمة رضي الله عنهما قالتا: ((كان رسول الله ﷺ يصبح جُنُباً من غير احتلام، ثم يصوم)) وهذا برهان آخر على صحة الصوم مع وجود حالة الجنابة الحادثة قبل الصبح، لا فرق بين أن تكون الجنابة بسبب جماع أو احتلام في الليل. ويرشد إليه أيضاً الآية الكريمة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسائِكُمْ﴾ [البقرة: ٢/١٨٧] إذ يلزم من حِلّ الجماع آخر الليل طلوع الفجر على الشخص وهو جُنُب، فيصح الصوم.

إن هذه التسهيلات في الصيام وغيره تدل على يسر الإسلام، وهي: عدم إفطار الصائم الناسي بتناول شيء من الطعام والشراب وأن الجنابة لا تفسد الصوم، وأنه يسنُّ ترك المبالغة في المضمضة والاستنشاق.

---

(١) أي: أتممه بأركانه وآدابه وزوائده بغسل ما زاد على الفرض في الوجه واليدين والرجلين.

-١١٦-

فضل الصيام في شعبان والأشهر الحرم

للصيام فوائد عظيمة، سواء في رمضان وغيره، فيسنُّ الصيام في شعبان، أي في النصف الأول منه، وفي الأشهر الحرم، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وذلك تأسياً بالنبي ﷺ، وادِّخاراً للثواب العظيم عند الله تعالى على الصوم، وتحقيقاً لمنافع الصيام المادية والأدبية، وتشبُّهاً بملائكة الله الكرام الذين لا يأكلون ولا يشربون، وطريق العمل بالسُّنة في منهاج الصيام: هو ما أوضحته الأحاديث النبوية الصحيحة، ومنها:

- ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**أفضل الصيام بعد رمضان: شهر الله المحرَّم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة: صلاة الليل**)).

والمحرَّم: من الأشهر الحرم، وهو رأس السنة الهجرية، والصيام فيه أفضل من الصيام في غيره من الأشهر.

- وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((**لم يكن النبي ﷺ يصوم من شهر أكثر من شعبان، فإنه كان يصوم شعبان كلَّه**)) وفي رواية: ((كان يصوم شعبان إلا قليلاً)). والمراد بصوم شعبان كله: صوم أكثره، وحكمة تفضيل الصيام فيه: أنه شهر ترفع فيه الأعمال إلى الله تعالى، وأن الصائم فيه

يستعد للقاء رمضان، والتدرب على الصيام، لكن السُّنة الصوم في النصف الأول من شعبان، ويحرم في النصف الأخير منه إلا لمن اعتاد صوم أيام معينة.

- وفي بيان نبوي آخر: يسنُّ صوم **ثلاثة أيام من كل شهر** وهي: الأيام البيض من الشهر القمري، وهي الثالث عشر وتالياه، كما يسنُّ صوم الأشهر الحرم، كلها أو بعضها، لما رواه أبو داود عن مُجيبة الباهلية عن أبيها - أو عمها - أنه أتى رسول الله ﷺ، ثم انطلق فأتاه بعد سنة - وقد تغيَّرت حاله وهيئته - فقال: يا رسول الله، أما تعرفني؟ قال: ((ومن أنت؟)) قال: أنا الباهلي الذي جئتك عامَ الأوَّلِ. قال: ((فما غيَّرك وقد كنت حسن الهيئة؟)) قال: ما أكلت طعاماً منذ فارقتك إلا بليل. فقال رسول الله ﷺ: ((عذَّبت نفسَك!)) ثم قال: ((صُم شهر الصبر[1]، ويوماً من كل شهر)) قال: زدني، فإن بي قوة، قال: ((صُم يومين)) قال: زدني، قال: صُم ثلاثة أيام)) قال: زدني، قال: ((**صُم من الحُرُم**[2] **واترك، صُم من الحُرُم واترك، صُم من الحُرُم واترك**)) وقال بأصابعه الثلاث، فضمَّها، ثم أرسلها[3].

دلَّ الحديث على أن صوم النفل مندوب إليه، ولا سيما ثلاثة أيام من كل شهر من الأشهر الحرم؛ لأنه طاعة يحبها الله ورسوله، ويكره **صوم الدهر** غير يومي العيد وأيام التشريق لمن خاف ضرراً أو فوَّت حقّاً واجباً أو مندوباً، لما رواه البخاري ومسلم: ((لا صام من صام الدهر)). أما من لم يخف ضرراً أو لم يفوِّت واجباً أو مندوباً، فلا يكره الصوم في حقه. والأفضل أن يصوم يوماً ويفطر يوماً.

---

(١) وهو رمضان.

(٢) أي: من الأشهر الحرم.

(٣) أي: صُم ثلاثاً منها، ثم اترك.

إن الصوم يقوِّم اعوجاج الإنسان، ويهذِّب أخلاقه، ويحمله على الاستقامة وتقوى الله تعالى، والاستقامة عين الكرامة، وثوابها عظيم، ودخول الجنان بها مضمون، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصّلت: ٤١/٣٠]. وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ [الجن: ٧٢/١٦]. أي لو استقاموا على طريق الإسلام والإيمان، لوسَّعنا عليهم في الرزق. ولا يندم أحد على الاستقامة والسلوك الحسن، ومرضاة الله عز وجل، وإنما يندم على انحرافه وسوء أخلاقه ومعاملته لغيره، قريباً كان أو بعيداً، صديقاً أو جاراً، مسلماً أو غير مسلم.

-١١٧-

فضل صيام أيام معينة

فضل العمل في عشر ذي الحجة وصوم عاشوراء وصوم أيام أخرى

العشر الأوائل من ذي الحجة ذات فضيلة عظيمة، لأنها من أيام الحج، وهي معظمة عند الله تعالى، لذا أقسم الله بها، فقال سبحانه: ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١/٨٩ - ٢]. أي: أقسم بفجر كل يوم، أي: صباحه، وبالليالي العشر من ذي الحجة، فيكون العمل الصالح فيها أحبَّ إلى الله وأرضى له، كالصيام وتلاوة القرآن، والأذكار بالتهليل والتسبيح والتحميد والتكبير، وعمل الخير والمعروف، وقضاء الحوائج، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما من أيام، العملُ الصالح فيها أحبُّ إلى الله، من هذه الأيام - يعني أيامَ العشر - قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء)). والعمل الصالح: يشمل العبادة والطاعة والتكبير وغير ذلك. وعدم رجوعه بشيء من نفسه وماله، لأنه مات شهيداً.

دلَّ الحديث على أن العمل الصالح في العشر الأول من ذي الحجة أفضل من العمل في غيرها، إلا الجهاد في سبيل الله، فهو أفضل عمل في الإسلام بعد الإيمان بالله تعالى، ويليه الحج المبرور، أي: الذي لا رفث فيه ولا فسوق.

ويوم عرفة: هو اليوم التاسع من ذي الحجة، يسنُّ صومه، وهو يكفر ذنوب سنتين إذا كانت من الصغائر المتعلقة بحق الله تعالى، كما أن صومه يخفف من الكبائر، روى مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن صوم عرفة[١]، قال: «يكفّر السنة الماضية والباقية» أي: يكون صومه سبباً في ستر ذنوب السنة الفائتة والآتية من الصغائر، دلَّ الحديث على استحباب صوم يوم عرفة (يوم الوقفة لعيد الأضحى) إلا الحاج فلا يستحب له صومه، لأنه يضعفه عن التلبية وممارسة الشعائر.

وكذلك يسن **صوم عاشوراء وتاسوعاء**: وهما اليوم العاشر والتاسع من شهر المحرم، وصومهما مندوب مؤكد، لا مفروض، لما رواه الشيخان، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ «صامَ يوم عاشوراء، وأمر بصيامه» لأنه اليوم الذي نجَّى الله فيه موسى عليه السلام من الغَرَق، وأغرق فرعون وجنوده.

وثواب صوم عاشوراء تكفير (تغطية) لذنوب السنة الماضية، لما رواه مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء، فقال: يكفّر السنة الماضية» وهو دليل على فضل يوم عاشوراء.

وتمييزاً للأمة الإسلامية عن غيرها، وتحقيقاً لاستقلال شخصيتها وشرائعها، شُرع صوم اليوم التاسع من شهر المحرم، لما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لئن بقيتُ إلى قابل لأصومنَّ التاسع» أي لئن

---

(١) هو يوم الوقوف على جبل عرفة.

عشت إلى العام القادم لأصومن اليوم التاسع: وهو اليوم التاسع من المحرم. فيه دليل على ندب صيام اليومين: التاسع والعاشر من المحرَّم؛ لمخالفة اليهود الذين يصومون العاشر فقط.

ويستحب **صيام ستة أيام من شوال**، سواء عقب العيد أو بعده، منفردة أو متتابعة، لما رواه مسلم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((من صام رمضان، ثم أتبعه ستّاً من شوال، كان كصيام الدهر)) لأن الحسنة بعشر أمثالها، فمن صام رمضان كان صومه يعادل صوم عشرة شهور، فيكون صوم الأيام الستة من شوال معادلاً صوم شهرين، لأن كل ثلاثة أيام تجزئ عن شهر. والأفضل صوم الستة من شوال متوالية وعقب العيد.

ويستحب أيضاً صوم **الاثنين والخميس**، لما رواه مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين، فقال: ((ذلك يوم ولدتُ فيه، ويوم بُعثت فيه، أو أُنزِل علي فيه)) أي: بدأ نزول القرآن في يوم الاثنين في اليوم السابع عشر من شهر رمضان، وكانت ولادته ﷺ في يوم الاثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول.

ويؤكده ما رواه الترمذي – وقال: حديث حسن – عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ((كان رسول الله ﷺ يتحرى صوم الاثنين والخميس)) أي: يبحث ويلتمس مع الحرص، ليصوم في هذين اليومين.

والحكمة من استحباب صوم الاثنين والخميس: أن الأعمال تعرض فيهما على الله تعالى، لما رواه الترمذي – وقال حديث حسن – عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: ((تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأُحب أن يُعرض عملي وأنا صائم)) أي: تعرضها الملائكة الحفظة على الله تعالى.

-١١٨-

صوم ثلاثة أيام شهرياً وتفطير الصائم

يتعهد المولى عز وجل عباده، ويشرع لهم ما يربطهم بالطاعة والتزام الاستقامة، ويذكّرهم بين الحين والآخر.

ومن أساليب الطاعة والتذكير: مشروعية نوافل الصلاة، وتطوعات الصيام، ليبقى المؤمن متعلقاً بربه، مراقباً له في أيامه، حيث يغلب عليه النسيان والتورط في المخالفات.

ومن تطوعات الصيام: استحباب صوم ثلاثة أيام من كل شهر، والأفضل صومها في الأيام البيض، أيام استنارة القمر وكماله وسط الشهر: وهي الثالث عشر وتالياه، أي: الرابع عشر والخامس عشر. وهذا لون من ألوان العناية والرعاية، والتربية والرقابة.

ثبت في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((**أوصاني خليلي ﷺ بثلاثٍ: صيامِ ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام**)).

وفي رواية أخرى لمسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ((أوصاني حَبيبي ﷺ بثلاث، لن أدعهن ما عشت[1]: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، وبألا أنام حتى أوتر)).

وثواب صوم ثلاثة أيام شهرياً عظيم، فهو كصيام الدهر، ورد في حديث متفق عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((صومُ ثلاثة أيام من كل شهر: صومُ الدهر كلّه)).

ولا مانع من اختيار الأيام الثلاثة بحسب ظروف الإنسان، من أول الشهر أو أوسطه أو آخره، لما رواه مسلم عن مُعَاذة العدوية: ((أنها سألت عائشة رضي الله عنها: أكان رسول الله ﷺ يصوم كل شهر ثلاثة أيام؟ قالت: نعم، فقلتُ: من أي الشهر كان يصوم؟ قالت: لم يكن يبالي من أي الشهر يصوم)). أي: لم يهتم بتخصيص ثلاثة أيام معينة من الشهر، فيحصل الثواب بصيام أي ثلاث، وإن كان الأفضلُ كما ورد: صيامَ الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

وهذا ثابت فيما رواه الترمذي وقال: حديث حسن عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا صُمتَ من الشهر ثلاثاً، فصُم ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة)).

ويؤكده ما رواه أبو داود عن قتادة بن مِلْحان رضي الله عنه قال: ((كان رسول الله ﷺ يأمرنا بصيام أيام البيض: ثلاثَ عشرة، وأربعَ عشرة، وخمسَ عشرة)) وتسمى هذه الأيام **الأيامَ البيض**، لابيضاضها بنور القمر وهو بدر.

وكان النبي ﷺ يواظب على صوم هذه الأيام الثلاثة في الحضر والسفر، روى النَّسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كان رسول الله ﷺ لا يُفطر أيام البيض في حَضَر ولا سَفَر)).

---

(١) أي: مدة عيشي أو حياتي.

وتفطير الصائم، أي تقديم شيء له يُفطر عليه ولو تمرة أو شَرْبة ماء فيه ثواب، سواء كان ذلك في رمضان أو في غيره، روى الترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن زيد بن خالد الجُهَني رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((من فطَّر صائماً كان له مِثْل أجره، غير أنه لا يَنْقُص من أجر الصائم شيء)). دلَّ على فضل من فطَّر صائماً، وأنه يُثاب مثل ثواب الصائم، من غير نقص شيء من ثواب الصائم، وهذا ترغيب في عمل الخير، ونوع من أنواع التكافل الاجتماعي في الإسلام، ولغرس المحبة وإشاعة التآلف بين الناس.

ويؤكده ما رواه الترمذي - وقال: حديث حسن - عن أم عُمارة الأنصارية رضي الله عنها: أن النبي ﷺ دخل عليها، فقدَّمَت إليه طعاماً، فقال: كُلي، فقالت: إني صائمة، فقال رسول الله ﷺ: ((إن الصائم تصلي عليه الملائكة إذا أُكل عنده حتى يَفْرَغوا)) وربما قال: ((حتى يشبعوا)) وصلاة الملائكة معناها: الاستغفار له، إلى أن ينتهوا من أكلهم.

ويستحب الدعاء لمن أفطر عنده الصائم؛ لما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ جاء إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه، فجاء بخُبز وزيت، فأكل، ثم قال النبي ﷺ: ((أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلَّت عليكم الملائكة)). وهذا يدل على تقديم ما تيسر للضيوف دون تكلُّف، وذلك لا ينافي الجود، وتقديمَ ما هو أفضل وأوسع في ظرف آخر أو من شخص آخر.

-١١٩-

مشروعية الاعتكاف

الاعتكاف لغة: المكث أو اللبث وملازمة الشيء، وشرعاً: هو اللبث في المسجد من شخص مخصوص بنيّة، أو هو لزوم المسجد لطاعة الله، على صفة مخصوصة، من مسلم عاقل، ولو مميزاً، طاهرٍ مما يوجب غسلاً، وأقله: ساعة أو أقل. وهو مشروع في الإسلام وغيره من الأديان، كالصيام، فهو من الشرائع القديمة، لقول الله تعالى: ﴿وَعَهِدْنا إِلَى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ٢/١٢٥].

وقد امتدح الله تعالى المعتكفين بقوله: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ [الحج: ٢٢/٢٥].

والاعتكاف للرجال لا يكون إلا في المسجد، واشترط بعض الفقهاء (الحنفية) أن يكون في المسجد الجامع، أي الذي تقام فيه الجماعة والجمعة، وله إمام ومؤذن، وأن يكون المعتكف صائماً غير مفطر.

واعتكاف المرأة يكون في بيتها: وهو المحل المعيَّن للصلاة، ويكره أن يكون في المسجد، ولا يصح في غير موضع صلاتها من بيتها.

ويقصر المعتكف جهده على العبادة والأذكار وتلاوة القرآن، ويمتنع عن شؤون الحياة الخاصة من تجارة، وعلاقة نساء، وممارسة أهواء وشهوات، لقوله تعالى: ﴿وَلا تُباشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧/٢].

والغاية من الاعتكاف: ترويض النفس على محاسن العادات، وتقوية الصلة بالله عز وجل، ومناجاة الحق، وصفاء القلب بمراقبة الله سبحانه، والإقبال والانقطاع إلى العبادة في أوقات الفراغ، متجرداً لها، ولله تعالى من شواغل الدنيا وأعمالها، ومفوضاً أمر نفسه إلى الخالق ليرعاها، معتمداً على كرم المولى عز وجل، وأنه لا يخيِّب من رجاه وأناب إليه وأطاعه، وأن رحمته وسعت كلَّ شيء.

فالمعتكف يتقرب من رحمات ربِّه، ويتحصن بحصنه، ويحتمي بحماه من كل عدو من الجن والإنس، ويتشبه بالملائكة، ويتدرب على استجماع الخواطر ومراقبة الله، وعليه يكون الاعتكاف من أشرف الأعمال وأحبها إلى الله تعالى، إذا كان عن إخلاص لله عز وجل.

كما أن للاعتكاف ثواباً محققاً عند الله تعالى؛ لأن انتظار الصلاة له ثواب الصلاة. وإذا انضم الصيام إلى الاعتكاف، حقق كمال الحال، وزاد القربُ من الله تعالى، بما يفيض الله على الصائمين من طهارة القلوب، وصفاء النفوس، والبشارة بالجنة.

ومن أفضل الأيام للاعتكاف: اعتكاف العشر الأخير من رمضان؛ لما ثبت في الحديث المتفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان)). فهذا دليل على ندب الاعتكاف في العشر الأواخر من شهر رمضان، تأسياً بفعل النبي ﷺ.

ولم يقصر هذا النبي الكريم اعتكافه على عام دون عام، وإنما كان يلازم الاعتكاف حتى الوفاة، وورد في حديث متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها:

ولم يقصر هذا النبي الكريم اعتكافه على عام دون عام، وإنما كان يلازم الاعتكاف حتى الوفاة، ورد في حديث متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها: ((أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفّاه الله تعالى، ثم اعتكف أزواجُه بعده)). وهذا دليل آخر على تذكير الأهل والقرابة بالاعتكاف في هذه الأيام الأخيرة من رمضان.

ويشتد إقبال العبد على ربّه وطاعته ومناجاته، كلما دنا أجله، وكبرت سِنُّه، واستعد للرحيل عن عالم الدنيا المملوء بالملاهي والمغريات، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عَشْرة أيام، فلما كان العام الذي قُبِض فيه[1]، اعتكف عشرين يوماً)). أي: إن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأوسط من كل رمضان، طلباً لليلة القدر، فلما علم أنها في العشر الأخير، صار يعتكف فيه، وفي عام وفاته عليه الصلاة والسلام اعتكف عشرين يوماً، لمضاعفة الثواب.

كما ضاعف النبي مدارسة القرآن الكريم مع جبريل عليه السلام زيادةً في الاجتهاد والطاعة، بعد إخباره بدنوّ أجله، في سورة النصر: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم: ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوّاباً﴾ [النصر: ١/١١٠ - ٣]. فهذا نعي أجل رسول الله ﷺ، بعد اكتمال مهمته، وتبليغ رسالته، وأداء أمانته، وتحقيق الانتصارات المعروفة، ومن أخصها فتح مكة المكرمة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، فلم يبق إلا تسبيح (تنزيه) الله وحمده وتكبيره، والاستغفار، والإنابة إلى الله تعالى.

(١) أي: توفّي.

-١٢٠-

فرضية الحج وثوابه

الحج أحد أركان الإسلام الخمسة، فهو بالانتقال من الموطن إلى أماكن أداء المناسك يتوِّج بقية الأركان، ويحقق جميع مقاصد تلك الأركان، من إعلان توحيد الله عز وجل، وإقرار الشهادة برسالة النبي ﷺ، وممارسة حقيقة الصلاة في مركز الاتجاه الدائم إلى الكعبة المشرفة والبيت الحرام، ومشاهدة تجليات الله تعالى وأفضاله في ذلك المكان الطاهر، الذي بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وفيه التعود على السخاء والإنفاق في سبيل الله تعالى، وإطعام المحتاجين، وصوم النفس صوماً معنوياً عن كل ما سوى الله تعالى، من شهوات الدنيا ومشاغلها، والتجرد الخالص لمناجاة الحق سبحانه، والتأمل في عظمته وآيات كونه، وإدراك اختلاف الألسنة والألوان، مع وحدة الاتجاه والأعمال.

يدرك الإنسان لذة أداء الحج والعمرة (الزيارة) من الناحية الفعلية، ويحمد الله تعالى على أن جعل الحج والعمرة فرضاً من فرائض الإسلام، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧/٣]. وقال عز وجل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦/٢].

ولا يجب الحج ولا العمرة إلا بتوافر الاستطاعة البدنية (القدرة على المشي أو الركوب)، والمالية (وجود الزاد والراحلة للمسافر وأهله)، والأمنية (في أثناء الطريق ذهاباً وإياباً).

والحج شرعاً: قصد الكعبة لأداء أعمال مخصوصة، والعمرة مثل الحج ما عدا الوقوف بعرفة والمزدلفة ورمي الجمار، فأركانها أربعة: نيّة الإحرام من الميقات المعين في الشرع لكل قطر، والطواف سبعاً حول الكعبة المشرفة، والسعي سبعة أشواط، والحلق أو التقصير للرجل، والتقصير للمرأة.

وكون الحج أحد أركان الإسلام الخمسة: ثابت في حديث متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: ((بني الإسلام على خمس: شهادةِ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان)). وكل ذلك معلوم من الدين بالضرورة، أي بالبداهة، ويكفر جاحد أو منكر أي واحد من هذه الأركان.

وفرضية الحج في العمر مرة واحدة، وما عدا ذلك فهو تطوع أو نافلة، لما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: ((**يا أيها الناس، إن الله قد فرض عليكم الحج، فحُجّوا**)) فقال رجل[1]: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: ((لو قلتُ: نعم لوجبت، ولما استطعتم))، ثم قال: ((ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)).

دلَّ الحديث على وجوب الحج مرة واحدة في العمر على المستطيع، ويندب ترك السؤال عما لم ينزل فيه وحي في عهد النبوة، حتى لا يكون السؤال سبباً

---

(١) هو الأقرع بن حابس رضي الله عنه.

لتنزيل الفرضية الدائمة، قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفا اللَّهُ عَنْها وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ، قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥/١٠١ - ١٠٢].

والحج في مرتبة فضائل الأعمال يأتي في المرتبة الثالثة بعد الإيمان والجهاد، ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل النبي ﷺ: أي العمل أفضل[1]؟ قال: ((إيمان بالله ورسوله)) قيل: ثم ماذا؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله)) قيل: ثم ماذا؟ قال: ((حج مبرور)) والحج المبرور: هو الذي لا يرتكب صاحبه فيه معصية. وهذا دليل على فضل الحج، وأنه من أكثر الأعمال ثواباً عند الله تعالى، بشرط الإخلاص فيه لله، والبعد عن المعاصي.

ويؤيده حديث آخر رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضلَ العمل، أفلا نجاهد؟ فقال: ((**لكن أفضل الجهاد حج مبرور**)). وهذا دليل على أن الحج للنساء أفضل من الجهاد إذا لم يتعين القتال، بأن صار النفير عاماً لصدِّ هجوم الأعداء على البلاد.

ويراد بالحديث: أن أفضل الجهاد للنساء هو الحج المبرور: وهو المقبول الذي لم يخالطه إثم، أو يُثِر خصومة أو شهوة.

والحج يكفِّر الخطايا والذنوب الصغائر دون الكبائر، للحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((من حجَّ فلم يرفُثْ[2] ولم يفسُق[3]، رجع كيومَ ولدته أمه)) أي الحج القويم الذي لا معصية فيه يطهِّر الإنسان من الذنوب، ويعود بريئاً مطهَّراً من الذنب كحال الولادة.

(١) أي: ما أكثر الأعمال ثواباً؟
(٢) الرَّفث: الجماع وفحش القول.
(٣) أي: لم يخرج عن الطاعة.

-١٢١-

فضل الحج والعمرة

الحج والعمرة ممارسة عملية، ومدرسة تربوية فعلية، لصقل ومعرفة أخلاق الرجال والنساء، في الأسفار والغربة والبعد عن الأوطان، وبهما تتحقق أيضاً - مِثْل الصلاة والصوم - المساواة الفعلية الحقيقية بين الناس، فلا يتميز كبير عن صغير، ولا غني عن فقير، ولا ذو مركز وجاه عن وضيع.

وهما أيضاً سبيل توثيق الأخوة الإسلامية، وبناء جسور التعارف والتآلف والمحبة والتعاون، فالحج أو العمرة أعظم مؤتمر شعبي إسلامي، يعبر عن مشاعر الشعوب والأفراد، لو أتيحت لهم الحرية، وامتنع الاختلاف والتنازع والتعصب للمذهب أو القوم أو البلد أو الاتجاه في الرأي.

والعمرة كفّارة للذنوب الماضية، وهي زيارة بيت الله الحرام على وجه مخصوص، وهي فرض كالحج في رأي الشافعية، وسنة مؤكدة عند الحنفية.

والحج المبرور، أي الذي لا إثم فيه ولا معصية ليس له جزاء إلا الجنة، ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((**العمرة إلى العمرة كفّارة لما بينهما**[١]**، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**)).

---

(١) أي: سبب في المغفرة وستر السيئات.

ويوم عرفة: هو يوم العتق من النار، لما رواه مسلم عن عائشة رضي ا لله عنها: أن رسول ا لله ﷺ قال: ((**ما من يوم أكثرَ من أن يَعْتِق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة**)) أي: إن ا لله تعالى يَعتق[1] في يوم الوقفة - يوم عرفة - أكثر مما يعتقه من كل الأيام، ويتجلى ا لله فيه على عباده، ويفاخر بهم ملائكته الكرام، فيغفر لهم.

والعمرة في شهر رمضان: تعدل حجة، أي: تماثل حجة، وتقوم مقامها في الثواب، لا في كل شيء، ورد في حديث متفق عليه عن ابن عباس رضي ا لله عنهما: أن النبي ﷺ قال: ((عمرة في رمضان تَعْدل حجة، أو حجة معي)). وهذا شك من الراوي، أي: حجة بصحبتي.

وتجوز **النيابة في الحج والعمرة** بعد الموت، أو في حال العجز عن الركوب والتنقل كالشيخوخة والمرض المقعد؛ لما ورد من حديث متفق عليه عن ابن عباس: أن امرأة قالت: يا رسول ا لله، إن فريضة ا لله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً، لا يثبُت على الراحلة[2] ، أفأحج عنه؟ قال: نعم)). وهذا دليل بيِّن على أن الحج لا يسقط عن المكلَّف إذا عجز بنفسه، بل يجب عليه الإنابة عنه؛ ليؤديه بالوساطة عنه، ويُخْرَجُ المال من تركته فوراً.

ويؤيده حادثة أخرى في النيابة في الحج أو العمرة، روى أبو داود والترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن لَقيط بن عامر رضي ا لله عنه: أنه أتى النبيَّ ﷺ، فقال: إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج، ولا العمرة، ولا الظَّعْن[3] ، قال: ((حُجَّ عن أبيك واعتمر))، وهو دليل آخر على جواز النيابة عمن يوصف بالمعضوب: وهو العاجز بسبب مرض لا يرجى برؤه، أو شيخوخة، أو الموت وقت الحج والعمرة، بشرط أن يكون النائب قد حجَّ واعتمر عن نفسه. والنيابة جائزة في الفرض والنفل.

---

(١) أي: ينجي من النار.

(٢) أي: لا يستقر على ما يركب من الدواب ونحوها.

(٣) أي: الارتحال والسفر.

ويجوز **حج الصبي المميز** الذي بلغ سبع سنين، و لم يبلغ سنَّ التكليف؛ لما رواه البخاري عن السائب بن يزيد رضي ا لله عنه قال: ((حُجَّ بي مع رسول ا لله ﷺ في حجة الوداع، وأنا ابن سبع سنين)) وذلك للتمرن على العبادة وهو صغير مميز، ولكن لا تُسقط هذه الحجة الفريضة المقررة.

ويؤيد ذلك ما رواه مسلم عن ابن عباس رضي ا لله عنهما: أن النبي ﷺ لقي ركباً بالرَّوْحاء[١] ، فقال: مَنْ القوم؟ قالوا: المسلمون، قالوا: من أنت؟ قال: ((رسول ا لله))، فرفعت امرأة صبياً، فقالت: أَلهذا حجٌّ؟ قال: ((نعم، ولكِ أجر))، أي: يصح الحج من الصبي المميز، قبل التكليف، وله ثواب عمله، كما أن لوليِّه مثل عمل الصبي من الصالحات.

والتقشف في الحج: من مستلزماته، ولا يطلب الترفُّه والإعداد الزائد لرحلته؛ لما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي ا لله عنه: ((أن رسول ا لله ﷺ حَجَّ على رَحْلٍ[٢] ، وكانت زاملته)) أي: حج النبي ﷺ على بعير من غير محمل، وكانت راحلته هي البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع، أي: لم يكن معه زاملة لحمل الطعام والمتاع، بل كانت راحلته: هي الراحلة والزاملة.

ولا مانع شرعاً من **الاتّجار في أثناء الحج** كإيجار دابة أو سيارة أو بيع طعام أو شراب ونحو ذلك، وإن كان الأفضل والأكمل ترك التجارة في أثناء الحج. روى البخاري عن ابن عباس رضي ا لله عنهما قال: كانت عُكاظ، ومِجَنَّة، وذو المجَاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثَّموا أن يتَّجروا في المواسم[٣] ، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨/٢]. أي: إن المتعاملين في الأسواق المالية العربية في الجاهلية خافوا الوقوع في الإثم بسبب تعاطي التجارة في أثناء الحج، فنزلت الآية المذكورة تأذن بالاتّجار، فهو من حوائج الناس.

---

(١) أي: لقي جماعة من الركبان في موضع معروف بينه وبين المدينة ٣٦ ميلاً.

(٢) أي: البعير الذي لا محمل عليه.

(٣) أي: خافوا من الإثم (الذنب) وتحرَّجوا منه في مواسم التجارة المتبادلة، أو الأسواق المخصصة للبيع.

-١٢٢-

فريضة الجهاد ومنزلته في الإسلام

- ١ -

إن العداوة المتأصلة في قلوب الأعداء للمسلمين قديمة ومستمرة في كل عصر وزمان، ولا سبيل للتخلص من اعتداءات الأعداء على ديارنا وأموالنا وأنفسنا إلا بالجهاد، لذا كان من الواجب الإعداد للجهاد على الدوام؛ حفاظاً على الحرمات والوجود الإسلامي، وقد وردت آيات قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة تأمر بالجهاد وتنظيم صفوفه، والإعداد المستمرّ له، لتبقى عزة الإسلام والمسلمين قائمة ومهيمنة وراسخة.

فمن الآيات الآمرة بالجهاد إذا وجدت مسوغاته قول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/٣٦]. وقوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦]. أي: فرض عليكم الجهاد على الرغم من كراهيته طبعاً.

وفي حال النفير العام: يجب الإسراع للانضمام في صفوف المجاهدين، قال الله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/٤١]. أي: اخرجوا للقتال شباباً وكهولاً وشيوخاً راغبين في القتال عند مداهمة الأعداء بلاد المسلمين، دفعاً للخطر، وتفادياً للآثار المدمرة.

وباب الجنة مفتوح حتماً للمجاهدين، لا يغلق في كل زمان ومكان، بسبب إخلاصهم وتضحياتهم بأنفسهم وأموالهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْراةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٩/١١١].

ومن الأحاديث النبوية الثابتة المبينة لمنزلة الجهاد ومرتبته في الإسلام، وللترغيب والحضّ على ممارسته: ما رواه البخاري ومسلم (المتفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **سئل رسول الله ﷺ، أيُّ العمل أفضل**[١]؟ **قال:** ((**إيمان بالله ورسوله**)) **قيل: ثم ماذا؟ قال:** ((**الجهاد في سبيل الله**)) **قيل: ثم ماذا؟ قال:** ((**حج مبرور**)) أي: إن الجهاد يأتي في المرتبة الثانية بعد الإيمان با لله ورسوله، مما يدل على أهميته، فهو ذروة سنام الإسلام.

وفي رواية أخرى يُجعل الجهاد في المرتبة الثالثة بعد الإيمان، وبرّ الوالدين، ورد في حديث آخر (متفق عليه) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: ((الصلاة على وقتها)) قلت: ثم أي؟ قال: ((برُّ الوالدين)) قلت: ثم أي؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله)) فهذه الثلاثة أمور هي: أصول الفرائض وقوام الواجبات، فأول شيء هو الإيمان، لأنه قاعدة العمل الصالح المبرور والمقبول عند الله تعالى، ولا يقبل عمل من دونه، ثم

(١) أي: أكثرها ثواباً.

يليه الصلاة على وقتها، ثم يليه برّ الوالدين: أي: الإحسان إليهما وطاعتهما، لأنهما سبب وجود الولد، ثم يليه الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله والدين، ورفعة الأمة، ولأنه الوسيلة الوحيدة لدفع شرِّ الأعداء وقمع أو دحر عدوانهم.

وقد يجمع النبي ﷺ في الفضيلة بين الإيمان بالله والجهاد، جاء في حديث متفق عليه عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: ((الإيمان بالله، والجهاد في سبيله)). والواقع يكون الترتيب بين الأعمال بحسب حال الشخص أو الظروف والزمان.

فقد يكون برُّ الوالدين بالنسبة لشخص أفضل، ولغيره يكون أداء الصلاة أفضل، ولغيره يكون الجهاد هو الأفضل؛ بحسب كل حال وظرف وزمان. وهذا هو طريق التوفيق بين الأحاديث التي قد يظهر منها التعارض.

وقد يكون الجهاد معادلاً كل ما في الدنيا، جاء في حديث متفق عليه عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**لَغَدوةٌ في سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها**)). والغدوة: السير أول النهار، والرَّوْحة: السير آخر النهار من بعد الظهر إلى الليل.

والجهاد المتميز بهذه المرتبة: هو المقصود به نصر دين الله وإعلاء كلمته واسترداد الأراضي المغتصبة، فما يُعطاه المجاهد من ثواب في الجنة خير له مما لو أعطي الدنيا كلها وما فيها، لأنها فانية.

والجهاد يكون بالنفس والمال أيضاً، وقد يقدم المال على النفس، بحسب الحاجة، إذ يكون المال سبيل الإعداد وشراء السلاح أو تصنيعه، أو من أجل الإنفاق على المجاهدين للوصول إلى مواقع القتال.

ورد في حديث (متفق عليه) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ، فقال: أي الناس أفضل؟ قال: ((مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله. قال: ثم من؟ قال: مؤمن في شِعْب من الشعاب يعبد الله، ويدع الناس من شرِّه)).

والاستعداد للجهاد هو الرِّباط، أي: ملازمة ثغور البلاد لمنع دخول العدو: له حكم الجهاد وفضله، جاء في حديث (متفق عليه) عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالى أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها)).

-١٢٣-

فضيلة المرابطة والشهادة

- ٢ -

الاستعداد للجهاد له حكم الجهاد، والمرابطة أو الرباط: وهو ملازمة ثغور (أطراف) البلاد النائية غالباً لمنع عدوان العدو: هو نوع من الجهاد أو الإعداد له. لذا حضّ الإسلام على الرباط في سبيل الله، ورغّب في الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، حتى ولو كان الرباط ساعة أو يوماً، والثواب على المشي من أجل الجهاد خير من الدنيا والآخرة، قال الله تعالى آمراً بالرباط والإعداد للجهاد والصبر عليه: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٣/٢٠٠].

ووردت أحاديث كثيرة في فضيلة الرباط، منها:

- الحديث المتفق عليه كما تقدم عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالى أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها**)) ويقصد بالرباط: الحفاظ على ديار المسلمين وأعراضهم وكراماتهم وعزتهم وحرماتهم الدينية والإنسانية. ويدل هذا الحديث على الترغيب في الجهاد، والتزهيد في الدنيا.

- ومنها الحديث الذي رواه مسلم عن سلمان الفارسي رضي ا لله عنه قال: سمعت رسول ا لله ﷺ يقول: ((رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه. وإن مات فيه أُجري عليه عمله الذي كان يعمل، وأُجري عليه رزقه، وأَمِن الفتّان))، أي: أمِنَ من سؤال القبر، وفتنة الملَكين له.

دلَّ الحديث على أن ثواب عمل المرابط دائم لا ينقطع بالموت، وكذلك رزقه لا ينقطع، لأنه يُرْزَق من الجنة كما يرزق الشهداء. ولا يسأل المرابط في قبره، ويكون رباط يوم خيراً من صيام شهر؛ لأن نفع الصوم مقصور على صاحبه، ونفع الرباط عام مفيد للآخرين، يؤدي إلى نفع البلاد أو الأوطان، ونفع الأديان والأعراض.

- ويؤيده حديث آخر رواه أبو داود والترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن فَضَالة بن عُبيد رضي ا لله عنه: أن رسول ا لله ﷺ قال: ((كل ميت يُختَم على عمله إلا المرابط في سبيل ا لله، فإنه يُنمَّى له عمله إلى يوم القيامة، ويُؤْمَن من فتنة القبر)).

دلَّ هذا الحديث على فضل الرباط في سبيل ا لله، وأن كل إنسان ينقطع عمله بالموت، إلا المرابط في سبيل ا لله، فإنه يبقى له ثواب عمله ورباطِه، وأن ثوابه يزداد إلى يوم القيامة، وأنه لا يحاسب في قبره.

- ويعجب الإنسان حين يرى فضيلة الرباط خيراً من ألف يوم فيما سواه، روى الترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن عثمان رضي ا لله عنه قال: سمعت رسول ا لله ﷺ يقول: ((رِباط يوم في سبيل ا لله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل)) فهو يدل على زيادة أجر المرابط على أجر غيره، إذا حسنت نيته، وأخلص عملَه لله عز وجل.

وثواب الجهاد محقق، إذا كان بنية مخلصة لله تعالى دون مباهاة ولا سمعة ولا رياء، ولا لكسب دنيوي مادي أو شهرة. روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((تضمَّن الله لمن خرج في سبيله، لا يُخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برُسُلي، فهو عليَّ ضامن أن أُدخله الجنة أو أُرْجعَه إلى منزله الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة.

- والذي نفس محمد بيده، ما من كَلْم يُكْلَم[1] في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِمَ: لونُه لونُ دم، وريحُه ريحُ مِسْك.

- والذي نفس محمد بيده، لولا أن يَشُقَّ على المسلمين ما قعدتُ خلاف سرية[2] تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجدُ سعة فأحمِلَهم، ولا يجدون سعة[3] ، ويشقُّ عليهم أن يتخلَّفوا عني.

- والذي نفس محمد بيده، لوددت أن أغزوَ في سبيل الله فأُقْتَل، ثم أغزوَ فأُقتل، ثم أغزوَ فأُقتلَ، ثم أغزوَ فأُقتَل)).

أرشد الحديث إلى أن الله تكفَّل بالرزق والإحسان، والتفضل والإنعام، على المجاهدين المخلصين لإعلاء كلمة الله، فيكون للمجاهد المخلص إحدى الحسنيين: إما الجنة وإما الغنيمة الدنيوية، وأن الشهيد يأتي يوم القيامة على هيئته التي قتل عليها، تفوح رائحة دمه مسكاً، ينتشر بين أهل المحشر، إظهاراً لفضله.

---

(١) الكلم: الجرح.
(٢) السَّرية: قطعة من الجيش أقصاها ٤٠٠ رجل.
(٣) أي ما يسع ويكفي سائر المسلمين.

-١٢٤-

منزلة الشهداء

-٣-

الشهيد: هو الـذي يضحِّي بنفسه وروحه وأغلى ما يملكه في سبيل ا لله وأمَّته، لإعلاء كلمة ا لله تعالى، وإعزاز الدين والوطن والأمة، فيستحق الخلود وكلَّ أنواع التكريم في الدنيا والآخرة.

وإذا لم تكن هناك تضحيات من بعض أفراد الأمة، فهي أمة ميتة أو في طريقها إلى الموت والفناء.

ومن أجل جود الشهيد وسخائه بروحه رخيصةً في سبيل مرضاة ا لله، جعله ا لله حيّاً في ضمير الأمة، وحيّاً مرزوقاً من خيرات الجنان بعد موته إلى يوم البعث، قال ا لله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٥٤]. وقال سبحانه: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَنْ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٦٩ - ١٧١].

وبشائر الشهيد في الإخبارات النبوية كثيرة، منها الحديث (المتفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**ما من مكلوم يُكْلَم**[١] **في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة، وكَلْمه يَدْمى**[٢]**: اللونُ لونُ دم، والريحُ ريحُ مسك**)).

وفي حديث آخر رواه أبو داود والترمذي – وقال: حديث حسن – عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((من قاتل في سبيل الله من رَجُل مسلم فُوَاق ناقة[٣]، وجبت له الجنة، ومن جُرِح جُرْحاً في سبيل الله، أو نُكِبَ نَكْبة[٤]، فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت: لونها الزعفران، وريحها كالمسك)). والزعفران معروف: نبات أصفر اللون.

وفي معناه حديث آخر رواه الترمذي – وقال: حديث حسن – عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مَرَّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشِعْب[٥] فيه عُيَيْنَةٌ[٦] من ماء عذبةٌ، فأعجبته، فقال: لو اعتزلتُ الناس فأقمتُ في هذا الشِّعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: ((لا تفعل، فإن مُقَام أحدكم في سبيل الله أفضلُ من صلاته في بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم، ويدخلَكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله. من قاتل في سبيل الله فُوَاقَ ناقة[٧]، وجبت له الجنة)) أي: إن الجهاد أفضل من الصلاة بسبعين مرة، إذا تعين الجهاد بهجوم الأعداء على بلاد المسلمين، وإلا كانت الصلاة أفضل العبادات البدنية.

---

(١) أي: ما من مجروح يجرح.
(٢) أي: جُرحه يسيل منه الدم.
(٣) أي: قدر ما بين الحلبتين، كناية عن يسير الجهاد.
(٤) أي: أصيب بمصيبة.
(٥) طريق في الجبل.
(٦) عين صغيرة.
(٧) الفُواق كما تقدم: ما بين الحَلْبتين.

ويؤكد هذا التفصيل في بيان تفضيل الجهاد على سائر العبادات حديث رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة أيضاً قال: قيل: يا رسول الله، ما يَعْدِل الجهاد في سبيل الله؟ قال: ((لا تستطيعونه))، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً، كلّ ذلك يقول: ((لا تستطيعونه))! ثم قال: ((مَثَل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت[١] بآيات الله، لا يَفْتُر[٢] من صلاة، ولا صيام، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله)) هذا لفظ مسلم. وفي رواية البخاري: أن رجلاً قال: يا رسول الله، دُلَّني على عمل يَعْدِل الجهاد؟ قال: ((لا أجدُه)) ثم قال: ((هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تَدْخُلَ مسجدك، فتقوم ولا تفتُر، وتصوم ولا تُفطر؟)) فقال: من يستطيع ذلك؟

أي: إن الجهاد إذا كان متعيناً لحفظ الدين وأهله، كان أفضل العبادات، فصفة المجاهد العظيمة مَثَل المواظب على الصلاة طوال الليل، والصوم طوال النهار.

ولا يُسْتَشهد المجاهد إلا بعد أن يخوض المعارك بشجاعة فائقة، ويغامر في الميادين، لا يخشى بأساً ولا موتاً، مضحياً بأغلى ما يملك، روى مسلم عن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: ((من خير معاش الناس لهم[٣]: رجلٌ[٤] ممسك بعِنان[٥] فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هَيْعَة[٦] - أو فَزْعَة - طار على متنه، يبتغي القتل أو الموت مظانَّه[٧]، أو رجلٌ في غُنَيْمَة أو شَعَفَة[٨] من هذه الشَّعَف، أو بطنِ واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي

(١) القانت: المطيع القائم، يقرأ آيات الله. والقائم: الذي يقوم الليل مصلياً.
(٢) لا ينقطع ولا يكفّ.
(٣) أي: من خير ما يعيش به الناس من الرزق.
(٤) أي: معاش رجل.
(٥) العنان: اللجام.
(٦) صوتاً داعياً للحرب.
(٧) أي: ما يغلب على الظن مكان المعركة فيه.
(٨) أي: في أعلى جبل.

الزكاة، ويعبد ربَّه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير)). وهذا دليل آخر على تفضيل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله والاستعداد له.

وروى البخاري عن أبي هريرة أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: ((إن في الجنة مئةَ درجة، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض)). هذه مئة درجة للشهداء الذين جاهدوا في سبيل الله، ومسافة ما بين كلِّ درجتين: كالمسافة بين السماء والأرض.

-١٢٥-

درجات المجاهدين وأعمالهم

- ٤ -

تثبت الأحداث والوقائع في كل زمان ومكان أن الدفاع عن الديار والأوطان والقيم والدين والعرض، والحفاظ على الاستقلال، أمر واجب وضروري وحيوي، وهذا هو السبب الجوهري في تشريع الجهاد في الإسلام؛ حفاظاً على عزة الأمة وكرامتها، ووجودها، وصوناً لمصالحها وثرواتها، وبغير اختيار الجهاد طريقاً استراتيجياً أو حيوياً، تصبح الأمة ذليلة مَهينة، مطموعاً فيها من كل جانب، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦]. ومن أجل منافع الجهاد: وردت أحاديث كثيرة تبين فضل المجاهدين ودرجاتهم العالية عند الله تعالى، منها:

- ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال «**إن في الجنة مئة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**». دلَّ الحديث على مدى ما للمجاهدين من ثواب جزيل ومنزلة رفيعة في الجنة.

- ومنها ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه: أن رسول ا لله ﷺ قال: ((من رضي با لله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة)) فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعِدْها عليَّ يا رسول ا لله، فأعادها عليه، ثم قال: ((وأُخرى يرفعُ ا لله بها العبد مئة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض)) قال: وما هي يا رسول ا لله؟ قال: ((الجهاد في سبيل ا لله، الجهاد في سبيل ا لله)) أي: إن للمجاهدين في الجنَّة بصفة مستقلة مئة درجة، من بين الدرجات المخصصة للصالحين في الجنة.

- **ودخول الجنة مضمون للمجاهدين**، روى مسلم عن أبي بَكْر بن أبي موسى الأشعري قال: سمعتُ أبي رضي ا لله عنه، وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول ا لله ﷺ: ((إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف)) فقام رجل رثٌّ الهيئة[1]، فقال: يا أبا موسى، أأنت سمعت رسول ا لله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، فرجع إلى أصحابه، فقال: أقْرَأ عليكم السلام، ثم كسر جَفْن سيفه[2] فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضَرب به حتى قُتل. دلَّ الحديث على الترغيب في الجهاد، وأن ا لله يدخل الجنة ضارب الأعداء بالسيف في سبيل مرضاة ا لله تعالى.

وهناك حديث آخر يجعل أيّ سعي في الجهاد موجباً لدخول الجنة والبُعد عن النار، روى البخاري عن أبي عَبْس عبد الرحمن بن جُبير رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((ما اغبرَّتْ قَدَما عبد في سبيل ا لله، فتمسَّه النار)). فهذه بشارة للمجاهد بالنجاة من النار، وهذا مستمد من قول ا لله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلاّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩/١٢٠ - ١٢١].

---

(١) أي: بالي الثياب.

(٢) أي: غمده.

- **وتتعدد أساليب الحض على الجهاد في سبيل الله** في السُّنة النبوية، منها: ما رواه الترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يلج النارَ رجل بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن في الضَّرْع، ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودُخان جهنم)) أي: لا يدخل النار من بكى بكاءً صادقاً من خوف الله، حتى يعود اللبن في الضرع، وهذا تعليق بمستحيل، وكناية عن الاستحالة؛ لأنه من المستحيل أن يعود اللبن في الضرع أبداً، وهو دليل قطعي على تجنب النار أبداً، إذا صحت عقيدته ونيَّته. وإذا علّق الشيء بمستحيل دلَّ على أن ما علّق به ثابت لا محالة. مثل قوله تعالى: ﴿وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٧/٤٠].

ويؤيد معنى ذلك حديث آخر رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((عينان لا تمسُّهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)).

والبكاء من خشية الله: هو الخوف من جلاله وعظمته، وهو مثل الحراسة في سبيل الله حتى لا يداهمنا العدو: دليل على صدق الإيمان وكمال المراقبة والإخلاص.

- **وإعداد المجاهد، ورعاية أهله:** لهما مثل ثواب المجاهد، لحديث (متفق عليه) عن زيد بن خالد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((من جهَّز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خَلَف غازياً في أهله، فقد غزا)) أي: إن من أعدَّ للمقاتل ما يحتاج إليه من أدوات القتال ونفقاته أو ما يحتاجه من سلاح ومال، ومن رعى أهل (زوجة) المجاهد وأولاده، كان له مثل أجر المجاهد، وكل ذلك يعبر عن تضامن المسلمين في وقت السلم والحرب.

-١٢٦-

ثواب المجاهدين

- ٥ -

للمجاهدين ثواب جزيل، وخصوصية فريدة، ومنزلة عظيمة في الجنة، لأنهم ضحّوا بأنفسهم وأرواحهم رخيصةً في سبيل الله: سبيل الحق وإعلاء كلمة الله، وإذا كانت أعمال الخير والإحسان كثيرة، فالجهاد في طليعة هذه الأعمال، وهو أفضلها وأقربها لرضوان الله تعالى، وأولها سبباً في دخول جنة الخلد، قال الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ٤/٩٥].

وأيّدت السُّنة النبوية صريح القرآن الكريم في هذه الآية وغيرها، بدليل ما رواه الترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أفضل الصدقات: ظِلُّ فُسطاط في سبيل الله، ومنيحةُ خادم في سبيل الله، أو طَروقةُ فَحْل في سبيل الله)) أي: أفضل أعمال الخير الاجتماعية: استظلال المجاهد في بيت شعر، وتقديم خادم يخدم المجاهد،

وإعطاء المجاهد ناقة بلغت سنّاً يطرقها به الفحل (الجمل القوي) للاستعانة بها في ميادين الجهاد وأسبابه المؤدية إليه.

وذلك لأن إعداد المقاتلين مهم جداً، وكان الجهاد تطوعاً، و لم يكن هناك في العهد الإسلامي جيوش نظامية، فاحتاج الأمر إلى تعاون الأمة المسلمة فيما بينها لإعداد وسائل القتال وأدواته الضرورية، لما رواه مسلم عن أنس رضي ا لله عنه: أن فتىً من أسلم قال: يا رسول ا لله، إني أريد الغزو[١]، وليس معي ما أتجهز به، قال: ((ائت فلاناً، فإنه قد تجهَّز فمرِض)) فأتاه فقال: إن رسول ا لله ﷺ يُقْرِئك السلام، ويقول: أعطني الذي تجهَّزت به، قال: يا فلانة، أعطيه الذي كنتُ تجهَّزت به، ولا تحبسي منه شيئاً، فوا لله لا تحبسي منه شيئاً، فيبارَك لكِ فيه. فمن جهَّز المجاهد كان له ثواب المجاهد.

ولا يطلب من جميع الناس المشاركة في الجهاد، لأن الحياة المعيشية من زراعة وصناعة وتجارة وغيرها تحتاج إلى من يعمل فيها بجد ونشاط وإخلاص، لأن الإنتاج مطلوب أيضاً لصالح الأمة والمجتمع والبلاد، ويكون أجر المجاهد فعلاً، والمنتج الذي يقدِّم ما يحتاج إليه الناس في الوطن، وكذلك من يرعى أُسر المجاهدين، سواءً، لما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه: أن رسول ا لله ﷺ بعث إلى بني لَحْيان، فقال: ((لِينبعثْ من كل رجلين أحدُهما، والأجر بينهما)). وفي رواية لمسلم: ((ليخرجْ من كل رجلين رجل)) ثم قال للقاعد: ((أيكم خَلَف الخارج في أهله وماله بخير، كان له مِثْل نصف أجر الخارج)).

وثواب المجاهد في الجنة: مشروط بالإيمان الصحيح في العقل والقلب والعمل، ورد في حديث (متفق عليه) عن البراء بن عازِب رضي ا لله عنه قال: أتى

(١) الجهاد المشروع، لا الغزو بمعنى النهب والسلب.

النبيَّ ﷺ رجلٌ مقنَّع بالحديد[١]، فقال: يا رسول الله، أُقاتلُ أو أُسلم؟ فقال: ((أسلم ثم قاتل)) فأسلم، ثم قاتل، فقُتِل. فقال رسول الله ﷺ: ((عمِلَ قليلاً، وأُجِرَ كثيراً)).

ولا يتمنى أحد دخل الجنة وحظي بأنواع نعيمها الرجوع إلى الدنيا سوى الشهيد، فهو ينال عزَّ الدنيا وسعادة الآخرة بجهاده وتضحيته، للحديث (المتفق عليه) عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عَشْر مرات؛ لما يرى من الكرامة)). وفي رواية: ((لما يرى من فضل الشهادة)).

والمفاجأة العظمى: أن الله تعالى يغفر للشهيد كل ذنوبه، سوى الحقوق المالية للناس من دَيْن أو حق مالي أو غيره، لما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((**يَغْفِر الله للشهيد كل شيء إلا الدَّين**)). وفي رواية أخرى لمسلم: ((القتل في سبيل الله يكفِّر كل شيء إلا الدَّيْن[٢])).

---

(١) هو أصرم بن عبد الأشهل، غيَّر النبيّ اسمه وسماه: زرعة، جاء إلى النبي وهو مغطى بالسلاح.

(٢) أي: يكفِّر كل الذنوب إلا الدَّيْن، لأنه حق العباد.

-١٢٧-

الجهاد طريق الجنَّة

الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنّة، فتحه الله تعالى لخاصة أوليائه، وصفوة أحبابه، فمن أراد الجنة سلك طريق الجهاد، أو أعدَّ لغيره وسائل الجهاد، أو خَلف مجاهداً في أهله. وهذا مطلب عزيز كريم، وغاية شريفة عظيمة، ادَّخرها منزل القرآن الكريم للمجاهدين في سبيله، فقال الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصّف: ٦١/١٠ - ١٣].

وتؤكد الأحاديث النبوية البشرى بالجنة لأهل الجهاد، منها ما رواه مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قام فيهم، فذكر: أن الجهاد في سبيل الله والإيمانَ با لله أفضل الأعمال. فقام رجل فقال: يا رسول الله، أرأيتَ إن قتلتُ في سبيل الله أتكفَّر عني خطاياي[1]؟ فقال رسول الله ﷺ: ((نعم، إن

---

(١) أي: ذنوبي.

قُتِلتَ في سبيل الله وأنت صابر، محتسبٌ[١]، مقبلٌ غيرُ مدبر)) ثم قال رسول الله ﷺ: ((كيف قلتَ؟)) قال: أرأيتَ إن قتلتُ في سبيل الله أتُكفَّرُ عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: ((نعم، وأنت صابر محتسب، مقبل غيرُ مدبر، إلا الدَّين فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك)). دلَّ هذا الحديث على أن الجهاد يكفِّر خطايا المجاهد كلَّها إلا حقوق الآدميين بشرط كون القتال مع الصبر واحتساب الأجر عند الله تعالى، والإقبال على الجهاد، وترك الفرار، والتحلي بالإخلاص لله تعالى.

والدَّين الذي لا يُكفَّر: هو الذي امتنع المدين من أدائه مع تمكُّنه منه. أما الذي قصد الوفاء، وكان معسراً أو متعثراً، فالمرجو من كرم الله أن يرضي الله عنه خصومه، كما قال القرطبي رحمه الله.

ومن بشائر النبي ﷺ للمجاهد بالجنة: ما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رجل[٢]: أين أنا يا رسول الله، إن قتلتُ؟ قال: ((في الجنة)) فألقى تَمَراتٍ كنَّ في يده، ثم قاتل حتى قُتل.

وهذه رواية مفصلة في قصة هذا الرجل، روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابُه حتى سَبَقُوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: ((لا يَقْدَمَنَّ أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه[٣])) فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: ((قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض)) قال: يقول عُمير بن الحُمام الأنصاري رضي الله عنه: يا رسول الله، جنةٌ عرضها السماوات والأرض؟ قال: ((نعم)) قال: بخٍ بخٍ[٤].

---

(١) أي: طالب ثواب الله.

(٢) هو عمير بن الحُمَام رضي الله عنه في موقعة بدر الكبرى.

(٣) أي: حتى أكون أنا أقرب منه إليه.

(٤) أي: حسن حسن، كلمة تدل على الرضا والمدح.

فقال رسول ا لله ﷺ: ((ما يحملك على قولك: بخ بخ؟)) قال: لا وا لله يا رسول ا لله إلا رجاءَ أن أكون من أهلها. قال: ((فإنك من أهلها)) فأخرج تَمَرات من قَرَنه[١]، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حَييت حتى آكل تَمَراتي هذه، إنها لحياة طويلة! فرمى بما معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل.

دلَّ هذا الحديث على أن الترغيب في الجهاد من قائد الجيش يفيد فائدة بالغة، في شدِّ عزائم المقاتلين، وتحريضهم على التضحية والإقدام على الشهادة، وحبِّ الموت من أجل الأجر والجنة.

ومن المواقف المشرفة لبعض المجاهدين الصحابة موقفُ جماعة قتلهم محاربون قطاع طرق، روى مسلم عن أنس قال: جاء ناس[٢] إلى النبي ﷺ: أن ابعث معنا رجالاً يعلّمونا القرآن والسُّنة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم: القُرَّاء، فيهم خالي حَرَام[٣]، يقرؤون القرآن ويتدارسونه بالليل، يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء، فيضعونه في المسجد، ويحتطبون، فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصُّفّة[٤] وللفقراء، فبعثهم النبي ﷺ، فعَرَضوا لهم، فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللهم بلّغ عنا نبيّنا أنّا قد لقيناك، فرضينا عنك ورضيت عنا، وأتى رجل حَرَاماً خال أنس من خلفه، فطعنه برُمح حتى أنفذه، فقال حرام: فُزت وربّ الكعبة، فقال رسول ا لله ﷺ: ((إن إخوانكم قد قُتلوا، وإنهم قالوا: اللهم بلّغ عنّا نبينا أنّا قد لقيناك، فرضينا عنك ورضيت عنا)). دلَّ الحديث على رضا ا لله تعالى على جماعة من الصحابة أقبلوا على قراءة القرآن وطلب العلم وطاعة الرسول ﷺ، ورضاهم بما كُتب عليهم من القضاء والقدر، حيث تعرض لهم عدو ا لله عامر بن الطفيل مع قبائل من عُصية وسُليم ورَعْل، فقتلوهم.

---

(١) القَرَن: جعبة النُّشّاب. والجعبة: كنانة النُّشاب، أو كيس من الجلد، والنُّشّاب: النبل.

(٢) جماعة من أهل نجد.

(٣) هو حرام بن مَلْحان خال أنس.

(٤) مصطبة مظللة في مؤخرة المسجد للفقراء.

-١٢٨-

فضل الشهادة في سبيل الله

كان للإسلام فضل في تغيير مفاهيم عند عرب الجاهلية وغيرهم، لا سيما في تقدير الأعمال ووزن الأفعال وتقويم الأشياء، ومثال ذلك أنهم كانوا يقدسون الكعبة المشرفة تقديساً متناهي الحد، ويظنون أن سقي الحجيج، وتقديم الخدمات لوفود الحجاج أفضل الأعمال إلى الله تعالى، فأفهمهم الإسلام أن هناك قيماً خالدة تمس وجود الأمة وعزتها؛ مثل الجهاد في سبيل الله، ومنزلة المجاهدين والشهداء الذين يذودون عن حياض البلاد وحرمات العباد، فقال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩/٩]. فكيف يسوَّى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله بسقاية الحاج وبناء الكعبة وترميمها؟!

وعملاً بالمفهوم الإسلامي الجديد، أقدم الأبطال على تسطير بطولات خارقة في ميادين الجهاد، منها ما رواه البخاري ومسلم (متفق عليه) عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بدر فقال: يا رسول الله، غِبْتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لئنِ اللهُ أشهدني قتال

المشركين لَيَرَينَّ ا للهُ ما أصنعُ، فلما كان يومُ أُحد انكشف المسلمون[١]، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابَه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدَّم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بنَ معاذ، الجنةُ وربِّ النضر، إني أجد ريحها من دون أُحد! فقال سعد: فما استطعتُ يا رسول ا لله ما صنعَ! قال أنس: فوَجَدنا به بضْعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برُمح، أو رميةً بسهم، ووجدناه قد قُتل ومثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أختُه ببَنانه. قال أنس: كنا نرى - أو نظن - أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣/٣٣].

- ومن فضائل الشهداء: ما رواه البخاري عن سَمُرة رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((رأيت الليلةَ رجلين[٢] أتياني، فصعِدا بي الشجرة، فأدخلاني داراً هي أحسنُ وأفضلُ، لم أرَ قطُّ أحسنَ منها، قالا: أما هذه الدار فدار الشهداء)). دلَّ هذا الحديث على فضل الشهداء، ومدى إكرام ا لله لهم في دار كرامته.

والشهيد في أعلى الجنان في الفردوس الأعلى؛ لما رواه البخاري عن أنس رضي ا لله عنه: أنَّ أمَّ الربيع بنتَ البَراء، وهي أمُّ حارثة بنِ سُراقة، أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول ا لله، ألا تحدثني عن حارثة؟ - وكان قُتل يوم بدر - فإن كان في الجنة صبرتُ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء[٣]، فقال: ((يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى))، أصل معنى الفردوس: البستان، ويراد به هنا أنه محل مخصوص في الجنة، وهو

(١) اختلَّ تماسك الدفاع في صفوفهم.
(٢) أي: ملكين في صورة رجلين، وهما جبريل وميكائيل عليهما السلام.
(٣) هذا كان قبل تحريم النوح على الميت.

أعلى الجنـة، أو وسـطها، أي خيارهـا. دلَّ الحديـث علـى أن الجنـة جنـان، وأن الشهداء في أعلاها.

وموقف آخر لبعض الصحابة في الجهاد، ورد في حديـث (متفـق عليـه) عـن جابر بن عبد ا لله رضي ا لله عنهما قال: جيء بأبي إلى النبي ﷺ قـد مُثِّـل بـه[1]، فوُضع بين يديه، فذهبتُ أكشف عن وجهه، فنهاني قوم، فقال النـبي ﷺ: ((مـا زالـت الملائكـة تُظِلّـه بأجنحتهـا)) أي: إن ملائكـة الرحمـن غطــت بأجنحتهـا عبد ا لله أبا جابر بن عمرو رضي ا لله عنهما تكريماً له.

هذه بعض الأمثلة للشهداء، فللشـهادة في سـبيل ا لله فضـل عظيـم، لمـا رواه مسلم عن سهل بن حُنيف رضي ا لله عنه: أن رسـول ا لله ﷺ قـال: ((**من سأل ا لله تعالى الشهادة بصدق، بلَّغه ا لله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**)).

وروى مسلم أيضاً عن أنس رضي ا لله عنه قال: قال رسـول ا لله ﷺ: ((مـن طلب الشهادةَ صادقاً أُعطيها، ولو لم تُصبه))، أي: من سأل الشـهادة بنيـة طيبـة وقصد حسن، أعطي ثوابها، وإن لم يتحقق مراده.

ولا يجد الشهيد ألماً شديداً في ضربه أو قتله، روى الترمذي وقال: - حديث حسن صحيح - عن أبي هريرة رضي ا لله عنه قال: قـال رسـول ا لله ﷺ: ((مـا يجد الشهيد من مـسِّ القتـل إلا كمـا يجـد أحدكـم مـن مَـسِّ القَرْصـة)) أي: ألم العضة من نملة ونحوها. وهذا دليل على أن ا لله تعالى يخفف عن الشـهيد آلامـه، فتنزل به سهلة، وتزول بسرعة، ولا يعقبها علّة.

(١) أي: شوهت معالم خلقته يوم أُحد.

-١٢٩-

الدعاء بالنّصر عند لقاء الأعداء

تحتاج المعارك وتحقيق الانتصارات فيها إلى اتخاذ الوسائل الناجحة فيها، وإعداد أدوات القتال والأسلحة المكافئة لما عند العدوّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ..﴾ [الأنفال: ٨/٦٠]. كما ينبغي الاحتياط وأخذ الحذر، وعدم الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، حتى لا تضيع الجهود سدى أو رخيصة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ٢/١٩٥]. وقوله سبحانه: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٤/١٠٢].

ولا بد أيضاً من الاستنصار با لله عز وجل، والدعاء بالتثبيت والقوة والحماية، والنصر والغلبة، وهزيمة الأعداء، وتفتيت قواهم؛ للحديث (المتفق عليه) عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، انتظر حتى مالت الشمس[1]، ثم قام في الناس، فقال: ((أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف))، ثم قال: ((**اللهم منزلَ الكتاب، ومجريَ السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم**)).

---

(١) أي: زالت الشمس نحو الغروب بعد دخول وقت الظهر.

دلَّ الحديث على أن الإسلام يُؤْثر السلام والأمان، ولا يلجأ المسلمون إلى القتال إلا لحاجة أو ضرورة. فإذا حدث القتال وجب التحلي بالصبر، والتماس النصر من الله تعالى، لا بمجرد الاعتماد على القوة البدنية أو تفوق السلاح فقط، فإن الدعاء في مواقف القتال بصدق وإخلاص مرجوٌّ القبول، محقق الإجابة؛ روى أبو داود بإسناد صحيح عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثِنْتان لا تُردّان – أو قلّما تردّان: الدعاء عند النداء، وعند البأس، حين يلحَمُ بعضهم بعضاً)) أي: إن الدعاء مستجاب عند سماع الأذان، وعند اشتداد الحرب، حتى يلتحم المقاتلون، ويقترب بعضهم من بعض، فيستحب الدعاء في هذين الوقتين؛ لما لهما من فضل الإجابة.

ومن صيغ الدعاء: ما علّمنا إياه رسول الله ﷺ روى أبو داود والترمذي – وقال: حديث حسن – عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا غزا[1] قال: ((اللهم أنت عَضُدي ونصيري، بك أجول، وبك أصول، وبك أقاتل)) أي: يا الله! أنت الذي تمدّني بالقوة، فبك قوتي؛ فبإمدادك أتقوى، وأتنقل في الميدان، وأنقضُّ على العدو.

فعلى المجاهد المؤمن التوجُّه قبل القتال إلى الله تعالى، والاعتماد عليه في وقت الحرب والشدة، بعد اتخاذ الأسباب وإعداد العدة، فذلك أمر أساسي مأمور به شرعاً وطبعاً وعقلاً.

ومن أساليب الدعاء في الحرب: ما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: ((اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم)) أي: نجعل حكمك وأمرك في صدورهم، ونعتصم بك من ألوان شرورهم. أفاد الحديث جواز التحصن بأسماء الله تعالى، والالتجاء إليه في حال النوازل.

---

(١) أي: جاهد.

وفي الماضي كانت الخيول أداة القتال، وما تزال أداة نافعة في عصرنا في بعض الظروف والأحوال؛ للحديث (المتفق عليه) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: ((الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)) أي: مربوط الخير والفأل الحسن في وجهها ومطلعها وشعرها المسترسل على جبهتها. وهذا دليل على استحباب اقتناء الخيل وتربيتها من أجل الجهاد في الماضي، فهي تمتاز بالجرأة واقتحام الأهوال، والسرعة والجري، والترنح، والتبدل السريع يمنة أو يسرة، أو كَرّاً وفَرّاً، أو توجُّهاً للعدو مع تراشق السهام، وطعن الرماح، وضرب السيوف.

-١٣٠-

وسائل القتال

تطورت وسائل القتال في عصرنا الحاضر، تطوراً خطيراً وسريعاً. واتسع تأثيرها، وهدمها وقتلها الآلاف من الناس بسرعة فائقة، ففي زمننا انتشر السلاح الناري من بنادق ورشاشات وصواريخ وقنابل متفجرة ذرية ومعدنية، وغيرها، وقامت الطائرات والسفن الحربية والمصفّحات والدبابات وغيرها بما لا يكاد يصدقه العقل.

أما في الماضي فكان تأثير الحرب محدوداً، وضيقاً غير متسع، ومحصوراً في المقاتلين، ولا يتعداهم إلا قليلاً، بسبب استخدام الأسلحة البيضاء والسهام والنبال المعروفة، والاعتماد في النقل على الدواب العادية، ومنها الخيل، التي كان المحاربون يُعْنَوْن بتربيتها وتدريبها وركوبها؛ للطعن بها، والغارة عليها، ومنازلة الفرسان، وأصبحت الخيول محبوبة للنفس، متعلّقة بها، لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعامِ وَالْحَرْثِ..﴾ الآية [آل عمران: ١٤/٣]. وامتنَّ الله تعالى على عباده بتسخير الخيل وغيرها لهم للركوب في الأعمال العادية والحربية، فقال سبحانه: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨/١٦].

وجاءت الأحاديث النبوية تبشر الناس بما تحققه الخيل من أعمال طيبة، فقال النبي ﷺ في الحديث (المتفق عليه) عن عُروة البارقي رضي الله عنه: ((الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر، والمغنم))، أي: إنها تحقق الثواب في الآخرة، والغنيمة أو المال المكتسب في المعارك من مال الأعداء في الدنيا العاجلة.

ورغَّب الشرع باقتناء الخيل وتربيتها، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من احتبس فرساً في سبيل الله، إيماناً بالله، وتصديقاً، فإن شِبعه وريَّه، ورَوْثَه وبَوْلَه، في ميزانه يوم القيامة)) أي: إن الأشياء تشرُف بشرف الغاية ونبل المقصد، فكل ما ينفقه الإنسان عليها يكون سبباً في إثابته وأجره، وذلك بقدر ما تنجم عنه النفقة من آثار ومخلَّفات.

وكذلك الجمال أو النوق كانت من الوسائل المعتادة في الماضي لنقل الأحمال والأثقال على ظهورها لمسافات طويلة، وإنها تمتاز بالصبر على العطش والأكل مدة طويلة أيضاً؛ روى مسلم عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ بناقة مخطومة[١]، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: ((لكَ بها يوم القيامة سبع مئة ناقة، كلها مخطومة)) أي: إن إعداد هذه الناقة للجهاد في سبيل الله له ثواب الحسنة بسبع مئة ضعف. وقد جعل محلها اليوم السيارات ونحوها من وسائل نقل العدة الحربية يكون تخصيصها للمعارك سبباً للثواب العظيم والأجر الكبير.

وكانت الحرب في الماضي تعتمد على التراشق بالسهام أو النبال، ويحتاج ذلك إلى مهارة في التدريب على استعمالها، والتفنن في إصابة الأهداف الحربية للعدو؛ روى مسلم عن أبي حَمَّاد - ويقال: أبو سعاد، أو أبو أسد، أو أبو عامر، أو أبو عمرو، أو أبو الأسود، أو أبو عَبْس - عقبة بن عامر الجُهَني

(١) أي: جعل في رأسها الخطام، وهو الرسن، وسمي بذلك لأنه يقع على خطم الدابة: وهو الأنف.

رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ، وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٨/٦٠] ((**ألا إنَّ القوة الرمي، ألا إنَّ القوة الرمي، ألا إنَّ القوة الرمي**)). وهو دليل واضح على إيجاب إعداد القوة المرهبة للعدو، بالتدرب على مختلف أنواع الأسلحة الفتاكة بالعدو، بحسب ما آل إليه التطور في كل زمان ومكان، لأن أعظم أنواع القوة، وأنكاها بالعدو، وأنفعَها في الحرب: إنما هو الرمي، والرمي عام شامل يشمل استخدام كل أنواع السلاح، وهو داخل تحت مفهوم كلمة (قوة) في الآية السابقة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٨/٦٠]. والقوة تشمل مختلف أنواعها المادية والعسكرية والمعنوية.

-١٣١-

التدرُّب على حمل السلاح

من المعروف أن استعمال السلاح يتطلب خبرة عالية، ودراية دقيقة، وتمرُّساً وتدرُّباً على حمله، وطريقة استخدامه، لتصويب الرماية، وتجنب مخاطر الاستعمال والضرر، وتحقيق الغلبة على العدو. لذا حثَّ الإسلام الحنيف على التدرب على حمل السلاح وتعلُّم فنّ الرماية، ووردت أحاديث كثيرة في هذا الشأن، روى مسلم عن عقبة بن عامر الجُهَني رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ستُفتح عليكم أَرَضون، ويكفيكم الله[1]، فلا يَعْجِزْ أحدكم أن يلهو بأسهمه)). فيه دعوة صريحة إلى إعداد المقاتلين في وقت السلم؛ استعداداً لظرف الحرب، وفيه ندب إلى التمرُّن على الرمي بالسهام في الماضي، وبكل سلاح بديل عنه في الحاضر، ليكون المسلمون على أهبة الاستعداد، والتصدي لكل طارئ أو تحرُّش أو هجوم من الأعداء.

وروى مسلم عن عقبة أيضاً أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من عُلِّم الرمي ثم تركه، فليس منا)) أو: ((فقد عصى))، وفيه تشديد ولوم على من تعلَّم الرمي، ثم تركه بغير عذر، لأنه توصل إلى خبرة معينة مفيدة جداً وقت الأزمات، ثم فرط فيها وأهملها عمداً أو نسياناً، فلا يكون على سنَّة الإسلام والنبي.

---

(١) أي: القتال لانتصاركم على كثير من الأعداء.

وكان من فضل الله تعالى على المسلمين المجاهدين تعميم المغفرة، والبشارةُ بالجنة لكل من تعاون في إطلاق السهام أو الأسلحة النارية الحديثة، فقد روى أبو داود عن عقبة بن عامر أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعَه يحتسب[1] في صَنْعته الخير، والرامي به، ومُنْبِلَهُ[2]، وارموا واركبوا، وأن ترموا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا، ومن ترك الرمي بعدما عُلِّمه رغبةً عنه، فإنها نعمة تركها - أو قال: كفرَها)). فهؤلاء الثلاثة: الصانع، والرامي، والمجهِّز للرماية يدخلهم الله جنته.

ويدلُّ الحديث أيضاً على الترغيب في إعداد عدة القتال، ومنح الثواب لكل من شارك في الإعداد. كما يدلُّ على مؤاخذة من أهمل مزاولة استعمال السلاح أو الرمي، بعد تعلُّمه، رغبةً عن الجهاد من غير عذر.

ويؤكد هذا حديث آخر، رواه البخاري عن سَلَمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: مرَّ النبي ﷺ على نفر ينتضلون[3]، فقال: ((**ارموا بني إسماعيل**[4]، **فإن أباكم كان رامياً**)). أرشد الحديث إلى الترغيب في الرمي والتمرُّن عليه.

وفي حديث آخر يدل على فضل الرمي وإثابة الرامي، رواه أبو داود والترمذي - وقالا: حديث حسن صحيح - عن عمرو بن عَبْسة رضي الله عنه قال: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من رمى بسهم في سبيل الله، فهو له عَدْلُ مُحَرَّرة)) أي: مثل ثواب رقبة معتقة في سبيل الله تعالى.

ومن أهم وسائل إعداد القوة: **إنفاق المال في سبيل الله**، ابتغاء رضوان الله وثوابه، روى الترمذي - وقال: حديث حسن - عن أبي يحيى خُرَيْم بن فاتِك

---

(١) أي: يطلب الثواب.

(٢) أي: الذي يناول النبل إلى الرامي، أو يجهزه له.

(٣) يترامون بالسهام ويتسابقون.

(٤) أي: معشر العرب؛ لانتمائهم إلى جدهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((من أنفق نفقةً في سبيل ا لله، كُتب له سبع مئة ضِعْف)). وهو دليل على مضاعفة ثواب المنفق في سبيل ا لله، وأن الجهاد كما يتوقف على توافر السلاح، يتوقف على شرائه بالمال.

والجهاد أحد سبل ا لله تعالى، وأحد الطاعات الكبرى لله عز وجل، وأحد الطرق الموصلة إلى جنان الخلد؛ بدليل الحديث (المتفق عليه) عن أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((ما من عبد يصوم يوماً في سبيل ا لله إلا باعدَ ا لله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً)) أي: سنة، وهو دليل على أن الصوم في سبيل ا لله من الطرق المؤدية للجنة، وأنه داخل في مدلول كلمة ((سبيل ا لله)). ويؤيده ما رواه الترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن أبي أمامة رضي ا لله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((من صام يوماً في سبيل ا لله، جعل ا لله بينه وبين النار خَنْدقاً كما بين السماء والأرض)).

-١٣٢-

الإخلاص في الجهاد

الجهاد الذي يُرضي الله تعالى ويكون سبباً لدخول الجنة: هو أن يكون بإخلاص لله تعالى، لا لمغنم، ولا لشهرة، ولا لرياء، ولا ليقال: إنه شجاع، ولا من أجل نصرة عصبية أو قبلية ونحوهما. ويطالب كل مسلم بالمشاركة بأحد أنواع الجهاد: باللسان أو بالمال أو بالنفس أو بأن يحدِّث نفسه به إذا لزم الأمر، ولا يصح لأحد التخلف عن واجب الجهاد إلا لعذر مقبول؛ كالعمى والعرج والمرض، لقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ..﴾ الآية [النور: ٦١/٢٤] أي: لا إثم ولا جناح على هؤلاء أصحاب الأعذار في ترك الجهاد.

ووردت أحاديث في قبول الأعذار، منها ما رواه البخاري عن أنس، ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في غَزاة[1] فقال: ((إن بالمدينة لرجالاً ما سِرْتُم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حَبَسهم المرض)) وفي رواية: ((حبسهم العُذْر)) وفي رواية: ((إلا شَرَكوكم في الأجر)). وهو دليل على الإخلاص في طلب الجهاد ما لم يوجد عذر مقبول شرعاً.

---

(١) أي: في معركة شارك فيها النبي ﷺ.

ومن الإخلاص: أن ينوي المسلم الجهاد إذا لزم الأمر في مقتبل الحياة، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**من مات ولم يغز**[1] **، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق**)).

فمن لم يشارك فعلاً في جهاد أو قتال مشروع، أو لم ينو المشاركة فيه، مات على خصلة من النفاق. فالمؤمن: هو الذي يعمل الخير أو ينويه، والمنافق: هو الذي لا يعمل الخير ولا ينويه. دلَّ الحديث على أن من لم يستطع الخروج للجهاد، تكفيه النية الصادقة على البذل والتضحية لمشاركة المجاهدين في الأجر.

ومن مقتضى الإخلاص في الجهاد: أن يقاتل المجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، وهي كلمة الحق والعدل والعزة، وورد في حديث (متفق عليه) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن أعرابياً أتى النَّبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمَغْنم، والرجل يقاتل لِيُذكَر، والرجل يقاتل لِيُرى مكانُه؟ وفي رواية: يقاتل شجاعة، ويقاتل حميّة، وفي رواية: يقاتل غضباً، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ((**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**)). هذا سؤال عن أحوال بعض الناس، فمنهم من يقاتل طلباً للغنيمة المادية، ومنهم من يقاتل ليذكر شأنه بين الناس، ومنهم من يقاتل لتعرف درجتُه في الشجاعة، ومنهم من يقاتل لنصرة عشيرته أو قبيلته، ومنهم من يقاتل ثأراً لنفسه وانتقاماً، فكل هؤلاء ليسوا في سبيل الله، وإنما المجاهد الحق: هو الذي يقاتل دفاعاً عن كلمة الحق والتوحيد ورفع لواء الإسلام وكلمته، ويثاب المقاتل لغرض ديني، لا لغرض دنيوي، أو غرض وضيع أو موقوت أو نفسي.

وأما من قاتل وسلم، فأجره أقل ممن قاتل ولم يسْلم، وهذا شيء طبيعي وحق، روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال

---

(١) أي: لم يقاتل في سبيل الله، فليس المراد بالغزو: السلب والنهب، وإنما المراد به الجهاد.

رسول الله ﷺ: ((ما من غازية[1] أو سرّية[2] تغزو فتغنم وتَسْلم، إلا كانوا قد تعجَّلوا ثلثي أجورهم، وما من غازية تخفق[3] وتُصاب إلا تمَّ لهم أجورهم)) أي: إن المجاهدين الغانمين السالمين يحصلون على ثلثي أجورهم، وأما الذين قتلوا، فلهم كامل الأجر.

والجهاد المخلص: هو الذي يكون لإرضاء الله ونشر كلمة التوحيد، والدفاع عن البلاد؛ روى أبو داود عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله! ائذن لي في السياحة[4]، فقال النبي ﷺ: ((إن سياحة أمتي الجهادُ في سبيل الله عز وجل)) أي: إن السياحة النافعة: هي التي يقصد بها إعزاز الدين، وإذلال أعدائه، فلا تجوز السياحة الحرة في الأرض وترك الجهاد في سبيل الله مع حاجة الوطن إليه.

ومن فضل الله تعالى أن الرجوع من الجهاد له ثواب الذهاب إليه، وهذا عدل ورحمة، روى أبو داود بإسناد جيد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((قَفْلة كغزوة)) أي: رجوع من الجهاد بعد فراغه كالذهاب إليه، في الثواب والأجر، لأن الغاية لا تتحقق إلا بالعودة.

---

(١) أي: طائفة غازية.
(٢) أي: قطعة من الجيش لا تزيد عن أربع مئة.
(٣) أي: تخيب ولا تحقق المقصود.
(٤) أي: مفارقة الأوطان.

-١٣٣-

أنواع الجهاد

لا يقتصر الجهاد على القتال، وإنما يشمل الجهاد بالنفس واللسان والمال، وجهاد النفس: هو قتال الأعداء وتزكية النفس، بل إن تهذيب النفس هو الجهاد الأكبر، وجهاد اللسان: هو الدعوة إلى الإسلام باللسان، أي: بالحجة والبرهان لإقناع العقول بسلامة الدعوة، والجهاد بالمال: هو الإنفاق من أجل نفقات المعارك وإعداد السلاح، وإمداد المجاهدين بالحاجات اللازمة لهم، وقد وردت آيات كثيرة في بيان أنواع الجهاد، ولا سيما الجهاد بالمال والنفس، منها قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٩/٢٠]. ومنها: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٩/٨٨].

وورد في السنة النبوية أحاديث كثيرة توضح أنواع الجهاد، منها ما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**)). دلَّ الحديث على تنوع الجهاد، فمنه ما يكون بالمال، ومنه ما يكون بالنفس، ومنه ما يكون باللسان، فالمال لإنفاقه في متطلبات الحرب، والنفس لخوض المعارك ومقارعة الأعداء، وانتزاع النصر، وإلحاق الهزيمة بالمعتدين، واللسان لتبيان الحجة والبرهان بصدق الرسالة

الإسلامية، وكونها رسالة التوحيد والحق والعدل والمساواة وإنقاذ البشرية، مما يمكّن من نشر الإسلام، وحماية البلاد والأوطان.

وقد يكون الجهاد **بإعداد العدة، وتجهيز المقاتلين، ورعاية أهليهم وأُسرهم حال غيابهم**؛ روى أبو داود بإسناد صحيح عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من لم يغز[1]، أو يجهز غازياً، أو يَخْلُف غازياً في أهله بخير، أصابه الله بقارعة[2] قبل يوم القيامة». ففي هذا إنذار بالعقوبة العاجلة في الدنيا، في حال ترك الجهاد، أو ترك إعانة المجاهدين بالمال، أو برعاية أهلهم.

ومن مظاهر مشاركة المجاهدين في همومهم والعناية بهم: **حسن استقبالهم ووداعهم**، كاستقبال المسافرين؛ روى أبو داود بإسناد صحيح عن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: لما قدِم النبي ﷺ من غزوة تبوك، تلقّاه الناس، فلقيتُه مع الصبيان على ثنيّة الوداع[3]. ورواه البخاري قال: ذهبنا نتلقى رسول الله ﷺ مع الصبيان إلى ثنية الوَدَاع. دلَّ الحديث على حسن استقبال النبي ﷺ بعد عودته من غزوة تبوك، وكان من المستقبلين: أصحابُ الأعذار والمنافقون والصبيان (الغلمان قبل البلوغ). ومشروعية الاستقبال تشمل القادمين من حرب أو سفر.

ومن الجهاد: **وضع الخطط الحربية المناسبة**، سواء قبل خوض المعركة أو بعدها أو في أثنائها باختيار الوقت المناسب لبدء القتال، وأفضل الأوقات: هو الصباح لبرودة الجو، وقوة الإنسان ونشاطه، أو بعد الزوال (الظهر) حين يبرد الطقس، فيتحقق النصر، روى أبو داود - وقال: حديث حسن صحيح - عن أبي عمرو - ويقال: أبو حكيم - النعمان بن مقرِّن رضي الله عنه قال: شهدت

(١) أي: من لم يجاهد الجهاد المشروع.

(٢) القارعة: المصيبة.

(٣) مكان قرب المدينة، سمي بذلك لوداع المسافر عنده.

رسول الله ﷺ إذا لم يقاتل من أوّل النهار، أخَّرَ القتال حتى تزولَ الشمس، وتهبَّ الرياح، وينزلَ النصر. وهذا كله بحسب ما يرى القائد الناجح من سياسة الحرب، وانتهاز الوقت المناسب، ورعاية المصلحة، ومواتاة الظروف من حرّ وبرد ورياح.

ومن السياسة الحربية: استدراج العدو وخداعه، ورد في حديث متفق عليه عن جابر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: ((الحرب خَدْعة)) أي: احتيال على العدو. وهذا دليل على مشروعية استعمال الحيلة في القتال لهزيمة العدو، ودَحْر قواه، وردِّ عدوانه. وإذا لم تكن المعارك مشتملة على ألوان الخطط الحربية، ووضع الاستراتيجية الناجحة المتجددة، صعُب تحقيق النصر والغلبة فيها.

والإسلام على عكس ما يتصور أعداؤه: يُؤْثر السلام والأمان، وصونَ الدماء، والبعدَ عن التدمير والتخريب، إلا للضرورة أو الحاجة الحربية، وبقدر الضرورة والحاجة فقط، لقول الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨/٢]. وقوله سبحانه: ﴿وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠/٢]. فالسلم العادل والشامل والمستقر: هو غاية المسلمين، ويؤيد الآيات حديث (متفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا)).

-١٣٤-

جماعات الشهداء في ثواب الآخرة

الشهداء أنواع ثلاثة: شهيد الدنيا والآخرة، وشهيد الآخرة، وشهيد الدنيا.

أما الأول: فهو من استشهد في قتال العدو مقبلاً غير مدبر، صابراً محتسباً، قاصداً إعلاء كلمة الله تعالى والدفاع عن الأراضي، وهذا هو الذي يغفر له كل ذنب إلا الدين أو حقوق الناس المالية.

وأما شهيد الآخرة: فهو من مات بسبب مرض أو حادث، وله ثواب الشهيد في الآخرة، لكنه يحاسب على ذنوبه.

وأما شهيد الدنيا: فهو من يتحدث الناس عنه أنه شهيد، وهو مراءٍ أو متظاهر أو يقاتل للمغنم أو السمعة، أو ليذكر شأنه بين الناس، أو لإظهار شجاعته، أو لنصرة قومه وعصبته، أو كان غير مؤمن الله تعالى ربّاً وإلهاً واحداً لا شريك له، فهذا ليس له من وصف الشهادة في الدنيا والآخرة إلا تحدث الناس عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩/٥٧].

وفي السُّنة النبوية: أحاديث ثابتة تبين أنواع الشهداء، منها ما رواه الشيخان (البخاري ومسلم) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهَدْم، والشهيد في سبيل الله**)) أي: إن الشهداء خمسة أصناف أو زيادة؛ لعدم اعتبار مفهوم العدد، أو لكون إحصائهم بحسب الظروف، وهم المطعون: أي الذي مات بالطاعون، والمبطون: أي الذي مات بمرض البطن، والغريق في الماء، وصاحب الهدم: أي الذي مات بسبب هدم جدار أو دار. وهؤلاء الأربعة لهم عند الله في الآخرة ثواب المجاهدين المقاتلين في سبيل الله، جزاء على بلواهم وصبرهم.

وفي معناه حديث آخر، روى مسلم عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما تعدُّون الشهداء فيكم؟)) قالوا: يا رسول الله! من قتل في سبيل الله، فهو شهيد، قال: ((إن شهداء أمتي إذن لقليل!))، قالوا: فمن يا رسول الله؟ قال: ((من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله، فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد، والغريق شهيد)).

إن أفضل الشهداء شهيد المعركة، الذي قتل في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، ومثله من مات بسبب آخر غير القتل كالسقوط من مكان، أو الموت فجأة، أو معاناة من مرض أو تعب أو عطش ونحو ذلك.

ومن الشهداء: من مات دفاعاً عن نفسه أو ماله أو دينه أو عرضه، أو وطنه، جاء في حديث (متفق عليه) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قُتل دون ماله فهو شهيد)) أي: قتل بسبب الدفاع عن ماله الذي أراد الجاني أو المعتدي أخذه منه ظلماً وعدواناً، أو غصباً وتعدياً.

ويؤكده ما رواه أبو داود والترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن أبي الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، رضي الله عنهم، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد)) أي: يجوز القتال دفاعاً عن النفس والمال والدِّين والأهل، ويكون لمن يقتل ثواب الشهداء في الآخرة، وقدَّم ذكر المال، لأن الطمع فيه أكثر. وتعدُّ بقية الأنواع المدافَع عنها ذاتَ أهمية وخطورة تستوجب مشروعية الدفاع عنها من أجل صونها، والحفاظ على حرمتها، وضمانها لأصحابها الحقيقيين.

ويوضح ذلك حديثٌ آخر رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: ((فلا تعطه مالك)) قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: ((قاتله)) قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: ((فأنت شهيد)) قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: ((هو في النار)). فالمقاتل الذي يدافع عن ماله ويموت: هو كالشهيد في الآخرة، ولا إثم عليه إن أُلجئ إلى القتال، وهو لا يريد القتل إلا دفاعاً. وأما المعتدي على المال، فإن استحل أخذ المال كان مخلداً في نار جهنم، وإن لم يستحله، عذِّب في النار، ثم يخرج منها بفضل الله ورحمته وعفوه، فلا يخلد في النار.

-١٣٥-

شكر النعمة

الوفاء في كل شيء، من صداقة، ومقابلة معروف، وغير ذلك: فضيلة عظيمة، وأدب إنساني رفيع، وشكر النعمة للمنعم المتفضل لون من ألوان الوفاء، وكان الاتصاف بالحمد والشكر ومقابلة الجميل من خصائص الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان، بدليل ما ذكره الله تعالى عن آل داود من ملازمة الحمد والشكر، فقال: ﴿اعْمَلُوا آلَ داوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣/٣٤].

بل إن الحق سبحانه أمر جميع المؤمنين والمؤمنات بالشكر، وبشر الشاكرين بزيادة النعمة والفضل، فقال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢/٢] أي: فاذكروني بالطاعة، أو حال الرخاء، أذكركم بالمغفرة، أو حال الشدة، واشكروني على نعمي الكثيرة، ولا تكفروني أو تجحدوني بنكران النعم وترك شكرها.

والشكر: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه لما خُلق من أجله. وقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧/١٤] أي: لأعطينكم وأفيض عليكم النعمة.

ولا يجد أهل الجنة أو أهل الدنيا حين يتمتعون بنعمها إلا حمد الله، أي: الثناء عليه اختياراً على جهة التعظيم لله، قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الإسراء: ١١١/١٧]. وقال سبحانه: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠/١٠].

والموفَّق: هو الذي يبادر إلى حمد الله وشكره. روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أُتي ليلة أُسري به بقَدَحين من خمر ولَبَن، فنظر إليهما، فأخذ اللبن، فقال جبريل: «الحمد لله الذي هداك للفطرة. لو أخذت الخمر غَوَتْ أمتك» أي: احمد الله الذي ألهمك اختيار علامة الفطرة النقية: وهي الاستقامة والتوحيد، وجُعل اللبن علامة عليها لبياضه وطهره، ولو تناولت الخمر، وقعت أمتك في الغواية والجهل والضلال، لأن الخمر أم الخبائث.

دلَّ الحديث على ضرورة حمد الله تعالى على التوفيق للخير، وعلى شكر النعم الإلهية.

والبدء في كل شيء مشروع بالبسملة والحمد، هو السنة، قولاً أو عملاً، عن أبي هريرة: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم: أقطع»[١] أي ناقص. وروى أبو داود - وقال: حديث حسن - وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ أمرٍ ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع» أي: كل أمر ذي شأن دنيوي أو أُخروي، ذي أهمية، لا يبدأ فيه بالحمد لله، فهو ناقص وقليل البركة والخير. فمن آداب المسلم: البدء بالحمد لله في أي قول أو عمل، والأفضل الجمع بين البسملة والحمدلة، وذلك إذا كان الأمر مشروعاً، واجباً أو مندوباً، أما المكروه فيكره فيه البدء بالحمد، ويحرم البدء به في الحرام.

---

(١) رواه عبد القادر الرهاوي في الأربعين النووية، وهو ضعيف.

والحمد لله: علامة الصبر والرضا بالقضاء والقدر، روى الترمذي وقال: حديث حسن عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمِدك واسترجع[1]! فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه: بيت الحمد)) فيه الحث على حمد الله تعالى في كل حال، وأن الحمد والصبر عند المصيبة وعلى قضاء الله فيه خير، وثوابه الجنة.

والحمد أو الشكر: مطلوب أيضاً في حال تلقي النعمة من أكل وشرب، أو تقديم معروف من أي إنسان، روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة، فيحمدُه عليها، ويشرب الشَّربة، فيحمده عليها**)) أي: إن الله تعالى ليرضى ويثيب عبده الذي يقرن تناول النعمة من أكل أو شرب ونحوهما من الخيرات بالحمد لله، وذلك مندوب في أي شيء منعَم به، سواء كان قليلاً أو كثيراً.

إن حمد الله تعالى والرضا بما يسر للعبد، في البدء والختام: هو شعار أهل الإيمان، وسمة أهل الخير والطاعة والإحسان، وهذا موافق للفطرة النقية، لأن على الإنسان تقدير المعروف، وشكر النعمة الإلهية، ومقابلتها بالوفاء. وليس الحمد أو الشكر مقصوراً على اللسان والكلام، وإنما باستعمال الإنسان طاقته وحواسه فيما خلقت من أجله، وهو المنافع المباحة، لا المحرمات أو المنكرات أو المحظورات. وشكر الناس على فعل المعروف مطلوب أيضاً، للحديث الثابت: ((من لا يشكر الناس لا يشكر الله[2])).

---

(١) أي: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حسن.

-١٣٦-

الصلاة على النبي ﷺ

- ١ -

لم يحظَ نبي من أنبياء ا لله الكرام ورسله العظام بما حظي به نبينا عليه الصلاة والسلام من محبة وتكريم؛ حيث اقترن ذكره مع ا لله عز وجل في كثير من المواضع، كالأذان في الشهادتين كل يوم خمس مرات، والتشهد في الصلاة في كل صلاة يصليها المؤمنون والمؤمنات، والأمر بطاعته كطاعة ا لله تعالى في أوامر القرآن المجيد، والصلاة (الدعاء) والسلام عليه كلما ذكر اسمه أو وصفه، وجعلت الصلاة والسلام عليه أحد أركان خطبة الجمعة وغيرها، وفي افتتاح الدعاء لله تعالى وختمه، ومعه أزواجُه وآل بيته وذريته، وغير ذلك. وجعل الثواب بالصلاة والسلام عليه عشرة أمثال.

وقد جاء الأمر بالصلاة والسلام على رسول ا لله ﷺ في قول ا لله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٦/٣٣]. ومن المعلوم أن الصلاة من ا لله تعالى: معناها الرحمة وطلب زيادة المنزلة والإحسان، ومن الملائكة: استغفار، ومن الناس: الدعاء. والأفضل الجمع بين الصلاة والسلام عليه كما أمر ا لله سبحانه.

وثواب الصلاة عليه، فيما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((**من صلّى علي صلاة، صلى الله عليه بها عشراً**)) أي: إن الصلاة عليه مرة واحدة، يكون ثوابها عشر مرات.

ويزداد القرب من النبي ﷺ في الآخرة بمقدار كثرة الصلاة والسلام عليه، روى الترمذي - وقال: حديث حسن - عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**أولى الناس**[1] **بي يوم القيامة أكثرُهم عليَّ صلاة**)) أي: في الدنيا، وفيه حثّ على الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ، وعلو منزلة المصلي.

ومن عجب أن الصلاة تعرضها الملائكة على النبي في قبره، روى أبو داود بإسناد صحيح عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ))، قالوا: يا رسول الله، وكيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أرِمْتَ؟ قال: يقول: بليتَ، قال: ((إن الله حرَّم على الأرض أجساد الأنبياء))، أي: منع الله الأرض من أن تُبلي أو تُفني أجساد الأنبياء. وفي هذا حث على الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة وليلتها، لأنها تعرض عليه ﷺ، فيسرُّ بها، ويطلب من الله الرضا عن فاعلها. وتعاد إليه ﷺ روحه، كما سيأتي دليله، حين تعرض عليه الصلاة وأعمال المؤمنين.

ومن الوفاء لنعمة نبوة هذا النبي أن يُصلَّى عليه كلما ذُكر، روى الترمذي - وقال: حديث حسن - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((رَغِم أنف رجل ذُكرت عنده، فلم يصلِّ علي)) أي: التصق أنف رجل بالتراب؛ كناية عن الذُّل والخسارة، إذا سمع ذكر النبي أو اسمه فلم يصلِّ عليه، وفيه ندب الصلاة عليه قولاً أو كتابة.

(١) أي: أخصهم بي، وأقربهم مني، وأحقهم بشفاعتي.

وروى أبو داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**لا تجعلوا قبري عيداً**[٢] ، **وصلُّوا علي، فإن صلاتكم تبلُغني حيث كنتم**)) أي: لا حاجة لأن تجتمعوا لزيارتي، كما تجتمعون في أيام العيد، فصلاتكم تبلغني وتعرض علي في أي مكان كنتم. وفيه الحض على الصلاة على النبي ﷺ حيثما ذكر، فإنها تبلغه من أي مكان، وفي أي زمان.

ودليل ردّ الروح على النبي ﷺ حين عَرْض الصلاة والأعمال عليه: هو ما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: ((**ما من أحد يسلّم علي إلا ردَّ الله علي روحي، حتى أردَّ عليه السلام**)). وردّ الروح: معناه تحقيق ما يستلزم النطق غالباً. وهو دليل على أن النبي ﷺ حي في قبره، يردُّ السلام على كل من يسلّم عليه، ولا يخلو زمن ممن يسلّم عليه. أما طبيعة تلك الحياة فهي كحياة الشهداء في قبورهم، الله أعلم بها، وتختلف عن حياتنا. وفيه الحث على كثرة الصلاة والسلام على النبي ﷺ ليحظى صاحبها بالرد عليه.

ويؤكد هذا الترغيب بالصلاة على النبي: ما رواه الترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**البخيل: من ذُكرت عنده، فلم يصلِّ علي**)) أي: إن ترك الصلاة على النبي ﷺ دليل البخل والشح، وخبث النفس، وسوء الطوية، لما فيه من المعصية.

---

(٢) أي: موضع اجتماع كالاجتماع في العيد.

-١٣٧-

الصلاة على النبي ﷺ

- ٢ -

الحمد لله على نعمة الإسلام، الحمد لله على نعمة محمد عليه الصلاة والسلام، الحمد لله على نِعَم الله في كل حال، أحمده سبحانه على فضل النبوة والرسالة لنبينا؛ لأنها رسالة ختم النبوات، وإكمال الرسالات، وإتمام النعمة، واختيار الملة الحنيفية السمحة، ملة التوحيد والطاعة لله ربِّ العالمين، حيث قال الله تعالى مذكِّراً إيانا بهذه المعاني: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٥/٣].

والصلاة والسلام على رسول الله: تعبير عن صدق الانتماء إلى شريعته، ووفاءٌ لأدائه الأمانة وتبليغه الرسالة، فيكون ذلك مرغوباً فيه شرعاً، روى أبو داود والترمذي - وقالا: حديث صحيح - عن فَضَالة بن عُبيد رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته(١)، ولم يحمد الله تعالى، ولم يصلِّ على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ((عَجِل هذا(٢))) ثم دعاه، فقال له - أو لغيره -: ((إذا صلى أحدكم(٣) فليبدأ بتحميد ربِّه سبحانه، والثناءِ عليه،

(١) الظاهر أنه عقب إنهائه صلاته.

(٢) أي: استعجل؛ حيث لم يحمد الله تعالى، ولم يصلِّ على نبيِّه في دعائه.

(٣) أي: وأراد أن يدعو.

ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بعدُ بما شاء)) هذا تعليم من النبي عليه الصلاة والسلام أدبَ الدعاء وما يستحب فيه: وهو البدء بحمد الله تعالى، ثم الصلاة على النبي ﷺ، ثم يختم دعاءه بذلك، ولكن يجعل الحمد آخراً.

وصيغة الصلاة على النبي ثابتة في حديث (متفق عليه) عن أبي محمد كعب ابن عُجْرة رضي الله عنه قال: خرج علينا النبي ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، قد عَلِمنا كيف نسلّم عليك، فكيف نصلّي عليك؟ قال: ((قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد)) أي: اللهم ارحم محمداً، وأنزله عندك مقاماً كريماً، وارحم آل محمد: وهم ذوو القربى من بني هاشم وبني عبد المطلب، كصلاتك على آل إبراهيم، فإنك أهل الثناء وأهل المجد والعظمة، وبارك: من البركة: وهي الزيادة والنماء.

دلَّ هذا الحديث على استحباب الصلاة على النبي ﷺ بالصيغة المذكورة دون زيادة، والاتباع خير من الابتداع.

ويؤيد الصيغة السابقة حديث آخر، قد تختلف فيه الألفاظ، ولا بأس بذلك، روى مسلم عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة رضي الله عنه، فقال له بشير بن سعد[1]: أمرنا الله أن نصلّي عليك يا رسول الله، فكيف نصلّي عليك؟ فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: قولوا:

((اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم))، أي: كما علمتم في التشهد، وهو:

((السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)).

(١) هو بشير بن سعد بن ثعلبة.

يتبين من مجموع الحديثين: أن المصلي يقرن السلام على النبي مع الصلاة عليه، والصلاة على إبراهيم وعلى آله. ولا يزيد عن المسنون الواضح.

وهناك زيادة في رواية أخرى، في حديث (متفق عليه) عن أبي حُميد الساعدي رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله! كيف نصلّي عليك؟ قال: قولوا: ((اللهم صلِّ على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد)).

هذه الصيغة مسنونة، كما هو معروف في تكبيرات العيد، فتقرن الصلاة على النبي، مع الصلاة على أزواجه وذريته، وأزواجه أي زوجاته، وهن إحدى عشرة، توفي منهن اثنتان في حياته، ومات عن تسع منهن. وذريته: أولاده الذكور الذين ماتوا في حياته، وبناته اللاتي مات أكثرهن في حياته إلا فاطمة وذريتها، فهي التي بقيت بعد وفاته ﷺ. والصلاة على الأزواج والذرية يكون تبعاً للصلاة على رسول الله.

وقد اتفق المحدِّثون والفقهاء على صيغة أو أكثر في التشهد في الصلاة، فعلى المسلم التزامها، كما اتفقوا على صيغ أخرى في الصلاة والسلام على رسول الله في غير الصلاة، فتلتزم أيضاً، من غير زيادة ولا نقصان، لأن السنة في العبادات: الاتباع، لا الابتداع، فهو المطلوب شرعاً، وغيره منهي عنه.

-١٣٨-

فضل الأذكار وصيغتها

- ١ -

دلَّت الوقائع والأحوال العارضة على الإنسان أنه يمر في فترات من النسيان وضعف الذاكرة، واستحضار مخاطر الحياة أو منافعها ودلالاتها، فيكون ذكر الله عز وجل بمثابة العلاج أو المرهم الذي يوقظ الانتباه، ويذكّر بعظمة الله وحسابه، وجنته وعذابه، فيبادر إلى اليقظة والعودة إلى جادة الاستقامة، وتجنُّب الغواية والضلالة والانحراف.

وقد اشتمل القرآن الكريم على آي كثيرة في الأذكار، لتذكير الإنسان من غفلته، وإيقاظ وعيه وانتباهه، فيكون الخير في ذلك، حتى لا يشرد أو يستمر ضائعاً في متاهات الأحداث وتقلباتها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٥] أي: أفضل من كل شيء، وقال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ٢/١٥٢] أي: اذكروني بالطاعة والعمل، أذكركم بالمغفرة والرحمة.

والذّكر: إيراد شيء باللسان، أو استحضاره بالقلب والوعي والعقل. أما ذكر اللسان: فهو التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، وأما ذكر القلب: فهو التأمل أو التفكر في عظمة الله وجلاله وذاته وصفاته وأسمائه الحسنى. وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ

﴿وَالآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥/٧]. أي: اذكر الله سرّاً، وتذلُّلاً، وخوفاً، وأقل من الجهر، في أول النهار، وآخره؛ ليكون البدء والختام مقروناً بالعمل الصالح والمغفرة والرحمة.

والله تعالى أمر بمداومة الذكر، وكثرته؛ لتحقيق الفلاح والنجاة، والظفر بمغفرة الله وثوابه وفضله، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠/٦٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالذّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥/٣٣]. وقال عز وجل: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١/٣٣ - ٤٢].

وصيغ الذكر كثيرة، منها ما ورد في حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان**[1]**، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**)) أي: أنزِّه الله تعالى عن كل نقص، مع حمده والثناء عليه.

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: ((لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلَعَت عليه الشمس))، لأنها من أعمال الآخرة، وهي الباقيات الصالحات، وثوابها محقق دائم، أما الدنيا فهي زائلة.

وفي حديث آخر (متفق عليه) عن أبي هريرة أيضاً قال: ((من قال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له المُلك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في كل يوم مئة مرة، كانت له عَدْل عَشْر رقاب[2]، وكتبت له مئة حسنة، ومُحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حِرْزاً[3] من الشيطان، يومَه ذلك حتى يُمسي، و لم

(١) الميزان: هو جسم محسوس، له لسان وكفتان، كل كفة كعرض السماء.
(٢) أي: ما يساوي إعتاق عشر أنفس. والعَدْل: ما عدل الشيء من غير جنسه، والعِدْل: المثل.
(٣) أي: حفظاً.

يأتِ أحد بأفضلَ مما جاء، إلا رجل عمل أكثر منه[1])). وقال: ((**من قال: سبحان الله وبحمده، في يوم مئة مرة، حُطَّت خطاياه، وإن كانت مِثْل زبَد البحر**)) أي: تمحى عنه ذنوبه، وإن كانت مثل رغوة البحر.

وفي حديث آخر (متفق عليه) عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلْك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، عَشْر مرات، كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل)) أي: إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، أبي العرب. وهذا العدد فيه فسحة وتيسير وتخفيف.

ومن الصيغ المختصرة: ما رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟ إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده)). دلَّ هذا الحديث وما قبله على ما يحققه ذكر الله من رفع الدرجات، وتكفير السيئات، أي: الصغائر، والحفظ من غوايات الشيطان؛ لما فيها - أي الأذكار - من تقديس الله وتنزيهه والثناء عليه بأنواع الجميل.

ويدل حديث آخر على سعة ثواب الله على الأذكار المشتملة على التسبيح (التنزيه) والتحميد، روى مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الطُّهور[2] شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأان - أو تملأ - ما بين السماء والأرض))، وهذا دليل على سعة فضل الله.

(١) أي: زاد على المئة.

(٢) أي: التطهر أهم عناصر الإيمان.

-١٣٩-

فضل الأذكار وصيغتها

- ٢ -

ذِكْرُ الله تعالى: غذاء الروح، وبلسم الشفاء، وسبب الأنس، ومنهج الارتباط بالله تعالى، والتذكيرِ بطاعة الله ورقابته والخشوع لجلاله وعظمته، والتحذير من مخالفته وعصيانه، وكلما كان الإنسان ذاكراً لله تعالى، كان أقرب للتقوى واستنارة القلب بمعرفة الله تعالى، مما يجدر بأهل الإيمان أن يكثروا من ذكر الله سبحانه؛ لغرس محبة الله في نفوسهم، فضلاً عما للذاكرين والذاكرات من ثواب جزيل، ومغفرة سابغة، وظفر بجنان الخلد، وهداية للطريق الأقوم، وزيادة في الرزق والفضل والإحسان الإلهي. وهذا ما تقرره الأحاديث النبوية:

روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: علّمني كلاماً أقوله، قال: ((**قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم**)) قال: **فهؤلاء لربي فمالي؟** قال: ((**قل: اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني**)) دلَّ الحديث على استحباب الإكثار من هذه الأذكار؛ لأنها أطيب الكلام، وأحبه إلى الله تعالى؛ لجمعها بين خيري الدنيا (زيادة الرزق) والآخرة (المغفرة والرضا الإلهي) ولأنها قوام الدين؛ لأن بها تحقيق الهداية للطريق المستقيم، والتوصل إلى مرضاة الله تعالى.

ومن الأذكار عقب الفراغ من الصلاة: ما رواه مسلم عن ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته، استغفر ثلاثاً، وقال: ((اللهم أنت السلام[١]، ومنك السلام[٢]، تباركت[٣] يا ذا الجلال[٤] والإكرام)) قيل للأوزاعي، وهو أحد رواة الحديث: كيف الاستغفار؟ قال: ((يقول: أستغفر الله، أستغفر الله)) أي: أسأله المغفرة لذنوبي.

ومن صيغ الذِّكر الجامع: ما رواه البخاري ومسلم (متفق عليه) عن المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة، وسلَّم، قال: ((لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلْك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ)) أي: لا ينفع الغني غناه، ولا يجديه إلا العمل الصالح.

وفي صيغة أخرى مماثلة، روى مسلم عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أنه كان يقول دُبُر كل صلاة[٥] حين يسلِّم: ((لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول[٦] ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن[٧]، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون)) قال ابن الزبير: وكان رسول الله ﷺ يهلّل بهنَّ دُبُر كل صلاة.

يرشد الحديث إلى استحباب المحافظة على هذه الأذكار الجامعة لأوصاف الكمالات الإلهية، عقب كل صلاة مكتوبة.

---

(١) أي: ذو السلامة مما لا يليق بالله تعالى.
(٢) أي: يرجى منك السلامة.
(٣) أي: كثرت خيراتك.
(٤) أي: يا ذا العظمة والغلبة.
(٥) أي: عقبها أو بعدها.
(٦) أي: لا قوة.
(٧) أي: له الأمر المنعم به، وله الكمال المطلق، وله المدح والذكر الحسن.

ويستحب التسبيح والتحميد والتكبير عقب كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتختم المئة بـ ((لا إله إلا الله..)) إلخ. بدليل ما رواه مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: ((من سبَّح في دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحَمِد الله ثلاثاً وثلاثين، وكبَّر الله ثلاثاً وثلاثين، وقال تمام المئة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلْك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غُفرت خطاياه، وإن كانت مثلَ زَبَد البحر)) وهذا كناية عن الكثرة. وهو يدل على ضرورة مواظبة المسلم والمسلمة على هذه الأذكار بعد كل صلاة مفروضة؛ لما فيها من الخير والثواب والخاتمة الحسنة.

ويؤكده حديث آخر رواه مسلم عن كَعْب بن عُجْرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: ((**معقّبات**[1] **لا يَخيب قائلُهن، أو فاعلُهن: دُبُرَ كل صلاة مكتوبة ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، وثلاثاً وثلاثين تحميدة، وأربعاً وثلاثين تكبيرة**)).

(١) أي: تسبيحات تقال في أعقاب الصلاة، أي: بعدها.

- ١٤٠ -

فضل الأذكار وصيغتها

- ٣ -

جعل ا لله تعالى لكل فئة من الناس طريقاً في الغالب لتحصيل درجات الجنان، فالغني يرجو فضل ا لله بالتصدق بماله، والفقير يظفر برضوان ا لله بالأذكار من تسبيح وتحميد وتكبير، خلف كل صلاة، وإذا جمع الإنسان بين الفضيلتين - وهو نادر - كان ذلك من فضل ا لله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٦٢/٤].

وهذا منهج أهل الإيمان على اختلاف فئاتهم وأصنافهم؛ ورد في حديث (متفق عليه) عن أبي هريرة رضي ا لله عنه: أن فقراءِ المهاجرين أتوا رسول ا لله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدُّثور[1] بالدرجات العُلى، والنعيم المقيم: يصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال: يحجّون، ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدَّقون. فقال: «ألا أعلّمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بَعْدكم، ولا يكون أحد أفضلَ منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلى يا رسول ا لله، قال:

---

(١) الدثور جمع دَثْر: وهو المال الكثير.

((تسبحـــون، وتحمّـِدون، وتكبِّـــرون، خَلْف كـــل صـــلاة ثلاثـــاً وثلاثـــين))، قـــال أبو صالح الراوي عن أبي هـــريرة: لما سُئل عـن كيفيـة ذِكْرهـن، قـال: يقول: ((سبحان ا لله، والحمد لله، وا لله أكبر، حتـى يكـون منهـن كلّهـن ثلاثـاً وثلاثين[١])).

وزاد مسلم في روايته: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول ا لله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهلُ الأموال بما فَعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسـول ا لله ﷺ: ((ذلـك فضـل ا لله يؤتيه من يشاء)).

ومن الأدعية المستحبة عقب الصلاة: مـا رواه البخـاري عـن سـعد بـن أبـي وقاص رضي ا لله عنـه: أن رسـول ا لله ﷺ كـان يتعـوّذ دُبُـر الصلـوات بهـؤلاء الكلمات: ((اللهم إني أعوذ[٢] بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من أن أردَّ إلى أرذل العمر[٣] ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من فتنة القبر)).

ويضم للدعاء السابق بعد الصلاة: ما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن معـاذ ابن جبل رضي ا لله عنه: أن رسول ا لله ﷺ أخذ بيده، وقـال: ((يـا معـاذ! وا لله إني لأُحبك)) فقال: ((أوصيك يا معاذ، لا تَدَعنَّ في دُبُر كل صلاة تقول: اللهـم أعني على ذِكْرِك وشكرِك وحسن عبادتك))، وهو دليل على أن ذكر ا لله تعـالى يؤدي إلى شكره سبحانه، والشكر يسوقه إلى العبودية الحقة.

ومن الأدعية المأثورة بعد التشهد في الصلاة: ما رواه مسـلم عـن أبـي هريـرة رضي ا لله عنه: أن رسول ا لله ﷺ قال: ((إذا تشهَّد[٤] أحدكـم، فليسـتعذْ بـا لله

---

(١) أي: بأن يأتي بكل خصلة منهن بثلاث وثلاثين، وهـو الأكمـل، لا بـأن يكـون المجمـوع فقـط ثلاثـاً وثلاثين، بدليل الحديثين المتقدمين عن أبي هريرة وكعب بن عُجْرة.

(٢) أي: ألتجئ.

(٣) أي: أردئه، وهو الهرم.

(٤) أي: قرأ التشهد والصلاة الإبراهيمية آخر الصلاة.

أربع، يقول: اللهمَّ إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات[١] ، ومن شرِّ فتنة المسيح الدجّال)) وهو الممسوح إحدى عينيه، الكذّاب، وهو رجل كذّاب يظهر قرب يوم القيامة، يدَّعي الأُلوهية، ويُفتتن به كثير من الناس؛ لما معه من خيرات وأموال وممتلكات.

وهناك دعاء آخر بعد التشهد أيضاً، روى مسلم عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة، يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: ((اللهم اغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم، وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت)) هذا دعاء جامع بطلب المغفرة عن كل ما يرتكبه الإنسان في الخفاء والعلن، والقليل والكثير، والسابق والمتأخر، والمعلوم للإنسان والذي يعلم الله به، فالله صاحب السلطان المطلق والشامل. وفيه حثّ على الاستغفار والندم وطلب الخضوع لله تعالى.

ولا مانع في السجود والركوع من قرن التسبيح بالتحميد وطلب المغفرة، بل يستحب للحديث (المتفق عليه) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم، ربَّنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)).

ومن صيغ التسبيح: أن يقول المصلي، كما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: ((سُبُّوح قُدُّوس، ربُّ الملائكة والرُّوح))، وسبُّوح قدُّوس من أسماء الله تعالى يدلان على المبالغة في النزاهة والطهارة عن كل ما يليق بكمال الله وجلاله. والرُّوح: هو جبريل عليه السلام.

---

(١) أي: بلايا الحياة ومحنها الضارة بالبدن والدين، وابتلاء الموت عند الاحتضار.

-١٤١-

فضل الأذكار وصيغتها

- ٤ -

الصلاة في الإسلام معبِّرة عن غاية الخضوع والامتثال لله تعالى، وتمجيده وإظهار الحاجة إليه، وطلب المعونة منه، وهي أيضاً إعلان عن حقيقة العبودية لله عز وجل المعبود بحق، ويكون هذا التعبير إما بتلاوة القرآن، أو بالتسبيح والتحميد في الركوع والسجود، أو بالدعاء وطلب المغفرة فيهما، أو في آخر الصلاة بين التشهد والتسليم، وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى ما يقال في أثناء الصلاة.

روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: ((فأما الركوع فعظموا فيه الرَّبّ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقَمِنٌ أنْ يستجابَ لكم)) أي: جدير أن يستجاب لكم في السجود.

ويؤكده حديث آخر رواه مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((أقربُ ما يكون العبد من ربِّه، وهو ساجد، فأكثروا الدعاء)). دلَّ هذا الحديث وما قبله على استحباب التسبيح في الركوع بأن يقال: ((سبحان ربي العظيم وبحمده)) وأقله مرة، وأكمله ثلاث مرات في الحد الأدنى، أو إحدى عشرة مرة في الحد الأقصى.. ويقال في السجود: ((سبحان ربي الأعلى وبحمده)) مع الإكثار من الدعاء فيه؛ لكمال تواضع الإنسان لربِّه، وهو ساجد. والقرب حينئذ من الله قربٌ معنوي، يدلُّ على رضا الله على عبده.

ويزاد دعاء آخر في السجود؛ للحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده: ((**اللهم اغفر لي ذنبي كلَّه دقَّه وجِلَّه، وأوله وآخره، وعلانيته وسرّه**)) أي: اغفر لي صغير ذنبي، وكبيره، والمخفي والمعلن منه.

ومن الصيغ المأثورة في الدعاء في الركوع أو السجود: ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: افتقدتُ[1] النبي ﷺ ذات ليلة، فتحَسَّستُ[2]، فإذا هو راكع - أو ساجد - يقول: ((سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت)) وفي رواية: فوقعتْ يدي على بطن قدميه، وهو في المسجد[3]، وهما منصوبتان، وهو يقول: ((اللهم إني أعوذ برضاك من سَخَطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك!)) أي: ألتجئ إليك، لا أستطيع إحصاء أوصافك الحسنى وأفضالك الكبرى، ثناءً عليك أي: ذكراً بالجميل.

أرشد الحديث والذي قبله إلى استحباب ذكر الله تعالى، ودعائه في السجود بالصيغ المذكورة الجامعة بين صفات التنزيه والتقديس.

والأذكار عقب الصلاة سنة ثابتة، روى مسلم عن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: ((أيعجِز أحدكم أن يكسِب في كل يوم ألفَ حسنة؟)) فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب ألف حسنة؟ قال: ((يسبِّح مئة تسبيحة، فيُكتَب له ألفُ حسنة، أو يُحَطُّ[4] عنه ألف خطيئة)) وفي رواية: ((ويَحُطُّ)) بغير أَلِفٍ. وهذا مبدأ مضاعفة الحسنة إلى عشرة أمثالها؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ [الأنعام: ٦/١٦٠].

وكل يوم يطالب المؤمن والمؤمنة بأداء صدقة عن أعضائه التي عددها (٣٦٠)

---

(١) أي: فقدته و لم أجده.

(٢) طلبته وبحثت عنه.

(٣) أي: في السجود.

(٤) أي: يوضع عنه.

عضواً، وهذه الصدقة بالأذكار السابقة، أو بفعل الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، ويجزئ عن كل ذلك ركعتا الضحى؛ روى مسلم عن أبي ذرّ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((يُصبح عن كلِّ سُلامى[1] من أحدكم صدقة، فكلُّ تسبيحة صدقة، وكلُّ تحميدة صدقة، وكلُّ تهليلة صدقة، وكلُّ تكبيرة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى))، فيه دلالة على استحباب الإكثار من ذكر الله تعالى، والمحافظة على سنة الضحى، وأقلها ركعتان، وأكثرها ثماني ركعات، والصدقة المادية أفضل من غيرها، لتعدي نفعها، والجمع بينها وبين الأذكار أكمل.

وفي صيغة مأثورة أخرى من الدعاء والذِّكْر: ما رواه مسلم عن أم المؤمنين جويرية بنتِ الحارثِ رضي الله عنها: أن النبي ﷺ خرج من عندها بُكْرةً[2] حين صلَّى الصبح، وهي في مسجدها[3]، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: ((ما زلتِ على الحال التي فارقتكِ عليها؟)) قالت: نعم، فقال النبي ﷺ: ((لقد قلتُ بعدك أربعَ كلمات، ثلاث مرات، لو وُزنت بما قلتِ منذ اليوم لَوَزَنْتهُنَّ: سبحان الله وبحمده عدد خَلْقه، ورضا نفسه، وزنةَ عرشه، ومداد كلماته[4])).

وفي رواية أخرى لمسلم: ((سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضاءَ نفسه، سبحان الله زنةَ عرشه، سبحان الله مداد كلماته)).

وفي رواية الترمذي: ((ألا أعلِّمكِ كلمات تقولينها؟: سبحان الله عدد خَلْقه، سبحان الله عدد خَلْقه، سبحان الله عدد خَلْقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله مداد كلماته)).

(١) السلامي: كل مفصل وعظم.
(٢) أي: مبكِّراً.
(٣) أي: موضع صلاتها في بيتها.
(٤) أي: رضا ذاته العلية، ومقدار ما يزن عرشه، ومقدار كثرة كلماته.

-١٤٢-

فضل الأذكار وصيغتها

- ٥ -

الذِّكْر والأذكار تجديد للإيمان، وبعث لنشوة الروح، وإحياء للنفس الإنسانية بعد غفلتها أو نسيانها، والذاكر كالحي، وغير الذاكر كالميت، والبشائر كثيرة من الله تعالى بالمغفرة والرضوان والرحمة لأهل الذكر. ورأس الذِّكْر: هو «لا إله إلا الله» وغراس الجنة: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر». وذكر الله أفضل الأعمال، والمداومة على الذكر جهاد للنفس، وتوثيق للصلة بالله تعالى والقرب منه. لذا كان ذكر الله تعالى من أصول الإيمان وعقيدة الإسلام، بدليل الأحاديث الشارعة له.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَثَل الذي يذكرُ ربَّه، والذي لا يذكُر مَثَل الحي والميت» هذا لفظ البخاري. ولفظ مسلم: «مثل البيتِ الذي يُذْكَرُ اللهُ فيه، والبيتِ الذي لا يذكَر الله فيه مَثَل الحي والميت» أي: إن ذكر الله إحياء للنفس، وترك الذكر أشبهُ بالموت؛ لأن تركه يورث الغفلة عن فعل الخير.

وفي حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذَكَرني، فإن ذَكَرني في

نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذَكَرني في ملأ، ذكَرته في ملأ خيرٍ منهم)) أي: أنا عند حسن ظن عبدي بي، بأن يثق بوعدي، ويرهب من وعيدي، وذكرته في نفسي: أي: سراًّ، وذكرته في ملأ: أي: في جماعة، وأذكره في جماعة خير من ملئه، وهم الملائكة الكرام، وتفضيل جماعتهم لقربهم من ا لله تعالى.

قال علماؤنا: إن خواص البشر من الأنبياء أفضل من خواص الملائكة كجبريل، وخواص الملائكة أفضلُ من عوام البشر، وعوام البشر وهم المطيعون أفضل من عوام الملائكة، وعوام الملائكة أفضل من عصاة البشر.

ومما يدل على فضيلة الذكر واستحبابه: ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((**سَبَق المفرِّدون**[١]))، **قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال:** ((**الذاكرون الله كثيراً والذاكرات**)) أي: إن الذاكرين والذاكرات أسبق لدخول الجنة في الآخرة؛ لكثرة طاعاتهم وعباداتهم.

وأفضل الذِّكْر إثبات توحيد ا لله سبحانه؛ لما رواه الترمذي – وقال: حديث حسن – عن جابر رضي ا لله عنه قال: سمعت رسول ا لله ﷺ يقول: ((**أفضل الذكر: لا إله إلا ا لله**)) أي: لأن كلمة التوحيد أفضل الكلام، إذ إنها إثبات للوحدانية، ونفي للشركاء، وهي أفضل ما قاله الأنبياء، ومن أجلها بعثوا، ولإقرارها قاتلوا، وفي سبيلها استشهدوا.

ومداومة الذِّكر على اللسان وفي القلب: أمر مستحب في الإسلام، روى الترمذي – وقال: حديث حسن – عن عبد ا لله بن بُسْر رضي ا لله عنه: أن رجلاً قال: ((يا رسول ا لله! إن شرائع الإسلام قد كثُرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشبَّث به[٢] ، قال: ((لا يزال لسانك رطباً من ذكر ا لله)) وهذا دليل على سعة فضل ا لله تعالى، حيث يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل.

---

(١) وروي بالتخفيف للراء: المُفْرِدون، والمشهور تشديد الراء.

(٢) أي: أتعلّق به وأعتصم.

والتسابيح والتحميدات والتكبيرات: غراس الجنة، روى الترمذي - وقال: حديث حسن - عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((**من قال: سبحان الله وبحمده، غُرست له نخلة في الجنة**)) وهذا مجاز عن وجود الثواب الزائد في الجنة بسبب تنزيه الله وتحميده.

وفي معناه روى الترمذي أيضاً - وقال: حديث حسن - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لقيتُ إبراهيم ﷺ ليلة أُسري بي، فقال: يا محمد! أقرِئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان[1]، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)).

أفاد الحديث أن ذكر الله بهذه الألفاظ يُبَوِّئ الذاكر في نعيم الجنة وظلال أشجارها، وعذوبة مائها، وطيب هوائها.

وفي حديث (متفق عليه) عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا أدلُّك على كَنْز من كنوز الجنة؟)) فقلت: بلى يا رسول الله، قال: ((لا حول ولا قوة إلا بالله)) هذه الحوقلة: تعني الاستسلام والتفويض لله تعالى.

والمداومة على ذكر الله تعالى من أعظم القرب لله تعالى. روى الترمذي - وقال الحاكم أبو عبد الله: إسناده صحيح - عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا أنبِّئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم[2]، وأرفعِها في درجاتكم[3]، وخيرٌ لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخيرٌ لكم من

(١) أي: أماكن واسعة مستوية.
(٢) أي: أطهرها وأكثرها ثواباً عند مالككم.
(٣) أي: أعلاها وأزيدها.

أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟)) قالوا: بلى، قال: ((ذكر الله تعالى)). وسبب تفضيله على بقية الأعمال والصدقات والجهاد: أنه أساس الاعتقاد، وسبب التقوى، أي: العمل الصالح، والبعد عن الشهوات والمنكرات.

وروى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة، وبين يديها نوى[1] - أو حصى - تسبِّح به، فقال: ((أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا، أو أفضل؟)) فقال: ((سبحان الله عدد ما خلَق في السماء، وسبحان الله عددَ ما خَلَق في الأرض، وسبحان الله عددَ ما بين ذلك، وسبحان الله عددَ ما هو خالق، والله أكبر مثلَ ذلك، والحمد لله مثلَ ذلك، ولا إله إلا الله مثلَ ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثلَ ذلك))، أي: إن الإتيان بهذه الأذكار أفضل من استعمال الحصى أو السبحة، لأن ما يُعدُّ بها قليل أمام الكثير الذي ذكره الله تعالى.

(١) أي: بذور التمر.

-١٤٣-

كيفيات الذِّكْر

أراد الله تعالى من الترغيب في ممارسة الأذكار والدعوات ربطَ قلب المسلم بربِّه، وتوثيقَ الصلة به، وتأكيد الارتباط به في كل حال؛ ليظل القلب والإنسان مراقباً لله تعالى في السِّر والعلن، في الخلوات والجلوات، في اليقظة وعند إرادة النوم، لذا شرع الله تعالى ترداد ذكر الله سبحانه قائماً وقاعداً، ومضطجعاً، ومُحدثاً، طاهراً، وجُنباً، وحائضاً إلا تلاوة القرآن، فلا يحل لجنب ولا حائض، وإلا الأماكن غير المكرَّمة كبيوت الخلاء والحمامات، والاصطبلات، والمجازر والمزابل، فلا يليق ذكر الله تعالى فيها، تأدُّباً مع الله وتعظيماً لجنابه، وتهيباً من عظمته، وفي هذا تعليم للأدب مع الله، واستحضار جلال الله.

قال الله تعالى مبيحاً الأذكار في الأوقات والأحوال المختلفة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠ - ١٩١]. أي: إن في عظمة خلق الكون، وتعاقبِ الليل والنهار، وتفاوتِهما لآياتٍ، أي: لدلالات على وجود الله سبحانه، وعلى توحيده وقدرته، وتلك الدلالات يدركها، ويحسُّ بها أولو الألباب، أي: ذوو العقول والأفكار النيِّرة والصحيحة.

ولا يصح قطع الذِّكر في حال حتى في حال الجنابة ولكن في غير حال كشف السوآت أو العورات تأدباً مع الله وتعظيماً له، لما رواه مسلم عن عائشة

رضي الله عنها قالت: ((**كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه**)) أي: حتى في حال الجنابة، وفي كل أوقاته وأحواله، سواء كان متطهراً من الحدثين الأصغر والأكبر، أو كان به أحدهما، أي: غير متوضئ، أو غير متطهر من الجنابة. وهذا دليل على مشروعية الذكر واستحبابه في كل وقت وحال.

وهذا ينسجم مع مدلول حديث سابق، رواه الترمذي – وقال: حديث حسن – عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن شرائع الإسلام قد كَثُرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبَّث به[1]، قال: ((**لا يزال لسانُك رطباً من ذِكْر الله**)) وهذا كناية عن مداومة الذكر ومتابعته والاستمرار فيه.

ومن غرائب أحوال إيراد الذِّكْر، وهو ما أهمله الناس غالباً: الحال الخاصة التي تكون بين الزوج وزوجته، ورد في حديث (متفق عليه) عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنِّبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا، فقُضي بينهما ولد، لم يضرّه)) أي: اللهم أبعد عنا الشيطان، وأبعد الشيطان عمّا قد تهبنا من رزق الولد والذرية، فإذا قدِّر وجود الولد في تلك الليلة، لم يمسَّه الشيطان، وكان في مأمن منه. وهذا دليل على استحباب قول الإنسان هذا الدعاء قبل الشروع في الحال الخاصة، أما في أثنائها، فيكره الكلام، وهو دليل أيضاً على حفظ المولود من مسِّ الشيطان وأذاه، بسبب هذا الذكْر أو بركته فيما إذا حملت المرأة في تلك الليلة.

---

(١) أي: أتعلَّق به وأعتصم.

ومن الأذكار المسنونة أو المندوبة ندباً مؤكداً: ذكر الله تعالى ودعاؤه عند إرادة النوم، وعقب الاستيقاظ؛ روى الترمذي عن حُذيفة وأبي ذرّ رضي الله عنهما، قالا: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: ((باسمك اللهم أحيا وأموت)) وإذا استيقظ قال: ((الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور)) أي: الشكر والحمد لله جل جلاله على أنه أيقظنا بعد الموتة الصغرى، وهي النوم، وإليه المرجع أو المآب، أو الحياة، بعد الموت.

دلَّ الحديث على استحباب هذا الذكر عند النوم واليقظة، ليبقى الإنسان متيقظ العقل والقلب والنفس، ويستقبل ليله ونهاره بذكر الله تعالى، فلا يغفل عن ربِّه، ولا يفكِّر إلا في طاعة الله تعالى، ولا يشغل ذهنه بوساوس الشيطان وإغواءاته، ودلالاته على الشَّر وفنونه وأحواله.

-١٤٤-

فضل مجالس التذكير والأذكار

ذِكْر الله تعالى مشروع ومندوب في حال الانفراد، وحال الاجتماع، على أن يكون الجميع متأدبين بالأدب مع الله تعالى، والخشوع واستحضار عظمة الله سبحانه، وحينئذ يتجلى الله تعالى على عباده الذاكرين، ويرضى عنهم، ما داموا على حال خاشعة، ونفوس ذاكرة، وأفئدة تهيمن عليها عزة الله وجلاله.

والدليل الواضح على مشروعية الذّكر الجماعي: قول الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨/١٨] أي: ابقَ على صلة دائمة مع الداعين الله ربهم في الصباح والمساء، يريدون إرضاء الله ربِّهم، ولا تنصرف عيناك عنهم إلى غيرهم من أصحاب النفوذ والجاه والثراء.

وأكدت السُّنة النبوية **مشروعية مجالس الذكر**، روى البخاري ومسلم حديثاً مطوَّلاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى ملائكةً يطوفون في الطرقات، يلتمسون أهل الذّكْر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا: هلمّوا إلى حاجتكم، فيحفُّونهم بأجنحتهم[1] إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم - وهو أعلم -: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبِّحونك،

---

(١) يحيطون بهم ويدورون حولهم.

ويكبِّرونك، ويحمِّدونك، ويمجِّدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادةً، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً، فيقول: فماذا يسألون؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا وا لله يا ربّ، ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً، وأشدَّ لها طلباً، وأعظم فيها رغبةً.

قال: فممَّ[1] يتعوَّذون؟ قال: يقولون: يتعوَّذون من النار، قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا وا لله، ما رأوها، فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافة. قال: فيقول: فأُشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول مَلَك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم)).

أرشد الحديث إلى فضل مجالس الذكر، لأن الملائكة تحضر هذه المجالس، وتحب الذاكرين وتعتني بهم، وينقلون ذلك إلى ا لله تعالى، مع أن ا لله عليم بهم، فيرضى عنهم، ويجيب دعاءهم، ويلبِّيهم بدخول الجنة، والابتعاد عن النار، بل إن من فضل ا لله تعالى أن جميع الحاضرين ولو كان فيهم مُغْرِض أو ذو حاجة تعمهم رحمة ا لله وإحسانه، فإنهم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

ويؤكد ذلك حديث آخر يصوِّر مدى محبة ا لله، ورعاية الملائكة لأهل الذكر ومجالسهم؛ روى مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي ا لله عنهما قالا: قال رسول ا لله ﷺ: ((**لا يقعدُ قوم يذكرون الله إلا حفَّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**)) أي: ما من مجلس ذكر، أو حلقات ذكر، إلا أحاطت بهم الملائكة الكرام، ونزلت عليهم رحمة ا لله، وغمرت قلوبهم الطمأنينة، وهذا دليل واضح على فضل أو شرف الذاكرين عند ربهم سبحانه.

---

(١) أي: يستجيرون ويعتصمون.

والناس أمام حلقات الذكر ثلاثة أصناف: محب مساهم فيها، ومحب غير مساهم فيها، ومعرض عنها، ورد في حديث (متفق عليه) عن أبي واقد الحارث ابن عوف رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد، والناسُ معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، وذهب واحد، فوقفا على رسول الله. فأما أحدهما فرأى فُرْجَةً في الحَلْقة، فجلس فيها، وأما الآخر، فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً. فلما فرغ رسول الله ﷺ، قال: «أُخبركم عن النَّفَر الثلاثة؟ أما أحدهم: فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر: فأعرض، فأعرض الله عنه» أي: إن الأول جلس في وسط الحلقة، أو مكان الفرجة يستمع ذكر الله، فأكرمه الله بفضيلة ذلك المجلس المبارك. وأما الثاني: فاستحيا، أي: امتنع عن المزاحمة، فأكرمه الله، ولم يهنه، وأما الثالث، فأعرض عن المجلس، فسخط الله عليه.

وفي بشارة أخرى للمقبلين على حَلْقة الذكر، روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية رضي الله عنه على حَلْقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكُر الله، قال: آللهِ، ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تُهمةً لكم[1]، وما كان أحدٌ بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثاً مني، إن رسول الله ﷺ خرج على حَلْقة من أصحابه، فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ به علينا، قال: «آللهِ ما أجلسكم إلا ذاك؟» قالوا: آللهِ ما أجلسنا إلا ذاك، قال: «أما إني لم أستحلفكم تهمةً لكم، ولكنه أتاني جبريل، فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة» أي: يفاخر بكم الملائكة، وهذا دليل على فضل مجالس الذكر وكرامة الذاكرين عند الله تعالى.

---

(١) أي: شكّاً في صدقكم.

-١٤٥-

أذكار الصباح والمساء

-١-

على المؤمن أو المؤمنة أن يكون كلاهما مقدِّراً نعمة المولى الخالق الرازق المنعم المتفضل بجلائل النعم الإلهية، الملازمة للإنسان في كل وقت، والوفاءُ بالنعمة يقتضي شكرها وتقديرها، وملازمةَ ذكر الله تعالى في كل وقت، ولا سيما في الصباح والمساء المعبِّرين عن الانتقال المتميز في حياة الإنسان بين عالم الحياة الذي يغصُّ بالأعمال والمشكلات، وعالم الإعداد والراحة والتأمل في إنجاح مسيرة الحياة. ثم إن ذكر الله تعالى يفتح آفاق الذهن، ويلهم الصواب، ويوفّق الإنسان إلى متابعة عمله بنجاح وازدهار.

لذا رغَّب القرآن الكريم، وأمر بذكر الله تعالى على سبيل الندب أو الاستحباب، فقال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥/٧]. أي: اذكر أيها المؤمن أو المؤمنة الله تعالى سرّاً وتذلُّلاً وخضوعاً، رجاءً وخوفاً، وأقلَّ من الجهر قليلاً، بأن تُسمع نفسك دون غيرك، في الصباح والمساء. عند الآصال: جمع أصيل: وهو ما بين العصر والمغرب.

وقال الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها﴾ [طه: ٢٠/١٣٠]، وقال سبحانه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكارِ﴾ [غافر: ٤٠/٥٥]، أي: في المساء، وأول النهار، والعشي: ما بين زوال الشمس ظهراً وغروبها. وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالآصالِ، رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢٤/٣٦ - ٣٧]، أي: إن إغراءات الحياة التجارية والمعاملات لا تلهيهم عن الصلاة وذكر الله دائماً. وقال عز وجل عن داود عليه السلام: ﴿إِنّا سَخَّرْنا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْراقِ﴾ [ص: ٣٨/١٨] أي: لقد ذلّلنا لداود الجبال تسبِّح وتردِّد تسبيحاته فيما بعد الظهر إلى الغروب، ووقت شروق الشمس.

هذه الآيات الكريمة ونحوها إنما هي لغرس محبة الله في القلب، ومداومة ذكره في اللسان، وفي كل حال من التأمل والتفكر، والهم والعزم والتنفيذ؛ لتربية النفس على رقابة الله وعبوديته، وإظهار مجده وجلاله وعظمته.

وجاءت السنة النبوية الشريفة معلّمة إيانا صيغ الأذكار وأنواعها في المناسبات والأحوال المختلفة، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده، مئة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضلَ مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال، أو زاد**)). فيه دليل على أن الاستكثار من ذكر الله تعالى محبوب إلى الله عز وجل، من غير تحديد بحد، وأقل ذلك مئة مرة. والتخصيص بالصباح والمساء ليكون البدء والختام بعمل مُرْضٍ لله، معبِّر عن طاعة الله.

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ما لقيتُ من عقرب لَدَغتني البارحة! قال: ((أمّا لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق، لم تضرّك)) هذه شكوى

من رجل عن شيء عظيم لقيه في أمسه، فأرشده النبي ﷺ إلى دعاء يحميه من هوام الأرض وحشراتها، يقوله عند النوم، ومعناه: ألتجئ بكلام الله وأقضيته وشؤونه وقدرته، وأوصافه المنزَّهة عن كل نقص من شرِّ مخلوقات الله، فيستحب هذا الدعاء، والاستعاذة بالله من سائر المؤذيات.

ودعاء آخر عند الصباح والمساء، روى أبو داود، والترمذي - وقال: حديث حسن - عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا أصبح: ((اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور[١])) وإذا أمسى قال: ((اللهم بك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك المصير)).

ومن الأدعية المأثورة: ما رواه أبو داود والترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن أبي هريرة أن أبا بكر الصِّديق رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! مُرْني بكلمات أقولهن إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ، قال: ((قل: اللهم فاطر السماوات[٢] والأرض، عالم الغيب والشهادة[٣]، ربَّ كل شيء ومليكه[٤]، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي وشرِّ الشيطان وشركه[٥]))، قال: ((قلها إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك)) وهذا دعاء مستحب، مبدوء بإعلان شهادة التوحيد، متوَّج بالالتجاء إلى الله من شرِّ النفس وشرِّ الشيطان، فكلاهما خطير.

(١) أي: الرجوع.
(٢) أي: خالقهما على غير مثال سبق.
(٣) أي: ما غاب، وما يشاهد.
(٤) أي: مالكه.
(٥) أي: ما يدعو إليه من الإشراك بالله.

-١٤٦-

أذكار الصباح والمساء

-٢-

إن التوجيهات الإلهية الكريمة، وكذلك الوصايا النبوية، إنما هي لخير الإنسان، ومن أجل تحقيق مصلحته ورعاية شؤونه، والأخذ بيده نحو وجهات الخير، وكفايته من كل ما يهتم به الإنسان ويهمه. ومن ألزم ما يحقق الخير والفضل والإحسان مداومة الأذكار، ومتابعة تردادها على القلب واللسان، وأحبُّ الأذكار إلى الله تعالى الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ، ومنها:

- روى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان نبي الله إذا أمسى قال: ((أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له)) قال الراوي: أُراه قال فيهن[1]: ((له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. ربِّ أسألك خير ما في هذه الليلة، وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شرِّ ما في هذه الليلة وشرِّ ما بعدها، ربِّ أعوذ بك من الكسل، وسوء الكِبَر[2]، أعوذ بك من عذاب النار، وعذابٍ في القبر)). وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: ((أصبحنا وأصبح الملك لله)).

---

(١) أي: أظنه قال معهن.

(٢) أي: المرض والهرم.

أفاد الحديث استحباب المواظبة على هذه الأذكار في الصباح والمساء، ليظل الإنسان حاضر الذهن مع ربِّه، مقبلاً عليه، راجياً منه الحفظ والحماية، والهداية، والنجاة والسلامة من كل سوء.

- ومن هذه الأذكار والأدعية المأثورة: ما رواه أبو داود، والترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن عبد الله بن خُبيب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((اقرأ: قل هو الله أحد، والمعوِّذتين[1] ، حين تمسي وحين تصبح، ثلاث مرات، تكفيك من كل شيء)) أي: تحميك من شرِّ المؤذيات، وكان النبي ﷺ يقرأ هذه السور الثلاث عند النوم، ويمسح بها بيديه جسمه.

وفي صيغة دعائية أخرى صباحية: حماية من كل ألوان الأذى والضرر؛ روى أبو داود، والترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، ثلاث مرات، إلا لم يضرّه شيء)) أي: أحتمي باسم الله الذي يحمي من كل سوء، من الإنس والجن والجماد والحيوان، فهو سبحانه العليم بأحوال الكائنات، القدير على تصريفها كيف يشاء، ففي هذا الدعاء اتِّقاء الإنسان بقدرة الله تعالى من جميع أنواع السوء والضرر، فإنه سبحانه هو الواقي من كل شر.

ويستحب للإنسان الدعاء عند النوم والأذكار بما هو وارد في السنة النبوية، من ذلك ما رواه البخاري عن حُذيفة وأبي ذرّ الغفاري رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه، قال: ((**باسمك اللهم أحيا وأموت**)) وهذا دعاء مختصر يجمع بين شؤون الحياة والممات، بالاستعانة باسم الله عز وجل.

---

(١) أي: سورة الفلق، وسورة الناس.

ومن الأذكار: ما ثبت في حديث (متفق عليه) عن علي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال له ولفاطمة رضي الله عنهما: ((إذا أويتما إلى فراشكما - أو إذا أخذتما مضاجعكما[١] - فكبِّرا ثلاثاً وثلاثين، وسبِّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين)) وفي رواية: ((التسبيح أربعاً وثلاثين)) وفي رواية: ((التكبير أربعاً وثلاثين)) وفي رواية عند النَّسائي: ((التحميد أربعاً وثلاثين)) وفي رواية للطبراني والنَّسائي: ((إحداهن - أي التسبيح أو التحميد أو التكبير - أربعاً وثلاثين)) وهذا لتحقيق عدد المئة مرة.

ومن الأدعية المطلوبة عند النوم: ما ورد في حديث (متفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فلينفُض فراشه بداخِلَةِ إزاره[٢]، فإنه لا يدري ما خَلَفَه عليه[٣]، ثم يقول: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكتَ نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)). وفي هذا حثٌّ واضح على ملازمة هذا الدعاء عند النوم؛ لما فيه من التفويض التام لله تعالى، وتحصيل الهدوء والطمأنينة. وكل هذه الأدعية مفيدة ومجرَّبة.

(١) هذا شك من الراوي.

(٢) أي: لينفض فراشه الذي ينام عليه بطرف إزاره، أي: ثوبه السفلي.

(٣) أي: بما جاء فيه من الهوام والحشرات.

-١٤٧-

ما يقوله الشخص عند النوم

النوم: موتة صغرى، والإقدام على النوم استسلام للخالق وقضائه، فيحتاج النائم إلى مزيد من الضراعة إلى الله تعالى، ليشمله الله برعايته وإضفاء الأمان والاطمئنان على نفسه، وإيقاظه سليماً معافى بكامل روحه وجسده، ويتحقق هذا الأمل بطائفة من الأدعية المختارة الثابتة في السُّنة النبوية، يقولها مريد النوم، ويرددها قبل الاستغراق في النوم. وهذه الأدعية هي ما يأتي:

- ورد في حديث متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مَضْجعه، نفث في يديه[١]، وقرأ بالمعوِّذات[٢]، ومسح بهما جَسده. وفي رواية أخرى للشيخين: أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلة جمع كفَّيْه، ثم نفَثَ فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ: هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ: أعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ: أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم مسح بهما ما استطاع من جسده: يبدأ بهما على رأسه و وجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

---

(١) قال أهل اللغة: النَّفْث: نفخ لطيف بلا ريق.

(٢) أي: قرأ سورة الإخلاص ﴿قُل هُوَ ا للهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين: ﴿قُل أعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وأطلق على هذه السور الثلاث اسم المعوذات من باب التغليب.

تبين من هذا الحديث أن مريد النوم يقرأ المعوِّذات الثلاث في مجموع يديه، بعد أن ينفخ نفخاً لطيفاً فيهما، أي: في مجتمع كفَّيه، ثم يمسح بيديه ما استطاع من جسده، وتدل هذه الحالة من الجمع بين القول والعمل على تمام اللجوء إلى الله تعالى، وتحقيقِ النجاة من الأضرار المحتملة في أثناء النوم.

- ويستحب أيضاً لمريد النوم أن يتوضأ قبل نومه، وأن يضطجع على جنبه الأيمن، ثم يدعو بالدعاء الآتي الذي يدلُّ على صدق العبودية لله تعالى، والخضوع والانقياد له سبحانه، وهو ما ثبت في حديث (متفق عليه) عن البراء ابن عازِب رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وُضُوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقِّك الأيمن، وقل: اللهم أسلمتُ نفسي إليك، ووجَّهت وجهي إليك، وفوضَّت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيِّك الذي أرسلت. فإن مِتَّ مِتَّ على الفطرة، واجعلهن آخر ما تقول)) ومعنى هذا الدعاء: أنني يا رب جعلت نفسي منقادة لحكمك، وكل ذاتي ونفسي متجهة إليك وحدك، واعتمدت عليك في جميع أموري، خوفاً من عقابك، وطمعاً في ثوابك. فإن مات الإنسان في نومه بعد هذا الدعاء، مات على دين الفطرة، أي: دين التوحيد الخالص من أي شرك.

- وكلما أكثر الإنسان من الدعاء عند النوم، كان خيراً له وفضلاً وإحساناً، ومن هذه الأدعية: ما رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: ((الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممَّن لا كافي له ولا مؤوي[1])) هذا تعبير عن شكر الله عز وجل على إحدى النعم الثلاث الأساسية للإنسان: وهي نعمة الإيواء والسكنى، بعد نعمة الغذاء، واللباس، وفي هذا الدعاء مقارنة مع أحوال بعض الناس الذين لا ينعمون بنعمة

(١) أي: لا مسكن يأوي إليه.

المأوى والمسكن، ليشعر المرء بعظمة هذه النعمة، ويُقبل على الشكر لربِّه وعرفانه جميله، فإن ا لله وحده هو المنعم بهذه النعم، وهو الكافي والرازق والميسر للناس المأوى.

- ولا يكفي الشكر على النعم الإلهية مرة واحدة، وإنما لا بد من دوام الشكر، ودوام الدعاء، ودوام الشعور بالحاجة والعبودية لله تعالى. وهذا ما أرشد إليه حديث رواه أبو داود عن حفصة رضي ا لله عنها، ورواه الترمذي - وقال: حديث حسن - عن حذيفة رضي ا لله عنه: أن رسول ا لله ﷺ كان إذا أراد أن يرقُد[1] ، وضع يده اليمنى تحت خدِّه، ثم يقول: ((**اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك**)) وهو دليل على ضرورة دوام التذكير بفضل ا لله، والتنبيه إلى الخوف المستمر من ا لله، والاستمرار في طاعة ا لله، وإظهار الحاجة إلى وقاية ا لله من العذاب يوم القيامة؛ لأن ما بعد الدنيا لا يوجد إلا شيئان: الجنة والنار، قال ا لله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَما الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاّ مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ٣/١٨٥].

---

(١) أي: ينام.

-١٤٨-

فضل الدعاء وآدابه

هناك في ساحة القضاء والقدر أمور متعلقة بحدوث أمور أخرى، منها الدعاء، والطاعة، والعبادة، والتوكل على الله، والرضا بحكمه، والتفويض إليه في إنجاز المطلوب وتحقيق الغايات، وهذا لطف من الله تعالى بعباده، حتى لا يتعرضوا لليأس والإحباط وفَقْد الأمل. والمسألة سهلة إذا لاحظنا ضرورة الإخلاص في الدعاء، وصدق التوجه إلى الله عز وجل، والإلحاح في الطلب، مع التزام الأدب مع الله سبحانه، وتهيئة الأسباب، والتزود بالتقوى.

وهذا ما دلَّت عليه النصوص القرآنية والنبوية، قال الله تعالى: ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠] أي: صاغرين، والمراد من قوله: ((ادعوني)) عبادة الله، كما أوضحت بقية الآية التي أرشدت إلى أن التكبر عن العبادة موجب لدخول جهنم. والدعاء الذي هو عبادة أيضاً: إما جهراً، أو سرّاً في القلب، مع إظهار الذلة والمسكنة لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٥٥].

ومن فضل الله وكرمه أنه لا يخيب رجاء من دعاه بصدق وإخلاص، وهذا أمر مجرَّب، قال الله تعالى: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٦].

وإجابة الدعاء تتطلب القدرة الكافية لتحقيق المراد، وا لله تعالى متصف بكمال القدرة وتمام الإرادة، لذا فهو سبحانه وحده قادر على تلبية الدعاء، وإجابة الداعي، وتفريج الكرب، وكشف السوء، ورفع الضرر، وإزالة الهم والأذى، قال ا لله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهُ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢/٢٧].

والدعاء: مظهر من مظاهر العبادة والطاعة، وإظهارِ العبودية لله تعالى، بدليل ما رواه أبو داود والترمذي – وقال: حديث حسن صحيح – عن النعمان بن بشير رضي ا لله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((الدعاء: هو العبادة)) أي: إن الدعاء لون من ألوان العبادة المطلوبة؛ لدلالته على الإقبال على ا لله تعالى، وصدق التوجه إليه، والإعراض عما سواه، ولا يغني الدعاء عن بقية العبادات المفروضة من صلاة وصيام وحج وزكاة.

ويستحب الإقلال من عبارات الدعاء، واختيار الألفاظ اليسيرة منها، والأخذ بالمأثور منها عن النبي ﷺ، والحرص على جوامع الدعاء، أي: الكلمات الجامعة للمعاني الكثيرة؛ لما رواه أبو داود بإسناد جيد عن عائشة رضي ا لله عنها قالت: كان رسول ا لله ﷺ يستحبّ الجوامع من الدعاء، ويدع ما سوى ذلك.

ومن الأدعية الجامعة: ما اقتبس من القرآن الكريم كلامِ ا لله عز وجل، حيث علَّمنا ا لله صيغاً مفيدة جامعة من الدعاء، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١/٢]. ويؤكد ذلك حديث متفق عليه عن أنس رضي ا لله عنه قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: ((**اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار**)) زاد مسلم في روايته قال: ((وكان أنس إذا أراد أن يدعو دعا بها، وإذا أراد أن يدعو

والأدعية الجامعة لخيري الدنيا والآخرة كثيرة في السنة النبوية، روى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يقول: ((**اللهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعَفاف، والغِنى**)) أي: إنني أسألك وأطلب منك يا ربّ الهداية لأنواع الخير، والتوفيق لجميع خصال الخير، وملازمة التقوى: وهي التزام الأوامر الإلهية، واجتناب النواهي الرَّبانية، وأسألك العفاف، أي: الكفّ عن المعاصي والخطايا، وأطلب منك الغنى، أي: الاستغناء عن الحاجة إلى الناس، فمن دعا بهذا الدعاء، فاز في الدنيا والآخرة، وظفر برضوان الله تعالى.

والخلاصة: ما أحوج الإنسان إلى رحمة ربِّه ومغفرة ذنبه، ويتحقق ذلك بأقرب الطرق وأيسرها، وهو الدعاء إلى الله في وقت العسر واليسر، وفي وقت الشدة والاضطرار والبلاء وفي وقت الرخاء.

-١٤٩-

صيغ الدعاء

-١-

الدعاء معبِّر عن الحاجة، ودالٌّ على الرغبة الأكيدة في تحقيق الغاية أو المراد، وما أكثر حوائج الإنسان الثابتة والطارئة، وهي تشمل عالم الدنيا والآخرة معاً، وأخصها طلب الرزق والعافية والرحمة في الحياة العاجلة الدنيوية، وسؤال المغفرة وتكفير الذنوب، والرحمة والقبول في الحياة الأخروية.

وقد وردت في السنة النبوية أدعية مختلفة مأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام، تدل على مزيد حاجة الإنسان إلى ربِّه، فما أسعد الموفَّق لترداد هذه الأدعية، وما أشقى الإنسان الذي يعيش طوال حياته بعيداً عن الله تعالى، لا يتحرك لسانه بدعاء ربِّه، ولا يعْجَل لطلب المعونة من الله سبحانه.

ومن هذه الأدعية النبوية: ما رواه مسلم عن طارق بن أَشْيَم رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا أسلم، علَّمه النبي ﷺ الصلاة، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: ((**اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزُقني**)) وفي رواية أخرى له (أي: لمسلم أيضاً) عن طارق هذا: أنه سمع النبي ﷺ، وأتاه رجل، فقال: يا رسول الله، كيف أقول حين أسأل ربي؟ قال: ((قل: اللهم اغفر لي، وارحمني، وعافني، وارزقني، فإن هؤلاء تَجْمع لك دنياك وآخرتك)) أي: إن هذه الكلمات

تجمع لك حوائج الدنيا والآخرة ومطالبها، فإن الرزق والعافية والرحمة تعم الدنيا والآخرة، والمغفرة تخص الآخرة.

ويلاحظ أن تعليم النبي الصلاة لأي رجل، وهي ركن الدين، وعماده ودعامته، يستتبع الدعاء بعدها بهذه الكلمات المحققة لخير الإنسان في الدنيا والآخرة، كما أخبر النبي ﷺ نفسه بهذا.

ومفتاح الهداية: طاعة الله عز وجل، والدعاء بالهداية يحقق الرغبة في الطاعة والاستمرار عليها، وقد خُصَّ الدعاء بالهداية إلى الطاعة فقط في بعض الأدعية؛ لأنها عنوان الاستقامة، وسبيل الظفر بالخير.

وهذا ثابت في حديث رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((**اللهم مصرِّفَ القلوب، صرِّفْ قلوبنا على طاعتك**)) أي: يا ألله القادر على كل شيء، ومغيِّر القلوب من حال إلى حال، وجِّه قلوبنا إلى طاعتك، فألزمها الهدى، وباعد بينها وبين الضلالة.

وأحداث الدهر وتقلبات الزمان كثيرة، منها الشديد القاسي على النفس، ومنها المغيَّب عنها في عالم القضاء، ويكون الدعاء سببَ رفع الضرر أو تخفيفِه، أو رفعِ البلاء وإزالته، وطلب هذا: مشروع ومرغّب فيه في السُّنة النبوية، ورد في حديث (متفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((تعوَّذوا بالله من جَهْد البلاء، ودَرْكِ الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء)) أي: اطلبوا اللجوء إلى الله والاستعانة به من مشقة البلاء أو المصيبة، ومن اللحاق بسبل الدمار، وإدراك الهلاك، والبعد عن شماتة الأعداء، أي: فرحهم بما يصيب الإنسان من أحزان وآلام، وتجنب سوء القضاء في الدين والدنيا والمال والأهل والأولاد وخاتمة العمر. وهذا دعاء جامع للوقاية من أنواع المكروه والأذى في الدنيا والآخرة.

وغاية كل دعاء: صلاح الحال، واستقامة الشأن فيما يحبُّ الله عز وجل، وتجنُّب ما يكره الله سبحانه، وهذا مقرر في صيغة دعاء ثابتة، وذلك فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: ((**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**)) أي: أصلح لي شؤوني كلها؛ من الدين الذي أعتصم به في جميع أموري، أي: أمتنع وأتحفظ، ومن الدنيا التي فيها مكان عيشي وزمن حياتي، ومن الآخرة مكان عودتي ونهايتي، واجعل حياتي وعمري كله في الخير، وأطل حياتي فيما ترضاه، واجعل تعجيل الموت سبباً للتخلص من كل شرّ.

- ١٥٠ -

صيغ الدعاء

- ٢ -

من طبائع الفطرة الإنسانية: أن الإنسان سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن لا يجد ملجأ في وقت الأزمات والشدائد ولا في غيرها سوى الله عز وجل، يشكو إليه ما أَلَمَّ به، ويطلب منه كشف الضرِّ عنه، ويدعوه لأجل التوفيق في عمله وتسديد خطاه. وقد علَّمنا رسول الله ﷺ أدعية جامعة، ومعبرة عن حاجة الإنسان إلى ربِّه في المناسبات المختلفة.

- ففي وقت التردُّد والحيرة، أو من أجل الاستمرار على منوال الهداية والاستقامة: روى مسلم عن علي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((**قل: اللهم اهدني، وسدِّدني**)) أي: وفقني، وفي رواية: ((اللهم إني أسألك الهدى والسداد))، أي: أطلب منك يا ربّ الرشاد، والاستقامة، وذلك من أجل تحقيق سداد العمل، والتزام منهج الاستقامة والسنة النبوية.

- وفي وقت العجز والضعف، ومكابدة أمراض الكسل والجبن والبخل: روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: ((**اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والهرم، والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**)) وفي رواية: ((وضَلَع الدين وغلبة

الرجال)) أي: ألتجئ إليك يا رب لتحميني وتنجيني من حالات العجز (أي: عدم القدرة على الخير) والكسل (الاسترخاء وترك العمل) والجبن: (أي: الخوف من الأعداء) والهرم (أي: كِبَر السِّن) والبخل (منع المطلوب أداؤه) وضَلَع الدين (أي: ثقل الدَّيْن) وغلبة الرجال (الوقاية من حال الظلم سلباً وإيجاباً، أي: ظالماً أو مظلوماً).

- وفي وقت الإحساس بثقل الذنب ووطأة المعصية، وتوبيخ الضمير: ورد في حديث (متفق عليه) عن أبي بكر الصّدِيق رضي ا لله عنه: أنه قال لرسول ا لله ﷺ: علّمني دعاء أدعو به في صلاتي[1]. قال: ((قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً[2] ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم)) يدلُّ هذا الحديث على استحباب الدعاء بهذه الصيغة في البيت والصلاة.

- ويستحب الدعاء بطلب المغفرة عن جميع أحوال الخطأ لدى الإنسان، عمداً وخطأ، سرّاً وجهراً، في حال الجد والهزل، ورد في حديث (متفق عليه) عن أبي موسى الأشعري رضي ا لله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: ((اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري[3] ، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جِدّي وهَزْلي، وخطئي وعمدي، وكلَّ ذلك عندي[4] . اللهم اغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر[5] ، وأنت على كل شيء قدير)). دلَّ هذا الحديث على مشروعية طلب المغفرة من كل الذنوب، في جميع الأحوال والأوقات.

(١) وفي رواية: ((وفي بيتي)).
(٢) وفي رواية: ((ظلماً كبيراً))، فيندب أن يجمع بينهما، فيقال: ((ظلماً كثيراً كبيراً)).
(٣) أي: تجاوزي عن الحدّ.
(٤) أي: كل ما هو موجود عندي من هذه الأحوال، ويمكن وقوعه مني.
(٥) أي: أنت المقدم من تشاء إلى الجنة، وتؤخر من تريد إلى النار.

- وكذلك يمكن الاستعاذة من كل شرّ يعلمه الإنسان وما لا يعمله؛ روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: ((اللهم إني أعوذ بك من شرِّ ما عملت، ومن شرِّ ما لم أعمل)) أي: من أثر شرّ ما وقع مني من الذنوب، ومن شرِّ ما يمكن أن يقع؛ للتخلص من جميع احتمالات الشَّر، والتواضع لله تعالى.

- ويستعاذ من تبدلات الأحوال، وهو من أخطر الأشياء، لأن تبدل الحال ينذر بالمذلة والهوان، روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: ((اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحوُّل عافيتك، وفُجاءة نقمتك وجميع سَخَطك)) أي من تبدل العافية إلى المرض، ومفاجأة العقوبة، وجميع الأسباب التي تغضب الله سبحانه، وحينئذ يطلب من الإنسان استعمال نعم الله عليه وعافيته فيما يرضي الله سبحانه، لا فيما يغضب الله تعالى.

-١٥١-

صيغ الدعاء

-٣-

الدعاء مخ العبادة، ومنهج الاستقامة، وطريق التوبة، وهو يعبر عن مدى الحاجة الدائمة لله عز وجل، فإن العبد المخلوق لا يستغني عن الإله الخالق طرفة عين، ولا أقل من ذلك، فيكون من مصلحة هذا العبد كثرةُ اللجوء والتّضرُّع إلى الله سبحانه، لاستمداد العون منه والهداية والتوفيق، وحينئذ يتحقق للعبد الخير كله في الدنيا والآخرة. ومن أجل هذا وردت أدعية كثيرة، لتعلمنا أسلوب الخطاب مع الله تعالى، ومنهجَ تحقيق الإجابة من الله لعبده إذا توافرت آداب الدعاء، وعلى رأسها طاعة الله، واجتناب معصيته. من هذه الأدعية ما يأتي:

- روى مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: ((**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والبخل والهرم، وعذابِ القبر، اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكَّاها، أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**)) أي: أعطني يا رب القوة على طاعتك، والامتناع عن معصيتك، وطهِّر نفسي من الرذائل، أنت ناصرها، ومالكها، وألتجئ إليك من علم ضارّ لا نفع فيه، ومن قلب لا يخضع لجلالك، وهو القلب القاسي، ومن نفس نهمة لا

تشبع ولا تقنع؛ للحرص على المزيد. وهذا دعاء جامع يعلمنا ضرورة التقوى، ومحبة العلم والعمل به، وإطاعة الله، والاعتماد عليه في كل أمر.

- ويؤكده دعاء آخر، ورد في حديث (متفق عليه) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقول: ((اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، ولا حول ولا قوة إلا بالله)) أي: إليك يا الله وحدك رجعت، ومن أجلك خاصمت من جحد بك، وحكَّمتك في كل أموري. وأطلب منك المغفرة لزلاَّتي كلها، العلنية والسرية، فأنت المقدِّم إلى الجنة، والمؤخِّر عن النار، تفرَّدت بالوحدانية والجلال والصمدانية، ولا حركة ولا قوة لأحد إلا بمشيئتك.

- ويحتاج الإنسان بسبب تقلُّبات الأحوال إلى الاستعاذة من النار وعذابها، ومن شرِّ الغنى وشرِّ الفقر، روى أبو داود والترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات: ((اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار، وعذاب النار، ومن شر الغنى والفقر)) أي: ألتجئ وأعتصم بك من الابتلاء بالنار وعذابها، ومن شر فتنة الغنى، وشرِّ فتنة الفقر، لأن الغنى يورث الطغيان والانزلاق في الأهواء والشره في تجميع المال، والوقوع في البخل والكبر والترف. والفقر قد يؤدي إلى الكفر واليأس والتضجر، فلا بد من الصبر حال الفقر، والاعتدال حال الغنى.

- والزمان مليء بالمنكرات والمعاصي، والفتن والأهواء، وتجنُّبها نعمة، والوقوع فيها نقمة، والالتزام بالأخلاق الكريمة الصالحة نجاة، روى الترمذي - وقال: حديث حسن - عن زياد بن عِلاقة عن عمِّه، وهو قُطْبة بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: ((**اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء**)) ومنكرات الأخلاق: كالحسد والبغضاء والكبر والخيلاء،

ومنكراتُ الأعمال: كالسرقة والزِّنا والغصب، وأكل أموال الناس بالباطل، ومنكرات الأهواء: كالعقائد الباطلة والأفكار الهدامة والكتابات الخليعة. وهذه كلها فتن اجتماعية.

- وهناك فتن نابعة من الشخص نفسه، روى أبو داود، والترمذي - وقال: حديث حسن - عن شَكَل بن حُميد رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، علِّمني دعاء، قال: ((قل: اللهم إني أعوذ بك من شرِّ سمعي، ومن شرِّ بصري، ومن شرِّ لساني، ومن شرِّ قلبي، ومن شرِّ مَنِيِّي)) وذلك لأن السمع أداة سماع الغيبة والنميمة وسائر الفواحش، والبصر أداة النظر إلى عورات الناس وما حرمه الله، والقلب أداة الانشغال بغير ذكر الله تعالى، والفرج بوضع المني في غير ما شرعه الله. وهذه كلها يسأل عنها الإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ١٧/٣٦].

- وقد تكون الأمراض فتنة وبلاء، روى أبو داود بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يقول: ((اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون، والجذام، وسيئ الأسقام)). أما البرص: فهو مرض جلدي يورث بياضاً قبيحاً، وأما الجنون: فهو زوال العقل، وأما الجذام: فهو مرض تساقط الأعضاء وتآكلها، وأما سيئ الأسقام: فهو قبيح الأمراض كالعمى والشلل والصمم.

-١٥٢-

صيغ الدعاء

- ٤ -

خلق الله الإنسان ضعيفاً، يحطمه اليأس والألم، والجوع والفقر، ويوقعه الشيطان أحياناً في المخاطر والعظائم التي تساوي حياة الإنسان؛ كالقتل العمد، وخيانة الأمة والوطن، وسرقة الأموال العامة. والعلاج لكثير من أحوال الجنوح والانحراف: هو الرضا والقناعة، والاستقامة والرُّشد، والصبر والاعتدال، والاستغناء بالحلال عن الحرام، وبما قسم الله له من رزق، وتجنُّب أهواء النفس، وطلب العافية من الله تعالى في الدنيا والآخرة، والثبات على الحق والدِّين والخُلق الرَّصين، والعمل النافع، ومحبة الله ورسوله.

وقد وردت أحاديث نبوية في صيغة أدعية، وهي في الحقيقة وسائل تربوية ناجحة، منها:

- ما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بئست البطانة**» أي: ألتجئ إليك يا الله لتحميني من غائلة الجوع، فهو بئس الصاحب، ومن خيانة الأمانة، فإنها بئست الخصلة الباطنية.

- ومنها ما رواه الترمذي - وقال: حديث حسن - عن علي رضي الله عنه أن مكاتَباً[١] جاءه، فقال: إني عَجَزت عن كتابتي[٢] فأعني[٣]، قال: ألا أعلّمك كلماتٍ علَّمنيهن رسول الله ﷺ، لو كان عليك مثلُ جبل، أدّاه الله عنك، قل: ((**اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك**)) يدل هذا الدعاء على طريقة لإيفاء الديون، باللجوء إلى الله والاستغناء به عن غيره، والاكتفاء بالحلال، وبما تفضل الله به على عبده من فضائل.

- وروى الترمذي - وقال: حديث حسن - عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ علَّم أباه حُصَيناً كلمتين يدعو بهما: ((اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي)) أي: وجِّهني لما يرضيك، واعصمني من شرور نفسي وأهوائها المهلكة وشهواتها المدمرة في الدنيا والآخرة.

- ومن أعظم ما يسأل المؤمن ربه، ويحتاج إليه الإنسان: هو العافية في الدنيا والآخرة، روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن أبي الفضل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، علّمني شيئاً أسأله الله تعالى، قال: ((سلوا الله العافية)) فمكثتُ أياماً، ثم جئت، فقلت: يا رسول الله، علّمني شيئاً أسأله الله تعالى، قال لي: ((**يا عباس، يا عمَّ رسول الله، سلوا الله العافية في الدنيا والآخرة**)) والعافية تاج على رؤوس الناس، لا يعرف قدرها إلا المرضى، فيه الحث على طلب العافية من الله سبحانه، لأن فيها القوة والقدرة على التصرف، والسلامة من الأسقام والآثام.

- وكذلك من أعظم ما يَسْأل الإنسان ربَّه: أن يُثبِّته على دينه، وأن يختم له بخاتمة السعادة والإيمان والهدى، روى الترمذي - وقال: حديث حسن - عن شَهْر بن حَوْشَب قال: قلت لأمِّ سلَمة رضي الله عنها: يا أمَّ المؤمنين! ما أكثرُ

---

(١) أي: عبداً تعاقد معه سيده على مبلغ مالي مقابل إعتاقه وتحريره.

(٢) أي: عن الدَّين اللازم علي بسبب اتفاق الكتابة.

(٣) أي: أعطني مالاً أسدد به التزامي المالي.

دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندكِ؟ قالت: كان أكثر دعائه: ((**يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك**)) أي: يا مصرِّف القلوب ومغيِّرها من حال إلى حال، ومن الضلالة إلى الهدى، ثبِّت قلبي على دينك وطاعتك.

- وعنوان التثبيت: محبة الله وأوليائه، واتباع أنبيائه ورسله وخاتم النبيين، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١/٣]، ولما رواه الترمذي - وقال: حديث حسن - عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((كان من دعاء داود ﷺ: اللهم إني أسألك حبك، وحبَّ من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبَّك، اللهم اجعل حبَّك أحبَّ إلي من نفسي وأهلي ومن الماء البارد)). وخصَّ الماء البارد، لأنه أحب شيء إلى النفس وقت الحر. يدل الحديث على طلب محبة الله والعمل الصالح، وإيثار محبة الله على النفس والأهل.

- ومطلع الدعاء ابتداؤه بـ ((يا ذا الجلال والإكرام))، روى الترمذي والنَّسائي عن أنس رضي الله عنه والحاكم وصحح إسناده عن ربيعة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام)) أي: الزموا هذا الدعاء، وأكثروا منه، لأن فيه الثناء التام على الله تعالى، ووصفه بأوصاف الكمال.

- وخير ما يُسأل الله عنه: ما سأل النبي ﷺ؛ روى الترمذي - وقال: حديث حسن - عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ بدعاءٍ كثير، لم نحفظ منه شيئاً، قلنا: يا رسول الله! دعوتَ بدعاءٍ كثير لم نحفظ منه شيئاً، فقال: ((**ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله؟ تقول: اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ﷺ، ونعوذ بك من شرِّ ما استعاذك منه نبيك محمد ﷺ، وأنت المستعان، وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله**)) أي: أنت المطلوب منه الإعانة، وعليك الكفاية لكل شيء من خيري الدنيا والآخرة.

- ومن الأدعية الجامعة المختصرة: طلب النجاة من النار ودخول الجنة، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ٣/١٣١]، وقوله ﷺ فيما يرويه الحاكم أبو عبد الله - وقال: حديث صحيح على شرط مسلم - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: ((**اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل برّ، والفوز بالجنة، والنجاة من النار**)). أي: أسألك ما يوجب رحمتك، والأمور المعزومة التي تقتضي مغفرتك، والسلامة من كل معصية، والإكثار من كل خير.

-١٥٣-

إجابة الدعاء وأوقاتها

إن كرم الله وفضله وإحسانه على العباد: أنه يرزقهم ويمدهم بالعون، ويدفع عنهم الضرر، ويفرج عنهم الكرب، ويخفف ألم المصيبة، ويلقي في القلب روح الاطمئنان والسلامة، والبعد عن الضجر والقلق، ويجيب دعاءهم إذا دعوه بحق، واستجابوا لأمره، واجتنبوا معاصيه، وحققوا مستلزمات الطاعة وآدابَ إجابة الدعاء، واستغلوا أوقاتَ الإجابة، وتجليات الرَّب عز وجل على خلقه وعباده، قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠] أي: اعبدوني بحق، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٦].

وقد أرشدنا النبي المصطفى إلى أوقات إجابة الدعاء وآدابه، في أحاديث ثوابت، منها:

- ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**)). هذا قرب معنوي لا مادي، بسبب كمال خضوع العبد لله في حال سجوده.

- ولا يعني الدعاء: أن تكون الإجابة فورية، خلافاً لما يظن الناس، وإنما تكون الإجابة بحسب حكمة الله وإرادته ومشيئته وتحقيقه الخير لعبده؛ روى

البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي ا لله عنه: أن رسول ا لله ﷺ قال: ((يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَل، يقول: قد دعوت ربي فلم يَسْتجِب لي)). وفي رواية لمسلم: ((لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يَدْعُ بإثم[١]، أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل)) قيل: يا رسول ا لله، ما الاستعجال؟ قال: ((يقول: قد دعوتُ، وقد دعوتُ، فلم أرَ يَسْتجيب لي، فيَسْتحسر عند ذلك، ويَدَع الدعاء)). دلَّ الحديث على أن الدعاء يكون بخير، وأنه يستجاب للداعي ما لم يَدْعُ بمعصية أو يستعجل، أي: يترك بسبب العجلة وعدم التفويض لله تعالى، فإن الاستعجال الممنوع: هو ترك الدعاء.

ومن مواطن الإجابة وأوقاتها: ما أخبرت عنه السنة النبوية، روى الترمذي - وقال: حديث حسن - عن أبي أمامة رضي ا لله عنه قال: قيل لرسول ا لله ﷺ: أي الدعاء أسمعُ[٢]؟ قال: ((**جوفَ الليل الآخر، ودُبُر الصلوات المكتوبات**)) أي: إن الدعاء الأقرب للسماع والإجابة: هو ما يكون وقته في وسط الليل، وعقب الصلوات الخمس المفروضة، ففي هذه الأوقات يحرص المسلم على الإكثار من الدعاء فيها.

- وفي جميع الأحوال يستفيد الداعي من دعائه، فيحقق ا لله له أحد أمور ثلاثة، روى الترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن عبادة بن الصامت رضي ا لله عنه: أن رسول ا لله ﷺ قال: ((**ما على الأرض مسلمٌ، يدعو الله تعالى بدعوة، إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها[٣]، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**)) فقال رجل من القوم: إذن نكثر، قال: ((ا لله أكثر)) أي نكثر من الدعاء، فا لله أكثر إحساناً وأكرم نوالاً مما تطلبون.

---

(١) أي: بمعصية.

(٢) أي: أقرب للسماع والإجابة.

(٣) أي: منع عنه من الشر مثل جواب دعائه.

ورواه الحاكم عن أبي سعيد الخدري، وزاد فيه: ((أو يدَّخر له من الأجر مِثْلها)) أي: إن كرم ا لله وفضله وإحسانه يقتضي كله عدم تضييع ثمرة الدعاء، فهو إما أن يجاب المطلوب، أو يَمْنع ا لله من السوء بقدر الدعاء، أو يُدَّخَر له من النفع مثله، فما عند ا لله من الخير أكثر مما يطلب الناس.

- والدعاء مفتاح الفرج والتخلص من الأزمات والكروب والشدائد، ودعاء الكرب ثابت في السنة النبوية، فيما رواه الشيخان (البخاري ومسلم) عن ابن عباس رضي ا لله عنهما: أن رسول ا لله ﷺ كان يقول عند الكَرْب: ((**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربُّ السماوات، وربُّ الأرض، وربُّ العرش الكريم**)). فمن دعا بهذا الدعاء، زال كربه، ورُفع عنه الهم والشدة، إذا كان بإخلاص، واستوفى الداعي آداب الدعاء، وتعاطى الأسباب، ولم ييأس ولم يتعجل، وإنما يفوض الأمر لله سبحانه، ويكثر من الدعاء وذكر ا لله تعالى.

- وقد يردُّ الدعاء القضاء بأمر ا لله وإرادته؛ روى الحاكم عن ثوبان رضي ا لله عنه أن رسول ا لله ﷺ قال: ((**الدعاء يرد القضاء. وإن البر يزيد في الرزق، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**)).

- ١٥٤ -

كرامات الأولياء

- ١ -

الأوليـاء: جمـع وَلِيّ، والمـراد بهـم خُلَّـص المؤمنـين، لقربهـم الروحـاني منـه سبحانه، كمـا ذكـر الألوسـي، وهـم الموصوفـون في الآيـة الكريمـة الدالـة على منزلتهم في الآخرة وهي: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِـي الآخِـرَةِ لا تَبْدِيـلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ١٠/٦٢ - ٦٤].

والكرامة: شيء استثنائي خارق للعادة يجـري على يـد شـخص ليس بنبي، وهي تشبه معجزة الأنبياء. وكل معجزة لنبي فهي كرامة لولي. وتحدث الكرامـة للمؤمن المطيع لله عز وجل، كإخبار عن بعض المغيَّبات، وشفاء مريض، وبركة في طعام قليل يأكل منه عدد كثير، وإجابة دعاء على ظالم.

وهناك أمثلة لكرامات الأولياء في القرآن الكريـم، مثـل سـقوط الرطـب مـن النخيل، بمجرد هزِّ الجذع من السيدة مريـم العـذراء، قـال الله تعـالى: ﴿وَهُـزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً[1]، فَكُلِـي وَاشْـرَبي وَقَـرِّي عَيْنـاً﴾ [مريم: ١٩/٢٥ - ٢٦]. ومثل: وجود الطعام أو الرزق للسيدة مريم في المحـراب[2]،

(١) أي: رطباً غضّاً صالحاً للتناول.

(٢) المحراب: غرفة العبادة في بيت المقدس.

من غير معرفة مصدره، قال ا لله تعالى: ﴿كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذا[١] قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧/٣].

ومثل قصة أهل الكهف الذين مكثوا نياماً (رقوداً) في الكهف ثلاث مئة وتسع سنوات، قال ا لله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلاّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً، وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ[٢] عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ[٣] ذاتَ الشِّمالِ..﴾ [الكهف: ١٦/١٨ - ١٧].

وفي أخبار السنة النبوية أمثلة كثيرة للكرامات، منها حديث متفق عليه عن أبي محمد عبد الرحمن بن أبي بكر الصِّديق رضي ا لله عنهما، مضمونه: أن أضيافاً ثلاثة عشر من أهل الصُّفَّة[٤] أكلوا من طعام قليل في بيت أبي بكر الصِّديق، كرامة له، قال الراوي: وايمُ ا لله! ما كنا نأخذ من لقمة إلا رَبا من أسفلها أكثرُ منها، حتى شبعوا، وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك، بثلاث مرات، وأكل منه أبو بكر لُقمة، ثم حمل أبو بكر بقية الطعام إلى النبي ﷺ، فأكل منه. **دلّت القصة على تكثير الطعام كرامة لأبي بكر رضي الله عنه.**

وكان عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه من الأولياء؛ لما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي ا لله عنه، ومسلم عن عائشة رضي ا لله عنها، قالت: قال رسول ا لله ﷺ: ((لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثون[٥]، فإن يك في أمتي أحد، فإنه عمر)).

---

(١) أي: من أين لك هذا؟

(٢) أي: تميل.

(٣) أي: تعدل عنهم.

(٤) فئة مخصصة للعلم والجهاد كانوا يبيتون في مؤخرة المسجد النبوي.

(٥) أي: ملهمون الصواب.

- وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة من الأولياء، حيث كان مستجاب الدعوة؛ ببركة دعاء النبي ﷺ له، فيما رواه الترمذي وابن حبان والحاكم عن سعد: أن النبي ﷺ قال: ((اللهم استجب لسعد إذا دعاك)). ومن إجابة دعائه: دعاؤه على رجل في الكوفة اسمه أسامة بن قتادة، يكنى أبا سَعْدة، الذي قال حين سؤاله عن سعد من رجل أو رجال أرسلهم عمر ليسألوا عنه، فقال أسامة هذا: ((إن سعداً كان لا يسير بالسرية، ولا يَقْسِم بالسوية، ولا يَعْدِل في القضية)) أي: لا يخرج مع القطعة من الجيش وهي أربع مئة نفس، ولا يعطي المال بالعدل والمساواة، ولا يعدل في الحكم والقضاء بين المتخاصمين، فقال سعد: ((أما والله لأدعونَّ بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً، قام رياء وسمعة، فأطِل عمره، وأطل فقره، وعَرِّضه للفتن)). وأصابت هذه الدعوة ذلك القائل زوراً، وهو أسامة بن قتادة، فكان يقول عن نفسه بعد ذلك إذا سئل: شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد. فطال عمره وافتقر، وأهرمه الكِبَر، وكان يتعرض للجواري في الطرق فيغمزُهن. وهذا حديث (متفق عليه).

- وكذلك كان سعيدُ بنُ زيد بنِ عمرو بنِ نُفيل رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة من الأولياء، فقد خاصمته امرأة هي أروى بنت أوس إلى مروان ابن الحكم، وادَّعت أنه أخذ شيئاً من أرضها، فأنكر سعيد ادِّعاءها، وهو الذي سمع من رسول الله ﷺ في حديث (متفق عليه) رواه أمام مروان: ((من أخذ شبراً من الأرض ظلماً، طُوِّقه إلى سبع أرضين)) فقال له مروان: لا أسألك بيِّنة بعد هذا، فقال سعيد: اللهم إن كانت كاذبة، فأعمِ بصرَها، واقتلْها في أرضها. قال في حديث (متفق عليه): فما ماتت حتى ذهب بصرها، وبينما هي تمشي في أرضها، إذ وقعت في حفرة، فماتت. وفي رواية لمسلم عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر: أنه رآها عمياء تلتمس الجُدُر، تقول: أصابتني دعوة سعيد! وأنها مرت على بئر في الدار التي خاصَمَتْه فيها، فوقعت فيها، وكانت قبرَها!

-١٥٥-

كرامات الأولياء

- ٢ -

كرامات الأولياء وخصوصياتهم التي يجريها الله على أيديهم: إنما هي بتقدير الله وإلهامه، وفضله وإحسانه، وبقدرته وإرادته، وإن كان الولي هو السبب في الظاهر، وذلك تكريماً من الله لبعض عباده الطائعين لربِّهم، المخلصين في عملهم، المتجهين في كل أمور حياتهم لمرضاة الله سبحانه، وهذه أمثلة أخرى من كرامات الأولياء من السلف الصالح:

- روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما حضرتْ أُحدٌ[1]، دعاني أبي من الليل، فقال: ما أُراني[2] إلا مقتولاً في أول من يُقْتَل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أُترك بعدي أعزَّ عليَّ منك، غيرَ نفسِ رسول الله ﷺ، وإن عليَّ دَيْناً فاقضِه[3]، واستوص بأخواتك خيراً، فأصبحنا، فكان أولَ قتيل، ودَفَنْتُ معه آخر في قبره، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع آخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيومَ وضعته غير أُذنه، فجعلته في قبر على حدة. أي: دفنته في قبر منفرداً وحده. وفتح القبر بعد ستة أشهر واندراس الميت

---

(١) أي: حدثت معركتها المعروفة.

(٢) أي: ما أظنني.

(٣) أي: أدِّ الدَّين لأصحابه.

عادة هو رأي خاص لجابر، والمعتمد أنه لا يفتح القبر إلا بعد تفتت الميت وذهاب أثره. والحديث واضح الدلالة على تكريم والد جابر لأنه شهيد بحق، والأنبياء والشهداء والعلماء الصالحون لا تأكل هوام الأرض أجسادهم.

- وروى البخاري واقعة كرامة أخرى لصحابيين، عن أنس رضي ا لله عنه: أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما، فلما افترقا، صار مع كل واحد منهما واحد، حتى أتى أهله. والرجلان في بعض الروايات: هما أُسيد بن حُضير، وعَبَّاد بن بشر رضي ا لله عنهما. وهذه كرامة لهذين الرجلين أنار ا لله له طريقهما بنور من نور النبوة.

- وروى البخاري أيضاً قصة الرهط (جماعة من الرجال) الذي أرسلهم النبي ﷺ للتجسُّس على الأعداء القرشيين، في موضع يسمى الهُداة (على بُعد سبعة أميال من عُسفان) فأسر المشركون بعضهم، وقتلوا أميرهم: عاصم بن ثابت الأنصاري، وكان خُبيب بن عدي أحد الثلاثة الذين أسرهم المشركون، فقتل المشركون أحدهم غدراً، وأسروا خبيباً وزيدَ بن الدَّثِنَّة، ثم باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فاشتراه بنو الحارث بن عامر، وكان خُبيب هو قَتَل الحارث يوم بدر، فأجمعوا على قتله، فاستعار مُوسى من بعض بنات الحارث، فخافت أن يقتل بُنيَّها، فقال لها: ما كنت لأفعل ذلك (قالت: وا لله ما رأيتُ أسيراً خيراً من خُبيب، فوا لله لقد وجدته يأكل قُطْفاً من عنب[1] في يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكّة من ثمرة، وكانت تقول: إنه لرزق رزقه ا لله خُبيباً)، دعوني أصلي ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين، فقال: وا لله لولا أن تَحْسَبُوا أن ما بي جَزَع، لزدت، اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بَدداً، ولا تُبقِ منهم أحداً[2] ، وقال:

---

(١) أي: عنقوداً.

(٢) أي: اللهم استأصلهم، واقتلهم حصصاً منقسمة، لكل واحد منهم نصيب، بكسر كلمة: بِدداً، وبفتحها معناه: اقتلهم متفرقين في القتل، واحداً بعد الآخر.

فلستُ أبـالي حـينَ أُقتـلُ مسـلماً على أيِّ جنبٍ كانَ للهِ مَصرعي

وذلـكَ في ذاتِ الإلـهِ، وإن يشـأ يُبارك على أوصالِ شِلْوٍ مُمزَّعِ[1]

وكان خُبيب أول من سنَّ صلاة ركعتـين قبـل القتـل شـهيداً، وهـي صـلاة مندوبة أقرَّها النبي ﷺ.

- وروى البخاري أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط: إني لأظنه كذا، إلا كان كما يظُنُّ))، وهذا مـن فضل الله على عمر، المعروف بصدق حَدْسه (تخمينه) وقوة ذكائه.

- وهناك وقائع أخرى كثيرة مـن الكرامـات في كـل زمـان، منهـا حديث الرجل الذي سمع صوتاً في السحاب يقول: اسقِ حديقـة فـلان، ومنهـا حديث أصحاب الغار الذين أطبقت عليهم الصخرة، ثم انزاحت عنهـم بقـدرة الله بعد أن توسَّل كل واحد منهم لربِّه بصالح عمله. ومنهـا حديث الغـلام الـذي كـان يأتي الراهب والساحر، وكان يُبرئ الأكمه والأبرص ويداوي النـاس مـن سـائر الأدواء بإذن الله، وحماه الله من محاولات الملك قتله حتى يرجع عن دينـه، حتـى دلَّهم على إصابته بقول: باسم الله رب الغلام، ومنها قصة جريج الراهب الـذي نادته أمه في صلاته، فلم يُجبْها، فدعَت عليه بقولها: ((اللهم لا تُمِتْه حتـى ينظر إلى وجوه المومسات)) وتحقـق ذلـك باتهامـه بـالوقوع علـى امـرأة في صومعتـه، إكراماً لدعاء أمِّه[2] .

ومنها قصة الأبرص والأقرع والأعمى[3] .

---

(١) أي: أجزاء جسد مقطَّع.

(٢) انظر حديث وقصة اسق حديقة فلان: شرح مسلم ١٨/١١٤، وقصة أصحاب الغار في شرح مسـلم للنووي ١٧/٥٥ ورياض الصالحين: ص ٩ - ١١، وقصة جريـج الراهـب ١٦/١٠٦، وقصـة الغـلام ١٨/١٣٠.

(٣) شرح مسلم ١٨/٩٧ - ٩٩.

-١٥٦-

مجموعة من المنهيات

- ١ -

(التّشبُّه بالشيطان، والخضاب بالسواد وغيره، والقَزَع)

المحسوس يدلُّ على المعقول، والمادة تدلُّ على المعنى، والمظهر عنوان المخبر، والشكل كثيراً ما يكون رمزاً للجوهر والمضمون. وقد يظن بعض الناس أن الشكليات لا معنى لها، ويكون الأمر على العكس. هذا في عالم الدنيا؛ حيث يصدر الحكم على الأشياء غالباً بمظاهرها. وأما في الآخرة فإن الحساب يكون على الحقائق والقلوب، لا على الصور والأجسام والمظاهر.

ففي عالم الدنيا نهانا الإسلام عن **التّشبُّه بالشيطان** في الأكل والشرب وكل عمل كريم، والشيطان رمز كل شرّ وضلال وخسّة، لذا أُمرنا بالأكل باليمين، وكان النبي ﷺ يحب التيامن في الأمور كلّها، حتى في ترجيل (تسريح) شعره. روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تأكلوا بالشِّمال، فإن الشيطان يأكل بالشِّمال)). وروى مسلم أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يأكلَنَّ أحدكم بشماله، ولا يشربنَّ بها؛ فإن الشيطان يأكل ويشرب بها)).

دلَّ هذان الحديثان على كراهة الأكل والشرب وكل عمل كريم كـالدخول إلى المساجد، باليد اليسرى أو الرجل اليسرى، لأنه من عـادة الشيطان، وفاعلـه متشبِّه بـه، فيسنُّ في ذلـك التيـامن، ويكـره فيـه استعمال الشـمال، والعكـس صحيح، فيسن استعمال الشِّمال من اليد والرِّجل في كل عمـل خسـيس، كالدخول إلى بيت الخلاء، ويكره حينئذ استعمال اليمين. وهـذا الأدب، وهـو استعمال اليمين في المكارم، واستعمال الشِّمال في الخسائس، ينعكس على تفكير الإنسان، واعتقاده، ومصلحته، ويحقق الحكمة العالية والمصالح المعنويـة الـتي من أهمها ارتباط الإنسان بمرضاة ربِّه، وتجنُّب محاكاة الشيطان في أي فعل.

وكذلك حافظ الإسلام على معالم الشخصية الإسلامية المتميزة، فأمرنا بمخالفة غيرنا في العادات والمظـاهر، ومنهـا **صبـغ الشـعر**، فقـد أذن لنـا الشـرع بالصباغ بأي لون غير السواد، فإن الصبغ بالسواد منهي عنه، كما سيأتي. روى البخاري عن أبي هريرة رضـي الله عنـه: أن رسـول الله ﷺ قـال: ((إن اليهـود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم)) أي: يطلـب منـا مخالفـة غيرنـا في صبـاغ أو خضاب شعر الرأس واللحية بالأصفر أو الأحمر ونحوهما، ففي هذه المخالفة تميز للشخصية الإسلامية عن غيرها في الملبس والسلوك والمظهـر، عـن طريـق مخالفـة غيرنا في العادات والتقاليد، لأن المظهر يجرُّ إلى محبة ما عليه الآخرون، في العقيدة والأخلاق والسلوك والعادات، ومن أحب قوماً فهو منهم.

أما **الصبغ باللون الأسود**: فيحرم استعماله؛ لمـا فيـه مـن التمويـه والـتزييف ومغالطة الحقائق، إلا في الجهاد لإرهاب العدو، روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: أُتي بأبي قُحافة[١] والدِ أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنهمـا، يـوم فتـح مكة، ورأسُه ولحيتـه كالثَّغَامـة بياضـاً[٢]، فقـال رسـول الله ﷺ: ((غـيِّروا هـذا، واجتنبوا السواد)). دلَّ هذا الحديث على ندب صبغ الشـيب وتغيـيره بـأي لـون

(١) أبو قحافة: هو عثمان بن عامر، أسلم يوم فتح مكة، ومات في خلافة عمر رضي الله عنه.
(٢) الثغامة: نبت يكون في الجبال غالباً إذا يبس ابيضّ.

غير السواد، فيحرم الصبغ باللون الأسود، فيما عدا حالة الجهاد، فيجوز الصبغ بالسواد، بقصد إرهاب العدو وبيان القوة أمامه.

وأباح الشرع الإسلامي **حلق الرجل كل شعر رأسه**، ولم يبح ذلك للمرأة، لأن شعر المرأة مظهر جمالي مرغوب فيه، وكره الشرع **القَزَع** (وهو حلق بعض الرأس دون بعض مثل قزع السحاب أي قِطَعه المتفرقة) للحديث (المتفق عليه) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((نهى رسول الله ﷺ عن القَزَع)). ويؤكده حديث آخر رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم عن ابن عمر أيضاً قال: ((رأى رسول الله ﷺ صبياً قد حُلق بعض رأسه، وتُرك بعضُه، فنهاهم عن ذلك، وقال: احلقوه كلّه)). وسبب النهي المحمول على الكراهة الشديدة عن القَزَع: هو تشويه الخِلْقَة والتشبُّه بغير المسلمين من الأحبار والرهبان. ويسن حلق شعر الرأس كله، ويجوز ترك الشعر كله، بشرط عدم التشبُّه بالنساء لا سيما في عصرنا الحاضر. وهذا ما يدلُّ عليه الحديثان الآتيان:

روى أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ أمهل آل جعفر[١] ثلاثاً، ثم أتاهم، فقال: ((لا تبكوا على أخي[٢] بعد اليوم)) ثم قال: ((ادعوا ليَ بني أخي[٣])) فجيء بنا كأننا أفرخ[٤] ، فقال: ((ادعوا ليَ الحلاق)) فأمره فحلق رؤوسنا. وهو دليل على جواز حلق جميع الرأس لا سيما الصبيان. والبكاء على الميت جائز في الأيام الثلاثة بعد الوفاة، ويكره بعدئذ.

وروى النَّسائي عن علي رضي الله عنه قال: ((نهى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها)). وهو دليل على كراهة حلق المرأة شعر رأسها، لأنه تشويه ونوع من الـمُثْلة، إلا لحاجة كالتداوي مثلاً.

---

(١) أي: جعفر بن أبي طالب الذي استُشهد مع القادة الثلاثة يوم معركة مؤتة في الأردن.

(٢) المراد: ابن عمه جعفر.

(٣) أي: محمد وعبد الله وعوف أولاد جعفر.

(٤) أي: أولاد الطير.

-١٥٧-

مجموعة من المنهيات

- ٢ -

(تحريم وصل الشعر والوشم والوَشْر ((تحديد الأسنان)))

يحظُر الإسلام على الرجل والمرأة تغيير معالم خَلْق الله تعالى؛ تعظيماً لهذا الخلق، وإبقاءً على الفروق بين الناس، لتمييزهم ومعرفة كل واحد منهم على حدة، ومخالفةً لأوامر الشيطان بمحاولة تغيير خلق الله تعالى.

والتزام ما نهى عنه الشرع فيه الخير والمصلحة على المدى القريب والبعيد، ومخالفة منهيات الشرع فيها الضرر والشر والمفسدة، وإن توهم الإنسان في ذلك تحقيق المصلحة، وهي في الواقع مضرة؟

لذا حذَّر القرآن الكريم من **إغواءات الشيطان** ومحاولات استدراج الإنسان إلى المعاصي والمخالفات، قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ[1] مِنْ دُونِهِ إلاّ إناثاً[2]، وَإِنْ يَدْعُونَ إلاّ شَيْطاناً مَرِيداً، لَعَنَهُ اللَّهُ وَقالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ[3]، وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأَنْعامِ[4] وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٤/١١٧ - ١١٩].

---

(١) أي: ما يعبدون، إن نافية مثل: ما.

(٢) أي: أصناماً، وكان لكل حي أو قبيلة صنم يسمونه: أنثى بني فلان.

(٣) أوسوسُ لهم بالأماني الزائفة بإدراك المقصود.

(٤) أي: يشقّونها، وهي البحائر جمع بحيرة، رمزاً لتحريم ركوبها في الجاهلية.

ودلَّت السُّنة النبوية على **تحريم وصل الشعر** (كالباروكـة) ونحوهـا، لـلرجل والمرأة على السواء، ورد في الحديث (المتفق عليه) عن أسماء رضي ا لله عنهـا: أن امرأة سألت النـبي ﷺ، فقـالت: يـا رسـول ا لله! إن ابنـتي أصابتهـا الحَصْبـة[١]، فتمرَّق شعرها[٢]، وإنـي زوَّجتهـا[٣]، أفـأصل فيـه؟ فقـال: ((لعـن ا لله الواصلـة والموصولـة)) وفي روايـة: ((الواصلـة، والمستوصلة)) والواصلـة: هـي الـتي تصـل شعرها أو شعر غيرها بشعر آخر، والموصولة: التي يوصل شعرها، والمستوصلة: طالبة الوصل.

ويؤيده حديث آخر متفق عليه عن حُميد بن عبد الرحمـن: أنـه سمـع معاويـة رضي ا لله عنه عام حَجّ، على المنبر، وتنـاول قُصـة مـن شـعر[٤]، كـانت في يـد حَرَسِيّ[٥]، فقال: يا أهل المدينة! أين علماؤكم؟ سمعت النبي ﷺ ينهى عن مِثـل هذه، ويقول: ((إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتَّخذها نساؤهم)). وهو دليل على تحريم وصل الشعر بغيره، أيّاً كان نـوع الشـعر، طبيعيـاً أو صناعيـاً، للرجـال أو النساء. وتسامح بعض العلمـاء بالشـعر الاصطنـاعي للنسـاء، عنـد الضـرورة أو الحاجة.

وفي حديث ثالث (متفق عليــه) عن ابن عمـر رضـي ا لله عنـه: ((أن رسـول ا لله ﷺ لَعن الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة)). دلَّ هذا الحديث أيضـاً على تحريم وصل الشعر، وأنه حرام باتفاق العلماء، وكذلك تحريم الوَشْـم علـى الرجال والنساء جميعاً. والواشمة: فاعلة الوشم، وهـو: أن يُغْـرَز في الجلـد شـيء، ليخرج الدم، ثم يذرُّ علـى الموضـع كحـل أو نيـل (مـادة زرقـاء) فينحصـر بـه.

---

(١) هي بثور جلدية.
(٢) أي: سقط.
(٣) هذا سبب الوصل وهو التجميل.
(٤) أي: خصلة من شعر.
(٥) أي: شرطي.

والمستوشمة: هي التي تطلب فعل الوشم. واللعن من رسول الله ﷺ، أي: الطرد من رحمة الله: دليل على التحريم.

وأصرح حديث وأبينُه في الموضوع: حديث رابع (متفق عليه) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمِّصات، والمتفلِّجات للحسن، المغيِّرات خلق الله)) فقالت له[1] امرأة في ذلك، فقال: ((ومالي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله؟ قال الله تعالى: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧/٥٩] أي: لعن الله فاعلة الوشم والمطالِبة به، والنامصة: التي تأخذ من شَعَر حاجب غيرها وترقّقه ليصير رفيعاً حسناً. والمتنمصة: التي تطلب نتف الشعر من الوجه أو الخد. والمتفلّجة: هي التي تبرد من أسنانها ليتباعد بعضها عن بعض قليلاً، من أجل التحسين، وهو الوَشْر: وهو أن تحدِّد المرأة أسنانها وترقّقها. جاء في الحديث: ((لعن الله الواشرة والـمُوتشِرة)).

تدل هذه الأحاديث كلُّها على تحريم النَّمْص (نتف الشعر بالملقط أو الخيط ونحوهما) والوشم، والتفلُّج أو الوَشْر (بَرْد الأسنان)؛ لأن كل ذلك تغيير لخلق الله تعالى، سواء كان التغيير بزيادة أو نقص، إلا لضرورة طبية علاجية، فيجوز حينئذ النزع أو الإزالة، فيحرم أخذ شعر الوجه من حاجب ووَجْنة وغيرهما، لا فرق في الحكم بين الرجل والمرأة. لكن إذا نبت للمرأة لحية أو شارب مثلاً فتجوز إزالته. ومثل ذلك قلع السن الزائدة أو المستطيلة يحرم نزعها إلا إذا أدى ذلك إلى إيذاء وضرر، فيجوز.

---

(١) أي لابن مسعود.

-١٥٨-

مجموعة من المنهيات

- ٣ -

(تحريم نتف الشيب ونتف اللحية وتحريم النياحة على الميت واللطم والشّق)

حرص الإسلام على حماية صحة الإنسان، وحماية عقيدته، فحرَّم نتف الشيب واللحية، والنياحة على الميت، ولطم الخدّ، وشقَّ الجيب (فتحة القميص أو الثوب من ناحية العنق) فذلك كله ضرر في الصحة، وإساءة لسلامة الاعتقاد؛ لأن الله جل جلاله له الأمر والحكم وحده، وبيده الحياة والموت، ومقاليد السماوات والأرض ومن فيهن. ويحرم على الإنسان أن يعمل بما يخالف أمر الشرع.

فكل أمر مصادم لشرع الله مردود على صاحبه، ومنه نتف شعر الوجه والشيب والصبغ بالسواد.

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ)) أي: كل من عمل عملاً لا يرشد إليه دليل من الدين، أو لا يشهد له أحد أصول الشريعة، فهو مردود غير مقبول، ويعدّ من المبتدَعات المنكرة في الدين.

وأما تحريم **نتف الشيب من اللحية والرأس وغيرهما**، ونتف الأمرد شعر لحيته عند أول طلوعه أو نبْته، ونتف شعر الوجنة ونحو ذلك: فلما رواه أبو داود، والترمذي، والنَّسائي بأسانيد حسنة، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه رضي ا لله عنه عن النبي ﷺ قال: ((لا تنتفوا الشيب؛ فإنه نور المسلم يومَ القيامة)) أي: إن الشيب بهاءُ المؤمن، وجماله وضياء وجهه، فيحرم نتفه حيث كان في الجسم؛ لأنه أمارة كِبَر السِّن والوقار، ولأنه النذير إلى الآخرة.

وحرَّم الشرع التكلُّف في المسائل العلمية: وهو فعل أو قول مالا مصلحة فيه بمشقة، فلا يجوز للعالم أن يقول في العلم أو الفتوى ما لم يكن واثقاً من معرفته، اقتداء برسول ا لله ﷺ في عدم التكلُّف، ولقوله تعالى: ﴿قُلْ ما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦/٣٨].

وأما **تحريم النياحة على الميت، ولطم الخدّ، وشقِّ الثياب، أو الجيب** (فتحة الثوب من الأعلى) فلحديث (متفق عليه) عن عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((الميت يعذَّب في قبره بما نِيح عليه)) وفي رواية: ((ما نيح عليه)) أي: إن الميت يعذَّب في قبره بسبب نياحة أهله، إذا أوصى بالنواح عليه.

يؤيد ذلك حديث (متفق عليه) عن ابن مسعود رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((ليس منا من ضرب الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية))، أي: ليس على ملَّتنا وهدينا وطريقتنا مَنْ ضرب خدَّه حزناً على الميت، وشقَّ جيب ثوبه، أي: فتحته العليا، وهذا هو الغالب، وقال مثل قول أهل الجاهلية: واسنداه! واجبلاه! يا عِزّي وجاهي! ونحو ذلك. وهذا كله من كبائر الذنوب؛ لما فيها من السخط والاعتراض على قضاء ا لله وقدره.

وفي حديث (متفق عليه) عن أبي بُرْدة (هو ابن أبي موسى الأشعري، واسمه عامر أو الحارث) قال: وَجِع أبو موسى، فغُشي عليه، ورأسه في حِجْر[1] امرأة من أهله، فأقبلت تصيح برنّة[2]، فلم يستطع أن يردَّ عليها شيئاً. فلما أفاق - أي: من إغمائه - قال: أنا بريء ممن برئَ منه رسول الله ﷺ «إن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة، والحالقة، والشاقّة». والصالقة: التي ترفع صوتها بالنياحة والنّدب[3]، والحالقة: التي تحلق رأسها عند المصيبة، وكذا التي تشده وتقطّعه، والشاقّة: التي تشق ثوبها.

دلَّ هذا الحديث على شدة تحريم هذه الأفعال، لمعارضتها لمقتضى الإيمان والرضا بالقضاء والقدر.

يؤكد ذلك حديث (متفق عليه) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ نِيح عليه، فإنه يعذَّب بما نيح عليه يوم القيامة» أي: إذا أوصى الشخص بالنياحة عليه بعد موته، فإنه يعذَّب، ومثله حديث آخر (متفق عليه) عن أم عطية نُسيبة رضي الله عنها قالت: «أخَذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة ألا ننوح» أي: بيعة النساء على الإيمان.

وروى البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: أُغمي على عبد الله بن رَوَاحة رضي الله عنه، فجعلت أخته[4] تبكي وتقول: واجبلاه! واكذا واكذا، تعدِّد عليه. فقال حين أفاق: ما قلتِ شيئاً إلا قيل لي: أنتَ كذلك؟! أي: أأنت كذلك كما يقال؟ وهو استفهام إنكاري للتقريع.

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كُفْر: الطعن في النَّسب، والنِّياحة على الميت». وفي

(١) أي: في حضن امرأة وهي: زوجته أم عبد الله صفية بنت أبي دوم.

(٢) أي: تصيح بصوت عالٍ.

(٣) النّدب: تعداد أوصاف الميت.

(٤) أي: تذكر أوصافه وشمائله.

رواية أخرى لمسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة، وعليها سِرْبال من قَطِران، ودرع من جَرَب» أي: عليها في صورة العذاب قميص من السائل الأسود المنتن، وثوب كالقميص من داء الجرب المعروف.

وأوضح ما يجوز من البكاء وما لا يجوز حديث (متفق عليه) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: اشتكى سعد بن عبادة رضي الله عنه شكوى، فأتاه رسول الله ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله ابن مسعود رضي الله عنهم، فلما دخل عليه وجده في غَشْية[1]، فقال: «أقضى[2]» قالوا: لا يا رسول الله. فبكى رسول الله، فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا، قال: «ألا تسمعون؟ إن الله لا يعذِّب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذِّب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم».

وروى الترمذي - وقال: حديث حسن - عن أبي موسى رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ميِّت يموت، فيقوم باكيهم، فيقول: واجبلاه! واسيِّداه! أو نحو ذلك إلا وُكِّل به ملكان يَلْهَزانه: أهكذا كنت؟!» واللهز: الدفع بجُمْع اليد في الصدر.

وروى أبو داود بإسناد حسن عن أُسيد بن أبي أُسيد التابعي، عن امرأة من المبايعات، قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف الذي أخذ علينا ألا نعصيه فيه، ألا نخمِش وجهاً[3]، ولا ندعو ويلاً[4]، ولا نشق جيباً، ولا ننشر شعراً.

---

(١) أي: في حالة إغماء.
(٢) أي: أمات؟
(٣) أي: لا نجرح ظاهر الجلد.
(٤) أي: لا نقول يا ويلاه.

-١٥٩-

مجموعة من المنهيات

-٤-

(تحريم إتيان الكهان والمنجِّمين والعُرَّاف وأصحاب الرمل ونحوهم)

من المسلَّمات في دين الله وشرعه، ومن الحقائق المقرَّرة: أن علم الغيب مختص بالله عز وجل، فلا يعلم الغيب إلا الله تعالى، وكل محاولات المنجِّمين هي من التخرصات والأباطيل أو الأكاذيب التي لا تفيد شيئاً، فيجب على العاقل ألا يصدِّق **الكهَّان** (الذين يدَّعون معرفة المستقبل أو خفايا الأمور) **والعرَّافين** (الذين يدَّعون معرفة الماضي أو الأشياء الخفية). وهذا من أصول الشريعة ومن مبادئها الأساسية للقضاء على عادات الجاهلية وأفكار أهلها.

جاء في حديث (متفق عليه) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سأل رسولَ الله ﷺ أناسٌ عن الكُهَّان، فقال: ((ليسوا بشيء[١])) فقالوا: يا رسول الله! إنهم يحدِّثونا[٢] بشيء، فيكون حقاً. فقال رسول الله ﷺ: ((تلك الكلمة من الحق يخطَفُها[٣] الجنِّي، فيقرّها في أُذن وليه[٤]، فيخلطون معها مئة كَذْبة)).

---

(١) أي: ليسوا بشيء من الحق والصدق.

(٢) هذه لغة صحيحة، والمشهور بإثبات النون: يحدثوننا.

(٣) أي: يأخذها بسرعة.

(٤) أي: يلقيها إلى الذي يتعاون معه من الكهان، ويستخدمه.

وفي رواية للبخاري عن عائشة رضي الله عنها: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الملائكة تنزل في العَنان - وهو السحاب - فتَذكُرُ الأمر[1] قُضي في السماء، فيسترِقُ الشيطانُ السمع[2]، فيسمعُه فيوحيه إلى الكهَّان، فيكذِبون معها مئة كَذْبة من عند أنفسهم)). وهو دليل النهي عن تصديق الكهَّان، فما يقولونه كذب، واختلاق، وزور في الغالب، وأما ما قد يصادف الحقيقة: فهو من استراق الجن للسمع.

ومن مساوئ الاستماع للمنجِّمين: أنه يبطل ثواب العمل الصالح، ومنه الصلاة، حيث لا تقبل؛ لأن هذا الاستماع يتنافى مع أصول الإسلام، بل هو شرك وارتداد عن الدين. روى مسلم عن صفية بنت أبي عُبيد، عن بعض أزواج النبي ﷺ، ورضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: ((من أتى عَرَّافاً، فسأله عن شيء، فصدَّقه، لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً)). وهو نهي صريح عن الاستعانة بالعرّافين والكهّان؛ لمعرفة أمر ما. والعرّاف: هو الذي يدَّعي معرفة مكان شيء كالمسروق، بممارسة أشياء تُمكنّه من معرفة بعض الأمور.

وروى أبو داود بإسناد حسن عن قَبيصة بن المخارق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((العِيافة، والطِّيَرة، والطَّرْق، من الجِبْت))، والعيافة: هي خط الخطوط الكثيرة بسرعة، ثم محوها خطين خطين على مهل، فإن بقي خطَّان فهما علامة النجاح، وإن بقي خط فهو علامة الخيبة. وقال ابن الأثير في النهاية: العيافة: زجر (أي إطلاق) الطير، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، وهو من عادات العرب في الجاهلية. والطيرة: التشاؤم بالشيء سواء بالطَّيْر أو غيره: والطَّرق: هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء.

(١) أي: يخبر بعضهم بعضاً به.
(٢) أي: يسمع مستخفياً.

وقال أبو داود: الطرق: هو زجر الطير: وهو أن يتيمّن أو يتشاءم بطيرانه، فإن طار إلى جهة اليمين تيمن، وإن طار إلى جهة اليسار تشاءم. كل هذه الأفعال: من الجبت، أي: الباطل، ويقع ذلك على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك.

دلَّ الحديث على تحريم **كل أنواع الكِهانة** التي كان أهل الجاهلية يفعلونها؛ لأنها لا تؤثر في جلب نفع، أو دفع ضرر، فيجب الابتعاد عنها، لأن تعاطيها شرك وضلال، وتعتمد على التخمين والافتراء، وادِّعاء علم الغيب.

ونهى الشرع أيضاً عن **التنجيم وتصديق المنجِّمين**، لأنه نوع من السحر، فهو من الكبائر، روى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((من اقتبس علماً من النجوم، اقتبس شُعبةً من السِّحر، زاد ما زاد)) أي: من حاول الاستفادة من علم النجوم، بالتأمل في حركاتها ومسيرتها، وطلوعها وسقوطها، فإنه يأخذ خصلة أو قطعة من السحر، يزيد من السحر ما زاد من علم النجوم. وعلم النجوم المنهي عنه ليس علم الفلك، وإنما هو ما يدَّعيه أهل التنجيم من أحداث وقعت أو تقع في المستقبل، كهبوب الرياح ومجيء المطر وتغير السعر ونحو ذلك، وما يزعمون إدراكه من تحرُّكات الكواكب واجتماعها وافتراقها، ويدَّعون أن لها تأثيراً على الأشياء في قضايا الدنيا. وهذا منهم تحكُّم بالغيب، وزعم باطّلاعهم على الغيبيات التي لا يعلم بها إلا الله تعالى.

وتحريم التنجيم ثابت أيضاً في أحاديث أخرى صحاح، منها ما رواه مسلم عن معاوية بن الحَكَم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! إني حديث عهد بالجاهلية، وقد جاء الله تعالى بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان[1]،

---

(١) أي: يسألونهم عن الغيبيات.

((فلا تأتهم)) قلت: ومنا رجالٌ يتطيّرون[١]، قال: ((ذلك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدّهم[٢])) قلت: ومنا رجال يخطّون[٣]، قال: ((كان نبي من الأنبياء يخطّ، فمن وافق خطَّه فذاك)) أي: إن الخط النبوي الذي لا يحرم: هو ما ليس فيه ادِّعاء غيب، بل هو قائم على المعرفة المعتمدة على مقدمات وأسباب معلومة.

وفي حديث (متفق عليه) عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه: ((أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن)) أي: حرم النبي ﷺ بيع الكلب وأخذ ثمنه، وأجر الزانية على زناها، وما يعطى للكاهن على كِهانته.

---

(١) أي: يتشاءمون.

(٢) أي: ذلك أمر يطرأ على النفس بحسب الطبع، فلا يعوقهم عن فعل ما عزموا عليه، وليس لهم أن يعملوا بمقتضاه.

(٣) أي: يخطون خطوطاً معينة.

-١٦٠-

مجموعة من المكروهات

- ١ -

(كراهة التَّطيُّر ((التَّشاؤم)))

رغَّب الإسلام وهدي النبوة بالتفاؤل في كل شيء، فمن تفاءل بالخير وجده، وحذَّر الإسلام من التطيُّر، أي: التشاؤم من أي شيء؛ لأن تحقيق الأشياء وإيقاع الأمور بيد الله تعالى، لا بيد أحد من البشر أو الخَلْق. وعلى المرء أن يتخذ الأسباب المطلوبة، ويدع النتائج لله عز وجل. وهذا منهاج السنة النبوية.

ورد في حديث (متفق عليه) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**لا عَدْوى، ولا طِيَرة، ويعجبني الفأل**)) قالوا: وما الفأل؟ قال: ((الكلمة الطيبة)) أي: لا تؤثر العدوى بذاتها، وإنما المؤثر في نقل المرض هو الله تعالى، ولكن يجب اتخاذ الأسباب المطلوبة المؤدية إلى وقاية الإنسان من نقل المرض، وترك اختلاط الأصحاء بالمرضى. ويكره التطيُّر: وهو التشاؤم أو توقع الشر، ويحسن التفاؤل بالخير، وتعاطي الأسباب المؤدية إليه من الفعل الحسن والكلام الطيب، وإشاعة السرور والأمل، والابتعاد عن التشاؤم والتكلم بما يسوء النفس.

دلَّ هذا الحديث صراحة على ترك وسواس العدوى، أي: اعتقاد انتقال المرض بذاته إلى الصحيح، ولكن مع اتخاذ أسباب الوقاية والحذر.

ودلَّ أيضاً على كراهة التشاؤم، والترغيب في التفاؤل، لما فيه من حسن الظن با لله تعالى، فيطالب الإنسان باعتقاد البشائر وعقد الأمل وتحسين الظن، ويكره له التكلم بما ينفّر أو يوقع في السوء.

وفي حديث آخر (متفق عليه) عن ابن عمر رضي ا لله عنهما قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((لا عَدْوى ولا طِيَرة، وإن كان الشؤم في شيء، ففي الدار، والمرأة، والفرس)) أي: إن الشؤم المتوقع فيما بين الناس إنما هو في الغالب في ثلاثة أشياء: الدار والمرأة والفرس، وشؤم الدار: معناه ضيق ساحتها وخبث جيرانها، وشؤم المرأة: كونها غير ولود، وشؤم الفرس: ألا يجاهد عليها. ولا يعني ذلك جواز التشاؤم بهذه الأمور الثلاثة، فهو أمر غير جائز، وإنما هذه الأمور قد تؤدي إلى المضايقة بسبب لا يرجع إلى ذات الدار أو ذات المرأة، أو ذات الفرس، وإنما لأسباب أخرى تقترن بها، وأولها ضيق ساحة الدار وسوءُ الجار. فشؤم الدار: جار السوء، وثانيها عقم المرأة، وثالثها ترك الجهاد على الفرس. هذا معنى الشؤم في هذه الأمور الثلاثة بحسب توقعات الناس، والتي بيَّنها حديث عند الحاكم: ((ثلاث من الشقاء: المرأة تراها تسوءك أو تحمل لسانها عليك، والدابة تكون قَطوفاً[1]، فإن ضربتها أتعبتك، وإن تركتها لم تلحق أصحابك، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق)).

وكان النبي ﷺ بملازمته البشاشة مثلاً أعلى لصفاء النفس وكثرة التفاؤل، روى أبو داود بإسناد صحيح عن بُريدة رضي ا لله عنه: ((**أن النبي ﷺ كان لا يتطير**)) أي: لا يتشاءم، وهذا دليل على كراهة التطير (التشاؤم) وحثّ على الاقتداء برسول ا لله ﷺ في ترك التطير، والتفاؤل في كل شيء.

(١) أي: بطيئة المشي.

وطريق الخلوص من مكروهات الأمور والتشكك في المضار: هو ما ثبت في حديث رواه أبو داود بإسناد حسن عن عروة بن عامر رضي الله عنه قال: ذُكرتِ الطِّيرة عند رسول الله ﷺ فقال: ((**أحسنها الفأل، ولا ترُدُّ مسلماً**[1] ، **فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**)).

تطلق الطِّيرة على التفاؤل وعلى التَّشاؤم. وعلى المسلم ملازمة التفاؤل وترك التشاؤم، والتشاؤم لا يمنع المسلم عن الإقدام على الأمور، وعن العزم على الفعل، لأنه يعتقد أن المؤثر الحقيقي في الأشياء إنما هو الله تعالى.

فإذا رأى المسلم ما يكره، أي: ما يتطير به الناس عادة، استعان بالله تعالى، والتجأ إليه لدفع الشر، ويستحب هذا الدعاء عند طروء ما يتشاءم منه الناس عادة، وهو: ((اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)). والحسنات: ما يسرّ النفس، والسيئات: ما تكرهه النفس.

والخلاصة: على المؤمن والمؤمنة الاعتقاد الجازم بأن المؤثر الحقيقي في تحقيق الأشياء إنما هو الله تعالى، فلا تضر العين والحسد والسحر والتشاؤم إلا بمراد الله سبحانه.

---

(١) أي: لا يكون التشاؤم سبباً للرجوع عن العزم.

-١٦١-

مجموعة من المكروهات

(مخاطر البيئة)

- ٢ -

(تتعلق بترك النظافة، والمشي في نعل واحدة، وترك النار مشتعلة)

تحرص الوصايا الطبية النبوية على قاعدة: ((الوقاية خير من العلاج)) فما كان محتملاً لإلحاق الضرر، وجب تجنُّبه، وما كان محتملاً لتحقيق الخير، كان مستحسناً فعله، وعماد النظافة: إزالة الأوساخ، وتطهير الثياب والبدن والمكان، ومن أدب النبوة المميز للمسلم: الحرص على استعمال اليمين في أفعال الخير، والشِّمال في الخسائس، والحفاظ على الاتزان والوقار، والبعد عن احتمال الانزلاق أو السقوط، وتجنُّب كل أسباب الشر، والوقاية من النار.

ثبت في السنة النبوية **كراهةُ الاستنجاء باليمين**، ومسُّ الفرج باليمين من غير عذر، ورد في حديث (متفق عليه) عن أبي قتادة رضي ا لله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((إذا بال أحدكم فلا يأخذنَّ ذكَره بيمينه، ولا يستنجِ بيمينه، ولا يتنفَّس في الإناء)) أي: يكره الاستنجاء ومسّ العضو وكلِّ مستقذر باليد اليمين، تكريماً لليمين، وتخصيصاً لها بتناول الأكل والطيبات والكتابة والمصافحة وغيرها من المكارم، إلا لضرورة أو عذر كإزالة القاذورات باليمين إذا كان في اليد اليسرى

علّة. وتخصَّص اليسار أو الشمال للأمور الخسيسة أو المستكرهة. ويكره التنفس في الإناء، لاصطحاب الزفير بغاز الفحم السام، ولأنه يلوث الماء أو الطعام.

وأرشدت السنة النبوية أيضاً إلى **كراهة المشي في نعل واحدة، لغير عذر**، وكراهة لُبْس النعل قائماً لغير عذر، للحديث (المتفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمشِ أحدكم في نَعْل واحدة، لينعلْهما جميعاً، أو ليخلعْهما جميعاً».

وفي رواية: «أو ليُحْفِهما جميعاً» أي: ليكن لبس النعلين في كلتا الرِّجْلين، وكذلك يكون نزع النعلين من كلتا الرِّجلين، من غير ترك إحداهما بنعل دون الأخرى. وقوله: «ليُحْفهما جميعاً» أي: إما أن يلبس النعلين، وإما أن يمشي حافياً بغير نعل. فهذا من مستحسنات العادات.

ويؤيده ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا انقطع شِسْع[1] نعل أحدكم، فلا يمشِ في الأخرى حتى يُصلحها».

أي: إن سبب كراهة المشي بنعل واحدة: الحفاظ على وقار الإنسان، وعدم التشويه والإخلال بالوقار، وعدم التعرض للسخرية والاستهزاء، وعسر المشي، والتعرض للسقوط على الأرض. لكن إن وجد عذر يمنع من لبس النعل في رِجْل، فلا كراهة.

ويكره الانتعال قائماً؛ لما رواه أبو داود بإسناد حسن عن جابر رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يَنْتَعِل الرَّجُل قائماً» أي: يكره لبس النعل حال القيام إذا احتاج للاستعانة باليد، ويستحب القعود حين الانتعال، فإذا لم يحتج للاستعانة بيده فلا كراهة. وهذه الآداب في كيفية لبس النعل من أجل ظهور المسلم على أحسن حال وأكرم هيئة ومقام.

---

(١) الشِّسْع: السَّير الذي يربط به النعل أو يمسك به.

وليس من المصلحة **تركُ النار مشتعلة عند النوم** خشية الامتداد والإحراق، ولا بقاءُ النور مضاءً؛ لأن إطفاء النور حال النوم فيه راحة للعين، ومنعاً من إيذاء الحشرات الضارّة، سواء كانت زاحفة أو طائرة، ورد في حديث (متفق عليه) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون)) وهذا النهي للكراهة، والغاية واضحة؛ لأن النار قد تزداد اشتعالاً، فتتسرب إلى الأمتعة أو غيرها فتحرقها.

ويؤكد ذلك حديث آخر (متفق عليه) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل، فلما حُدِّث رسول الله ﷺ بشأنهم قال: ((إن هذه النار عدوّ لكم، فإذا نمتم فأطفئوها)).

ويكره **ترك آنية الطعام أو الشراب والأسقية غير مغطاة**، روى مسلم عن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: ((غَطُّوا الإناء، وأوكئوا السِّقاء[1]، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحلُّ سِقاء، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناء، فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرِض على إنائه عوداً، ويذكرَ اسمَ الله فليفعل، فإن الفُويسقة[2] تُضْرِم[3] على أهل البيت بيتهم)).

دلَّ الحديث على كراهة ترك شيء مشتعل حال النوم، سواء كانت النار للإضاءة كالمصباح والسراج والكهرباء، أو للاستدفاء كالمدفأة، والموقد وغيرها، ويسن تغطية أوعية الطعام، والشراب، حفظاً لهما من الحشرات والمستقذرات والغبار، ويسن أيضاً إغلاق أبواب البيوت والغرف عند النوم توقياً من الجناة واللصوص والمخاطر.

---

(١) السقاء: إناء الماء أو اللبن، جمع أسقية.
(٢) أي: الفأرة.
(٣) أي: تُحرق.

-١٦٢-

تحريم تصوير الحيوان في بساط وغيره

التصوير المجسَّد لكل ذي روح حركية أو المطرز أو الموشّى أو النافر في حجر أو ثوب أو درهم أو مخدَّة أو دينار أو وسادة ونحو ذلك مما له ظل: حرام في شريعتنا، ويحرم أيضاً اتخاذ الصورة المجسمة في حائط أو سقف أو ستارة (برداية) أو عمامة وثوب ونحو ذلك؛ لما فيه من تعظيم يضاهي عبادة الله تعالى، أو يضاهي خَلْق الله، ولا مانع من التصوير الفوتوغرافي أو الخيالي، وبخاصة لحاجة تعليمية أو تشخيص مرض مثلاً، بشرط الاقتصار على موضع الحاجة، وبشرط ألا تكون الصورة ذات فتنة كإظهار مفاتن المرأة، ولا مانع من لُعب الأطفال أو إذا كانت الصورة مهينة غير معظمة. وهذا كله دلّت عليه السنة النبوية.

جاء في حديث (متفق عليه) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الذين يصنعون هذه الصورة يعذَّبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم)). دلَّ الحديث على تحريم صنع الصور المجسَّمة، حيث يعذَّب فاعلها يوم القيامة، فيطلب منه نفخ الروح فيها.

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قَدِم رسول الله ﷺ من سَفَر، وقد سترت سهوة[١] لي بقِرام[٢] فيه تماثيل. فلما رآه رسول الله ﷺ تلوَّن وجهُه، وقال: ((**يا عائشة! أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يُضاهون[٣] بخلق الله**)) قالت: فقطعناه، فجعلنا منه وِسادة أو وسادتين.

إن تغيُّر وجه النبي ﷺ الذي هو علامة الغضب، يدلُّ على تحريم اتخاذ الصور في الستائر المعلَّقة أو إطارات الأشياء وغيرها، كما يحرم تعليقها وتعظيمها.

يوضح ذلك حديث (متفق عليه) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((كلُّ مصوِّر في النار، يُجْعَل له بكل صورة صَوَّرها نفسٌ[٤]، فيعذِّبه في جهنم)). قال ابن عباس: فإن كنت لابد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا روح فيه. أي: فتحرم صناعة صور لكل ذي روح من إنسان أو حيوان، ولا يحرم صنع صور لما لا روح له؛ كالشجر والجبل أو النهر أو المناظر الطبيعية.

وبما أن التصوير تشبُّه بخلق الله، فيكون عقاب المصوِّر على سبيل التقريع والتبكيت والتعجيز يوم القيامة تكليفَه بنفخ الروح في الصورة، ولا يستطيع ذلك، فيعذب على ترك الإتيان بالمأمور به.

والدليل على العذاب حديث (متفق عليه) عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من صَوَّر صورةً في الدنيا، كُلِّف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة، وليس بنافخ)).

---

(١) أي: السترة قُدَّام فناء (ساحة) البيت.

(٢) القِرام: السِّتر أو الستارة.

(٣) أي: يشابهون خلق الله تعالى بصنعهم صوراً نافرة.

(٤) أي: يجعل له بسببها أو بدلها نفس حقيقية.

وحديث آخر (متفق عليه) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المُصَوِّرون**)). والحديثان دالان على وجود عذاب المصورين يوم القيامة.

ومحاولة التشبه بخلق الله بالتصوير من أشد أنواع الظلم والتحدي، ورد في حديث (متفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلُق كخلقي؟ فليخلقوا ذَرَّة، أو لِيخْلقوا حَبّة، أو ليخلقوا شعيرة)) أي: لا أحد أظلم ممن يصنع ما يشابه خلق الله، وكلٌّ مصوِّر عاجزٌ عن الخلق الحقيقي: وهو الإيجاد من العدم، فلا يستطيع خَلْق أصغر الأشياء، كالذَّرّة: النملة الحمراء الصغيرة، أو الجزء الذي لا يتجزأ في اصطلاح علماء المادة، وكالحبة من الحنطة أو الشعير. ونجد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣/٢٢].

والصورة المجسدة ونحوها تمنع دخول الملائكة للمنزل، للحديث (المتفق عليه) عن أبي طلحة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صُورة**)) أي: لا تدخل ملائكة الرحمة بيتاً، أو أي مكان فيه كلب أو صورة. أما الملائكة الحفظة، فلا يفارقون الإنسان في كل مكان كريم.

ويؤكده حديث رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وَعَد رسولَ ﷺ جبريلُ أن يأتيه[1]، فراثَ عليه[2]، حتى اشتدَّ[3] على رسول الله ﷺ، فخرج، فلقيه جبريل، فشكا إليه[4]، فقال: ((إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب

---

(١) أي: أن يأتيه في وقت معين.

(٢) هذا تعبير يدل مجازاً لا حقيقة على الابتعاد والتبرم والاستنكار.

(٣) أي: قلق من تأخره.

(٤) أي: فخرج النبي من المكان الذي انتظر فيه جبريل، فعاتبه على تأخره.

ولا صورة)). ويوضحه حديث رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: واعد رسولَ الله ﷺ جبريلُ عليه السلام أن يأتيه في ساعة، فجاءت تلك الساعة ولم يأته! قالت: وكان بيده عصاً، فطرحها من يده، وهو يقول: ((ما يُخلف الله وعدَه ولا رسلُه)) ثم التفت، فإذا جَرْو كلب[1] تحت سريره، فقال: متى دخل هذا الكلب؟ فقلت: والله، ما دَرَيتُ به، فأَمَر به فأُخرج، فجاءه جبريل عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ: ((وعدتني فجلستُ لك ولم تأتني)) فقال: ((منعني الكلب الذي في بيتك، إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة)) أي: إن ترك الملائكة دخول البيت كان بسبب استنكارهم مخالفة أمر الله عز وجل، واستقذاراً لرائحة الكلب ونجاسته.

ويجب إتلاف الصور المجسمة، وهدم القبور المرتفعة عن الأرض؛ لما رواه مسلم عن أبي التَّيَّاح حَيَّان بن حُصين[2] قال: ((قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثُك على ما بَعَثَني رسول الله ﷺ؟ أن لا تدعَ صورة إلا طَمَسْتها، ولا قبراً مشرفاً إلا سوَّيته)) أي: إزالة معالم الصورة، وهدم القبر العالي المرتفع عن الأرض.

---

(١) أي: ولد الكلب والسباع.

(٢) أحد التابعين الثقات.

-١٦٣-

تحريم اتخاذ الكلاب في البيوت إلا لمصلحة

يحرم تربية الكلاب في المنازل، إلا لحاجة أو مصلحة؛ كالصيد أو حراسة الماشية أو الزرع أو المنزل النائي؛ لروائحها الكريهة المنتنة، ونجاستها المغلظة، وتقليد غير المسلمين، ولعضها صاحب المنزل أو أحد أولاده أحياناً، فقد دلّت الإحصاءات الغربية على موت أكثر من ثمانين ألفاً من عضِّ الكلب في المنازل كل عام.

واقتناء الكلاب في البيوت لغير مصلحة معتبرة شرعاً فيه أيضاً نقص من أجر الإنسان وثوابه في الآخرة. وهذا ثابت في السنة النبوية.

روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية، فإنه ينقُص من أجره كلَّ يوم قيراطان))، وفي رواية: ((قيراط)) أي: من اتخذ في المنزل كلباً لغير حاجة، نقص من أجره كل يوم قيراط أو قيراطان، والقيراط: جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الشيء.

فإن وجدت حاجة أو مصلحة كاستعمال الكلب لأجل الصيد، أو لحراسة الزرع أو الماشية، جاز ذلك، مع الحذر من نجاسته عند إطعامه أو سقيه، وتجنُّب

ولوغه[١] في آنية المنزل، لكن يعفى عن مَعَضّ كلب الصيد للضرورة، فقد أحل الله تعالى الاصطياد بالكلاب والفهود وسباع الطير ونحوها، في قول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ ماذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ [المائدة: ٥/٤]. قال أبو رافع: أمرني رسول الله ﷺ بقتل الكلاب، فقال الناس: يا رسول الله! ما أُحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ويؤكد منعَ الناس من اقتناء الكلاب حديث آخر رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**من أمسك[٢] كلباً فإنه ينقص من عمله كلَّ يوم قيراط إلا كلب حرث[٣] أو ماشية**)).

وفي رواية لمسلم: ((من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد، ولا ماشية، ولا أرض، فإنه ينقص من أجره قيراطان كلَّ يوم)). دلَّت هذه الأحاديث على تحريم اقتناء الكلاب لغير حاجة، ويجوز اقتناؤها للحاجة كالصيد وحراسة المواشي والزروع والبيوت عند اللزوم. ودلَّت الأحاديث أيضاً على أن اقتناء الكلاب لغير حاجة ينقص الثواب، لصعوبة الاحتراز عن نجاستها فلا تصح العبادة حينئذ، وتوقّياً من أذاها أو عضها أحياناً، حيث يتغلب عليها طبعها المؤذي، أو تتعرض لمرض طارئ، أو تروّع السائل، وتنبح على الضيف، وقد تعضّه.

ويكره استصحاب الكلب والجرس في السفر، كما يكره تعليق الجرس في البعير والبقرة وغيرهما من الدوابّ؛ لما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**لا تصحب الملائكةُ رُفْقة فيها كلب أو جرس**)) أي: يكره اصطحاب الكلب غير المأذون باتخاذه: وهو مالا مصلحة برفقته.

---

(١) وَلَغ الكلب في الإناء: شرب منه بأطراف لسانه.
(٢) أي: اقتنى.
(٣) أي: زَرْع.

وروى أبو داود بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أبي هريرة أيضاً: أن النبي ﷺ قال: ((**الجرس من مزامير الشيطان**)) أي: إن تعليق الأجراس على أعناق الدواب مكروه، لأن الجرس يفوِّت بركة حضور الملائكة وحفظِها، فإن الملائكة تنفر من سماع الأجراس، والأجراس آلة من آلات الزمر، والمزامير ترغب فيها الشياطين وتأنس بها، وتَحْرِم الإنسان من ذكر الله تعالى، وتشغله عن العبادة؛ لأن الملاهي تُنْسي الإنسان واجباته، فعلى المسلم أن يحرص، لا سيما في أثناء السفر، على صحبة الملائكة، وتجنُّب كل ما يؤذيها أو يُبعدها عنه.

ويكره أيضاً **ركوب الدابة الجلاَّلة** من بعير أو ناقة ونحوهما: وهي التي اعتادت أكل النجاسات من غائط وغيره حتى ظهر ريحها، فهذا شيء مؤذٍ، ومؤثر في الطهارة والنظافة، روى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((نهى رسول الله ﷺ عن الجلاّلة في الإبل أن يُركب عليها)) وهذا دليل واضح على حرص الإسلام على الطهارة أو النظافة، وعلى ضرورة الابتعاد عن القاذورات، ومختلف أنواع النجاسات، والروائح الكريهة المسيئة للشم والطبع.

أما أكل الجلاَّلة: فيجوز بعد أن تعزل عن النجاسات، وتأكل طيباً مباحاً لمدة ثلاثة أيام مثلاً حتى يطيب لحمها، وتزول الكراهة.

-١٦٤-

تعظيم المساجد

-١-

(بناؤها، وتطهيرها، ومنع البيع والشراء فيها ونحو ذلك)

المساجد: بيوت الله في الأرض، وهي أفضل بقاع الدنيا عند الله تعالى، وإن زوّارها عمّارها، فطوبى لمن تطهر في بيته، ثم أتى المسجد، وحق على المزور أن يكرم زائره.

وقد رغَّب الشرع في أداء الصلاة جماعة في المساجد؛ تقوية لأواصر المجتمع وتجمعات الجماعة، حيث يتفقد الأخ أخاه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاّ اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ٩/١٨].

والمساجد بيوت العبادة، فيجب احترامها، وترك رفع الصوت فيها، وعدم البيع والشراء في أفنائها أو توابعها، واجتناب التشويش على المصلّين فيها، والحرص على نظافتها وطهارتها من أي شيء كالشعر والأظفار والفضلات. وقد وردت أحاديث كثيرة في آداب المساجد، منها:

ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((من سمع رجلاً ينشد ضالّة[1] في المسجد، فليقل: لا رَدّها الله عليك، فإن المساجد لم تبن لهذا)).

---

(١) أي: يطلب شيئاً ضائعاً له، ويسأل عنه.

ويؤيده ما رواه الترمذي - وقال: حديث حسن - عن أبي هريرة رضي ا لله عنه: أن رسول ا لله ﷺ قال: ((إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع[١] في المسجد، فقولوا: لا أربح ا لله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالَّة فقولوا: لا رَدَّها ا لله عليك)).

وروى مسلم أيضاً عن بريدة رضي ا لله عنه: أن رجلاً نَشَد في المسجد، فقال: من دعا إليَّ[٢] الجملَ الأحمرَ؟ فقال رسول ا لله ﷺ: ((لا وَجَدْتَ، إنما بنيت المساجد لما بُنيت له)) أي: إنها بنيت للصلاة والأذكار وتعلُّم العلوم، و لم تُبْنَ للمناداة على الأشياء الضائعة.

ويقاس على ذلك طلب الصدقات في المساجد، وكذلك إعطاء الصدقة، فهو أيضاً ممنوع في المسجد.

والنهي عن الشراء والبيع ونشدان الضالّة (الشيء المفقود) للكراهة إن لم يحدث تشويش على المصلّين وقرّاء القرآن، فإن حدث تشويش من ذلك، كان النهي للتحريم، وصيغة النهي في حديث رواه أبو داود والترمذي - وقال: حديث حسن - عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه رضي ا لله عنه: ((أن رسول ا لله ﷺ نهى عن الشراء والبيع في المسجد، وأن تُنْشد فيه ضالة أو يُنْشد فيه شعر)).

ويؤكد ذلك ما رواه البخاري عن السائب بن يزيد الصحابي رضي ا لله عنه قال: كنت في المسجد، فحصبني رجل[٣] ، فنظرت، فإذا عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه، فقال: اذهب فائتني بهذين، فجئته بهما، فقال: من أين أنتما؟ فقالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتَكما في مسجد رسول ا لله ﷺ؟!

---

(١) أي: يشتري.

(٢) أي: تعرَّف إلي.

(٣) أي: رماني بالحصباء: وهي صغار الحصى.

دلَّ الحديث على كراهة رفع الصوت في المسجد ولو في إعلان الأذكار وقراءة القرآن، ويحرم ذلك إن أحدث تشويشاً، لأن بيوت الله تعالى وهي المساجد مخصصة للطاعة والعبادة، فتراعى فيها آدابها، ولا سيما المسجد النبوي والحرم المكي، ولا تجوز مخالفة هذه الآداب، قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ، رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [النور: ٢٤/٣٦ – ٣٨].

ويكره في المسجد في أثناء خطبة الجمعة **جلسة الاحتباء** (وهي ضم الرجلين إلى البطن باليدين أو بشيء) لأنها تجلب النوم، وتمنع استماع الخطبة وهو واجب، ويخاف بسببها انتقاض الوضوء، ومجافاة الأدب، وذلك لما رواه أبو داود والترمذي – وقالا: حديث حسن – عن معاذ بن أنس الجُهَني رضي الله عنه: ((أن النبي ﷺ نهى عن الحِبْوة يوم الجمعة، والإمام يخطب)).

إن تحقيق الثواب في الصلاة جماعة أو الاعتكاف (المكث في المسجد بنية العبادة وقراءة القرآن والأذكار) يتطلب كل منها ملازمة آداب المساجد في الدخول والخروج، والبقاء والاستمرار، روى الطبراني في الكبير بإسنادين أحدهما جيد، عن سلمانَ الفارسي رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((من توضأ في بيته، فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد، فهو زائر[1] الله، وحق على المزور[2] أن يكرم الزائر)).

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((**أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله تعالى أسواقها**)).

---

(١) أي: ضيف الله وطالب ثوابه.

(٢) المضيف الذي قصد ثوابه.

-١٦٥-

تعظيم المساجد

- ٢ -

(إيذاء الناس بالروائح الكريهة)

يحرم على المرء إيذاء أحد من الناس في المساجد، سواء بتخطي الرقاب، إلا إذا وجد فُرْجة أو مكاناً خالياً، أو بأكل الثوم أو البصل أو الكُرَّاث ونحو ذلك مما له رائحة كريهة، كروائح الجوارب والأرجل وآثار الصنعة المؤذية في الملابس كالجزارين، فيجب على داخل المسجد أن يتجنَّب تناول الأشياء ذات الرائحة الكريهة، ولا يدخلها إلا لضرورة أو حاجة شديدة حتى تزول الرائحة. وكراهة الرائحة كما تؤذي البشر الموجودين في المسجد، تؤذي الملائكة أيضاً، فإنها أشد تأذِّياً بذلك. وفي الإيذاء ذنب أو إثم، والمطلوب التزام آداب المساجد، منعاً من الضرر، وتمكينَ العبَّاد والنُّسّاك والذاكرين الله تعالى من أداء طاعتهم.

وأدلة منع الأذى في المسجد: حديث (متفق عليه) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((من أكل من هذه الشجرة - يعني الثوم - فلا يَقْرَبنَّ مسجدنا)) وفي رواية لمسلم: ((مساجدنا)). وتكرّع الطعام أو الشراب بسبب التخمة وملء المعدة، أو تناول أنواع متناقضة من المطعومات أو أكل الفجل، يعدُّ أيضاً من أشد أنواع الأذى، فمن أحسَّ بذلك، وجب عليه ألا يدخل المسجد.

ويؤيده حديث آخر (متفق عليه) عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((من أكل من هذه الشجرة[١]، فلا يَقْرَبَنَّا، ولا يُصلينَّ معنا)).

وفي حديث آخر (متفق عليه) عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((من أكل ثُوماً أو بصلاً، فليعتزلْنا، أو فليعتزل مسجدنا)). وفي رواية لمسلم: ((من أكل البصل، والثوم، والكُرَّاث، فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم)). إن هذه الأشياء ذات الرائحة الكريهة، ومنها الدُّخان (السجاير) والفجل الذي يولِّد الجُشاء القبيح أو التكرع، كل ذلك ممنوع في المساجد، لإيذائها المصلِّين والملائكة على السواء، وعلى المؤمن اجتناب الإضرار بغيره في أي مكان وزمان.

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه خطب يوم الجمعة، فقال في خطبته: ((ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين ما أُراهما إلا خبيثتين[٢] : البصل والثوم! لقد رأيتُ رسول الله ﷺ إذا وجد ريحَهما من الرَّجُل في المسجد، أمَر به، فأُخرج إلى البقيع[٣] ، فمن أكلهما فليُمتهما طبخاً)) أي: إن الطبخ أو الغلي يذهب الرائحة.

دلَّ الحديث على الكراهة التحريمية، حال تناول كل ما له رائحة كريهة، كالبصل والثوم والكرَّاث ونحوها، وتزول الكراهة بزوال الرائحة بمضي مدة كافية، أو بالطبخ والغليان.

وعلى المسلم أن يكون طيب الرائحة، وبخاصة في المجتمعات، ومواضع العبادة، حتى لا يتأذى الناس منه ومن مجالسته ومحادثته والاقتراب منه. وتجنُّب هذه المؤذيات يؤدي إلى إشاعة المحبة والألفة والتعاون. وتركُ اجتنابها وعدمُ

(١) أي: الثوم، ويعرف المراد به من القرائن.

(٢) أي: ذواتي رائحة كريهة منفِّرة.

(٣) البقيع: مقبرة أهل المدينة، قرب المسجد من ناحية الشرق.

المبالاة بها يؤدي إلى التنافر والتباعد وتفرق الجماعة. فعلى ولي الأمر الحيلولة بين المساجد وأصحاب هذه الروائح الكريهة والمؤذية.

والواقع أن الإسلام يرهِّب من إتيان المسجد لمن أكل بصلاً أو ثوماً أو كُرَّاثاً أو فجلاً ونحو ذلك مما له رائحة كريهة كالدخان ورائحة الجوارب، من أجل رعاية المصلحة العامة؛ لأن المجتمع يُؤْثر الراحة النفسية والجسدية، وينفُر من المكدِّرات والمنفِّرات، فيكون المؤذي سبباً لتعطيل المصلحة العامة، وتفويت ما يحقق المنفعة، وحينئذ يعم الضررُ الجميعَ، سواء المتسبب في الإيذاء، والذي وقع عليه الأذى.

لذا كان على المؤمن أن يحفظ أدب المجالس ويرعى الصلات الاجتماعية، ويبتعد عن تعطيلها أو الإخلال بها، أو التسبب في اتهام المجتمع المسلم بالبدائية والتخلُّف، وهزِّ المشاعر، وتنفير الطبائع، روى ابن خزيمة في صحيحة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنه ذُكر عند رسول الله ﷺ: الثومُ، والبصل، والكُرَّاث. وقيل: يا رسول الله! وأشدُّ ذلك كلّه الثومُ، أفتحرِّمه؟ فقال رسول الله ﷺ: ((كُلوه، من أكله منكم، فلا يقرب هذا المسجد، حتى يذهب ريحه)) أي: إن أكل الثوم والبصل والكراث مباح للشخص في بيته، دون أن يتعدى ضررُ تناوله إلى الآخرين.

-١٦٦-

الحلف بغير الله من المخلوقات

على المؤمن أن يعظّم الله تعالى تعظيم وقار وهيبة وإجلال وعبادة، وذلك بإطاعة أوامر الله، واجتناب نواهيه، فلا يحلف إلا بالله تعالى؛ لأن الحلف تعظيم، ولا يستحق التعظيم المطلق على جهة العبادة غير الله تعالى. ويحرم الحلف بغير الله سبحانه، كالنبي والكعبة والملائكة والسماء والآباء، والحياة والروح، والرأس، ونعمة السلطان، وتربة فلان، والأمانة وهي من أشدها نهياً، والوالد والولد وغير ذلك.

وقد أرشدت السنة النبوية إلى هذا الحكم الشرعي وهو تحريم **الحلف بغير الله**.

ورد في حديث (متفق عليه) عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً، فليحلف بالله، أو ليصمُت)) أي: لا يجوز اليمين إلا بالله تعالى أو صفة من صفاته كعلم الله وقدرته، ومنه الحلف بالقرآن الكريم، لأنه كلام الله.

ويحرم الحلف (أي: القسم أو اليمين) بالآباء أو بغيرهم من المخلوقات، كالشمس والقمر، وجبريل وميكائيل؛ لأن الحلف تعظيم، ولا يستحق التعظيم إلا الله تعالى. لكن لله تعالى أن يحلف بما شاء على ما يشاء في أي وقت كنفسه

أو ذاته، أو أحد مخلوقاته، كالنجم والشمس، والليل والنهار، والضحى، والتين والزيتون، والسماء والأرض.

ويجوز للإنسان أن يحلف بالقرآن الكريم؛ لأنه كلام الله تعالى. ويحرم القسم بالأصنام والآباء، روى مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تحلفوا بالطواغي[1]، ولا بآبائكم))، وروي في غير صحيح مسلم: ((لا تحلفوا بالطواغيت)) جمع طاغوت: وهو الشيطان والصنم، وكل ما عُبِد من دون الله تعالى. دلَّ هذا الحديث على تحريم الحلف بالأصنام ونحوها من كل شيء أو معبود باطل، وكذلك تحريم الحلف بالآباء والأولاد والرؤساء والزعماء، ويعدُّ الحلف بغير الله كفراً إن قصد التعظيم الذي هو على جهة العبادة. روى الترمذي - وقال: حديث حسن - عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رجلاً يقول: لا والكعبة، فقال ابن عمر: لا تحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من حلف بغير الله فقد كفر وأشرك)). وهذا محمول على التغليظ أو استباحة تعظيم غير الله تعالى، كما روي أن النبي ﷺ قال: ((الرياء شرك)) يراد به التنفير.

أرشد الحديث إلى تحريم الحلف بغير الله تعالى أو صفاته مطلقاً، أياً كان المحلوف به كالشرف والولد والشارب ورحمة الأب، والأماكن المقدسة والأنبياء والصالحين وغيرهم.

ومن حلف بغير الله تعالى وصفاته، قاصداً تعظيم المحلوف به كتعظيم الله سبحانه، فقد كفر أو أشرك. فإن لم يقصد التعظيم فلا يكفر، الحديث من باب الترهيب، كما جاء في حديث ((الرياء شرك))، فهذا للتنفير.

(١) الطواغي: جمع طاغية، وهي الأصنام، ومنه الحديث: ((هذه طاغية دَوْس)) أي صنمهم ومعبودهم. وكل ما عُبِد من دون الله تعالى فهو من الطواغيت.

وكذلك لا يجوز **الحلف بالأمانة**، وهي الفرائض من صلاة وصيام وحج وزكاة ونحوها من أوامر الله تعالى؛ لما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن بُريدة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((من حلف بالأمانة فليس منا))، أي: ليس من أهل طريقتنا، ولا على منهج سنتنا. فيحرم الحلف بالأمانة، لأن اليمين لا تكون ولا تصح إلا بالله تعالى أو بصفاته، وليس لفظ ((الأمانة)) منها. وليست هي من أسماء الله تعالى. وذهبت الحنفية إلى أن الحلف بأمانة الله يكون يميناً، وتلزمه فيها الكفارة.

ومن أسوأ الأيمان الشائعة لدى بعض العوام قولهم: ((إني بريء من الإسلام إن كان أو لم يكن كذا))؛ لما رواه أبو داود عن بُريدة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: ((من حلف فقال: إني بريء من الإسلام، فإن كان كاذباً فهو كما قال، وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً)) أي: إن كان كاذباً فيما يحلف عليه، فيصير بريئاً من دين الإسلام؛ لقصده وقوله ذلك. وإن كان صادقاً، صار إسلامه مختلاً أو ناقصاً.

فهذا لفظ شنيع، يجب الاستغفار من إثمه، ويندب له تجديد إسلامه والإتيان بالشهادتين. وذلك على قول الإمام الشافعي: إن هذا ليس بيمين ولا كفارة له، ويأثم قائله. وذهب بعض العلماء إلى أن هذه الكلمة كفر، فيجب الاستغفار وتجديد الإسلام.

والخلاصة: إن اليمين لها صفة العبادة، وتعتمد على معنى التعظيم، فلا تجوز بغير الله تعالى، والحلف بغير الله سبحانه أو بغير صفاته: فيه خطر عظيم، وهو معصية، فإن قصد الحالف تعظيم المحلوف به من غير الله تعالى كتعظيم غير الله سبحانه فقد كفر أو أشرك، وهذا هو المراد بظاهر الحديث: ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)). وإن لم يقصد باليمين بغير الله تعالى التعظيم، لم يكفر ولم يشرك، ولكن يجب عدم استعمال هذه الصيغة، لأن الشرع نفر أو حذّر منها.

-١٦٧-

اليمين الكاذبة عمداً (اليمين الغموس) واليمين المعدول عنها

يتهاون بعض الناس الفسَّاق في اليمين، فتكثر أيمانهم الكاذبة عمداً أو قصداً، ويستعملون اليمين أداة سهلة في زعمهم لاستباحة أموال غيرهم، وهم لا يدرون أنهم ارتكبوا معصية عظيمة من الكبائر، وإثم المعصية الكبيرة هو نار جهنم، فتجب المبادرة إلى التوبة والاستغفار للتخلص من إثم هذه المعصية، حتى لا يلقى الحالف ربَّه وهو عنه ساخط وغاضب، كما يجب رد المال المحلوف عليه أو الحق إلى صاحبه.

ورد في حديث (متفق عليه) عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه[١]، لقي الله، وهو عليه غضبان)) قال: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مِصْداقه من كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ[٢] بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ[٣] لَهُمْ فِي

---

(١)أي: حلف وهو غير محق؛ لأخذ مال غيره بيمينه الكاذبة.

(٢) أي: يستبدلون.

(٣) أي: لا نصيب لهم من الحظ والثواب.

الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧/٣].

دلَّ الحديث على أن استعمال اليمين الكاذبة قصداً لاستباحة أخذ أموال الآخرين سبب لغضب ا لله، أي: الانتقام منه وعقابه، ومصداق ذلك، أي ما يصدِّقه: هو ما عبَّرت عنه هذه الآية الكريمة الدالة على حرمان العاصي بهذه المعصية الكبيرة من رحمة ا لله وفضله ورضوانه، وتطهيره من آثار المعاصي.

ومال المسلم أو غير المسلم حرام على آخذه من دون حق، سواء كان المال قليلاً أو كثيراً؛ لما رواه مسلم عن أبي أمامة إياس بن ثَعلبة الحارثي رضي ا لله عنه: أن رسول ا لله ﷺ قال: ((من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب ا لله له النار، وحرَّم عليه الجنة)) فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول ا لله؟ قال: ((وإن كان قضيباً من أراك)) أي: من أخذ مال غيره بيمينه الكاذبة، وهو يعلم، فقد استحق النار، وحرَّم على نفسه الجنة، سواء كان المال قليلاً أو كثيراً، ولو كان غصناً من شجر الأراك: وهو الذي يؤخذ منه أعواد السواك.

واليمين الكاذبة قصداً أو اليمين الغموس: إحدى الكبائر، لما رواه البخاري عن عبد ا لله بن عمرو بن العاص رضي ا لله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**)) وفي رواية أخرى للبخاري: أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ: فقال: يا رسول ا لله! ما الكبائر؟ قال: ((الإشراك با لله)) قال: ثم ماذا؟ قال: ((اليمين الغموس)) قلت[1]: وما اليمين الغموس؟ قال: ((الذي يقتطع مال امرئ مسلم! يعني: بيمين هو فيها كاذب)). هذا دليل واضح على أن اليمين الغموس (وهي اليمين الكاذبة عمداً) من الكبائر؛ لاستعمالها في اقتطاع مال امرئ آخر مسلم أو غير مسلم؛ لأن الحق

(١) أي: قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

واحد، والاعتداء على أموال الآخرين بغير حق جريمة عظيمة. وسميت غموساً، لأنها تغمس قائلها في الإثم والنار.

أما **اليمين المعدول عنها**: وهي التي يحلفها الإنسان على أن يفعل شيئاً ثم يرى غير هذا الشيء خيراً منه، فله أن يفعل المحلوف عليه، ثم يكفّر عن يمينه، للحديث (المتفق عليه) عن عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فائتِ الذي هو خير، وكفّر عن يمينك)) أي: إذا رأى أن فعل المحلوف عليه شر، وغيره خير، فليأتِ الذي هو خير، ويؤدي كفارة اليمين، وسميت كفارة، لأنها تكفّر ذنب الحانث باليمين. والحنث باليمين: هو عدم فعل أو عدم تنفيذ المحلوف عليه.

ويؤيد ذلك ثلاثة أحاديث أخرى:

الأول: ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((من حلف على يمين، فرأى غيرها خيراً منها، فليكفّر عن يمينه، وليفعل الذي هو خير)). وهو بمعنى الحديث السابق.

الثاني: الحديث (المتفق عليه) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((إني - والله إن شاء الله - لا أحلف على يمين، ثم أرى خيراً منها إلا كفَّرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير)).

الثالث: الحديث (المتفق عليه) أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لأن يَلَجَّ أحدكم في يمينه في أهله آثَمُ له عند الله تعالى من أن يعطي كفارته التي فرض الله عليه)) أي: لأن يتمادى الإنسان في يمينه ولا يحنث ولا يكفّر عنها، فهو أكثر إثماً من ترك إعطاء الكفارة التي فرضها الله عليه، أي: إن هذا ترغيب في الحنث إذا رأى أن غير المحلوف عليه خير.

دلت هذه الأحاديث الأربعة على مشروعية الحنث باليمين إذا كان عدم تنفيذ الشيء المقسم عليه أفضل من تنفيذه.

-١٦٨-

اليمين اللغو واليمين في البيع والسؤال بوجه الله

الأيمان ثلاثة أنواع: اليمين المنعقدة: وهي أن يحلف الإنسان على فعل شيء في المستقبل أو على تركه، واليمين الغموس (وهي اليمين الكاذبة قصداً) واليمين اللغو: وهي التي تجري على لسان الحالف دون قصد إرادة اليمين، كقوله: لا والله، وبلى والله، ونحوهما مما لا يقصد به اليمين. قال الله تعالى: ﴿لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بما عقَّدْتُمُ الأَيْمانَ فَكَفّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيّامٍ ذَلِكَ كَفّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ﴾ [المائدة: ٥/٨٩]، أي: لا يعاقبكم الله على اليمين اللغو، ولا يطالبكم بالكفارة عنها، فهي معفو عنها. ولكن المؤاخذة والكفارة على اليمين المنعقدة، أي: التي يقصد بها اليمين، وتكون على فعل أمر في المستقبل أو تركه.

وعلى المسلم حفظ اليمين، أي صونها من الحنث، والحرص على البرّ بها ما لم تكن معصية، وأداء الكفارة عنها بالحنث، أي: عدم تنفيذ مقتضى اليمين.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أُنزلت هذه الآية ﴿لا

يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ﴾[1] في قـول الرجـل: لا وا لله، وبلـى وا لله)).
ويعفى عن هذه اليمين؛ لعدم توافر القصد فيها. فإن قصد الحالف اليمين وجبت عليه الكفارة بالحنث، أي: بمخالفة ما حلف عليه. والكفـارة بالنسـبة للموسـر: فعل أحد أمور ثلاثة:

إما إطعام عشرة مساكين غداء وعشاء، أو إكساؤهم كسوة ساترة، كقميص أو سروال، أو بحسب العرف، أو تحرير (عتق) رقبة. وهذا على سبيل التخيير.

أما المعسر أو العاجز عن هذه الأمور الثلاثة: فيصـوم ثلاثـة أيـام، متتابعـة في رأي الحنفية، ولا يشترط فيها التتابع عند الجمهور بقية الفقهاء.

وأما **اليمين الشائعة في البيع في الأسواق** وغيرها: فهي مكروهة، وإن كـان الحالف صادقاً، وحرام إن كان كاذباً، للحديث (المتفـق عليـه) عـن أبـي هريـرة رضـي ا لله عنـه قـال: سمعـت رسـول ا لله ﷺ يقـول: ((الحَلِـف مَنْفَقـة للسـلعة، مَمْحَقة للكسب)) أي: إن اليمين قد تكون سبب نَفـاق السـلعة (البضاعـة) أي: بيعها ورواجها، والإقبال عليها، ولكن تكون سبباً لمحق الكسب وذهاب البركـة من البيع. والكسب: الربح، والبركة: النماء والزيادة.

وروى مسلم عن أبي قتادة رضي ا لله عنه: أنه سمع رسـول ا لله ﷺ يقـول: ((إياكم وكثرة الحَلِف في البيع، فإنه يُنفّق، ثـم يمحـق))، أي: إنـه يـروِّج السـلعة أحياناً، ثم يُذهب البركة والخير، ويؤدي للخسارة.

ويكـره للإنسـان أن يسـأل بوجـه الله عـز وجـل غـير الجنـة، أي: يكـره التوسـل والسؤال بوجه ا لله تعـالى لتحقيـق غـرض دنيـوي، كـالقول: أسـألك بوجهـك الكريم أن تعطيني كذا، وإنما يجوز السؤال بوجه ا لله تعالى الجنـةَ ونِعَـم الآخـرة؛ لأن وجه ا لله أو ذاته عظيم، والعظمة المطلقة لا يصح الاستعانة بها لأمـر حقـير من أمور الدنيا، وإنما يتوسل بوجه ا لله تعالى في شأن خطـير: وهـو جنـة الخلـد، ورؤية ا لله عز وجل ونحو ذلك من نعـم الآخـرة؛ لمـا رواه أبـو داود عـن جـابر رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((لا يُسأل بوجه ا لله إلا الجنة)).

---

(١) [المائدة: ٨٩/٥].

ويكره للإنسان أن يمنع طلب من سأله با لله تعالى، وإنما يجار ويحقق له مطلبه من صدقة أو إنجاز شيء ممكن، ويعطى بطيب نفس وانشراح صدر لوجه ا لله تعالى، دون أن يتوقع منه مكافأة على ذلك، لما رواه أبو داود والنّسائي بأسانيد الصحيحين، عن ابن عمر رضي ا لله عنهما قال: قال رسول ا لله ﷺ: ((من استعاذ با لله فأعيذوه[1]، ومن سأل با لله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً[2] فكافئوه[3]، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به، فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافأتموه)).

دلَّ الحديث على ندب إجابة السائل شيئاً بوجه ا لله تعالى، فمن سأل شيئاً إيجابياً أو منعه من شيء ضارّ، **فيحقق له مراده**. وهذا بالنسبة لمن يعلم السائل أن المسؤول يمكنه فعل الشيء، ويهتز للإحسان، ويسرع للعطاء، لكن الأولى ترك السؤال بوجه ا لله في تحقيق غرض دنيوي.

أما إن كان السائل يعلم بأن المسؤول يتضجر، فيحرم عليه سؤاله. ويندب له إنجاز الآمال وتحقيق المطالب أو تلبية الرغبات، والإعطاء بسماحة نفس لمن سأل شيئاً با لله تعالى، وتندب إجابة الدعوة، ومكافأة صاحب المعروف على معروفه، برد بدل مالي مقابل عطائه أو هديته، فإن عجز عن ذلك، دعا السائل لصاحب المعروف بأن يجزيه ا لله عنه خير الجزاء، ودلَّ الحديث أيضاً على أن مقابلة الإحسان بالإحسان من أخلاق المسلم.

هذا كله لتدريب الإنسان على الأخلاق الحميدة، والخصال الكريمة، فيمتنع الإنسان من حلف الأيمان في المعاملات، ويجيب من سأله با لله تعالى شيئاً من الأشياء، فالناس بعضهم لبعض خدم وأعوان: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٥/٤].

---

(١) أي: من سأل بالله بأن يجار ويحمى ويمنع من شيء فأجيروه.

(٢) المعروف: اسم جامع لكل خير أو إحسان.

(٣) أي: قابلوا إحسانه مثله أو أفضل منه.

-١٦٩-

بعض المنهيات شرعاً

- ١ -

يركّز الإسلام على تأصيل العقيدة وحمايتها من المعكّرات أو الشبهات، من أجل إبقاء معنى الأُلوهية على نحو متميز غير مختلط بشيء من الشرك، فلم يُجز إطلاق الألقاب العظمى على غير الله تعالى، ولا يوصف الفاسق، والمبتدع ونحوُهما بالسيد، لأن السيد المطلق هو الله تعالى، ويكره سبُّ الحُمّى لما في السَّبّ من التَّبرم والسخط على القضاء والقدر الإلهي، ويكره أيضاً سبُّ الريح، لأنها مسخَّرة بأمر الله تعالى، وكذلك يكره سبّ الدِّيك لأنه يوقظ النائمين لأداء الصلاة المفروضة والتهجد أو قيام الليل.

وهذا كله من إرشادات السنة النبوية الصحيحة، وهي:

يحرم وصف السلطان وغيره أو تلقيبه بلقب (ملك الملوك) لما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((إن أخْنَعَ[1] اسم عند الله عز وجل رجلٌ تسمى[2] مَلِك الأملاك)). قال سفيان بن عُيينة: ملك الأملاك مثل: شاهنشاه.

(١) أي: أذل، من الخنوع: وهو الذّل.

(٢) أي: سمى نفسه، أو سماه غيره، ورضي به.

دلَّ الحديث على تحريم وصف المخلوقات بأوصاف العظمة والتقديس التي تصف الإنسان أو العبد بما يتنافى مع حقيقته ووصفه الذاتي: وهو الخضوع والعبودية لله تعالى، وضرورة تحلّيه على الدوام بالتواضع، وإظهار العبودية لله ربّه. قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّها النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥/٣٥].

ويحرم **وصف المنافق والفاسق والمبتدع والكافرَ والملحد** المعارض لوحي الله تعالى في قرآنه، بوصف التعظيم، فلا يقال له: سيِّد، أي: رفيع القدر؛ لما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن بُريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تقولوا للمنافق سيداً، فإنه إن يكن سيداً، فقد أسخطتم[1] ربكم عز وجل)) أي: لا يوصف الضَّال من المنافقين والكفار ونحوهم بوصف فيه تبجيل وتعظيم؛ لأن ذلك يستدعي غضب الله عز وجل، بسبب تعظيم عدوه المتنكر لطاعة ربِّه، المستحق للإهانة والتحقير، فلا يستحق التقدير والاحترام إلا المتواضع لله تعالى بطاعته والتزام حدوده من أوامرٍ ونواهٍ.

ويكره **سبّ الأمراض المضايقة للإنسان** كالحُمّى ونحوها، لأنها توجد بقدرة الله تعالى، ولا يجوز التَّبرم بقدر الله تعالى، ولأن الآلام والأمراض سبب لتكفير السيئات والذنوب، وزيادة الحسنات؛ وذلك لما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ دخل على أمّ السائب - أو أمّ المسيِّب - فقال: ((مالكِ يا أم السائب، أو يا أم المسيِّب تُزَفزفين[2] ؟)) قالت: الحُمّى، لا بارك الله فيها! فقال: ((لا تسبِّي الحُمّى، فإنها تُذهب خطايا بني آدم، كما يُذهب الكير خبَث الحديد))، أي: يكره سبّ الحُمّى: وهي العلّة التي ترتفع بها حرارة الجسم، لأن السَّبْ يذهب أو يزيل الذنوب الصغيرة المتعلقة بحق الله

(١) أي: أغضبتم.
(٢) أي: تتحركين حركة سريعة، والمعنى: ترتعد. ورُوي: ((ترقرقين)).

تعالى، كما يُذهب الكير (آلة نفخ الحداد ناره) الخبث، أي: شوائب المعدن، مع أن الأمراض تكفّر الذنوب والخطايا، ولا مانع من تداويها وعلاجها مع الصبر، فإن العلاج مأمور به شرعاً، لأنه من قبيل اتخاذ الأسباب المطلوبة.

ويكره أيضاً سبّ الريح؛ لأنها تتحرك بقدرة الله تعالى ومشيئته، وإنما السنة حين هبوب الريح الدعاء المأثور، المروي عن الترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن أبي المنذر أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تسبّوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون[١] فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخيرِ ما فيها، وخير ما أُمرتْ به. ونعوذ[٢] بك من شرِّ هذه الريح، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُمرَتْ به)) أي: إن الريح فيها الخير والشَّر، فنرجو الله خيرها: وهو جمع السحاب وتسييره لإنزال الغيث أو المطر، وتسييرها السفن ونحو ذلك. ونستجير بالله من شرِّ الريح العاصفة أو المهلكة.

ويؤيده حديث آخر رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((الريح من رَوْح الله[٣]، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبّوها، وسلوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرِّها)).

وفي معناه حديث رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا عَصَفَت الريح، قال: ((اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرسلت به)).

دلت هذه الأحاديث على كراهة سب الرياح، لأنها مسخرة بأمر الله تعالى فيما خلقت له.

---

(١) أي: من الخوف والاضطراب من شدتها.
(٢) أي: نستجير.
(٣) أي: من رحمته بعباده.

ويكــره **سبّ الديــك**، لأنه يوقــظ النـائمين، فيبــادرون إلى الصـلاة؛ روى أبو داود بإسناد صحيح عن زيد بـن خـالد الجُهـني رضـي الله عنـه قـال: قـال رسول الله ﷺ: ((لا تسبُّوا الدِّيك، فإنه يوقظ للصلاة)).

دلَّ الحديث على كراهة التضجر من صياح الديك وسماع صوتـه، لأنـه ينبِّـه للصلاة، ويرغِّب بما يعين على طاعة الله تعالى.

-١٧٠-

بعض المنهيات شرعاً

- ٢ -

نهى الشرع الإسلامي الحنيف عن كل ما يمس العقيدة، ويسيء إلى الآخرين باتهامهم بالكفر، أو بالسبِّ وبذاءة اللسان وفحش القول، وذلك من أجل إقرار الاعتقاد الصحيح، ونسبة الأمور إلى الفاعل الحقيقي وهو الله تعالى، ومن أجل التعوُّد على عفَّة اللسان، ومنع أذى الآخرين، فضلاً عما يؤدي إليه الكلام الفاحش من كراهية وبغضاء، وحزازات ومنازعات، وتبادل المسبَّات والشَّتائم، لأن لكل فعل ردَّ فعلٍ في الغالب. وهذا ما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة.

ورد النهي عن قول الإنسان: مُطِرْنا بنَوْء كذا، أي: بغياب وسقوط نجم كذا في المشرق أو المغرب، وذلك في حديث (متفق عليه) عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، في إثر سماء[1] كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: ((هل تدرون ماذا قال ربكم؟)) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ((قال: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بي، فأما من قال: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكواكب، وأما من قال: مُطِرْنا بنَوْء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب)).

---

(١) أي: مطر.

أرشد الحديث إلى ضرورة تصحيح الكلام، والاعتقاد، فالاعتقاد الصحيح: أن الفاعل الحقيقي المؤثر في إيجاد الأشياء والحوادث من مطر وغيره هو الله تعالى، فتجب نسبتها إليه. ومن نسب تأثير الأشياء إلى الكواكب والنجوم، كفر بالله وأشرك.

وكان العرب في الجاهلية ينسبون الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط الغائب من الكواكب، أو إلى الطالع منها، وهو النَّوْء وجمعه أنواء، والنَّوْء: سقوط نجم من المَنَازل في المغرب مع الفجر، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً، ما خلا الجبهة، فإن لها أربعة عشر يوماً. وقد فعل بعض الصحابة هذا جهلاً بحقيقة الأمر، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، بهذا التهديد الشديد، ووصفَهم بالكفر.

ويحرم قول الشخص لمسلم: يا كافر؛ لحديثين متفق عليهما:

الحديث الأول: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما[1]؛ فإن كان كما قال، وإلا رجعت عليه» أي: فإن كان المقول له كافراً، فهو من أهلها، وإن لم يكن المقول له كافراً، رجعت الكلمة الموجهة بهذه التهمة على القائل.

الحديث الثاني: عن أبي ذرّ رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدوَّ الله، وليس كذلك، إلا حار عليه» أي: رجع إليه. ومعنى الحديث: من نادى رجلاً بقوله: يا كافر، أو وصفه به، وليس المخاطب كافراً ولا عدواً لله، رجع الاتهام على المنادي أو الواصف. وهذا دليل على تحريم وصف المسلم بالكافر، ومن وصف مسلماً بالكفر، واعتقد كفره، دون دليل واضح أو قاطع عليه، فقد كفر، لأنه جعل الإيمان كفراً.

(١) أي: عاد متلبساً متصفاً بها أو بمعناها.

ويحرم **الطعن بالآخرين دون حق**: وهو القدح والعيب في الأنساب وغيرها، **ويحرم أيضاً لعن غيره، وفحش الكلام**: وهو القول القبيح، **وبذاءة اللسان**: وهو الكلام الساقط واللغو والسَّب، لأن ذلك ليس من صفات أهل الإيمان الكامل، لأن كمال الإيمان بالتحلّي بالأخلاق الكريمة، والتخلّي عن الأخلاق الذميمة؛ روى الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ليس المؤمن بالطَّعّان، ولا اللَّعّان، ولا الفاحش، ولا البذيء)). والطَّعان واللَّعّان: صيغة مبالغة من الطعن (وهو القدح في النسب)، واللعن (وهو الطرد من رحمة الله)، والفاحش: المفحش بالقول السيئ، والبذيء: من البذاء: وهو فحش المنطق، فهو فاحش الكلام. وهذه كلها صفات السفهاء المتجردين من الأدب الكريم.

وفي حديث آخر رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما كان الفحش في شيء إلا شانه[١]، وما كان الحياء في شيء إلا زانه[٢])). دلَّ الحديث على الترغيب والتحلّي بالحياء، لأنه صفة كمال، ويُبعد عن أي عيب ونقصان، كما يدلُّ على الحثّ على ترك الفحش: وهو سوء الكلام الذي يوقع في العيب والنقصان.

هذه وصايا نبوية كريمة لتربية النفس المؤمنة تربية فاضلة، تبتدئ بالتخلي عن المعايب والدناءات، وكلمات السوء والفحش، وتنتهي بضرورة حمل النفس وترويضها على عفة اللسان، وطيب الكلام، فالكلمة الطيبة ذات تأثير نافع طيب، والكلمة الخبيثة ذات تأثير ضارّ، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ، تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثالَ لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٤ – ٢٦].

---

(١) أي: عابه.

(٢) أي: زيَّنه وحسَّنه.

- ١٧١ -

بعض المنهيات شرعاً

- ٣ -

يتدخل الشرع أحياناً سدّاً للذرائع في بعض الأمور الدقيقة التي يكون لها مردود أو أثر شرعي على الإنسان في أسلوبه وطريق مخاطبته الناس وتقديره الاجتماعي، ووصفه نفسه بالخبث، وتسمية الشيء بغير حقيقته، ووصف المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها، فذلك يجرّئ النفس على المعصية، ويفتح مجالاً لوساوس الشيطان.

ومن هذه الأمور: **التقعُّر في الكلام** والتَّشدُّق فيه وتكلُّف الفصاحة، واستعمال غرائب اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم، فذلك شيء مكروه كراهة شديدة، بل هو حرام؛ لمنافاته البساطة في القول، وإخلاله بما يُيَسِّر قبول الكلام، والتأثر بالموعظة الحسنة، وإنما على العكس يؤدي إلى التنفير؛ بدليل ما رواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((هلك المتنطّعون)) قالها ثلاثاً. والمتنطّعون: المبالغون في الأمور، المتعمّقون في الشيء، المتكلّفون البحث عنه، وهو يستعمل في كل تعمُّق قولاً وفعلاً. وكرَّر النبي ﷺ هذه الجملة ثلاثاً للتأكيد في التنفير.

دلَّ الحديث على التنفير من المغالاة في القول أو الفعل، والأخذ بالبساطة دون تكلُّف.

ويؤيده حديثان آخران في المعنى:

الأول: ما رواه أبو داود والترمذي - وقال: حديث حسن - عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله يُبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة)) أي: إن الله يعذِّب المتشدِّق بلسانه في الكلام، والذي يلفه كما تلف البقرة العشب بلسانها.

والحديث الآخر: ما رواه الترمذي - وقال: حديث حسن - عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: ((إن من أحبّكم إلي، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنَكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي، وأبعدَكم مني يوم القيامة: الثرثارون، والمتشدِّقون، والمتفيهقون))، أي: إن من أقرب الناس مجلساً إلى النبي يوم القيامة المتخلِّقين بالأخلاق الحسنة الرَّضية، وإن من أبعدهم مجلساً عن النبي ﷺ الذين يتشدَّقون في الكلام، ويتوسَّعون في التكلُّم بأقصى الفم، ويتفيهقون، أي: يملؤون أفواههم بالكلام.

دلَّت هذه الأحاديث على كراهة التشدُّق والتَّفيهق في الكلام، بل تحريم ذلك؛ لما فيه من بغض الله تعالى، واستحقاق صاحبه للذَّم والخذلان والإهانة.

ويدل هذا أيضاً على التواضع في الكلام والنطق.

ويكره شرعاً أن **يصف المسلم نفسه بالخبث**، لأن الله تعالى كرَّم الإنسان، وطالَبه أن يكون أديباً في القول، حسن اللفظ، مبتعداً عن كل كلام قبيح، للحديث (المتفق عليه) عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: ((لا يقولن أحدكم: خبُثت نفسي، ولكن ليقل: لَقِست نفسي)) أي: لا يقل أحد: خبثت نفسي؛ فوصْفُها بالخبث يتنافى مع تكريم الله للنفس البشرية، وإنما يقول: لَقِست، أي: فسدَت وتعبت.

ويكره أيضاً **تسمية العنب كرماً** منعاً من التشبه بعرب الجاهلية الذين كانوا

يمدحون العنب بهذا الوصف لما يزعمون من إحداث العنب لشاربيها من الكرم، واقتصر النهي على الكراهة، لأنها تسمى في اللغة كرماً، ودليل ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تُسمُّوا العنب الكَرْم، فإن الكرم المسلم)). وفي رواية لمسلم: ((فإنما الكَرْم قلبُ المؤمن)) أي: لا تصفوا العنب بالكرم، فإن المستحق للاسم: هو المسلم، فهو الأجدر بهذا الوصف؛ لأنه مصدر الخير.

وروى مسلم أيضاً عن وائل بن حُجْر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((لا تقولوا: الكرم، ولكن قولوا: العنب، والحَبَلة)) والحبلة: شجر العنب.

دلَّ الحديثان على كراهة إطلاق لفظ (الكرم) على العنب، وقصر اللفظ على المسلم النقي الذي يتميز بخصائص هذا اللفظ.

ويحرم على المرأة أن **تصف محاسن امرأة أجنبية لزوجها** إلا لحاجة أو غرض شرعي كالخِطبة والزواج ونحوه، للحديث (المتفق عليه) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تُباشِر المرأةُ المرأةَ، فتصفها لزوجها كأنه ينظر إليها)) أي: لا تنظر المرأة إلى امرأة أخرى، ولا تمس بشرتها، للتعرف على نعومة جلدها ومحاسنه، ولا تصف محاسن تلك المرأة إلى زوجها، حتى لكأنه يشاهدها لدقة الوصف، لأن الوصف في حكم النظر والمشاهدة. ويحرم على الرجل النظر إلى امرأة أجنبية ومشاهدتها، ويحرم كل ما هو كالنظر، لأنه يؤدي إلى الفتنة، وقد يترتب عليه تطليقها، فتقع المفسدة والضرر. ونقل هذه الأوصاف حرام إلا لغرض أو قصد الزواج. وعلى المرأة ألا تتكشف أمام نساء لا يتورعن في نقل أوصافهن للرجال.

إن هذه المنهيات الشرعية سواء كانت مكروهة أو محرمة إنما هي لمصلحة الإنسان، فقد نهي عنها لما يترتب عليها من مضارّ ومفاسد، وعلى المؤمن اجتنابُ هذه المنهيات الضارّة بالأدب والخُلق والعقيدة.

-١٧٢-

مكروهات الدعاء
والحديث بعد العشاء

يعلّمنا الله تعالى في قرآنه أو في سنّة نبيه ﷺ كل ما يعود علينا بالخير، ويبعدنا عن الشر، سواء في مجال الدعاء والعبادة، أو في مجال العادات، والعقيدة، والأعمال. ففي الدعاء: يطلب الجزم بصيغته تحسيناً للظن با لله تعالى، وثقةً بفضله وكرمه وسعة رحمته، وفي العادات: يطلب انتهاز الفرصة المناسبة للصحة والعمل وتوفير الراحة، ففي راحة الجسم راحة الأعصاب، وصفاء العقل والفكر، ونشاط الإنسان في عمله.

أما **الدعاء فيكره قول الإنسان فيه**: اللهم اغفر لي إن شئت، بل يجزم بالطلب، ويعزم القول، ويُعْظم الرغبة، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((**لا يقولنَّ أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليَعْزِم المسألة، فإنه لا مُكْرِه له**)). وفي رواية لمسلم: ((ولكن ليعزِم، وليُعْظِم الرغبة، فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه)). أي: ليطلب الإنسان ما يريده من ربِّه بصيغة فيها جزم بالطلب، وقوله: ((ليَعزم المسألة)) أي: يجدّ في طلبها ويحسم فيها ويقطعها، وقوله: ((فإنه لا مُكْرِه له)) أي: إن الله تعالى لا يُكرهه أحد، ولا يفعل شيئاً إلا برضاه. ((وليعظم الرغبة))

أي: ليشتد في طلب ما يريد وليبالغ ويلح في مطلوبه، فإن الله لا يعظم عليه أي شيء مطلوب، سواء في شأن دنيوي أو أُخروي.

دلَّ الحديث على بيان مهم في شأن الدعاء، وهو عدم تعليق الطلب على مشيئة الله، لأن الله لا يفعل شيئاً إلا بمشيئته وإرادته.

ويدلُّ أيضاً على ضرورة حسن الظن بالله تعالى في تحقيق الإجابة، وأن تحقيق المطالب مهما عظمت فهي يسيرة على الله سبحانه، فلا يعظُم عليه شيء، ولا يفعل شيئاً إلا برضاه، لأنه سبحانه كامل القدرة والأوصاف، منزَّه عن الإكراه والإجبار من أحد سواه.

ويوضحه حديث آخر (متفق عليه) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت فأجبني، فإنه لا مُسْتكره له)).

أفاد هذا الحديث أيضاً استحباب الجزم في الدعاء والطلب من الله تعالى، وكراهة التعليق على المشيئة، لما في ذلك من استواء حصول المطلوب وعدمه عند الداعي، وإيهام التخفيف على الله، والله لا يُكرهه أحد، ولا يصعب عليه شيء. ومن قصَّر في حق الله تعالى، فلا يمنعه التقصير من الدعاء والإنابة إلى الله، لأن الله عز وجل عفوّ كريم، متسامح سخي، يفتح باب التوبة لجميع عباده، وعلى العبد أن يبادر إلى الطاعة، وتدارك تقصيره.

والله جل جلاله صاحب المشيئة المطلقة، فلا يكون مع هذه المشيئة شيء من مشيئة العبد، لأن مشيئة الله قديمة مطلقة، ومشيئة العبد حادثة نسبية، مقصورة على تعاطي الأسباب، والعزم على الفعل، واختيار تنفيذه إن كان خيراً.

روى أبو داود بإسناد صحيح عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم

فلان))، أي: إن مشيئة الإنسان لا تكون إلا بعد مشيئة الله تعالى، وعلى هذا لا يصح القول: اعتمدنا على الله وعليك، أو ليس لنا إلا الله وأنت، وإنما تستعمل كلمة ((ثم)) الموضوعة للترتيب، أي: لا تكون مشيئة الإنسان إلا بعد مشيئة الله تعالى.

أما **الحديث بعد العشاء**: فإن كان في خير كمذاكرة العلم، والتعرف على مكارم الأخلاق، ومؤانسة الضيف، وطالب الحاجة، فهو مستحب، ومثله الحديث لعذر أو شيء طارئ. أما إن كان الحديث في الملاهي واللغو، فهو مكروه، إن لم يكن فيه فائدة ولا ضرر، وحرام إن كان في شر كالغيبة والنميمة.

وقد دلت الأحاديث على كراهة النوم قبل العشاء والحديث بعدها.

ورد في حديث (متفق عليه) عن أبي بَـرْزة رضي الله عنه: ((أن رسول الله ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء، والحديث بعدها))؛ لأنه ربما ينام فتضيع عليه صلاة العشاء، ويستحب النوم بعد العشاء حتى يستيقظ لأداء صلاة الصبح. وفي هذا حثٌّ على التبكير إلى صلاة الصبح حتى يظفر بمزيد الثواب.

وورد في حديث آخر (متفق عليه) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ صلَّى العشاء في آخر حياته، فلما سلَّم قال: ((أرأيتَكم[1] ليلتكم هذه فإن على رأس مئة سنة لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض اليوم أحد)) وهذا كان قبل وفاته ﷺ. والمراد أن كل من كان موجوداً معروفاً للنبي من الناس سيموت، وقد تحقق ذلك، فكان أبو الطفيل عامر بن واثلة آخر الصحابة موتاً، فإنه مات سنة ١١٠ هـ. وهذا معجزة للرسول ﷺ حيث أخبر عن شيء في المستقبل، ووقع الخبر كما قال.

---

(١) أي: أخبروني، ويراد به الاستفهام والتعجب.

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنهم انتظروا النبي ﷺ فجاءهم قريباً من شطر الليل، فصلّى بهم - يعني العشاء - قال: ثم خطبنا فقال: ((ألا إن الناس قد صلَّوْا ثم رَقَدُوا، وإنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة)).

دلَّ هذا الحديث على إباحة الكلام بعد صلاة العشاء إذا كان في خير أو مصلحة شرعية كتعليم العلم وتعلُّمه. ودلَّ أيضاً على الحثّ على التبكير إلى المساجد، وانتظار الصلاة، ليحصل على مزيد الثواب، والفضل الإلهي: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٦٢/٤].

-١٧٣-

ما يحرم على الزوجة وعلى المقتدي في الصلاة

العلاقة بين الزوجين علاقة قائمة على التعاون والمودة والمحبة، وعلى تجاوب كل من الطرفين مع الآخر، يشاركه في سروره، ويخفف عنه مصابه أو مرضه إن أَلَمَّ به، فالزواج مشاركة وجدانية وعاطفية وجسدية، فإذا كان للرجل رغبة في شيء مشروع، وجب على الزوجة مطاوعة زوجها وتلبية رغبته، وإلا كانت عاصية، مغضبة لربِّها.

ويحرم على الزوجة صوم النفل أو التَّطوع والقربات إلا بإذن زوجها إذا كان موجوداً، أداءً لحقوقه عليها، ويحرم عليها أيضاً إدخال أحد في بيت زوجها إلا بإذنه ورضاه.

ويحرم على **المصلّي المأموم** أن يرفع رأسه من الركوع أو السجود قبل الإمام، أو يركع أو يسجد قبل الإمام، حفاظاً على نظام الجماعة، وشرطِ متابعة المأموم لإمامه في الصلاة.

أما **الشراكة الزوجية**: فتقتضي تحريم امتناع المرأة من أداء حقوق زوجها عليها، للحديث (المتفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول

ا لله ﷺ: ((إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه[١]، فأبت[٢]، فباتَ غضبانَ عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح[٣])) وفي رواية: ((حتى ترجع)) أي تعود عن امتناعها.

دلَّ الحديث على وجود حقوق للزوج على زوجته، وأن من واجب الزوجة تلبية رغبة زوجها إذا دعاها للمعاشرة الزوجية، إلا إذا كان لها عذر كمرض أو حيض أو عبادة مفروضة كصوم رمضان.

فإذا امتنعت الزوجة عن تلبية رغبة زوجها دون عذر، استحقت العقاب، ودعاءَ الملائكة عليها بالطرد من رحمة ا لله، حتى تعود عن امتناعها.

وإذا علمت المرأة أن زوجها لا يغضب من امتناعها، لم تكن آثمة. والأفضل لها الاستجابة لتوثيق المودة والرحمة المتبادلة بينهما.

وتقتضي الشراكة الزوجية أيضاً تحريم صوم المرأة شيئاً من التطوعات أو النوافل إلا بإذنه إذا كان موجوداً، لأن صون حق الزوج مقدَّم على النافلة أو السُّنة، وإذا لم يأذن لها بالصيام جاز له إفساد صومها.

ويحرم أيضاً على الزوجة إدخال أحد إلى بيت زوجها، ولو من محارمها، إلا إذا أذن لها، أو رضي، أو سكت عن ذلك. وهذا مستفاد من حديث (متفق عليه) عن أبي هريرة رضي ا لله عنه أن رسول ا لله ﷺ قال: ((لا يحل للمرأة أن تصوم[٤] ، وزوجها شاهد[٥] إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه)).

وأما **صلاة الجماعة**: فتقتضي متابعة المأموم إمامه في خفضه ورفعه، في ركوعه وسجوده، وقيامه وقعوده، وقراءته وسلامه، فيحرم على المأموم رفع رأسه من

---

(١) أي: إلى النوم معه.

(٢) أي: امتنعت.

(٣) أي: دعت عليها بالطرد من رحمة الله تعالى حتى ترجع عن امتناعها، أو تصبح في نهاية ليلها.

(٤) أي: صوم تطوع غير فرض أو واجب.

(٥) أي: مقيم حاضر غير مسافر.

الركوع أو السجود قبل الإمام، أو أداء الركوع أو السجود قبل الإمام؛ لما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «أما[1] يخشى[2] أحدُكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار، أو يجعل الله صورته صورة حمار[3] ؟!».

أرشد هذا الحديث إلى تحريم سبق المأموم للإمام بركن عملي كالركوع أو السجود أو القيام منهما، ولكن الصلاة تكون صحيحة مع ارتكاب الإثم أو المعصية، إذا فعل المأموم ذلك سهواً، فإن فعل هذا عامداً عالماً بالحكم، حرم فعله، و لم تصح صلاته في مذهب الإمام أحمد، ودليل التحريم: أنه توعَّد عليه بالمسخ، وهو أشد العقوبات.

ويكره للمصلّي مطلقاً، إماماً أو مأموماً وضع اليد على الخاصرة في الصلاة، وهو التخصُّر، لأنه يدل على الكِبْر، وللحديث (المتفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن الخَصْر في الصلاة» أي: نهى عن وضع اليد على الخاصرة، وروى الطبراني والبيهقي: «الاختصار في الصلاة فعل أهل النار» ولا كراهة إن وجد عذر من مرض أو وجع في الجنب ونحوهما.

وكذلك يكره التطابق: وهو وضع اليدين على الفخذين في أثناء قراءة التشهد، وإنما يكون وضعهما في الأدب النبوي على أعلى الفخذين، وتكون الأصابع في محاذاة الركبتين.

إن عناية التشريع الإسلامي بهذه الدقائق من الأحكام دليل واضح على أن الإسلام دين قائم على النظام والترتيب، والمحافظة على وحدة المصلّين شكلاً وموضوعاً، وعلى مراعاة الأدب والاحترام وحسن الامتثال والوقوف بين يدي الله عز وجل.

---

(١) أما: أداة استفتاح.

(٢) أي: يخاف خوفاً قائماً على تعظيم الله تعالى.

(٣) هو كناية عن جعله بليداً على صفة الحمار في البلادة.

-١٧٤-

بعض مكروهات الصلاة

الصلاة تتطلب الخشوع والخضوع لله تعالى، والتأمل والتفكر في مشتملاتها من أذكار في الركوع والسجود، وتلاوة آيات القرآن في الفاتحة وغيرها، وأدعيةٍ في التشهدين: الأول والثاني، وإلقاء السلام في ختام الصلاة، ناوياً المصلي به السلام على من يمينه ثم عن شماله من إنس وجن وملائكة، والإجابة على سلام الإمام وتحيته، في قلبه، وهذا يحقق المقصود من الصلاة؛ لأن للإنسان من صلاته بمقدار ما عقل وخشع منها، فلا يصح وجود شيء شاغل عنها؛ من حركة أو نظرة أو حاجة إلى طعام أو شراب، أو قضاء الحاجة بسبب تراكم البول أو الغائط، أو انشغال بقبر أمام المصلّي، أو مرور شخص أو دابة بين يدي المصلّي، أو غير ذلك.

أما الحاجة إلى الطعام وقضاء الحاجة ونحوهما: فتؤدي إلى الإخلال بتفكير المصلّي، وتصرِفه عنها، وتُفقده الخشوع والتأمل فيما هو فيه، وتشغل القلب بغير الصلاة، فكانت الصلاة في هذه الحالة مكروهة، وإن صحَّت؛ لما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا صلاة[1] بحضرة طعام[2]، ولا وهو يدافعه الأخبثان[3]» وهما البول والغائط.

---

(١) هذا نفي بمعنى النهي، فلا يصلين أحد وهو في هذه الحال، والمراد نفي الكمال لا نفي الصحة.

(٢) أي: بوجود طعام، أو قربه، أو رائحته، أو حاجة شديدة إليه.

(٣) أي: كان بحاجة إلى التبول أو التبرز.

وأما **الحركات**: فمنها **رفع البصر إلى السماء في الصلاة**، وهو شيء مكروه، لمخالفة المصلّي الأدب، وترك الخشوع لله تعالى، والانسياق مع اختلاسة الشيطان الذي يحاول صرف المصلّي عن صلاته بمختلف الأسباب.

وقد ورد حديث يدل على الكراهة، رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما بال[1] أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم)) فاشتدَّ قوله في ذلك[2] حتى قال: ((لَيَنتهُن عن ذلك، أو لَتُخطفَنَّ أبصارهم)).

دلَّ الحديث على كراهة رفع البصر نحو السماء في أثناء الصلاة. أما خارج الصلاة وفي أثناء الدعاء، فيندب رفع البصر إلى السماء.

ويكره **الالتفات في الصلاة لغير عذر**، لما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة، فقال: ((هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد)) أي: سألته عن حكمة النهي عن الالتفات في الصلاة، فقال: هو اختلاس الشيطان، أي: هو الأخذ بسرعة على غفلة.

ويؤكده حديث آخر رواه الترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إياك والالتفات في الصلاة، فإن الالتفات في الصلاة هَلَكة، فإن كان لا بد ففي التطوع، لا في الفريضة)) أي: أحذّرك من الالتفات في الصلاة، فإنه سبب الهلاك، فإن كان لا غنى للمصلّي عنه، فليكن متسامحاً به للضرورة في صلاة التطوع، لا في صلاة الفريضة.

---

(١) أي: ما شأنهم؟

(٢) أي: في الوعيد على رفع البصر أو شخوصه إلى السماء.

دلَّ الحديثان على كراهة الالتفات في الصلاة؛ لما فيه من الغفلة والإخلال بالخشوع، حتى إنه وُصف بكونه اختلاساً من الشيطان، لأنه يستغل غفلة المصلّي، وجعل أيضاً سبباً للهلاك؛ لأنه إعراض عن الله عز وجل.

والالتفات المكروه: هو الحاصل بالوجه، فإن كان لعذر فلا يكره، وإن كان بالصدر فهو حرام، وتبطل به الصلاة، لتحول المصلّي عن استقبال القبلة.

وتحرم الصلاة إلى القبور بقصد استقبالها وكانت من غير حاجز، فإن لم يقصد استقبالها أو وجد حاجز، فلا كراهة. وإذا لم يوجد الحاجز فالصلاة مكروهة، وذلك منهي عنه في السُّنة النبوية.

روى مسلم عن أبي مَرْثَد كنَّاز بن الحُصين رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لا تصلّوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها)). قال فقهاء الشافعية: تجصيص القبر مكروه، والقعود عليه حرام، وكذا الاستناد إليه والاتّكاء.

ويحرم المرور، على غير الطفل أو الطفلة، بين يدي المصلّي، أي: ما بين محل وقوفه وموضع سجوده، ويسن وضع شاخص من عصا أو مخدة أو غيرهما بارتفاع حوالي ٣٠ سم، أو يوضع خط يخطه على الأرض، ولا يبتعد المصلّي عن الشخص أكثر من ثلاثة أذرع، أي بقدر متر ونصف تقريباً، ولا فرق بين الفريضة والنافلة، وهو من الكبائر، ودليل التحريم: ما رواه البخاري ومسلم عن أبي الجُهَيْم عبدِ الله بن الحارث بن الصِّمّة الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لو يعلم المارُّ بين يدي المصلّي ماذا عليه، لكان أن يقف أربعين، خيراً له من أن يمرَّ بين يديه)). قال الراوي: لا أدري قال: أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين سنة.

والحديث دليل واضح على حرمة المرور بين يدي المصلّي في المسجد، وكذا في غير المسجد إن كان يصلي إلى سترة من عصا أو خط وغيرهما، فإن لم يكن أمامه سترة، لم يحرم المرور أمامه مطلقاً، أي: في غير المسجد.

إن معرفة هذه الأحكام ضرورية لكل مصلٍّ وغير مصلٍّ، حتى لا يقع أحدهما أو كلاهما في مكروه أو حرام، والحرام يوقع في الإثم، والمكروه فيه العتاب.

ويكره شروع المصلّي في صلاة النافلة بعد البدء بإقامة الصلاة المفروضة أو قرب إقامتها، لما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((إذا أُقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة)) أي: تكره الصلاة بعد الشروع في إقامة الصلاة المفروضة، للمحافظة على كمال الصلاة المفروضة في جماعة، وتوحيداً لصف المسلمين، واستثنى أبو حنيفة ومالك صلاة سنة الصبح فإنها تصلى بعد إقامة الصلاة، إلا إذا خاف فوات الركعة الأولى.

-١٧٥-

مكروهات أو محرَّمات في الصيام وغيره

لكل شيء في الإسلام نظام، سواء في العبادة أو في المعاملة من عقود وغيرها، والسنةُ التَّقيد بهذا النظام، وتركه يكون بدعة منكرة، ففي الصلاة مكروهات كما تقدم، وكذا في الصيام مكروهات، يندب تجنبها اتّباعاً للسُّنة، ففي اتّباع السُّنة خير وفضل ورحمة، وفي اقتراف البدعة انحراف وضلال.

ومن **مكروهات الصيام: تخصيص يوم الجمعة بصيام، أو ليلته بصلاة إلا** إذا وافق ذلك عادة للصائم، أو وفاء بنذر، كمن يصوم يوم عاشوراء، أو من يصوم يوماً ويفطر يوماً؛ لما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((لا تَخصُّوا ليلة الجمعة بقيام[1] من بين الليالي، ولا تخصّوا يوم الجمعة بصيام من الأيام، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم)).

ويؤكده حديث (متفق عليه) عن أبي هريرة أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لا يصومن أحدكم يوم الجمعة، إلا يوماً قبله أو بعده)) أي: إلا أن يصوم معه يوماً قبله، وهو الخميس، أو يوماً بعده، وهو السبت.

دلَّ الحديث على كراهة إفراد يوم الجمعة بصيام، وكذلك يكره إفراد السبت والأحد بصيام.

---

(١) أي: بقيام الليل.

وورد حديث آخر (متفق عليه) عن محمد بن عَبّاد قال: سألت جابراً رضي الله عنه: ((أنَهَى النبي ﷺ عن صوم الجمعة؟ قال: نعم)) أي: نهى النبي ﷺ عن إفراد يوم الجمعة بالصوم.

وفي حديث رابع مؤكد لما سبق رواه البخاري عن أم المؤمنين جُويرية بنت الحارث رضي الله عنها: أن النبي ﷺ دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة، قال: ((أصُمْتِ أمس؟ قالت: لا، قال: تريدين أن تصومي غداً؟ قالت: لا، قال: فأفطري)).

دلَّت هذه الأحاديث الأربعة على كراهة تخصيص يوم الجمعة بالصيام، وتخصيص ليلتها بالقيام، وذلك لمخالفة غيرنا في تخصيص يوم السبت والأحد بشيء من العبادة. وتزول الكراهة بإحدى حالتين:

١ – أن يوافق يومُ الجمعة سبباً مشروعاً كنذر أو تاسع ذي الحجة (يوم عرفة).

٢ – أن يضمَّ له صوم يوم الخميس قبله أو صوم يوم السبت بعده.

ويحرم **الوصال في الصوم** بأن يصوم يومين فأكثر، دون أن يأكل أو يشرب بينهما، لحديثين ثابتين في هذا:

الأول – (متفق عليه) عن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما: ((أن النبي ﷺ نهى عن الوصال)) أي: وصل الليل بالنهار دون تناول طعام أو شراب.

والحديث الثاني – (متفق عليه) أيضاً، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((نهى رسول الله ﷺ عن الوصال. قالوا: إنك تواصل؟ قال: إني لست مثلكم، إني أُطعَم وأُسقى)) أي: لستُ مثل أحدكم في التكليف والقدرة، فالله تعالى يجعلُ فيّ قوة، كأني أُطعم وأُسقى. وهذا من خصوصيات النبي ﷺ، ولا يُقتدى به فيها، فله مواصلة الصيام؛ لأن الله تعالى يمنحه القوة والصبر والتحمل، دون غيره من الناس. وقد دلَّ الحديثان على حرمة الوصال في الصوم بالنسبة للأمة.

ومما يتعلق بغير الصيام: **تحريم الجلوس على القبر**؛ لما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لأن يجلس أحدكم على جَمْرة، فتُحرَق ثيابه، فتخلص إلى جلده[١]، خير له[٢] من أن يجلس على قبر)). دلَّ الحديث على تحريم الجلوس على القبر، ورجح ابن حجر الهيتمي أنه مكروه. والوعيد محمول على من يتبول أو يتغوط على القبور.

ويكره تجصيص[٣] القبر والبناء عليه، كما يفعل أكثر الناس اليوم؛ لما فيه من إضاعة المال من غير فائدة، ولما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: ((نهى رسول الله ﷺ أن يجصَّص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنى عليه)) وإذا وصل تزيين القبر إلى حد الإسراف، من زخرفة، وبناء مرتفع، ورخام، كان ذلك حراماً. والحديث دليل على كراهة البناء على القبر، لما فيه من تعظيم وإضاعة مال، وكراهة الجلوس على القبر، لما فيه من إهانة.

إن نظام الإسلام في عباداته يدلُّ على إعطاء كل ذي حق حقه، فيوم الجمعة لأداء الفريضة وسماع الخطبة، فلا يخصص بعبادة أخرى في يومه أو ليلته، تفرّغاً للأهم المطلوب، وكذلك يدلُّ هذا النظام على الحفاظ على مقدرة الإنسان وصحته، ويسر الدين وسماحته، فلا يجيز الوصال في الصوم؛ منعاً من الوقوع في المشقة والضرر من غير جدوى أو فائدة. ويدلُّ أيضاً على حماية كرامة الإنسان سواء في الحياة أو بعد الممات، وعلى صون المال من الضياع والهدر، فيحرم الجلوس على القبر أو الاستناد إليه أو الاتّكاء عليه تكريماً للميت، ولا يجيز تجصيص القبر منعاً من إضاعة المال، ولا البناء عليه لما فيه من شبهة التعظيم، أي ينبغي ترك ذلك لكراهة هذا العمل.

---

(١) أي: يصل حرقها.

(٢) أي: أقل ضرراً عليه.

(٣) أي: تبييضه بالجص أو الكلس.

-١٧٦-

التحذير من المخالفات الشرعية

أقام الإسلام نظاماً منضبطاً لحياة الإنسان، مراعاة لمصلحته وحفظ شؤونه، وأرشده إلى الخير والمعروف فيما أمره به، ونهاه وحذره من الشر والمنكر، منعاً من إلحاق الضرر والسوء به، فإذا فعل المأمورات وأطاع الله تعالى فقد نجا وسلم، وإذا تورط بالمحظورات أو المنهيات، فقد هلك وخسر. وكل أمر أو نهي لا فرق فيه بين الفرد والجماعة، والواحد والقرية والمدينة والأمة.

وهذه المعاني: هي التي من أجلها رغّب الله تعالى فيما أمر، وحذّر ونفّر مما نهى عنه وزجر، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ[1] أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/٦٣]، وقال سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ[2]، وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبادِ﴾ [آل عمران: ٣/٣٠]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ بَطْشَ[3] رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ٨٥/١٢]. وفي آية منذرة إنذاراً عاماً: ﴿وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١١/١٠٢].

---

(١) أي: اختبار وامتحان.

(٢) أي: يخوفكم الله من عقابه.

(٣) أي: عقابه وأخذه بعنف لأعدائه.

ولا فرق بين أوامر الله ومنهياته، وأوامر رسوله وتحذيراته؛ لأن المصدر واحد، والسنة والقرآن يكمِّل أحدهما الآخر. ورد في حديث (متفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((إن الله تعالى يغار، وغيرةُ الله: أن يأتي المرء ما حَرَّم الله عليه)) أي: إن الله يغضب، ويأبى ارتكاب الفواحش والمنكرات والمضار، ففي المخالفة أو اقتحام المعصية تحدٍّ لمراد الله، واختراقُ أمره، واقتحام لما نهى عنه، وتورُّط فيما حرَّمه.

أرشد هذا الحديث إلى التحذير من الوقوع في الفواحش والمحرَّمات الإلهية؛ لأن التورُّط في أحدها موجب لغضب الله وعقابه، والله عز وجل يغضب إذا انتهكت حرماته.

وطريق التخلص من وباء المعصية، والنجاة من شرر الفاحشة، والإصغاء لوساوس الشيطان: هو المبادرة إلى الاستغفار والتوبة، والعودة إلى جادة الاستقامة، وتذكر خطر المخالفة، فيعود المرء إلى رشده، ويحمي نفسه ومصلحته من الدمار والهلاك.

وهذا المنهاج السديد: هو ما أرشد إليه الله تعالى؛ للعناية بأمر عباده، ومحبة الخير والسلامة لهم، وذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠/٧] أي: إن تعرضت لوسوسة الشيطان بالفساد والإفساد، والنزغ: هو الوسوسة بالسوء، فتحصَّنْ بالله تعالى والجأ إليه ليحميك، ويهديك إلى سواء الصراط.

ومنها قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١/٧] أي: إن المؤمنين الأسوياء الذين يخافون ربَّهم إذا أصابهم وسوسة من الشيطان بالانحراف والعصيان، تذكروا

الله ووعيده، ومخاطر العمل الذي يقدمون عليه، فإذا هم مدركون الحق والخير، مبصرون العواقب والمساوئ.

ومن هذه الآيات قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُولَئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٣٥ – ١٣٦] أي: إن الذين يرتكبون بعض كبائر الذنوب كالسرقة والزِّنا والقتل وشرب الخمر، أو يظلمون أنفسهم بالاعتداء على حقوق غيرهم، أو يجنون على أنفسهم باقتراف الشَّر، يذكرون جلال الله ووعيده، ويخافون من عقابه، فيبادرون إلى التوبة والاستغفار، ولا غافر للذنوب إلا الله تعالى، ولم يكن إدمان أو استمرار أو إصرار على المعاصي، وهم يعلمون مخاطرها، هؤلاء لا غيرهم لهم مغفرة من ربِّهم، وجنات تجري من تحت بساتينها الأنهار، مع الخلود والسعادة.

ومن آياته تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٢٤/٣١].

هذا ما يفعله أو يقوله العاصي بعد معصيته، وجاء في الحديث (المتفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((من حلف، فقال في حلفه باللات، والعزى[1]، فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك، فليتصدق)) أي: أقبل لأراهنك، والقمار: المراهنة، فعليه صدقة لمجرد هذا القول.

دلَّ الحديث على حرمة الحلف بالأصنام، فعلى الإنسان أن يجدد إيمانه، ودلَّ أيضاً على حرمة الدعوة إلى القمار، وكفارة ذلك: التوبة والتصدق، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ [هود: ١١/١١٤].

---

(١) اللات: صنم لثقيف بالطائف. والعزى: صنم لقريش وبني كنانة كان بوادي نخلة.

-١٧٧-

من علائم آخر الزمان

سيكون في آخر الزمان علامات على قرب القيامة وانتهاء الدنيا، وتلك العلامات: هي فتنة واختبار، منها ظهور الدَّجال الذي يمكث في الأمة الإسلامية أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً، وهو رجل يهودي الأصل، لقّب بالدَّجّال لشدة تدجيله وكذبه، وقدرته على طمس الحق بالباطل، ثم يبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام، فيطلبه، فيهلكه، ويقتله عند باب اللُّد في فلسطين، ثم يمكث الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله عز وجل ريحاً باردة من قِبَل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، ويبقى شرار الناس، كما روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وروى مسلم أيضاً عن أم شَريك رضي الله عنها: أنها سمعت النبي ﷺ يقول: ((لَيَنْفِرَنَّ الناس من الدَّجّال في الجبال)) أي: ليهربن الناس من الدَّجال كراهية له.

وجاء في حديث (متفق عليه) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: ما سأل أحدٌ رسول الله ﷺ عن الدَّجال أكثرَ مما سألته: وإنه قال لي: ((ما يضرُّك)) قلت: إنهم يقولون: إن معه جبلَ خبز، ونَهَر ماء، قال: ((هو أهونُ على الله من ذلك)).

ومن صفاته: ما ورد في حديث (متفق عليه) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذّاب، ألا إنه أعور، وإن ربَّكم عز وجل ليس بأعور، مكتوب بين عينيه: كَ فَ رَ)).

ومن العلائم البارزة الحاسمة: انتصار المسلمين على اليهود، ورد في حديث (متفق عليه): أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة، حتى يقاتل المسلمون اليهود، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم! هذا يهودي خلفي، تعال فاقتله، إلا الغَرْقَد[1]، فإنه من شجر اليهود)). هذا الحديث من مغيبات الأخبار التي يجب الإيمان بها، ولا بد من وقوعها، في زمان الله أعلم به، وهو دليل على ثبوت القتال بين المسلمين واليهود، وانتصارنا عليهم.

وأما نطق الشجر والحجر: فيتم بقدرة الله بخلق النطق في الجماد والنبات.

ومما سيقع في آخر الزمان: انتشار المصائب والآلام، وازدياد الشرور والآثام، فيتمنى الرجل أن يكون في عداد الأموات. جاء في حديث (متفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده، لا تمرُّ الدنيا حتى يمرَّ الرجل بالقبر، فيتمرغ عليه[2]، فيقول: يا ليتني مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدِّين[3]، ما به إلا البلاء)). وهذا من إخباره ﷺ عما سيكون في آخر الزمان من المصائب والبلايا والمحن.

ومن إخبار النبي ﷺ عن مستقبليات الأحداث الغيبية التي لا تعرف إلا بعد ظهورها: ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يَحْسِرَ الفرات عن جبل من ذهب يُقْتَتل

(١) الغرقد: نوع معروف من شجر الشوك، وهو المعروف بشجر العُلّيق.

(٢) أي: يتقلب.

(٣) أي: لا يتمنى الموت لسبب راجع إلى الدِّين والإيمان، وإنما لما فيه من مصائب.

عليه، فيُقْتَل من كل مئة تسعة وتسعون، فيقول كل واحد منهم: لعَلّي أن أكون أنا أنجو)).

وفي رواية: ((يوشك أن يحسِر الفرات عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً)) أي: إن هذا المال مشبوه، لا يصح أخذه، لأنه يسبب القتال، والبعد عنه أسلم.

ومن عجائب أخبار المستقبل: ازدياد المال في آخر الزمان، حتى إن بعض الخلفاء يعطي المال بغير عدّ ولا حساب، روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((يكون خليفةٌ من خلفائكم في آخر الزمان، يحثو المال، ولا يعدُّه)) أي: سيكثر المال أحياناً، فتجد الخليفة يعطي المال بسخاء، ولا يحصيه ولا يعدُّه لكثرته.

ويؤيده حديث آخر رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب، فلا يجد أحداً يأخذها منه؛ ويُرى الرجلُ الواحد يتبعُه أربعون امرأة، يَلُذن به من قلة الرجال، وكثرة النساء)). أي: إنه قد يأتي زمن، لا يجد فيه الغني من يأخذ صدقته، لكثرة المال، ويقل فيه الرجال، ويكثر النساء، لسبب من الأسباب، مما يؤدي إلى خلل في النسبة بين الجنسين.

-١٧٨-

من عجائب الأخبار

في أواخر الزمان تنقلب المفاهيم، وتتغير الرؤى والمعالم، وتحدث أحداث عجيبة وغريبة، ويفوَّض الأمر فيها لله تعالى وحكمته البالغة، ويضجُّ الناس، ويصعب تفسير تلك الأخبار، فالأمر كله ومردّه إلى الله تعالى. وقد أخبر النبي ﷺ عن تلك الأحوال في المستقبل بتعليم الله ووحيه له، منها: ما رواه البخاري عن مِرْداس الأسلمي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((يذهب الصالحون، الأول فالأول، ويبقى حُثالة كحثالة الشعير - أو التمر - لا يباليهم الله بالةً)) أي: لا يقيم لهم وزناً ولا قدراً.

أفاد الحديث أنه قد يأتي زمن ينعدم فيه أهل الصلاح والخير والاستقامة، حتى لا يبقى إلا فئة رديئة من أهل الجهل، تقوم عليهم الساعة.

ومن هذه العجائب: ما ورد في حديث (متفق عليه) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا أنزل الله تعالى بقوم عذاباً أصاب العذابُ من كان فيهم، ثم بُعثوا على أعمالهم)) أي: إن العقاب الشامل إذا وقع، عمَّ البرَّ والفاجر، مما يقتضي ترك مجالسة أهل المعاصي، ثم إذا بعثوا من قبورهم يوم القيامة، يبعثون بحسب أعمالهم ونواياهم وأحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا.

ومن معجزات نبيِّنا التي لمسها الصحابة الكرام: حنين الجذع الذي كان النبي يقف بجانبه أثناء الخطبة، ثم تركه، فسُمع أنين صوته، لابتعاد النبي عنه، روى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: كان جِذْع[1] يقوم إليه النبي ﷺ، يعني في الخُطْبة، فلما وُضع المنبر[2]، سمعنا للجذع مثل صوت العِشَار[3]، حتى نزل النبي ﷺ، فوضع يده عليه، فسكن)).

وفي رواية: ((فلما كان يومُ الجمعة، قعد النبي ﷺ على المنبر، فصاحت النخلة التي كان يخطُب عندها، حتى كادت أن تنشق)).

وفي رواية: فصاحت صياح الصبي، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها، فضمَّها إليه، فجعلت تئنُّ[4] أنين الصبي الذي يُسَكَّت، حتى استقرت، قال: ((بكت على ما كانت تسمع من الذِّكْر)). قال البيهقي: قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة التي نقلها الخلف عن السلف. وقد حدث هذا بعد بناء المنبر سنة سبع بعد الهجرة، أو سنة ثمان. وهذا الصوت في الجمادات يحدث بخلق الله تعالى وقدرته.

ومن التحذيرات النبوية من أوضاع بعض الناس: ضرورة اليقظة والانتباه لما يتعرض له المرء من خداع عدو، أو شهوة نفس، أو إغراء دنيا، ورد في حديث (متفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: ((لا يلدغ المؤمن من جُحْر مرتين)) أي: لا يصاب المؤمن الفطن من مكان أو شخص مرتين، وإنما يحذر مكمن الخطر أو الضرر. وهذا تنبيه وتحذير ليكون المؤمن يقظاً فطناً محتاطاً في الأمور، فلا يكون متغافلاً أو ساذجاً يؤخذ بالظواهر، ولا يفطن للبواطن.

---

(١) جذع: ساق النخلة.
(٢) أي: أقيم المنبر في المسجد النبوي.
(٣) العشار: النوق، مفردها عُشَراء: وهي الناقة الحامل في الشهر العاشر.
(٤) أي: تُصوِّت.

وعلى المؤمن أن يبتعد عن قبائح الأمور، وعن القسوة، والحرص على المصلحة المادية، والنفعية والانتهازية. ففي حديث (متفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم[1]، ولهم عذاب أليم: رجلٌ على فضل ماء بالفلاة، يمنعه من ابن السبيل. ورجل بايع رجلاً سلعةً بعد العصر، فحلف بالله لأَخَذها بكذا وكذا، فصدَّقه وهو على غير ذلك. ورجل بايع إماماً، لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وَفَى، وإن لم يُعْطه منها لم يفِ)). استنكر النبي ﷺ مواقف ثلاثة أشخاص:

الأول: من يبخل على مسافر بإعطائه ماءً زائداً عن حاجته في الصحراء.

والثاني: البائع الذي يبيع سلعة في آخر النهار، فيكذب ويحلف أنه اشتراها بثمن وهو كاذب.

والثالث: الرجل الذي يعاهد إماماً حاكماً على مناصرته وطاعته لغرض دنيوي، فإن حقق غرضه المادي، وفى بالعهد، وإن لم يحقق غايته، لم يفِ بعهده.

دلَّ الحديث على تحريم هذه المواقف الدالة على البخل وانعدام الرحمة في القلب، وترك تعظيم الله والاستهانة باسم الله، وأخذ المال بالباطل، وخساسة المعاهد الذي يغش الإمام الحاكم.

ومن أخبار القيامة الرهيبة: أن فترة ما بين نفختي الصعق والبعث أربعون سنة، كما دلَّ حديث ثابت، وأن الناس يَفْنون بعد الموت إلا رأسَ العصص في أسفل الظهر، وهو الذي يقال له: عَجْب الذَّنَب. روى البخاري ومسلم عن

---

(١) أي: ثلاثة أصناف من الناس لا يكلمهم الله كلام بر ولطف ورحمة، ولا ينظر إليهم نظر رحمة، ولا يطهرهم من الذنوب.

أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بين النفختين أربعون، قالوا: يا أبا هريرة! أربعون يوماً؟ قال: أَبَيْتُ[١]، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبَيْتُ، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ. ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عَجْب ذَنَبه، فيه يُرَكَّب الخَلْق[٢]، ثم يُنزِّل الله من السماء ماء، فيَنْبُتُون، كما ينبُتُ البقل[٣]». فيه دلالة على كيفية الإعادة يوم القيامة، ويستثنى من الفناء: الأنبياء والشهداء والعلماء الصالحون.

---

(١) أي: امتنعت من الجزم بوقت معين.

(٢) أي: إن هذا العظم لا يفنى، ويبقى لإعادة تركيب الإنسان منه.

(٣) البقل: النبات الأخضر.

-١٧٩-

من أسرار التشريع وأخبار القيامة

من خصائص شريعة الإسلام: الاعتدال في الأوامر، وقلة التكاليف، وترك الحرج والمشقة والعسر، فما فرضه الله يجب احترامه، وما حده أو منعه لا يجوز اختراقه وتجاوزه، وما حرَّمه فلا يفعل، وما سكت عنه فهو عفو.

ومن خصائص الإسلام: التحذير من أهوال القيامة، وتنمية الخوف من الله تعالى، وترك الفساد والخيانة وإثارة الفتنة، وإضاعة الحقوق، والاعتداء على الآخرين.

أما أسرار الشريعة الإسلامية في تشريع الأحكام: فيجمعها حديث نبوي حسن رواه الدارقطني وغيره عن أبي ثعلبة الخشني، جُرْثوم بن ناشر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيِّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمةً لكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها)).

جمع هذا الحديث هيكل التشريع الإسلامي. فإن الله تعالى فرض فرائض كالصلاة والصيام والحج والزكاة، فلا تضيَّع، بتركها أو الإخلال بها، وحدَّ الحدود المقررة والمقدرة لهذه الأحكام كأوقات الصلاة والصيام ومقاديرها،

وقدَّر عقوبات للمنهيات، فلا يزاد عليها ولا ينقص. وحدود الله: أحكامه وأوامره ونواهيه، فتحترم ولا تنتهك، وسكت عن أشياء من غير إيجاب ولا تحريم، فتبقى على أصل الإباحة الشرعية، فلا يسأل أحد وقت النبوة عما لم يقع، ويلتزم شرع الله على النحو المشروع.

ولا يُسْألُ عن وقت الساعة أو القيامة، وعلى كل مؤتمن الحفاظ على موجبات الأمانة وترك تضييعها وإسناد الأمور إلى غير أهلها، روى البخاري عن أبي هريرة قال: بينا النبي ﷺ في مجلس، يحدِّث القوم، جاء أعرابي، فقال: متى الساعة[١] ؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدِّث، فقال بعض القوم: سَمِع ما قال، فكرِه ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه، قال: «أين السائل عن الساعة؟» قال: ها أنا يا رسول الله. قال: «إذا ضُيِّعَت الأمانة[٢] فانتظر الساعة»، قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» أي: إذا أسند الأمر إلى غير الأكفياء من الناس، وأسندت الوظائف لغير الصالحين، فانتظر قيام القيامة، لأن في ذلك إفساداً وفوضوية وتعطيلاً للحقوق والكفاءات.

وقد يهيئ الله أسباب الهداية والسعادة لبعض الناس، بظروف قهرية في مبدأ الأمر، واختيارية في نهاية المطاف، فيكون الخير لهؤلاء؛ روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «عجب الله عز وجل من قوم يدخلون الجنة بالسلاسل» معناه: يؤسرون، ويقيَّدون، ثم يسلمون باختيارهم، فيدخلون الجنة. هذا الأسر إن شقَّ على الأسرى، فقد يكون ذلك طريقاً للظفر برضوان الله ودخول جناته بالمبادرة إلى الدخول في الإسلام، حين يجدون حسن المعاملة، ومحاسن الإسلام.

---

(١) أي: متى وقت القيامة؟

(٢) أي: التكاليف الشرعية.

والعاقل هو الذي يحرص على العيش في بيئة نقية تكون مصدر إشعاع الخير والسلامة والنجاة، وهي المساجد، ويبتعد عن البيئة التي تغلب عليها المطامع والأهواء والشهوات، والشياطين، وهي الأسواق، روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها)) أي: إن أفضل البقاع وأحبَّها إلى الله هي المساجد بيوت الله التي يذكر فيها اسم الله كثيراً، وتصلى فيها الصلوات، ويتلى فيها القرآن الكريم، فتذكّر الداخل إليها بخصال الخير والتقوى. وأبغض الأماكن إلى الله: أسواق البيع والشراء، لأنها مواضع الغفلة عن الله، والخداع، والغش، والكذب، والطمع والجشع.

ومن سياسة الدخول إلى الأسواق: ألا يكون الإنسان أول من يدخلها، ولا آخر من يخرج منها، ولا يكثر من ارتيادها، روى مسلم عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: لا تكونَنَّ - إن استطعت - أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشيطان، وبها ينصِب رايته.

ورواه البَرْقان في صحيحه عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تكن أول من يدخل السوق، ولا آخرَ من يخرج منها، فيها باض الشيطان وفرَّخ)) أي: إن الأسواق محل الفسق والمعاصي والخداع، والشيطان يقيم فيها ليوسوس إلى الناس بالباطل، فيكره الإكثار من ارتياد الأسواق، حتى لا يتعرض المرء للإثم والوقوع فيه.

فما أجدر الإنسان بأن يبادر لمواطن الصلاح والخير، والتذكير بما هو أهدى سبيلاً، ويبتعد عن مواطن الشَّر والإثم والغفلة عن ذكر الله تعالى.

-١٨٠-

مواعظ عملية

إن كل إنسان يتعرض لمشكلات كثيرة، وأحوال عصيبة، لا ينفعه إلا الاستمساك برباط الخير، وهو الحياء، والحفاظ على حقوق الآخرين، بصون الكرامات والدماء، والخوف من الله تعالى، وتذكُّر الطبيعة البشرية، والإقبال على طاعة الله تعالى، والحذر من وساوس الشيطان وإغراءاته.

وهذه طائفة من الوصايا والمواعظ العملية المفيدة في كل وقت.

- روى البخاري عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت» أي: إن صفة الحياء من أهم وصايا الأنبياء، ومبادئهم الملازمة لرسالاتهم، من بدء الخليقة في عهد آدم عليه السلام، إلى خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ، فمن لازم صفة الحياء في الأقوال والأفعال، نجا وسلم، ومن سقط عنه خلق الحياء، وقع في المعاصي والمحرَّمات، واستمرأ كل شيء من حلال أو حرام؛ إذ لم يبق لديه رادع ولا زاجر. وحينئذ يجب الحذر، والإقبال على المألوف المعروف المقبول لدى الناس، فيفعل ما يحقق السلامة، ويبتعد عن كل ما يعيب أو يشين. وإن التبس الأمر على الإنسان، حكّم شرع الله، فيفعل كل مالا يستحيا منه، ويبتعد عما يصادم ذلك.

ومما يجب اجتنابه: الاعتداء على حق الحياة أو سفك دماء الناس أو جَرْحُهم أو تقطيعُ بعض أعضائهم؛ للحديث المتفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((أول ما يُقضى بين الناس يومَ القيامة في الدماء)).

دلَّ الحديث على تعظيم حرمة النفس الإنسانية، وخطر الاعتداء عليها، فإن أول ما يُحاسب عليه الناس يوم القيامة من حقوق العباد: هو جنايات إراقة الدماء، وقتل النفس عمداً بغير حق.

ويحسن معرفة طبائع المخلوقات؛ لأنها ذات صلة بالأعمال والأقوال، روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار[1]، وخُلق آدم مما وصف لكم)) أي: من طين. هذا دليل على قدرة الله تعالى على الخلق، فهو سبحانه المتفرد بخلق ما يشاء مما يشاء، وهذا دليل وجوده. والتزام أخلاق القرآن والإسلام فيه الخير والنجاة والاستقامة، روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((**كان خُلُق نبي الله ﷺ القرآن**)) أي: إن النبي ﷺ تميز بالخلق العظيم، فهو صاحب الخلق الكريم، والمثل الأعلى في الخلق، ومصدر أخلاقه هو تعاليم القرآن الكريم: يحلُّ حلاله ويحرِّم حرامه، ولا يتجاوز حدوده.

والمستقيم مطمئن النفس، يحب لقاء الله، والضال يكره لقاء الله، روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كَرِه لقاء الله كره الله لقاءه)) قلت: يا رسول الله! أكراهيةَ الموت[2]؟ فكلنا نكره الموت. قال: ((ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بُشر برحمة الله ورضوانه وجنته، أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه! وإن الكافر إذا بشِّر بعذاب الله وسخطه، كره لقاء الله، كره الله لقاءه)).

(١) أي: خلق عالم الجن، ومنهم إبليس، من نار لا دخان لها.

(٢) أي: أتحسب كراهية الموت؟!

أرشد الحديث إلى الحثّ على بنود طاعة الله والإخلاص فيها، وأن ثوابها وفضلها هو الاستبشار بنعيم الآخرة وإكرام الله له.

والشيطان يوغر الصدور، ويوسوس بالسوء، ويحرِّض على إساءة الظن، فيجب الحذر منه ومن مكائده، ورد في الحديث (المتفق عليه) عن أم المؤمنين: صفية بنت حُيَيّ رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً[١]، فأتيته أزورُه ليلاً، فحدَّثته ثم قمت لأنقلب[٢]، فقام معي ليقلبني، فمرَّ رجلان من الأنصار رضي الله عنهما، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا. فقال ﷺ: ((على رِسْلكما[٣] إنها صفية بنت حُيي)) فقالا: سبحان الله، يا رسول الله! فقال ((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكم شرّاً - أو قال: شيئاً)) أي: إن الشيطان يلازم الإنسان، ويكثر منه الإغواء والوسوسة، وإني خفت أن يلقي في قلوبكم شيئاً من سوء الظن.

دلَّ الحديث على وجوب التحرز من سوء الظن، ومن مكائد الشيطان. وهذا إيصاد لباب السوء وسد لذرائع الفتنة، فكل شيء ضارّ يبدأ من طريق أو فاتحة تؤدي إليه.

(١) أي: مقيماً في المسجد.
(٢) أي: لأعود إلى منزلي.
(٣) أي: تمهّلا.

-١٨١-

شؤون عامة

إن أساس الكسب هو الحلال لا الحرام، والطيب لا الخبيث، والمعول في قبول الأعمال والدعاء، والبركة في العمر والرزق: هو الطعام المباح، والمشرب المباح، والقوت المباح، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أيها الناس! إن الله طيب[1]، لا يقبل إلا طيباً[2]، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾ . ثم ذكَر الرجل يطيل السفر[3] أشعث أغبر[4]، يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغُذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك)). أي: فكيف يستجاب دعاؤه مع هذه الحال؟

دلَّ الحديث على أن طيب الرزق: هو ما كان من كسب حلال، وأن من أهم أسباب عدم إجابة الدعاء: هو أكل المال الحرام، ومن أهم أسباب إجابة الدعاء: أكل المال الحلال.

ويكره الله تعالى **ويغضب على ثلاثة أصناف من الناس**، مذكورين في حديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاثة لا

---

(١) أي: منزّه عن النقائص.

(٢) لا يقبل التقرب إليه إلا بحلال الكسب.

(٣) أي: في العبادة.

(٤) أشعث: متفرق الشعر، وأغبر: مغبر الوجه.

يكلّمهم ا لله يوم القيامة، ولا يزكّيهم[١] ، ولا ينظر إليهم[٢] ، ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملِك كذّاب، وعائل مستكبر)).

دلّ الحديث على كراهية هؤلاء الأصناف الثلاثة؛ لارتكابهم المعصية دون وجود دواعيها أو مسوغاتها، فكان عصيانهم تحدياً وتعنّتاً واستهانة بجلال ا لله تعالى.

ومن سماحة الإسلام وترغيبه في الاجتهاد في الدين **إثابة المصيب بثوابين، والمخطئ بثواب واحد**، ورد في حديث (متفق عليه) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنه سمع رسول ا لله ﷺ يقول: ((إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم واجتهد، فأخطأ، فله أجر)). أي: إذا قضى القاضي أو المجتهد في مسألة، وبذل جهده في فهمها وتقرير حكمها، فأصاب، فله أجران على اجتهاده: أجر لجهده، وأجر لصوابه، وإن أخطأ، فله أجر واحد، فهو في كلا الحالين مأجور، تشجيعاً له.

وإذا تعرض الإنسان **لأحد أمراض الحميات** التي ترتفع فيها حرارة الجسم، أبرده بالماء، لحديث (متفق عليه) عن عائشة رضي ا لله عنها: أن النبي ﷺ قال: ((الحمّى من فيح جهنم[٣] ، فأبردوها بالماء)) فيه استحباب إسالة الماء البارد على رأس المحموم وأعضائه، لتلطيف حرارة المصاب بالحمى، وهذا طب نبوي، وهو ما يزال معمولاً به في الطب الحديث باستعمال الكمّادات.

ويجوز لقريب الميت الصيام عن قريبه إذا ترك صوماً واجباً، أو يخرج عن كل يوماً مدّاً من طعام (المدّ: ٦٧٥ غم) للحديث (المتفق عليه) عن عائشة رضي ا لله عنها: عن النبي ﷺ قال: ((من مات وعليه صوم صام عنه وليه)) قال النووي رحمه ا لله: والمختار جواز الصوم عمن مات وعليه صوم، لهذا الحديث. والمراد بالولي: القريب، وارثاً كان أو غير وارث. أما الأجنبي فلا يصوم إلا بإذن القريب.

---

(١) أي: لا يطهرهم الله من الذنوب.
(٢) أي: لا ينظر إليهم نظر رحمة.
(٣) أي: من شدة أو قوة حرّها.

ويجوز الدعاء للشهداء، كما فعل النبي ﷺ مع قتلى أُحد، ورد في حديث (متفق عليه) عن عُقْبة بن عامر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خَرج إلى قتلى أُحد، فصلَّى عليهم[(١)] بعد ثمانِ سنين، كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم طلع إلى المنبر فقال: ((إني بين أيديكم فَرَط[(٢)]، وأنا شهيد عليكم، وإن موعدكم الحوض[(٣)]، وإني لأنظر إليه من مَقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تَنَافسوها)) قال: فكانت آخرَ نظرة نظرتُها إلى رسول الله ﷺ.

وفي رواية: ((ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تَنَافسوا فيها، وتقتتلوا فتَهْلِكوا كما هلك من كان قبلكم)) قال عقبة: فكان آخر ما رأيتُ رسول الله ﷺ على المنبر.

وفي رواية قال: ((إني فَرَط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أُعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها)).

دلَّ الحديث على استقرار عقيدة التوحيد، وعلى النهي الشديد عن التنافس في أحوال الدنيا، فقد فتح الله للنبي ﷺ أبواب الدنيا، فزهد فيها، وآثر الآخرة على الدنيا.

ويجب الوفاء بالنذر في الطاعة؛ لما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: ((من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)).

أرشد الحديث إلى وجوب الوفاء بالنذر إذا كان في طاعة الله، وترك الوفاء بنذر المعصية، لعدم انعقاده.

(١) المراد بالصلاة على قتلى أحد بعد دفنهم: الدعاء لهم، لا صلاة الجنازة.
(٢) أي: سابق لكم.
(٣) هو الحوض المورود في الجنة.

-١٨٢-

أحداث مهمة وغريبة

- يجوز للمؤمنين والمؤمنات الاستغفار والدعاء لرسول الله ﷺ تعظيماً له من ربِّه، وعنايةً به، وزيادةً في درجته، مع أنه معصوم لا ذنب له؛ لما رواه مسلم عن عاصم الأحول عن عبد الله بن سَرْجَس رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! غفَر الله لك، قال: ((ولك)) قال عاصم: فقلت له: أستغفر لك رسول الله ﷺ؟! قال: نعم، ولك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[١] .

أفاد الحديث مشروعية الدعاء للرسول عليه الصلاة والسلام بالمغفرة، لتعظيم الله له. وقد بادر هذا الصحابي بهذا الدعاء، فقابل النبي ﷺ الحسنة بمثلها.

- ويباح بل يندب **قتل الحشرات السامة** والدواب المؤذية، للحديث (المتفق عليه) بين البخاري ومسلم عن أم شَرِيك رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ أمرها بقتل الأوزاغ[٢] ، وقال: ((كان ينفخ على إبراهيم))، وهذا النفخ إما حقيقة أو كناية عن إيذائه للإنسان.

---

(١) محمد: ١٩/٤٧

(٢) الأوزاغ: جمع وزَغ: وهو حشرة سامة مؤذية.

ويؤكده حديث آخر في معناه رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قتل وَزَغة في أول ضربة، فله كذا وكذا حسنة، ومن قتلها في الضربة الثانية، فله كذا وكذا حسنة دون الأولى، وإن قتلها في الضربة الثالثة فله كذا وكذا حسنة)).

وفي رواية: ((من قتل وَزَغاً في أول ضربة كتب له مئة حسنة، وفي الثانية دون ذلك، وفي الثالثة دون ذلك))، قال أهل اللغة: الوَزَغ: العظام من سامٍّ أبرص.

دلَّ هذا على استحباب قتل الحشرة المؤذية وجميع الحشرات المؤذية كالحية والعقرب، وكذا الدواب الضارَّة كالكلب العقور والطيور الجارحة.

وأباح الإسلام **الصدقة على السارق والزاني والغني**، فربما كان ذلك سبباً لتوبتهم وعدولهم عن جرائمهم. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((قال رجل[1] : لأتصدقن بصَدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على سارق! فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدَّثون: تُصُدِّق الليلة على زانية! فقال: اللهم لك الحمد، على زانية! لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على غني؟! فقال: اللهم لك الحمد، على سارق، وعلى زانية، وعلى غني!!

فأُتي، فقيل له[2] : أما صدقتك على سارق، فلعله أن يستعفَّ عن سرقته، وأما الزانية، فلعلها تستعفَّ عن زناها، وأما الغني، فلعله أن يعتبر، فيُنفقَ مما آتاه الله)).

---

(١) أي: ممن كان قبل المسلمين.

(٢) أي: في المنام.

دلَّ الحديث على أن للمتصدق الأجر، بحسب نيته، ولو كانت الصدقة على من لا يستحقها، ما دام يجهل حاله أو يقصد قصداً حسناً.

وثبت في حديث طويل (متفق عليه) بين البخاري ومسلم ما يدل على إثبات الشفاعة العظمى للنبي ﷺ في جميع الخلائق لتقديمهم للحساب، وتخليصهم من أهوال يوم القيامة، وهو مروي عن أبي هريرة، تضمَّن في أوله اعتذار أشهر الأنبياء عن الشفاعة: وهم آدم أبو البشر، ونوح أول الرسل إلى الأرض، والذي قد سماه الله عبداً شكوراً، وإبراهيم الخليل أبو الأنبياء، وموسى وعيسى عليهم السلام. وقال آخرهم وهو عيسى عليه السلام:

اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، وفي رواية: «فيأتوني فيقولون: يا محمد! أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غَفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر. **اشفع لنا** إلى ربِّك. ألا ترى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله علي من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي. ثم يقال: يا محمد! ارفع رأسك. سَلْ تُعطه، واشفع تُشفَّع، فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا ربِّ، أمتي يا ربِّ، أمتي يا ربِّ، فيقال: يا محمد! أدْخِلْ من أمتك من لا حساب عليهم[١] من الباب الأيمن من أبواب الجنة[٢]، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب - ثم قال -: والذي نفسي بيده، إن ما بين المِصْراعين[٣] من مصاريع الجنة، كما بين مكة وهَجَر، أو كما بين مكة وبُصْرى[٤]».

ومن الأحداث المهمة: أن **إبراهيم الخليل عليه السلام** زار إسماعيل عليه السلام في مكة بعد موت أم إسماعيل (هاجر) فتزوج امرأة من قبيلة جُرْهم بن

(١) وهم سبعون ألفاً.

(٢) هي ثمانية أبواب.

(٣) أي: جانبي الباب.

(٤) هجر: بلد في البحرين، وبُصرى: في محافظة حوران جنوب دمشق.

قحطان، فلم يجده؛ لذهابه إلى الاكتساب أو الصيد، فسأل امرأته عن عيشهم وهيئتهم، فقالت - فيما روى البخاري عن ابن عباس -: ((نحن بشرّ، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك اقْرَئي عليه السلام، وقولي له: يغيِّر عتَبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألَنا عنك، فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرْته أنّا في جُهد وشدّة، قال: فهل أوصاكِ بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيِّر عَتَبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلَّقها، وتزوج منهم (أي: من جُرْهم) أخرى. ثم جاء إبراهيم مرة أخرى بعد مدة، فدخل على امرأته فسأل عن ابنه إسماعيل، قالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء))، وفي رواية قال: ((اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم)) وقال إبراهيم لامرأة إسماعيل حينما أخبرته أنهم بخير: ((اقرئي عليه السلام، وقولي له: ثبِّت عتَبة بابك. قال إسماعيل: أنت العتبة، أمرني أن أمسكك)).

يتبين من الفرق بين الحالتين أن إبراهيم عليه السلام أمر ابنه بطلاق زوجته، لما رأى من تبرُّمها من قضاء الله وخشيته سريان ذلك إلى ابنه. وفي الحالة الثانية: أمره بتثبيت امرأته وإمساكها لما حمدت الله وأنهم بخير.

-١٨٣-

الحث على الاستغفار

- ١ -

الإنسان مجبول على النقص والقصور، والخطأ والتهور، فاقتضت رحمة الله وفضله أن يُعالَج ذلك بفتح باب التوبة والاستغفار باللسان،، لمسح آثار الخطيئة أو الذنب، وهو أمر سهل، وطريق يسير. وما أكثر الأوامر الشرعية بالاستغفار، تدريباً للناس وتعليماً، وذلك في أحوال كثيرة، و لم يُستثن أحد من هذا الأمر، حتى النبي المصطفى ﷺ. قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩/٤٧]، وقال سبحانه: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: ١٠٦/٤] أي: اطلب من الله غفران الذنوب، وذلك باعتبار هذا النبي قائد الأمة، وإن لم يكن له ذنب لعصمته منه. وقال عز وجل: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوّاباً﴾ [النصر: ٣/١١٠]. وقال جلَّ جلاله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَذابَ النّارِ، الصّابِرِينَ وَالصّادِقِينَ وَالْقانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحارِ﴾ [آل عمران: ١٥/٣ - ١٧].

دلَّت هذه الآيات على حثّ المذنب وتحريضه على التوبة والاستغفار، فإن الله غفور رحيم إذا أقبل العبد على ربِّه نادماً، وذنب الإنسان صغير أمام عفو الله الواسع، وفضله الكبير.

وكان النبي ﷺ أول أمته أو سيد المستغفرين. روى مسلم عن الأغرّ المزني رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((إنه[١] ليُغان على قلبي[٢]، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة)). وهذا من النبي ﷺ تعليم لأمته، وأما النبي فهو معصوم من الذنوب، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ويؤكده حديث آخر رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((والله! إني لأستغفر الله، وأتوب إليه، في اليوم أكثر من سبعين مرة)). والتأسِّي بالرسول ﷺ مطلوب شرعاً، ويتطلب الاستغفار الإقلاع أولاً عن الذنب، وصدق التوبة والندم.

وشأن العبد التورط في الذنب أحياناً، فيكون الاستغفار جلاء لما وقع في النفس من معكّرات وتوبيخات ومحاسبة ضمير.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا، لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقوم يُذنبون، فيستغفرون الله تعالى، فيَغْفِر لهم)). وهذا أيضاً ترغيب في الاستغفار، الذي به يمسح أثر الذنب، وتَحْسُن به الصلة بالله عز وجل.

وتتوالى الأحاديث في الحثّ على الاستغفار، منها ما رواه أبو داود، والترمذي - وقال: حديث حسن صحيح - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة: ((ربِّ اغفر لي وتُبْ

(١) أي: الشأن.

(٢) أي: ليتعرض قلبي لغشيان السهو كشأن كل البشر، فكأنه ذنب وتقصير.

إنك أنت التواب الرحيم)). وهذا تعليم لنا بأن يختم الدعاء بالثناء المناسب على الله، فيقال بعد طلب المغفرة والرحمة: إنك أنت التواب الرحيم. ويقال بعد طلب الجزاء الحسن: إنك أنت الجواد الكريم.

ومن هذه الأحاديث: ما رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((من لزِم الاستغفار، جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كلِّ همّ فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب)) أي: من داوم على الاستغفار، جعل الله له من كل شدة سبيلاً للنجاة، ومن كل همّ أو حزن ما يزيل عنه سببه، من حيث لا يتوقع ولا ينتظر. مما يدل على أن للاستغفار نفعاً محققاً في الدنيا والآخرة.

وما أوسع فضل الله وكرمه وإحسانه، حيث جعل ثواب الاستغفار غفران الذنوب والسيئات، وإن كانت من الكبائر. روى أبو داود، والترمذي والحاكم - وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيَّ القيوم[1]، وأتوبُ إليه، غُفِرت ذنوبه، وإن كان قد فَرَّ من الزَّحْف)) أي: وإن هرب من صف المعركة مع العدو، ومن المعلوم أن الفرار من الزحف أحد الكبائر السبع. هذا الثواب السخي على مداومة الاستغفار يدل على فضل الله، وعلى أن رحمة الله وسعت كل شيء.

ترشد هذه الأحاديث إلى ما يحقق الخير والفضل للإنسان، وعلى أن الإنسان ضعيف، يقترف الذنب، ثم يدرك مخاطره وعواقبه الوخيمة، فيندم، فلا يجد غير باب الله تعالى ملجأ وموئلاً للصفح والعفو وكفارة الذنب، وذلك بالاستغفار المتكرر في كل يوم صباح مساء.

(١) أي: الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظهم.

- ١٨٤ -

الحث على الاستغفار

- ٢ -

لا يأس ولا إحباط في الإسلام، وإنما باب الله مفتوح في أي وقت أمام أي إنسان في العالم، ما دام في حال الحياة الطبيعية قبل أن تصل الروح إلى الحلقوم، وذلك بالاستغفار والندم والإقلاع عن الذنب وترك المعصية. وهذا ما دوَّنته الآيات القرآنية الكثيرة ومنها:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: ٤/١١٠]، ومنها: ﴿وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً[١] أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى ما فَعَلُوا[٢] وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/١٣٥]. وهذا دليل على أن شرط قبول الاستغفار: الإقلاع عن الذنب، لأن المستغفر من ذنبه، والعائد إليه كالمستهزئ بربِّه.

ويستحب للإنسان المداومة يومياً على الدعاء الجامع لمعاني التوبة كلها، وهو ما يعرف بالسُّنة النبوية: **سيِّد الاستغفار**، وهو ما رواه البخاري عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «سيِّد الاستغفار: أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما

---

(١) أي: خصلة قبيحة.

(٢) أي: لم يبقوا على ذنوبهم.

استطعت، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت، أبوء[١] لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها في النهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة. ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة)).

وقبول الاستغفار مشروط بصدق التوجُّه إلى الله تعالى، والإخلاص، والأدب مع الله تعالى، والندم على الذنب، والإقلاع عنه، والتصميم على عدم العودة إليه. فإن الذنب ذنب العبد نفسه، والرَّب الكريم غفور رحيم لمن رغب في المغفرة والإنابة.

وهناك **صيغة للاستغفار** بعد الصلاة: وهي مروية عند الإمام مسلم عن ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً، وقال: ((اللهم أنت السلام[٢] ، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام)) قيل للأوزاعي – وهو أحد رواته – كيف الاستغفار؟ قال: يقول: أستغفر الله، أستغفر الله.

ومن **أوراد الاستغفار** المكررة: ما ورد في حديث (متفق عليه) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته: ((سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه)). دلَّ على استحباب الاستغفار والتوبة، مع الإكثار من أفعال الخير، أواخر العمر، لوصية الله لرسوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ [النصر: ١١٠/٣]. والجمع بين الاستغفار والتوبة للتأكيد، ولقوله تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً﴾ [هود: ١١/٣].

ومن **أعظم فوائد الاستغفار**: غفران الذنوب مهما كثرت أو كبرت؛ لما رواه الترمذي – وقال: حديث حسن – عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول – أي في الحديث القدسي –: ((قال الله تعالى: يابن آدم، إنك ما

(١) أي: أقرّ وأعترف.

(٢) أي: أنت مصدر السلام والأمان من كل نقص.

دعوتني ورجوتني[١] غفرت لك على ما كان منك ولا أُبالي. يابن آدم، لو بلغت ذنوبُك عَنان السماء[٢]، ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبالي. يابن آدم، إنك لو أتيتني بقُراب[٣] الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقُرابها مغفرة)) أي: إن الدعاء الخالص لله والرجاء (التأمل) الصادق يكون سبباً لأمور ثلاثة: غفران الذنوب من الله دون اكتراث بها أو بكثرتها، وتكفير الخطايا مهما كثرت، إذ لا يتعاظم الله منها شيء، وتجاوز الذنوب ومغفرتها ولو كانت ملء الأرض التي تقابل مِلأها ذنوباً إذا وجد التوحيد، وعدم الإصرار، لأنه توبة خالصة. وهو دليل على سعة فضل الله ورحمته، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر: ٥٣/٣٩].

والنبي ﷺ حثَّ النساء على الإكثار من الاستغفار والإنابة إلى الله، والصدقة، كما حث الرجال. روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((يا معشر النساء تصدَّقنَ، وأكثرنَ من الاستغفار، فإني رأيتُكن أكثر أهل النار)) قالت امرأة منهن: مالنا أكثرَ أهل النار؟ قال: ((تُكثرن اللعن، وتكفُرن العشير[٤]. ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلبَ لذي لُبّ[٥] منكن)) قالت: ما نُقصان العقل والدين؟ قال: ((شهادة امرأتين بشهادة رجل[٦]، وتمكث الأيام لا تصلي)) فيه استحباب وحضّ النساء على الصدقة والاستغفار لتكفير الخطايا. وليس المراد بنقصان العقل والدين ملامة المرأة، أو الغض من أهليتها ومقدرتها، فهي مثل الرجل، ولكن المراد غلبة عاطفتها عليها، والتخفيف عنها شرعاً بسبب العادة الشهرية.

---

(١) أي: مدة دعائك، وحال رجائك، أي: تأمل الخير، و (ما) مصدرية ظرفية.

(٢) أي: السحاب، أو ما ظهر لك.

(٣) هو ما يقارب مِلأها.

(٤) أي: الزوج، أي: تجحدن إحسانه ومعروفه.

(٥) أي: لصاحب عقل.

(٦) السبب: هو نقصان الخبرة بشؤون المعاملات المالية، وتأثُّر المرأة بعواطفها.

-١٨٥-

ثواب المؤمنين في الجنة

الخلود الأبدي في جنان الخلد: هو حلم الملايين من البشر، ومطمح الإنسان السعيد الذي يملأ روحه ونفسه حناناً واطمئناناً، وسعادة، وشكراً على نعمة المولى عز وجل، لذا تغنى الشعراء والأدباء والكُتّاب بهذا الحُلم العذب، ولكن الكثيرين منهم لم يفكّروا في الثمن الذي يقدمونه لهذا الأمل المشوق، وهم يعلمون أنه لا تنال المطالب بمجرد التَّمني، وإنما لا بدَّ من توافر قاعدة صلبة وهي الإيمان با لله تعالى وحده لا شريك له، والترجمة العملية بالقول واللسان والعبادة المعبرة عن الطاعة، وذلك لا يكون إلا لأهل الإيمان الذين يعملون الصالحات.

وقد بشَّر ا لله تعالى - وهو الصادق المصدوق - عباده المتقين بجنان الخلد، في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ[1]، ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ، وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ[2] إِخْواناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ[3]، لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ[4] وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ١٥/٤٥ - ٤٨]، ومنها قوله عز وجل: ﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) أي: عيون ماء.

(٢) أي: حقد وعداوة.

(٣) أي: متواجهين؛ ليأنس بعضهم ببعض.

(٤) أي: تعب وعناء.

بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ[١]، يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ[٢] مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ[٣] وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ[٤]، وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٦٨ - ٧٣].

وتتبدل الأحوال والطبائع البشرية في الجنة، فلا فضلات للبشر، وإنما تزول الفضلات بالتعرق والرشح، ويهضم الطعام بلطف من غير فضلة، بدليل ما روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((يأكل أهل الجنة فيها، ويشربون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، ولا يبولون، ولكن طعامهم ذلك جُشاء كرشح المسك، يُلْهَمون التسبيح والتكبير، كما يلهمون النَّفَس)) أي: يتولد عن طعامهم رائحة طيبة كالمسك، لا رائحة كريهة كما في الدنيا. والجُشاء: تنفس المعدة من غير رائحة كريهة، يرشح من الأجسام رشحاً ذا رائحة طيبة كالمسك. وتلهج ألسنتهم بالتسبيح والتحميد والتكبير كتنفسهم من غير عناء ولا تكلُّف.

دلَّ الحديث على ما يُنعم الله تعالى به على أهل الجنة من ألوان النعيم والخلود الأبدي من غير موت، ولا سأم، ولا يصدر عنهم إلا الروائح الطيبة كروائح المسك أو الطيب.

ويسترسل الخيال في وصف نعيم الجنة من غير توصل إلى تصور صحيح، أو إدراك واقع قائم مشابه لما في الدنيا، للحديث (المتفق عليه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله تعالى: أعددتُ لعباديَ الصالحين مالا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/١٧].

أرشد الحديث إلى أن نعيم الجنة يفوق كل تصور وكل نعيم، وفيه من السرور الدائم الذي لا يوصف.

---

(١) تسرُّون.
(٢) أي: أواني الطعام.
(٣) جمع كوب: وهو قدح لا عروة له.
(٤) أي: تسرُّ برؤيته.

ومواكب أهل الجنة بحسب مراتبهم أو درجاتهم، يتقدمهم الزمرة العليا أهل الأنوار كالقمر ليلة البدر[١]، ثم أهل النور كالكواكب الدرِّية، ثم الأمثل فالأمثل؛ لما رواه الشيخان: البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دُرّي[٢] في السماء إضاءةً، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يَتْفلون، ولا يمتَخِطون. أمشاطهم الذهب، ورَشْحُهم المسك، ومجامرهم[٣] الأُلوّة[٤] - عود الطيب - أزواجهم الحور العين، على خَلْق رجل واحد[٥]، على صورة أبيهم آدم: ستون ذراعاً في السماء)).

أفاد الحديث أن أهل الجنة ليس لهم صفات نقص، ولذاتهم متتالية متفاضلة، ونعمهم متتابعة، لا انقطاع لها.

وفي رواية للبخاري ومسلم: ((آنيتهم فيها الذهب، ورَشْحهم فيها المسك. ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مُخّ سوقهما[٦] من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم قلب رجل واحد، يسبِّحون الله بكرة وعشياً)) أي: إنهم يتمتعون بنعم فريدة، آنية طعامهم الذهب، وفضلاتهم ترشح من أجسادهم، لا يحملون حقداً ولا ضغينة ولا عداوة، ولا تحاسد بينهم، ولا اختلاف؛ لأنه نزع من قلوبهم الصفات الذميمة من غل، أي: حقد ونحوه؛ لأن هذه الصفات توجد في عالم الدنيا، بسبب النزاع على الموارد القليلة، ولا حاجة لذلك في الآخرة، فإن نعم الجنة متكاثرة، مأمونة الانقطاع، وافية من غير عناء بحوائج أهل الجنة قاطبة، وشاملة ومتجددة دون أي هم أو قلق في تحصيلها.

---

(١) أي: ليلة النصف من الشهر - ليلة الخامس عشر.

(٢) هو النجم الشديد الإنارة أو الإضاءة.

(٣) جمع مجمرة: وهي المبخرة.

(٤) عود البخور.

(٥) أي: كأنهم رجل واحد. وفي رواية: ((على خُلُق رجل واحد)).

(٦) المخ: ما في داخل العظم. والسوق: جمع ساق: وهو من القدم إلى الركبة، والمراد وصفها بالصفاء والتميز.

-١٨٦-

ألوان النعيم في الجنة

- ١ -

النعيم المادي هو مطمح أكثر الناس العاديين، فجاء وصف ألوان النعيم في الجنة: محققاً لهذه الرغبات، ولأن أغلب المنازعات والمنافسات في الدنيا إنما هي بسبب الحرص الشديد على التوصل لهذه الرغبات. أما الذين تسمو أرواحهم ولا يلتفتون إلى الماديات فهم قلة قليلة، وهؤلاء يجدون في النظر لوجه الله الكريم خير متعة، وأفضل وأسمى من جميع أنواع نعيم الجنة المادية.

والمتع المادية: هي الشغل الشاغل للإنسان في حياته، يُعَوَّضها في عالم الآخرة من غير أي تعب أو معاناة بفضل من الله ورحمة ورضوان، قال الله تعالى واصفاً هذه النعم لمن تروقه ويعنى بها: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ[١]، فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ، يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ[٢] وَإِسْتَبْرَقٍ[٣] مُتَقابِلِينَ، كَذَلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ[٤]، يَدْعُونَ فِيها[٥] بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ، لا يَذُوقُونَ فِيها الْمَوْتَ إِلاّ

---

(١) أي: في مكان يأمنون فيه من كل مكروه.

(٢) هو رقيق الحرير.

(٣) هو غليظ أو سميك الحرير.

(٤) أي: نساء بيض نقيات، واسعات الأعين حسانها.

(٥) أي: يطلبون فيها.

الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ، فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٤٤/٥١ - ٥٧].

وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ، عَلَى الأَرائِكِ[١] يَنْظُرُونَ، تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ[٢]، يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ[٣]، خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ، وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ[٤]، عَيْناً يَشْرَبُ بِها الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٢/٨٣ - ٢٨].

ونعيم الجنة: يتميز بالتنوع والتجدد والكثرة والسعة الفريدة، والامتداد والاتساع الذي لا نظير له في الدنيا، روى مسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: ((سأل موسى عليه السلام ربَّه: ما أدنى أهل الجنة منزلةً؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أُدخل أهل الجنةِ الجنةَ، فيقال له: ادخلِ الجنة، فيقول: أيْ ربِّ! كيف وقد نزل الناس منازلَهم، وأخذوا أخَذَاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثلُ مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ ربِّ، فيقول: لك ذلك ومثلُه ومثلُه ومثله ومثلُه، فيقول في الخامسة: رضيت ربِّ، فيقول: هذا لك وعَشْرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذَّت عينك، فيقول: رضيتُ ربِّ. قال[٥]: ربِّ، فأعلاهم منزلةً؟ قال: أولئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتهم بيدي[٦]، وختمت عليها[٧]، فلم ترَ عينٌ، ولم تسمع أُذن، ولم يخطر على قلب بشر)).

أرشد الحديث إلى بيان منزلة أهل الجنة، الأدنى (الأقل) والأكثر، فأدناهم: له من النعم أكثر من عشرة أمثال ما يملكه ملك الدنيا، أو الدنيا كلِّها.

---

(١) أي: الأسِرَّة.
(٢) أي: بهجته ورونقه.
(٣) الرحيق: أجود الخمر غير المسكرة، إناؤه مختوم لا يفكه إلا الأبرار أصحابه.
(٤) عين في الجنة.
(٥) أي: موسى عليه السلام.
(٦) أي: بمحض قدرتي، من غير توسط أحد.
(٧) أي: طبعتها، لئلا يراها غيرهم.

وهذا مؤكَّد أيضاً في حديث آخر (متفق عليه) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخِر أهل النار خروجاً منها - أو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة - رجل يخرج من النار حَبْواً[١]؛ فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيُخَيَّل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا ربِّ! وجدتها ملأى! فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيُخَيَّل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا ربِّ! وجدتها ملأى! فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثلَ الدنيا وعَشْرة أمثالها - أو إن لك مثل عَشْرة أمثال الدنيا! فيقول: أتسخرُ بي؟ أو تضحك بي - وأنت الملك؟» قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضَحِك حتى بدت نواجذه[٢]، فكان يقول: «ذلك أدنى أهل الجنة منزلةً».

وهذا الحديث كالذي قبله يدل على أن لأدنى أهل الجنة رتبةً عَشْرةَ أمثال الدنيا ونعيمها.

وبَيْت الجنة كاللؤلؤة العظيمة جداً، التي لا مثيل لها في الدنيا، للحديث (المتفق عليه) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمةً[٣] من لؤلؤة واحدة، مُجوَّفة[٤]، طولها في السماء ستون ميلاً! للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن، ولا يرى بعضهم بعضاً». والميل: ستة آلاف ذراع، أو ثلاثة آلاف متر، وفي تلك الخيمة: لا يرى بعض الناس بعضاً؛ لمزيد سعتها، وتباعد مواضع أهلها.

دلَّ الحديث على عظمة موجودات الجنة، وأوضاع نعيمها الباهرة البديعة الجمال.

---

(١) أي: زحفاً.

(٢) أي: أنيابه، أي: ضحك ضحكاً كاملاً.

(٣) الخيمة: بيت من بيوت الأعراب، المعروفة.

(٤) أي: مثقوبة من الداخل.

-١٨٧-

ألوان النعيم في الجنة

- ٢ -

إن عطاء الله تعالى وجودَه لا يحده حد، ولا يقيِّده قيد، يرزق الله في الدنيا المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ويخص برحمته وفضله في الآخرة أهل التقوى بنعم عجيبة وكثيرة، مادية وروحية. فمن نعمه المادية في الآخرة: الاستظلال في الجنة بظلال الأشجار، والتمتع بجريان الأنهار، والإقامة في الفردوس الأعلى بالنسبة للصفوة المؤمنة العالية، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً، خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً﴾ [الكهف: ١٨/١٠٧ - ١٠٨] أي: تحولاً عنها وانتقالاً، وهل يطلب إنسان شيئاً غير هذه النعم الكثيرة والمتنوعة؟! لاسيما إذا قورنت بألوان العذاب والشقاء والهلاك في نيران جهنم.

ففي شجر الجنة: روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((إن في الجنة شجرةً يسيرُ الراكبُ الجوادَ المضمَّرَ[1] السريعَ مئة سنة، ما يقطعها[2])).

---

(١) أي: الحصان الذي يخفّف لحمه؛ ليقوى على الجري.

(٢) أي: لا يتجاوز ظلها لكبرها واتساعها.

وفي رواية أخرى في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((يسير الراكب في ظلّها[١] مئة سنة ما يقطعها)) أي: يسير تحت أغصانها، لا أن في الجنة شمساً أو حرّاً.

دلَّ الحديث على عظم أشجار الجنة الدالة على قدرة الله الفائقة.

- **وفي تفاوت درجات أهل الجنة:** قال الله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣/٣]. وورد الحديث (المتفق عليه) عن أبي سعيد الخدري أيضاً عن النبي ﷺ قال: ((إن أهل الجنة ليتراءَوْن أهل الغُرَف من فوقهم، كما تَرَاءون الكوكبَ الدّريَّ الغابرَ في الأفق[٢]، من المشرق أو المغرب؛ لتفاضُل ما بينهم)) قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغُها غيرهم؟ قال: ((بلى والذي نفسي بيده! رجال آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلين)).

أفاد الحديث وجود تفاوت في درجات الجنة بحسب الفضل، وأهل الدرجات العليا يراهم من دونهم كالنجوم، ومن فضل الله أن المؤمنين الصالحين مع الأنبياء في هذه الدرجات العالية.

- **ومقدار ربع متر مثلاً في الجنة** خير من الدنيا كلها، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((لقابُ قوسٍ[٣] في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب)) أي: إن الموضع الصغير في الجنة خير مما طلعت عليه شمس الدنيا أو غربت.

---

(١) الظل أعم من الفيء؛ لأنه يشمل ظل الليل وظل الجنة وكل مكان لا شمس فيه. أما الفيء: فهو ما زالت عنه الشمس.

(٢) أي: تنظرون النجم المضيء الذاهب في السماء.

(٣) أي: قدر ما بين المقبض والسِّية، وهو ما عطف من طرفي القوس.

- **وفي حسن أهل الجنة وجمالهم:** روى مسلم عن أنس رضي ا لله عنه: أن رسول ا لله ﷺ قال: ((إن في الجنة سوقاً يأتونها كلَّ جُمُعة، فتهُبُّ ريح الشَّمال[1]، فتحثو[2] في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم، وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم: وا لله! لقد ازددتم حسناً وجمالاً! فيقولون: وأنتم وا لله، لقد ازددتم بَعْدَنا حسناً وجمالاً)).

دلَّ الحديث على ما يتحلى به أهل الجنة من جمال وبهاء، وتحابب وتوادد فيما بينهم. وكلمة السوق تذكَّر وتؤنَّث.

- **وفي علو غرف الجنة:** قال ا لله تعالى عن عباد الرحمن: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً﴾ [الفرقان: ٢٥/٧٥]، وفي حديث (متفق عليه) عن سهل بن سعد رضي ا لله عنه: أن رسول ا لله ﷺ قال: ((إن أهل الجنة ليَتراءون[3] الغُرَف في الجنة، كما تراءون الكوكب في السماء)). وهو في معنى حديث الخدري السابق.

- **وفي أوصاف أهل الجنة:** روى مسلم عن سهل بن سعد رضي ا لله عنه قال: شهدت من النبي ﷺ مجلساً وَصَف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: ((فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ثم قرأ: ﴿إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ، تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ، فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/١٥ - ١٧].

---

(١) هي التي تهب من دبر القبلة، وخصت بالذكر لأنها ريح المطر في عرف العرب.
(٢) أي: تنتثر.
(٣) أي: ليشاهدون.

دلَّ هذا الحديث على بشائر عظيمة للمتقين في جنان الخلد، وما تشتمل عليه من فضل الله ونعيم الجنة الذي لا يوازيه نعيم في الدنيا، من أجل الحض على التزام الطاعة، وفعل الخير والمعروف، وكل ذلك من الله تعالى عناية بعباده ومحبة الخير لهم، وإرشادهم إلى الطريق القويم، وحينئذ يظفرون بالجنة ذات الأوصاف التي لا تخطر ببال.

-١٨٨-

ألوان النعيم في الجنة

- ٣ -

إن أقصى ما يتمناه الإنسان: حياة خالدة، وصحة دائمة، وشباب وحيوية، ونِعم لا تنقطع، وسرور غامر، وتحقيق للشهوات من غير جهد ولا عناء، فإذا انضم إلى ذلك رضوان من الله تعالى، ذاق الإنسان طعم السعادة الحقة، وإذا ظفر الإنسان برؤية الله عز وجل في الآخرة، حاز النعيم المطلق. والحق أن الجنة حفَّت بالمكاره، والنار حُفَّت بالشهوات، وما أسعد الموفق للعمل الصالح ومتابعته ليحظى بالجنة، وما أتعس الشقي الذي يغرق في الأهواء والشهوات.

إن الجنة شيء عظيم جداً، فهل يعمل الإنسان لهذا الشيء الجليل؟ وإن الجنة فيها الـمُتَع المادية والروحانية، وتلك هي السعادة، فمن أنواع النعيم المادي: ما وصفه الله تعالى لنا في قرآنه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً، حَدائِقَ وَأَعْناباً، وَكَواعِبَ أَتْراباً، وَكَأْساً دِهاقاً، لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذّاباً، جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً﴾ [النبأ: ٣١/٧٨ - ٣٦].

وورد في الأحاديث النبوية الصحيحة أوصاف حسية رائعة للجنة، منها ما رواه مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يُنادي منادٍ: إن لكم أن تَحْيوا، فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تشِبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً)).

دلَّ الحديث على أن الناس في الجنة أصحاء لا يمرضون، أحياء لا يموتون أبداً، شباب أبداً لا هرمى، مغمورون بالنعم لا بؤساء، والبؤس: الضر والشقاء، هذا النعيم لا يتبدل ولا يتحول ولا ينقضي أبداً، على عكس نعيم الدنيا الذي يتعرض للزوال، وتصحبه الآلام والأسقام.

ومن فضل الله: **رضاه عن أهل الجنة في خطابه لهم،** للحديث (المتفق عليه) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبَّيْك ربَّنا وسعديك[1]، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربَّنا، وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحل[2] عليكم رضواني، فلا أسخط[3] عليكم بعده أبداً)).

دلَّ الحديث على مزيد تفضُّل الله على أهل الجنة بالوعد الجميل لهم.

ورؤية الله عز وجل في الآخرة من غير حصر (انحصار) ولا كيفية معينة، ولا تشبيه ولا تمثيل: ثابتة عند أهل السنة؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٧٥/٢٢ - ٢٣]. ولما رواه الشيخان: البخاري ومسلم في صحيحهما، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: ((إنكم سترون ربَّكم عِياناً؛ كما ترون هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته)) أي: إنكم أيها المؤمنون ستشاهدون ربَّكم معاينة، لا يصيبكم ضيم، أي: ضرر حال رؤيته. وهذا دليل واضح على إثبات الرؤية البصرية لا القلبية لله عز وجل في الآخرة، من غير ضيم أو ضرر.

---

(١) أي: إجابة بعد إجابة، وإسعاداً لك بعد إسعاد، أي: مساعدة ومعاونة منك بعد مساعدة، وهما مثنيان للتكثير والتعدد.

(٢) أي: أُنزل.

(٣) أي: لا أغضب.

أما في الدنيا فلم ير أحد الله عز وجل، لقول الله تعالى في حادثة تكليم موسى عليه السلام ربَّه: ﴿وَلَمّا جاءَ مُوسَى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣/٧].

ويؤكده حديث آخر رواه مسلم عن صُهيب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلْنا الجنة وتنْجنا من النار؟ فيكشِف الحجاب، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربِّهم)).

أوضح الحديث إثبات الرؤية لله عز وجل من المؤمنين في الجنة، حيث يكشف الحجاب عنهم فيرون ربَّهم تعالى. أما الكفار: فمحرومون من هذه الرؤية، لقوله سبحانه: ﴿كَلاّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥/٨٣].

ولا يجد أهل الجنة في مقابل هذه النعم الإلهية إلا شكر ربهم وحمده على أفضاله ونعمه، وجميله وعطائه، فيبادرون لحمد الله، كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ[1] تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنّاتِ النَّعِيمِ، دَعْواهُمْ[2] فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ[3] أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [يونس: ٩/١٠ - ١٠]. وهذا الحمد عرفان بالجميل، ووفاء بالمعروف، وتقرير لعبودية الإنسان لربِّه عز وجل. والحمد لله على الدوام، في الدنيا، وفي الآخرة.

(١) أي: بسبب إيمانهم.

(٢) أي: دعاؤهم.

(٣) أي: آخر دعائهم.

الفهارس العامة

- فهرس الآيـات.
- فهرس الأحاديث.
- فهرس الموضوعات.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فهذا كتاب (أخلاق المسلم - علاقته بالخالق) للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، تقدمه دار الفكر بدمشق لقرائها الكرام، وذلك لما للأخلاق من أهمية كبيرة في حياة المسلم.

وكعادة دار الفكر في خدمة ما تصدره من كتب، فإنها ألحقت بالكتاب فهارس عامة لتيسر على الباحث سبيل الرجوع إلى ما يريد مما يتعلق بمضمون الكتاب.

وقد تضمنت هذه الفهارس:

١- الآيات القرآنية، اعتمدنا في فهرستها ترتيب السور في القرآن الكريم، ومن ثم ترتيب الآيات ضمن كل سورة.

٢- الأحاديث النبوية، رتبت ترتيباً ألفبائياً حسب أطراف الحديث.

٣- الموضوعات، اعتمدنا في فهرستنا لرؤوس الموضوعات على ألفاظ وكلمات مفتاحية لتسهيل الوصول إلى الموضوع، ومن ثم رتبناها ألفبائياً على حروف المعجم.

- اتبعنا في الترتيب الألفبائي منهج دار الفكر، وهو منهج متميز على النحو التالي:

أ - الهمزة الممدودة (آ) تعتبر ألفين (أأ) في الترتيب.

- الهمزة المرسومة على السطر أو على ألف تعد ألفاً في الترتيب.

- الهمزة المرسومة على واو تعد واواً في الترتيب.

- الهمزة المرسومة على نبرةٍ أو ياء تعد ياءً في الترتيب.

- همزة الوصل كهمزة القطع تعد ألفاً في الترتيب.

ب- (الـ) التعريف تسقط من الترتيب.

وأخيراً نرجو الله أن ينفع بهذا الكتاب كل من يقرؤه والحمد لله رب العالمين.

د. محمد وهبي سليمان

مدير قسم الدراسات والبحوث

في دار الفكر بدمشق



١- فهرس الآيات



٣- فهرس الأحاديث



٣- فهرس الموضوعات

صلاة الجماعة

الصلاة على النبي

الصيام

الضحى

مؤلفات الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

✿ في الفقه الإسلامي وأصوله:

- الفقه الإسلامي وأدلته

  الموسوعة الفقهية الأكثر انتشاراً في العالم الإسلامي.
- أصول الفقه الإسلامي.
- آثار الحرب في الفقه الإسلامي.
- نظرية الضرورة الشرعية.
- نظرية الضمان، أو أحكام المسؤولية المدنية والجنائية.
- الوجيز في أصول الفقه.
- الوصايا والوقف في الفقه الإسلامي.
- العقود المسماة في قانون المعاملات المدنية الإماراتي.
- تجديد الفقه الإسلامي (مشاركة).

✿ في القرآن وعلومه:

- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج.

- التفسير الوسيط.

- التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم.

- القرآن الكريم - بنيته التشريعية وخصائصه الحضارية.

✪ في الدراسات الإسلامية:

- الاستنساخ جدل العلم والدين والأخلاق (مشاركة).

- الأسرة المسلمة في العالم المعاصر.

- حق الحرية في العالم.

• صدر حديثاً للدكتور وهبة الزحيلي:

- أخلاق المسلم

علاقته بالمجتمع


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com